ضياء النفاسين

الجزء الثالث

تأليف

سماحة آية الله السيد محسن الخرازي

باهتمام

السيد عارف رضا الجعفري

بسم الله الرحمن الرحيم



ضياء التفاسير

الجزء الثالث

تأليف:

آية الله السيّد محسن الخرازي

باهتمام:

السيد علي رضا الجعفري

حصل على درجة السطح الرابع (الدكتوراه)

في التفسير و علوم القرآن

من الحوزه العلمية بقم المقدسة

سرشناسه	: خرازی، سیدمحسن، ۱۳۱۵ -
عنوان	: ضیاء التفاسیر / تألیف السید محسن الخرازی؛ باهتمام السید علی رضا الجعفري
مشخصات نشر	: قم: قدس، ۱۴۴۱ق. = ۱۳۹۹
مشخصات ظاهری	: ۱۲ ج.
شابک	: دوره: 978-600-379-052-0؛ ج.۱: 978-600-379-041-4؛ ج.۲: 978-600-379-042-1؛ ج. ۳: 978-600-379-045-2
یادداشت	: عربی
یادداشت	: ج. ۲ (چاپ اول: ۱۳۹۸).
یادداشت	: ج. ۳ (چاپ اول: ۱۳۹۹) (فیپا).
یادداشت	: کتابنامه.
موضوع	: تفاسیر شیعه - قرن ۱۴
موضوع	: Qur'an - - Shitte hermeneutics - - 20th century
شناسه افزوده	: جعفری، سید علی رضا، ۱۳۴۵ -، مصحح
رده‌بندی کنگره	: BP ۹۸
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۵۷۵۸۴۱۱

دار القدس

ضیاء التفاسیر (المجلّد الثالث)

المؤلف: **آیة الله السید محسن الخرّازي**

باهتمام: **السید علیرضا الجعفري**

لیتوغراف: **الآفتاب** / الطبع: **کمال الملك**

القطع: **وزیری** / تعداد الصفحات: **٦٣٦ صفحة**

الطبعة: **الاولی** سنة النشر: **١٤٤١ هـ. ق - ١٣٩٩ هـ. ش**

عدد النسخ: **١٠٠٠ نسخة**

الناشر: دار القدس

قم المقدسة - شارع الشهداء - فرع الممتاز - رقم ٦٩

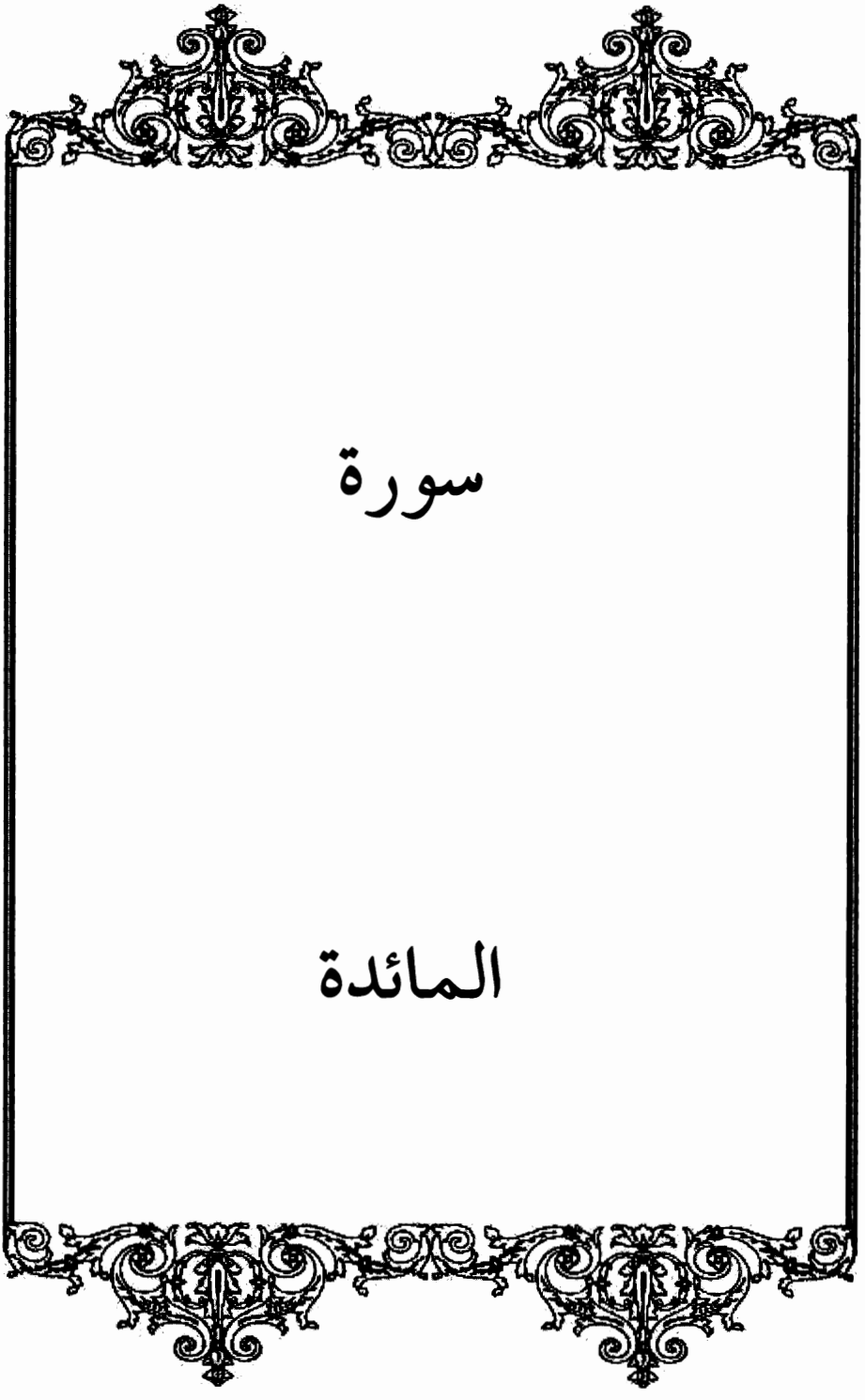
تلفون: ٠٢٥-٣٧٧٤٤٠٥٣

* * *

- کلیات الحقوق محفوظة ومخصوصة -

شابک: ٢-٠٤٥-٣٧٩-٦٠٠-٩٧٨ (جلد ٣) ISBN: 978-600-379-045-2 (VOL3)

شابک: ٠-٠٥٢-٣٧٩-٦٠٠-٩٧٨ (دورهٔ ١٢جلدی) ISBN: 978-600-379-052-0(12 VOL SET)



سورة

المائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾

قال في جوامع الجامع: وفى بعهده و أوفى بمعنى، و العقد: العهد، بمعنى المعقود، و العقود: عهود الله التي عقدها على عباده و ألزمها إيّاهم من الإيمان به و تحليل حلاله و تحريم حرامه. و قيل: هي العقود التي يتعاقدها الناس من المبايعة و المناكحة و غيرهما.

ثمّ أخذ ـ سبحانه ـ في تفصيل العقود التي أمر بالوفاء بها فقال: «أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ»، و البهيمة كلّ ذات أربع من دوابّ البرّ و البحر، و إضافتها إلى الأنعام للبيان كخاتم فضّة، و معناه البهيمة من الأنعام.

«إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ»، إلّا محرّم ما يتلى عليكم في القرآن من نحو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[1] (الآية)، أو « إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» آية تحريمه.

---

١. المائدة: ٣.

و الأنعام: الأزواج الثمانية و قيل: «بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ» هي الظباءُ و بقر الوحش و نحوهما، كأنّهم أرادوا ما يماثل الأنعام و يدانيها من جنس البهائم، فاُضيفت إلى الأنعام لملابسة الشبه، «غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ»، نصب على الحال من الضمير في «لَكُم»، أي: اُحلّت لكم هذه الأشياء لامحلّين الصيد. و قال الأخفش: انتصب عن قوله: «أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ». «وَأَنتُمْ حُرُمٌ» حال عن «مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ» كأنّه قيل: اُحلّ لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم من الصيد و أنتم محرّمون لئلّا يحرج عليكم. «إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» من الأحكام. و حُرم جمع حرام، هو المحرم، انتهى.

قال في الميزان: الغرض الجامع في السورة ... هو الدعوة إلى الوفاء بالعهود و حفظ المواثيق الحقّة كائنة ما كانت، و التحذير البالغ عن نقضها و عدم الاعتناء بأمرها. إلى أن قال:

و هذا هو المناسب لزمان نزول السورة إذ لم يختلف أهل النقل أنّها آخر سورة مفصّلة نزلت على رسول الله ﷺ في أواخر أيّام حياته و قد ورد في روايات الفريقين: أنّها ناسخة غير منسوخة، و المناسب لذلك تأكيد الوصية بحفظ المواثيق المأخوذة لله تعالى على عباده و للتثبّت فيها.

ثمّ إنّ قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ» العقود جمع عقد و هو شدّ أحد شيئين بالآخر نوع شدّ يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر، كعقد الحبل و الخيط بآخر من مثله، و لازمه التزام أحدهما الآخر، و عدم انفكاكه عنه، و قد كان معتبرا عندهم في الاُمور المحسوسة أوّلا، ثمّ استعير فعمّم للاُمور المعنوية،

كعقود المعاملات الدائرة بينهم من بيع أو إجارة أو غير ذلك، و كجميع العهود و المواثيق، فاُطلقت عليها الكلمة لثبوت أثر المعنى الذي عرفت أنّه اللزوم و الالتزام فيها.

و لمّا كان العقد ـ و هو العهد ـ يقع على جميع المواثيق الدينية التي أخذها الله من عباده من أركان و أجزاء كالتوحيد و سائر المعارف الأصلية و الأعمال العبادية و الأحكام المشروعة تأسيسا أو إمضاء، و منها عقود المعاملات و غير ذلك، و كان لفظ العقود أيضا جمعا محلّى باللام لاجرم كان الأوجه حمل العقود في الآية على ما يعمّ كلّ ما يصدق عليه أنّه عقد. و بذلك يظهر ضعف ما ذكره بعض المفسّرين أنّ المراد بالعقود العقود التي يتعاقدها الناس بينهم كعقد البيع و النكاح و العهد، أو يعقدها الإنسان على نفسه كعقد اليمين. و كذا ما ذكره بعض آخر: أن المراد بها أو العهود التي كان أهل الجاهلية عاهد بعضهم بعضا فيها على النصرة و المؤازرة على من يقصدهم بسوء أو يبغي عليهم، و هذا هو الحلف الدائر بينهم. و كذا ما ذكره آخرون: أنّ المراد بها المواثيق المأخوذة من أهل الكتاب بالعمل بما في التوراة و الإنجيل، فهذه وجوه لادليل على شيء منها من جهة اللفظ. على أنّ ظاهر الجمع المحلّى باللام و إطلاق العقد عرفا بالنسبة إلى كلّ عقد و حكم لايلائمها، فالحمل على العموم هو الأوجه، انتهى.

لايقال: إنّ العقد غير العهد، لاختصاصه بما فيه اللفظ، و المواثيق المعنوية لالفظ فيها.

لأنّا نقول: لاخصوصيّة للفظ، بل المدار على التعهّد مطلقا سواء كان هو التعهّد الفردي الذي يعاهد به الفرد الفرد، أم التعهّد الاجتماعي الدائر بين قوم و قوم و اُمّة و اُمّة.

و يشهد للتعميم ذكر حلّية البيعة بعد قوله: «أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ»، و هكذا قصّة الغدير و قصّة نقض اليهود و غير ذلك من الشواهد في آيات السورة. و عن أبي جعفر الثاني عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقد عليهم لعليّ عليه السلام بالخلافة في عشرة مواطن، ثمّ أنزل الله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ» التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين عليه السلام.

ثمّ إنّ الإحلال هو الإباحة و يدلّ قوله تعالى: «أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ» الآية، على حلّيتها و الاستثناء فيها إجمالا عدا الصيد في حال الإحرام، فإنّه سبحانه و تعالى صرّح به لأهمّيّة حرمة الصيد في حال الإحرام و البهيمة فعيلة مشترك مع الإبهام و هي كما في كنز الدقائق بمعنى الاشتباه في المادّة و هو كلّ حيّ لا يميز.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾

قال في جوامع الجامع: الشعائر: أعلام الحجّ و أعماله، جمع شعيرة، و هي ما جعل شعارا و عَلَماً للنسك من المواقف و الطواف و السعي و غيرها و «ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ» شهر الحجّ و «ٱلْهَدْىَ» ما أُهدي إلى البيت و تقرّب به إلى الله من النسائك، و هو جمع هدية كجدي في جمع جَدية السرج، و «ٱلْقَلَـٰٓئِدَ» جمع قلادة و هي ما يقلّد به الهدي من نعل أو غيره، و الآمّون: القاصدون، و آمّو البيت الحرام هم الحجّاج و العمّار، و إحلال هذه الأشياء أن يتهاون بحرمتها و تُضيّع، و أن يحال بينها و بين المتنسّكين، و أن يحدث في شهر الحجّ ما يصدّ الناس عن الحجّ، و أن يتعرّض للهدي بالغصب أو بالمنع من بلوغ محلّه.

و في إحلال القلائد وجهان: أحدهما: أن يراد ذوات القلائد من البدن و البقر، و إنّما عطف بها على الهدي للاختصاص و زيادة التوصية بها كأنّه قيل: «و القلائد منها خصوصا»، و الثاني أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدي: مبالغة في النهي عن التعرّض للهدي، كأنّه قيل: و لاتحلّوا قلائدها فضلا عن أن تحلّوها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[1] نهي عن إبداء الزينة فضلا عن إبداء مواقعها، «وَلَآ ءَآمِّينَ» أي: و لاتحلّوا قوما قاصدين المسجد الحرام، «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ» و هو الثواب، «وَرِضْوَٰنًا» و أن يرضى عنهم، أي: لاتتعرّضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم.

«وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ»، هو إباحة للاصطياد بعد الحظر، كأنّه قيل: و إذا حللتم فلاجناح عليكم أن تصطادوا. و جَرَم مثل كسَبَ في تعديه إلى مفعول واحد و اثنين،تقول: جَرَمَ ذنبا و جرمته ذنبا و: كسب شيئا و كسبته إيّاه، و أوّل

---

١. النور: ٣١.

المفعولين في الآية ضمير المخاطبين، و الثاني «أَن تَعْتَدُواْ» و «أَن صَدُّوكُم» بفتح الهمزة متعلّق بالشنئان، هو شدّة البغض، و قرئ بسكون النون أيضا، و المعنى: و لايكسبنّكم بغض قوم الاعتداء و لايحملنّكم عليه لأن صدّوكم عن المسجد الحرام، و هو منع أهل مكة رسول الله ﷺ و المؤمنين يوم الحديبية عن العمرة. و معنى الاعتداء الانتقام منهم بإلحاق المكروه بهم.

«وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ» أي: على العفو و الإغضاء.

«وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ» على الانتقام و التشفّي، و الأولى أن يكون محمولا على العموم فيتناول كلّ برّ و تقوى و كلّ إثم و ظلم، انتهى.

قال في الميزان: قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ» (الآية)، خطاب مجدّد للمؤمنين، يفيد شدّة العناية بحرمات الله تعالى. و الإحلال هو الإباحة الملازمة لعدم المبالاة بالحرمة و المنزلة، و يتعيّن معناه بحسب ما اُضيف إليه: فإحلال شعائر الله عدم احترامها و تركها، و إحلال الشهر الحرام عدم حفظ حرمته و القتال فيه، و هكذا. و الشعائر جمع شعيرة و هي العلامة، و كان المراد بها أعلام الحجّ و مناسكه. و الشهر الحرام ما حرّمه الله من شهور السنة القمرية و هي: المحرّم و رجب و ذو القعدة و ذو الحجّة. و الهدي ما يساق للحجّ من الغنم و البقر و الإبل. و القلائد جمع قلادة، و هي ما يقلّد به الهدي في عنقه من نعل و نحوه ليعلم أنّه هدي للحجّ فلايتعرّض له. و الآمّين جمع آمّ، اسم فاعل من أمّ إذا قصد، و المراد به القاصدون لزيارة البيت الحرام. إلى أن قال: و محصّل معنى الآية: ولايحملنّكم عداوة قوم و هو أن منعوكم عن المسجد الحرام، أن تعتدوا عليهم بعد ما أظهركم الله عليهم.

قوله تعالى: «وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ»، المعنى واضح، و هذا أساس السنّة الإسلامية، و قد فسّر الله سبحانه البرّ في كلامه بالإيمان و الإحسان في العبادات و المعاملات، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية[1] و قد تقدم الكلام فيه. و التقوى مراقبة أمر الله و نهيه، فيعود معنى التعاون على البرّ و التقوى إلى الاجتماع على الإيمان و العمل الصالح على أساس تقوى الله، و هو الصلاح و التقوى الاجتماعيان، و يقابله التعاون على الإثم الذي هو العمل السيّىء المستتبع للتأخّر في اُمور الحياة السعيدة، و على العدوان و هو التعدّي على حقوق الناس الحقّة بسلب الأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم. إلى أن قال: ثمّ أكد سبحانه نهيه عن الاجتماع على الإثم و العدوان بقوله: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ»، و هو في الحقيقة تأكيد على تأكيد، انتهى.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

---

١. البقرة: ١٧٧.

و في جوامع الجامع: كانوا يأكلون هذه المحرّمات: البهيمة التي تموت حتف أنفها و الدم يجعلونه في المباعر[١] و يَشوونه و يقولون: «لم يحرم من فُزدَ له أي: فصد له».

«وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ» أي: رفع الصوت به لغير الله و هو قولهم: «باسم اللات و العزّى» عند ذبحه، «وَٱلْمُنْخَنِقَةُ» التي خنقت حتّى ماتت أو انخنقت هي بسبب، «وَٱلْمَوْقُوذَةُ» التي ضربت حتّى ماتت، «وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ» التي تردّت من جبل أو في بئر فماتت، «وَٱلنَّطِيحَةُ» التي نطحتها اُخرى فماتت بالنطح، «وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ» بعضه «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» أي: أدركتم ذكاته و هو يضطرب اضطراب المذبوح أو تَشخَبُ أوداجه، عن الصادق عليه السلام: أدنى ما يدرك به الذكاة أن تدركه يتحرّك اُذنه أو ذنبه أو تطرف عينه.

«وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ» كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يعبدونها و هي الأوثان و يذبحون لها و ينضحون الدم على ما أقبل منها إلى البيت و يشرحون اللحم عليها يعظّمونها بذلك، إلى أن قال: «وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ»، أي: و حرّم عليكم الاستقسام بالقداح و هي سهام كانت لهم، مكتوب على بعضها أمرني ربّي و على بعضها نهاني ربّي، و بعضها غُفل. فمعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما يقسم له ممّا لم يقسم له بالأزلام، (هذا مضافا إلى أنّ تشخيص نفس السهام كما في الميزان)، و قيل: هو الميسر و قسمتهم الجزور على القداح العشرة، فالفذّ له سهم، و التوأم له سهمان، و المسبل له ثلاثة أسهم، و النافس له

---

١. في حاشية الكشاف: المباعر أي: مواضع البعر و هي الأمعاء.

أربعة أسهم، و الحِلس له خمسة أسهم، و الرقيب ستّة أسهم، و المعلى له سبعة أسهم، و السفيح و المنيح و الوغد لاأنصباء لها، و كانوا يدفعون القداح إلى رجل يجيلها، و كان ثمن الجزور على من يخرج لهم هذه الثلاثة التي لاأنصباء لها، و هو القمار الذي حرّمه الله عزّوجلّ، و قيل: هو الشطرنج و النرد. «ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ» الإشارة إلى الاستقسام أو إلى تناول ماحرّم عليهم، انتهى.

قال في الميزان: فالمراد بالاستقسام بالأزلام المنهيّ عنه على ظاهر السياق هو ضرب القداح على الجزور و نحوه للذهاب بما في لحمه من النصيب.

و أمّا ما ذكره بعضهم أنّ المراد بالاستقسام بالأزلام الضرب بالقداح لاستعلام الخير و الشرّ في الأفعال، و تمييز النافع منها من الضارّ، كمن يريد سفرا أو ازدواجا أو شروعا في عمل أو غير ذلك، فيضرب بالقداح لتشخيص ما فيه الخير منها ممّا لاخير فيه، إلى أن قال: ففيه: أنّ سياق الآية يأبى عن حمل اللفظ على الاستقسام بهذا المعنى، و ذلك أنّ الآية و هي مقام عدّ محرّمات الأطعمة، و قد أُشير إليها قبلا في قوله: «إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» تعدّ من محرّماتها عشرا، و هي الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به و المنخنقة و الموقوذة و المتردية و النطيحة و ما أكل السبع و ما ذبح على النصب، ثمّ تذكر الاستقسام بالأزلام الذي من معناه قسمة اللحم بالمقامرة، و من معناه استعلام الخير و الشرّ في الأُمور، فكيف يشك بعد ذلك السياق الواضح و القرائن المتوالية في تعين حمل اللفظ على استقسام اللحم قمارا. و هل يرتاب عارف بالكلام في ذلك، انتهى.

هذا، مضافا إلى أنّ التقسيم بالأزلام راجع إلى التملّك بلاسبب مشروع و مقبول عند العقلاء، لالاستعلام الخير و الشرّ بالنسبة إلى الأفعال، و أيضا قد ورد بعض الروايات بالنسبة إلى الاستخارة و الاستعلام المذكور دون التقسيم بالأزلام.

«اَلْيَوْمَ يَئِسَ اَلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاَخْشَوْنِ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ اَلْإِسْلَـٰمَ دِينًا».

قال في الميزان: فإنّك إذا تأمّلت صدر الآية أعني قوله تعالى: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَةُ وَاَلدَّمُ» إلى قوله: «ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ» و أضفت إليه ذيلها أعني قوله: «فَمَنِ اُضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» وجدته كلاما تامّا غير متوقّف في تمام معناه و إفادة المراد منه إلى شيء من قوله: «اَلْيَوْمَ يَئِسَ اَلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ»، إلخ، أصلا، و ألفيته آية كاملة مماثلة لما تقدّم عليها في النزول من الآيات الواقعة في سورة الأنعام و النحل و البقرة المبيّنة لمحرّمات الطعام، ففي سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَةَ وَاَلدَّمَ وَلَحْمَ اَلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ اَللَّهِ فَمَنِ اُضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. و يماثله ما في سورتي الأنعام و النحل.

و ينتج ذلك أنّ قوله: «اَلْيَوْمَ يَئِسَ اَلَّذِينَ كَفَرُواْ» إلخ، كلام معترض موضوع في وسط هذه الآية غير متوقّف عليه لفظ الآية في دلالتها و بيانها، سواء قلنا: إنّ الآية نازلة في وسط الآية فتخلّلت بينها من أوّل ما نزلت، أو قلنا: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

١. البقرة: ١٧٣.

هو الذي أمر كتّاب الوحي بوضع الآية في هذا الموضع مع انفصال الآيتين و اختلافهما نزولا، أو قلنا: إنّها موضوعة في موضعها الذي هي فيه عند التأليف من غير أن تصاحبها نزولا، فإنّ شيئا من هذه الاحتمالات لايؤثّر أثرا فيما ذكرناه من كون هذا الكلام المتخلّل معترضا إذا قيس إلى صدر الآية و ذيلها.

إلى أن قال: ثمّ إنّ هاتين الجملتين، أعني قوله: «اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ»، و قوله: «اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» متقاربتان مضمونا، مرتبطتان مفهوما بلاريب، لظهور ما بين يأس الكفّار من دين المسلمين، و بين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب، و قبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركبا مضمونا واحدا مرتبط الأجزاء، متّصل الأطراف بعضها ببعض، مضافا إلى ما بين الجملتين من الاتّحاد في السياق. ... و ينتج ذلك أنّ هذه الآية المعترضة أعني قوله: «اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ» إلى قوله: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» كلام واحد.

إلى أن قال: ثمّ ما المراد بهذا اليوم الواقع في قوله تعالى: «اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ» فهل المراد به زمان ظهور الإسلام ببعثة النبي ﷺ و دعوته فيكون المراد أنّ الله أنزل إليكم الإسلام، و أكمل لكم الدين، و أتمّ عليكم النعمة، و أيأس منكم الكفّار؟ لاسبيل إلى ذلك، لأنّ ظاهر السياق أنّه كان لهم دين كان الكفّار يطمعون في إبطاله أو تغييره، و كان المسلمون يخشونهم على دينهم، فأيأس الله الكافرين ممّا طمعوا فيه و آمن

المسلمين، و أنّه كان ناقصا فأكمله الله و أتمّ نعمته عليهم، و لم يكن لهم قبل الإسلام دين حتّى يطمع فيه الكفّار، أو يكمله الله و يتمّ نعمته عليهم.

على أنّ لازم ما ذكر من المعنى أن يتقدّم قوله: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» (الآية)، على قوله: «ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» (الآية)، حتّى يستقيم الكلام في نظمه.

أو أنّ المراد باليوم هو ما بعد فتح مكة حيث أبطل الله فيه كيد مشركي قريش و أذهب شوكتهم، و هدم فيه بنيان دينهم، و كسر أصنامهم فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق، و يضادّوا الإسلام و يمانعوا نفوذ أمره و انتشار صيته.

لاسبيل إلى ذلك أيضا، فإنّ الآية تدلّ على إكمال الدين و إتمام النعمة و لمّا يكمل الدين بفتح مكة و كان في السنة الثامنة من الهجرة، فكم من فريضة نزلت بعد ذلك، و كم من حلال أو حرام شرع فيما بينه و بين رحلة النبي ﷺ على أنّ قوله: «ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» يعمّ جميع مشركي العرب و لم يكونوا جميعا آيسين من دين المسلمين. إلى أن قال: أو أنّ المراد باليوم ما بعد نزول البراءة من الزمان حيث انبسط الإسلام على جزيرة العرب تقريبا، و عفت آثار الشرك، و ماتت سنن الجاهلية إلى أن قال: لاسبيل إلى ذلك، فإنّ مشركي العرب و إن أيسوا من دين المسلمين بعد نزول آيات البراءة وطيّ بساط الشرك من الجزيرة و إعفاء رسوم الجاهلية إلّا أنّ الدين لم يكمل بعد و قد نزلت فرائض و أحكام بعد ذلك، و منها ما في هذه السورة: (سورة المائدة)، و قد اتّفقوا على نزولها في آخر عهد النبي ﷺ ، وفيها شيء كثير من أحكام الحلال و الحرام و الحدود و القصاص.

فتحصّل أنّه لاسبيل إلى احتمال أن يكون المراد باليوم في الآية معناه الوسيع ممّا يناسب مفاد الآية بحسب بادئ النظر، كزمان ظهور الدعوة الإسلامية أو ما بعد فتح مكة من الزمان، أو ما بعد نزول آيات البراءة فلاسبيل إلّا أن يقال: إنّ المراد باليوم يوم نزول الآية نفسها، و هو يوم نزول السورة إن كان قوله: «ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» الآية، معترضا مرتبطا بحسب المعنى بالآية المحيطة بها، أو بعد نزول سورة المائدة في أواخر عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك لمكان قوله تعالى: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» (الآية)، فهل المراد باليوم يوم فتح مكة بعينه؟ أو يوم نزول البراءة بعينه؟ يكفي في فساده ما تقدّم من الإشكالات الواردة على الاحتمال الثاني و الثالث المتقدّمين.

أو أنّ المراد باليوم هو يوم عرفة من حجّة الوداع كما ذكره كثير من المفسّرين، و به ورد بعض الروايات، فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذ من دين المسلمين؟ فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركي قريش من الظهور على دين المسلمين فقد كان ذلك يوم الفتح عام ثمانية لايوم عرفة من السنة العاشرة، و إن كان المراد به يأس مشركي العرب من ذلك، فقد كان ذلك عند نزول البراءة و هو في السنة التاسعة من الهجرة، و إن كان المراد به يأس جميع الكفّار الشامل لليهود و النصارى و المجوس و غيرهم، و ذلك الذي يقتضيه إطلاق قوله: «ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ»، فهؤلاء لم يكونوا آيسين من الظهور على المسلمين بعد، و لمّا يظهر للإسلام قوّة و شوكة و غلبة في خارج جزيرة العرب اليوم.

و من جهة اُخرى يجب أن نتأمّل فيما لهذا اليوم و هو يوم عرفة تاسع ذي الحجّة سنة عشر من الهجرة، من الشأن الذي يناسب قوله: «اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» في الآية.

فربّما أمكن أن يقال: إنّ المراد به إكمال أمر الحجّ بحضور النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه فيه، و تعليمه الناس تعليما عمليا مشفوعا بالقول.

لكن فيه: أنّ مجرّد تعليمه الناس مناسك حجّهم و قد أمرهم بحجّ التمتّع و لم يلبث دون أن صار مهجورا، و قد تقدّمه تشريع أركان الدين من صلاة و صوم و حجّ و زكاة وجهاد و غير ذلك، لايصحّ أن يسمّى إكمالا للدين، و كيف يصحّ أن يسمّى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالا لذلك الواجب فضلا عن أن يسمّى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين.

على أنّ هذا الاحتمال يوجب انقطاع رابطة الفقرة الاُولى أعني قوله: «اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ» بهذه الفقرة أعني قوله: «اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ». و أيّ ربط ليأس الكفّار عن الدين بتعليم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجّ التمتّع للناس.

و ربّما أمكن أن يقال: إنّ المراد به إكمال الدين بنزول بقايا الحلال و الحرام في هذا اليوم في سورة المائدة، فلاحلال بعده و لاحرام، و بإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفّار، و لاحت آثاره على وجوههم.

لكن يجب أن نتبصّر في تمييز هؤلاء الكفّار الذين عبّر عنهم في الآية بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُواْ» على هذا التقدير و أنّهم من هم؟ فإن اُريد بهم كفّار العرب فقد

كان الإسلام عمّهم يومئذ و لم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام و هو الإسلام حقيقة، فمن هم الكفّار الآيسون؟

و إن اُريد بهم الكفّار من غيرهم كسائر العرب من الاُمم و الأجيال، فقد عرفت آنفا أنّهم لم يكونوا آيسين يومئذ من الظهور على المسلمين.

ثم نتبصّر في أمر انسداد باب التشريع بنزول سورة المائدة و انقضاء يوم عرفة، فقد وردت روايات كثيرة لايستهان بها عدداً بنزول أحكام و فرائض بعد اليوم كما في آية الصيف «آية الكلالة المذكورة في آخر سورة النساء» و آيات الربا، حتّى أنّه روي عن عمر أنّه قال في خطبة خطبها: من آخر القرآن نزولا آية الربا، و إنّه مات رسول الله و لم يبيّنه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لايريبكم، الحديث.

و روى البخاري في الصحيح، عن ابن عبّاس قال: آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية الربا، إلى غير ذلك من الروايات. إلى أن قال:

أو يقال: إنّ المراد بإكمال الدين خلوص البيت الحرام لهم، و إجلاء المشركين عنه حتّى حجّه المسلمون و هم لايخالطهم المشركون.

و فيه: أنّه قد كان صفا الأمر للمسلمين فيما ذكر قبل ذلك بسنة، فما معنى تقييده باليوم في قوله: «اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» ؟ على أنّه لو سلّم كون هذا الخلوص إتماما للنعمة لم يسلم كونه إكمالاً للدين، و أيّ معنى لتسمية خلوص البيت إكمالا للدين، و ليس الدين إلّا مجموعة من عقائد و أحكام، و ليس إكماله إلّا أن يضاف إلى عدد أجزائها و أبعاضها عدد؟ و أمّا صفاء الجوّ لإجرائها، و ارتفاع الموانع و المزاحمات عن العمل بها فليس يسمّى إكمالا للدين البتة. على أنّ إشكال يأس الكفّار عن الدين على حاله. إلى أن قال: و من جميع ما

تقدّم يظهر أنّ تمام يأس الكفّار إنّما كان يتحقّق عند الاعتبار الصحيح، بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حفظه و تدبير أمره، و إرشاد الأُمّة القائمة به، فيتعقّب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين، لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي إلى مرحلة القيام بالحامل النوعي، و يكون ذلك إكمالا للدين بتحويله من صفة الحدوث إلى صفة البقاء، و إتماما لهذه النعمة، و ليس يبعد أن يكون قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] باشتماله له على قوله «حَتَّىٰ يَأْتِيَ» إشارة إلى هذا المعنى.

و هذا يؤيّد ما ورد من الروايات أنّ الآية نزلت يوم غدير خم، و هو اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة سنة عشر من الهجرة في أمر ولاية عليّ عليه السلام، و على هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط، و لايرد عليه شيء من الإشكالات المتقدّمة. ثمّ إنّك بعد ما عرفت معنى اليأس في الآية تعرف أنّ اليوم: في قوله: «ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ» ظرف متعلّق بقوله: «يَئِسَ» وأنّ التقديم للدلالة على تفخيم أمر اليوم، و تعظيم شأنه، لما فيه من خروج الدين من مرحلة القيام بالقيّم الشخصي إلى مرحلة القيام بالقيّم النوعي، و من صفة الظهور و الحدوث إلى صفة البقاء و الدوام. إلى أن قال: فالآية أعني قوله: «ٱلْيَوْمَ يَئِسَ» (الآية)، تؤذن بأنّ دين المسلمين في أمن من جهة الكفّار، مصون من الخطر المتوجّه من قبلهم، و أنّه لايتسرّب إليه شيء من طوارق الفساد و الهلاك إلّا من

---

١. البقرة: ١٠٩.

قبل المسلمين أنفسهم، و إنّ ذلك إنّما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامّة، و رفضهم هذا الدين الكامل المرضي، و يومئذ يسلبهم الله نعمته و يغيّرها إلى النقمة، و يذيقهم لباس الجوع و الخوف، و قد فعلوا و فعل. إلى أن قال: فمحصّل معنى الآية: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ»، مجموع المعارف الدينية التي أنزلتها إليكم بفرض الولاية، «وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» و هي الولاية التي هي إدارة اُمور الدين و تدبيرها تدبيرا إلهيا، فإنّها كانت إلى اليوم ولاية الله و رسوله، و هي إنّما تكفي مادام الوحي ينزّل، و لاتكفي لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي، و لارسول بين الناس يحمي دين الله و يذبّ عنه، بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك، و هو وليّ الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله القيّم على اُمور الدين و الاُمّة، انتهى.

قال في جوامع الجامع أيضا: إنّ آية «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» إنّما نزّلت كما عن الباقر و الصادق عليهما السلام بعد أن نصب النبي صلى الله عليه وآله عليّا عليه السلام علما للأنام يوم غدير خم «عند» منصرفه عن حجّة الوداع، و هو آخر فريضة أنزلها الله تعالى ثمّ لم ينزل بعدها فريضة، «وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا»، أي: اخترته لك من بين الأديان و آذنتكم بأنّه الدين المرضيّ عندي، و اتّصل قوله : «فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ»، بذكر المحرّمات.

و قوله: «ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ» و ما بعده اعتراض أكد به معنى التحريم، لأنّ تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل و الإسلام المرضي، و المعنى فمن اضطرّ إلى الميتة أو غيرها في مجاعة «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ» أي: غير منحرف نحو قوله: «غير باغ و لاعاد»، «فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، لايؤاخذه بذلك، انتهى.

ثمّ إنّ الظاهر المذكور في الآية الكريمة معتضد بالروايات الكثيرة، منها: ما رواه في كنز الدقائق، عن اُصول الكافي: عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن اُذينة، عن زرارة و الفضيل بن يسار و بكير بن أعين و محمّد بن مسلم و يزيد بن معاوية، قالوا جميعا: قال أبوجعفر عليه السلام: و كانت الفريضة تنزل بعد الفريضة الاُخرى، و كانت الولاية آخر الفرائض، فأنزل الله عزّوجلّ: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» قال أبوجعفر عليه السلام: يقول الله عزّوجلّ: لااُنزل عليكم بعد هذه الفريضة قد أكملت لكم الفرائض.

ومنها: ما رواه في شرح الآيات الباهرة عن أبي نعيم، (عن رجاله)، عن أبي سعيد الخدري، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا الناس إلى عليّ يوم غدير خم، و أمر بقلع ما تحت الشجرة من الشوك، و قام فدعا عليّا عليه السلام فأخذ بضبعيه حتّى نظر الناس إلى إبطيه و قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهمّ وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره و اخذل من خذله، ثمّ لم يفترقا حتّى أنزل الله عزّوجلّ: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا»، فقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: الله اكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة و رضا الربّ برسالتي و بولاية علي من بعدي.

ومنها: ما رواه في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى إسحاق بن إسماعيل النيسابوري أنّ العالم كتب إليه يعني الحسن بن علي عليهما السلام أنّ الله عزّوجلّ بمنّه و رحمته لمّا فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليه، بل رحمة منه إليكم، لا إله إلّا هو، ليميز الخبيث من الطيّب، و ليبتلي ما في صدوركم، و ليمحّص ما في قلوبكم، و لتتسابقوا إلى رحمته، و لتتفاضل

منازلكم في جنّته، ففرض عليكم الحجّ و العمرة و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و الصوم و الولاية، و جعل لكم بابا لتفتحوا به أبواب الفرائض، و مفتاحا إلى سبيله، و لولا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و الأوصياء من ولده كنتم حيارى كالبهائم لاتعرفون فرضا من الفرائض، و هل تدخل قرية إلّا من بابها؟ فلمّا منّ الله عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم ،قال الله عزّوجلّ: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا»، الحديث.

ومنها: ما رواه في أمالي الصدوق(رحمه‌الله) بإسناده إلى الصادق جعفر بن محمّد عليهما السلام عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يوم غدير خم أفضل أعياد اُمّتي، و هو اليوم الذي أمرني الله تعالى ذكره فيه بنصب أخي عليّ بن أبيطالب عليه السلام علماً لاُمّتي يهتدون به من بعدي، و هو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين، و أتمّ على اُمّتي فيه النعمة، و رضي لهم الإسلام دينا، الحديث، انتهى.

(فتحصّل: أنّ آية اليأس و الإكمال المرتبطين المتعقّبتين تخبران عن وقوع أمرمهم و هو الذي قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [1] و هذا الأمر المهمّ هو إبلاغ نصب عليّ عليه السلام بمقام الولاية و الخلافة، و الخلافة و الولاية من إكمال الدين الذي وجوده يوجب يأس الكفّار. الحمدلله الذي جعلنا من أهل الولاية.

---

١. المائدة: ٦٧.

فانقدح ممّا مرّ أنّ آخر ما نزل من الأحكام هو آية الولاية، و عليه، فالمراد من أنّ سورة المائدة آخر ما نزل من الله تعالى، هو أنّ السورة في الجملة آخر ما نزل، لما عرفت أنّ آخر ما نزل هو آية الولاية و أمّا بقية الأحكام المذكورة في السورة نزلت قبل نزول آية الولاية).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤﴾

قال في تفسير الكاشف: الجوارح جمع جارح، (أخذ من) جرح بمعنى كسب، و منه قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1]، انتهى.

قال في جوامع الجامع: «مَاذَا» مبتدأ و «أُحِلَّ لَهُمْ» خبره، أي: أيُّ شيء أُحلّ لهم من المطاعم؟ إلى أن قال:

قُل «أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ»، و هو كلّ ما لم يأت تحريمه في الكتاب و السنّة، «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ» عطف على «ٱلطَّيِّبَٰتُ»، أي: و صيد ما علمتم فحذف المضاف، أو يجعل ما شرطية و جوابها «فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ». و الجوارح هي الكواسب من الكلاب عند أئمّة الهدى عليهم السلام قال: لا تأكل إلّا ما ذكيت إلّا الكلاب المعلّمة، و كلّ شيء من السباع يمسك الصيد على نفسها إلّا الكلاب

---

١. الأنعام: ٦٠.

المعلّمة، فإنّها تمسك على صاحبها. و قال: إذا أرسلت الكلب المعلّم فاذكر اسم الله عليه فهو ذكاته و هو أن يقول: بسم الله و الله أكبر. «مُكَلِّبِينَ» حال مِن «عَلَّمْتُم». و المكلّب: مؤدّب الكلاب و مضريها بالصيد لصاحبها، «وَتُعَلِّمُونَهُنَّ» حال ثانية أو استئناف، «مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ» من علم التكليب، لأنّه إلهام من الله و مكتسب بالعقل.

إلى أن قال: «وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» عند الإرسال، أو إذا أدركتم ذكاته، «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ»، فلاتقربوا ما نهاكم عنه.

قال في تفسير الشبّر: «مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ» كواسب الصيد على أهلها من الكلاب بقرينة «مُكَلِّبِينَ»، أي: حال كونهم صاحبي كلاب، أو مؤدّبين لها دون سائر الجوارح، فعنهم عليهم السلام : هي الكلاب و ما عداها فلاتأكل من صيده إلّا ما أدركت ذكاته، انتهى.

قال في الميزان: و محصّل المعنى أنّ الجوارح المعلّمة بالتكليب (أي: كلاب الصيد) إذا كانت معلّمة و اصطادت لكم شيئا من الوحش الذي يحلّ أكله بالتذكية و قد سمّيتم عليه، فكلوا منه إذا قتلته دون أن تصلوا إليه، فذلك تذكية له، و أمّا دون القتل فالتذكية بالذبح و الإهلال به لله يغني عن هذا الحكم.

ثمّ ذيل الكلام بقوله: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ» إشعارا بلزوم اتّقاء الله فيه حتّى لايكون الاصطياد إسرافاً في القتل، و لا عن تله و تجبر، كما في صيد اللهو و نحوه، فإنّ الله سريع الحساب، يجازي سيّئة الظلم و العدوان في الدنيا قبل الآخرة، و لايسلك أمثال هذه المظالم و العدوانات بالاغتيال و الفك بالحيوان العجم إلّا إلى عاقبة سوآى على ما شاهدنا كثيراً، انتهى.

قال في كنزل الدقائق: «قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ» ما لم تستخبثه الطبائع السليمة و لم تتنفّر عنه، و فيه دلالة على حرمة مستخبثات الطبائع السليمة بالمفهوم، و دلالة صريحة على أنّ ما لم ينصّ الشرع على حرمته و لم يستخبثه الطبائع حلال و لايحتاج في تناوله إلى نصّ عليه بخصوصه، و المحتاج إلى النصّ إنّما هو المحرّم، إلى أن قال: و بهذا المعنى أخبار كثيرة. و الأخبار التي وردت بخلاف ذلك محمولة على التقيّة، يدلّ على ذلك ما رواه في الكافي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان أبي عليه السلام يفتي و كان يتّقى و نحن نخاف في صيد البزاة و الصقور، فأمّا الآن فإنّا لانخاف و لانحلّ صيدها إلّا أن تدرك ذكاتها، فإنّه في كتاب عليّ عليه السلام أنّ الله عزّوجلّ قال: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ»، هي الكلاب، انتهى.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَ طَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَ ٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَ ٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَ لَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ وَ مَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَ هُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

قال في جوامع الجامع: «ٱلطَّيِّبَٰتُ» تقع على كلّ مستطاب من الأطعمة إلّا ما دلّ الدليل على تحريمه، «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ»، قيل: هو

ذبائحهم، و قال الصادق عليه السلام: هو مختصّ بالحبوب و مالايحتاج فيه إلى التذكية. «وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ» فلاجناح عليكم أن تطعموهم.

«وَٱلْمُحْصَنَٰتُ» الحرائر و العفائف، و إنّما خصّهنّ بعثا للمؤمنين على أن يتخيّروا لنطفهم، و إلّا فغير العفائف يصحّ نكاحهنّ، و كذلك الإماء المسلمات.

«وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ»، قال أصحابنا: هنّ اللواتي أسلمن منهنّ، و ذلك أنّ قوما كانوا يتحرّجون من العقد على من أسلمت عن كفر، فلذلك أفردن بالذكر و احتجّوا بقوله: سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[1]، و قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[2]، «مُحْصِنِينَ» أعفاء، «غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ» غير زانين، «وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ»، صدائق، و الخدن يقع على الذكر و الأُنثى، «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ» و لم يؤمن من أهل الكتاب «فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ» في هذا دلالة على أنّ حبوط العمل لايترتّب على ثبوت الثواب، فإنّ الكافر ليس له عمل عليه ثواب.

ثمّ لايخفى عليك أنّ الروايات في حلية نكاح أهل الكتاب مختلفة، و بتبع ذلك اختلف الفقهاء في ذلك، ذهب بعض إلى عدم الجواز مطلقا، و إلى الجواز مطلقا، و إلى التفصيل بين النكاح الدائم و عدم الجواز، و بين نكاح المتعة فيجوز.

---

١. الممتحنة: ١٠.

٢. البقرة: ٢٢١.

قال في كنز الدقائق: و الجمع بين تلك الأخبار الدالّ بعضها على نسخ نكاح أهل الكتاب، و الدّال بعضها على عدم ابتغاء نكاحها، و الدّال بعضها على الجواز إذا كان له فيها هوى، حمل النسخ على نسخ الإباحة و بقاء الجواز بالمعنى الأعمّ. فيجتمع مع عدم الابتغاء و الجواز مع الهوى، و ينبغي حمل الجواز على جواز النكاح بالمتعة دون القصد الدائم كما يدلّ عليه الخبر الأخير بالفحوى، لأنّ منع الخمر من الكافرة لايكون دائما. و هذا طريق آخر للجمع فالمنسوخ عقدهنّ دواما و الجائز نكاحهنّ متعة، انتهى.

لقد أفاد و أجاد، و التحقيق موكول إلى الفقه و لايبعد الجواز مطلقا و لو مع الكراهة في الدوام جمعا بين الأخبار.

ثمّ إنّ قوله تعالى: «إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» محمول على الأفضليّة، و إلّا لايجب أداء المهور قبل المباشرة إن لم تطلب الزوجة ذلك.

قال في الميزان في ذيل قوله عزّوجلّ: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ» الآية: الكفر في الأصل هو الستر، فتحقّق مفهومه يتوقّف على أمر ثابت يقع عليه الستر، كما أنّ الحجاب لايكون حجابا إلّا إذا كان هناك محجوب فالكفر يستدعي مكفورا به ثابتا، كالكفر بنعمة الله و الكفر بآيات الله، و الكفر بالله و رسوله و اليوم الآخر. فالكفر بالإيمان يقتضي وجود إيمان ثابت، و ليس المراد به المعنى المصدري من الإيمان، بل معنى اسم المصدر، و هو الأثر الحاصل، و الصفة الثابتة في قلب المؤمن، أعني: الاعتقادات الحقّة التي هي منشأ الأعمال الصالحة، فيؤول معنى الكفر بالإيمان إلى ترك العمل بما يعلم أنه حقّ كتولّي

المشركين، و الاختلاط بهم، و الشركة في أعمالهم مع العلم بحقّيّة الإسلام، و ترك الأركان الدينية من الصلاة و الزكاة و الصوم و الحجّ، مع العلم بثبوتها أركاناً للدين.

فهذا هو المراد من الكفر بالإيمان لكن هاهنا نكتة و هي أنّ الكفر لمّا كان سترا، و ستر الأُمور الثابتة لايصدق بحسب ما يسبق إلى الذهن إلّا مع المداومة و المزاولة، فالكفر بالإيمان إنّما يصدق إذا ترك الإنسان العمل بمايقضيه إيمانه، و يتعلّق به علمه، و دام عليه، و أمّا إذا ستر مرّة أو مرّتين من غير أن يدوم عليه فلايصدق عليه الكفر و إنّما هو فسق أتى به، إلى أن قال: فحذّر الله المؤمنين بعد بيان حلية طعامهم و المحصنات من نسائهم أن لايسترسلوا في التنعّم بهذه النعمة استرسالا يؤدّي إلى الكفر بالإيمان، و ترك أركان الدين، و الإعراض عن الحقّ، فإنّ ذلك يوجب حبط العمل، و ينجرّ إلى خسران السعي في الآخرة، انتهى.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قال في جوامع الجامع: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ» مثل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[1] في أنّ المراد إذا أردتم القيام إلى الصلاة، فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل، لأنّ الفعل يوجد بالقصد و الإرادة و لأنّ من قام إلى الشيء كان قاصدا له لامحالة، فعبّر عن القصد له بالقيام إليه. «فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ»، و حدّ الوجه من قصاص شعر الرأس إلى محادر (المحاذر و المحادر أوّل انحدار الشعر عن الذقن و هو طرفه. مجمع البحرين مادة حدد) شعر الذقن طولا و ما دخل بين الوسطى و الإبهام عرضا.

«وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ»، و المرافق: ما يرتفق به من اليد، أي: يتّكأ عليه. لادليل في الآية على دخول المرافق في الغسل إلّا أنّ أكثر الفقهاء ذهبوا إلى وجوب غسل المرافق في الوضوء، و هو مذهب أهل البيت عليهم السلام، و أجمعت الأُمّة على أنّ من بدأ في غسل اليدين من المرفقين صحّ وضوؤه، و أصحابنا يوجبونه.

«وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ»، المراد إلصاق المسح بالرأس، و أصحابنا يوجبون أقلّ ما يقع عليه اسم المسح، و هذا مذهب الشافعي. «وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ»، قرئ بالجرّ و النصب، فالجرّ للعطف على اللفظ، و النصب للعطف على محلّ الجارّ و المجرور.

و قال جار الله: كانت الأرجل مظنّة للإسراف المذموم في صبّ الماء عليها، فعطفت على الممسوح لالتمسح، لكن لينبّه على وجوب الاقتصاد في صبّ الماء عليها.

---

١. النحل: ٩٨.

و قيل: «إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ» فجيء بالغاية إماطةً لظنّ ظانّ يحسبها ممسوحة، لأنّ المسح لم يُضرب له غاية في الشريعة، و هذا كلام فاسد لأنّ حقيقة العطف يقتضي أن يكون المعطوف في حكم المعطوف عليه، و كيف يكون المسح في معنى الغسل. و فائدة اللفظين مختلفة، و لفظ التنزيل قد فرّق بين الأعضاء المغسولة و الأعضاء الممسوحة.

و أمّا قوله: (لم يضرب للمسح غاية) فممّا لايخفى فساده، لأنّ ضرب الغاية لايدلّ على الغسل، فلو صُرح فقيل: «وَٱمْسَحُوا بِأَرْجُلِكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ» لم يكن منكرا و لم يشك أحد في أنّه كان يجب المسح إلى الكعبين، فكذلك إذا جعل في حكم الممسوح بالعطف عليه، و قد بسطنا الكلام فيه في كتاب مجمع البيان و لايحتمل هذا الكتاب أكثر ممّا ذكرناه، و الكعبان عندنا هما العظمان الناتيان في القدمين عند معقد الشراك و إليه ذهب محمّد بن الحسن.

«وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ»، أي: تطهّروا بالاغتسال. «مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ» في باب الطهارة حتّى لايرخّص لكم في التيمّم، «وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ» بالتراب إذا أعوزكم التطهّر بالماء، «وَلِيُتِمَّ» برخصته إنعامه «عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» نعمته عليكم، انتهى.

قال في مجمع البحرين: و الباء في قوله: «وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ» للتبعيض عند الإمامية، و وافقهم على ذلك جمع من أهل اللغة، و ورد بها النصّ الصحيح عن الباقر عليه السلام و إنكار سيبويه و ابن جنّي له مرجوح بالنسبة إلى خلافه.

قال في الميزان: أنّ قوله: «إِلَى ٱلْمَرَافِقِ»، قيد لقوله: «أَيْدِيَكُم»، فيكون الغسل المتعلّق بها مطلقا غير مقيّد بالغاية، يمكن أن يبدأ فيه من المرفق إلى أطراف

الأصابع، و هو الذي يأتي به الإنسان طبعا إذا غسل يده في غيرحال الوضوء من سائر الأحوال أو يبدأ من أطراف الأصابع و يختم بالمرفق، لكنّ الأخبار الواردة من طرق الأئمّة أهل البيت عليهم السلام تفتي بالنحو الأوّل دون الثاني. و بذلك يندفع ما ربّما يقال: إنّ تقييد الجملة بقوله: «إِلَى ٱلْمَرَافِقِ» يدلّ على وجوب الشروع في الغسل من أطراف الأصابع و الانتهاء إلى المرافق. وجه الاندفاع أنّ الإشكال مبنيّ على كون قوله: «إِلَى ٱلْمَرَافِقِ» قيدا لقوله: «فَٱغْسِلُواْ» و قد تقدّم أنّه قيد للأيدي، و لامناص منه لكونه مشتركا محتاجا إلى القرينة المعيّنة، و لا معنى لكونه قيدا لهما جميعا.

على أنّ الأُمة اُجمعت على صحّة وضوء من بدأ في الغسل بالمرافق و انتهى إلى أطراف الأصابع كما في المجمع، و ليس إلّا لأنّ الآية تحتمله: و ليس إلّا لأنّ قوله: «إِلَى ٱلْمَرَافِقِ» قيد للأيدي دون الغسل، انتهى.

قال في كنز الدقائق في ذيل قوله سبحانه و تعالى: «وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ» لما كانت اليد تطلق على ما تحت الزند و على ما تحت المرفق و على ما تحت المنكب، بيّن الله تعالى غاية المغسول عنها، كما تقول: أخضب يدك إلى الزند، و الصيقل: صقّل سيفي إلى القبضة، فلادلالة في الآية على ابتداء الغسل بالأصابع و انتهائه إلى المرافق، كما أنّه ليس في هاتين العبارتين دلالة على ابتداء الخضاب و التصقيل بأصابع اليد و رأس السيف، فهي مجملة في هذا المعنى يحتاج إلى تبيين أهل البيت عليهم السلام، إلى أن قال: و الأخبار تدلّ على أنّ الابتداء في الغسل من المرفق، و «إِلَى» لانتهاء المغسول لالانتهاء الغسل.

إلىأن قال: و قال الكافي: عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه و محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعا، عن حمّاد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام : ألا تخبرني من أين علمت و قلت: إنّ المسح ببعض الرأس و بعض الرجلين؟ فضحك ثمّ قال: يا زرارة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : و نزل به الكتاب من الله، لأنّ الله عزّوجلّ يقول: «فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ»، فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يغسل، ثمّ قال: «وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ»، ثمّ فصّل بين الكلام: فقال: «وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ» فعرفنا حين قال: «بِرُءُوسِكُمْ» أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثمّ وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه، فقال: «وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ»، فعرفنا حين وصلها بالرأس أنّ المسح على بعضهما، ثمّ فسرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك للناس فضيّعوه، انتهى.

و يعتضد ذلك بقوله: سبحانه و تعالى في التيمّم أيضا حيث قال عزّوجلّ: «فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ» إذ التيمّم لايستوعب الوجه و لا الأيدي، و ليس ذلك إلّا للباء، فقوله: «فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم» من التيمّم يكون في قوّة أن يقال: «فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم»، إذ مسح الوجه من قصاص الشعر إلى الحاجبين ومسح الأيدي مسح ظهر اليد اليمنى باليد اليسرى، فلاتغفل.

قال في الميزان في ذيل قوله سبحانه و تعالى: «وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ»: المسح: إمرار اليد، أو كلّ عضو لامس على الشيء بالمباشرة، يقال: مسحت الشيء و مسحت بالشيء، فإذا عدّي بنفسه أفاد الاستيعاب، و إذا عدّي بالباء دلّ على المسح ببعضه من غير استيعاب و إحاطة. فقوله: «وَٱمْسَحُواْ

بِرُءُوسِكُمْ»، يدلّ على مسح بعض الرأس في الجملة، و أمّا أنّه أي: بعض من الرأس فممّا هو خارج من مدلول الآية، و المتكفّل لبيانه السنّة، و قد صحّ أنّه جانب الناصية من الرأس، انتهى.

و قد تقدّم أنّ الطريحي قال: و الباء للتبعيض عند الإمامية و وافقهم على ذلك جمع من أهل اللغة، و ورد بها النص الصحيح عن الباقر عليه السلام، و إنكار سيبويه و ابن جنّي له مرجوح بالنسبة إلى خلافه.

قال في الميزان: و أمّا قوله: «وَأَرْجُلَكُمْ»، فقد قرء بالجرّ، و هو لامحالة بالعطف على «بِرُءُوسِكُمْ». و ربّما قال القائل: إنّ الجرّ للإتباع كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]، و هو خطأ، فإنّ الإتباع على ما ذكروه لغة رديئة لايحمل عليها كلام الله تعالى. و أمّا قوله: «كُلِّ شَىْءٍ حَيٌّ» فإنّما الجعل هناك بمعنى الخلق، و ليس من الإتباع في شيء.

على أنّ الإتباع ـ كما قيل ـ إنّما ثبت في صورة اتصال التابع و المتبوع، كما قيل في قولهم: جحر ضب خرب، بجر الخرب إتباعاً، لا في مثل المورد ممّا يفضل العاطف بين الكلمتين.

و قرء: «أَرْجُلَكُمْ» بالنصب و أنت إذا تلقّيت الكلام مخلّي الذهن غير مشوب الفهم لم يلبث دون أن تقضي أن «أَرْجُلَكُمْ» معطوف على موضع «رُءُوسِكُمْ» و هو النصب، و فهمت من الكلام وجوب غسل الوجه و اليدين، و مسح الرأس و

---

١. الأنبياء: ٣٠.

الرجلين، و لم يخطر ببالك أن ترد «أَرْجُلَكُمْ» إلى «وُجُوهَكُمْ» في أول الآية مع انقطاع الحكم في قوله: «فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ» بحكم آخر و هو قوله: «وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ»، فإنّ الطبع السليم يأبى عن حمل الكلام البليغ على ذلك، إلى أن قال: و على ذلك وردت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، انتهى.

قال العلّامة الشعراني في قوله تعالى: «وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ»: الغرض المهمّ لفقهائنا من تفسير الكعبين بيان أنّهما ليسا في طرفي الساق، لأنّه لايمكن أن يكون ما في طرف الساق غاية لمسح ظهر الرجل، إذ لاينتهي المسح إليهما، فالكعب عندهم في ظهر الرجل و ليس غرضهم التدقيق في أنّه يجب إيصال المسح إلى المفصل في ظهر القدم، أو الختم بالقبّة (بالكعبة) كما يتوهّمه غير المحصّل و على هذا، فإذا كان معنى الكعب هو العظم الناتي في ظهر القدم، و كان الكعبان داخلين في الممسوح، كالمرافق في المغسول، وجب إيصال المسح إلى المفصل، لأنّ حدّ الكعب المفصل أو هو هو، انتهى. فلايترك الاحتياط بإدامة المسح إلى الساق.

ثمّ إنّ مقتضى ما عرفت من أنّ «إِلَى» غاية المغسول لاالغسل، أنّ «إِلَى» في قوله: «وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ» أيضا لغاية الممسوح لا لغاية المسح، و يؤيّد ذلك بل يشهد له صحيحة حمّاد، عن أبي عبدالله عليه السلام: لابأس بمسح القدمين مقبلا و مدبرا.

قال في جوامع الجامع في ذيل قوله سبحانه و تعالى: «وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا» أي: تطهّروا بالاغتسال، «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ» في باب الطهارة حتّى لايرخّص لكم في التيمّم، «وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ» بالتراب إذا أعوزكم التطهّر بالماء، «وَلِيُتِمَّ» برخصته إنعامه «عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» نعمته عليكم، انتهى.

فجعل البدل مكان المبدل، دفع للحرج و تحصيل للتطهير، و الرخصة في البدل إتمام للنعمة المستوجبة للشكر.

قال في الميزان: و الحرج حرجان: حرج يعرض ملاك الحكم و مصلحته المطلوبة، و يصدر الحكم حينئذٍ حرجيا بذاته لتبعيّة ملاكه كما لو حرم الالتذاذ من الغذاء لغرض حصول ملكة الزهد، فالحكم حرجي من رأس، و حرج بعرض الحكم من خارج عن أسباب اتفاقية، فيكون بعض أفراده حرجيا و يسقط الحكم حينئذٍ في تلك الأفراد الحرجية لا في غيرها ممّا لاحرج فيه، كمن يتحرّج عن القيام في الصلاة لمرض يضرّه معه ذلك، و يسقط حينئذٍ وجوب القيام عنه لاعن غيره ممّن يستطيعه.

و إضرابه تعالى بقوله: «وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ» (الآية)، عن قوله: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ» يدلّ على أنّ المراد بالآية نفي الحرج الذي في الملاك، أي: إنّ الأحكام التي يجعلها عليكم ليست بحرجية شرّعت لغرض الحرج، و ذلك لأنّ معنى الكلام أنّ مرادنا بهذه الأحكام المجعولة تطهيركم و

إتمام النعمة و هو الملاك، لا أن نشق عليكم و نحرجكم، و لذلك لمّا وجدنا الوضوء و الغسل حرجيين عليكم عند فقدان الماء انتقلنا من إيجاب الوضوء و الغسل إلى إيجاب التيمّم الذي هو في وسعكم، و لم يبطل حكم الطهارة من رأس لإرادة تطهيركم و إتمام النعمة «عليكم لعلّكم تشكرون»، انتهى.

و لايخفى بعد ما ذكره في الميزان، و الأقرب هو ما أشار إليه في جوامع الجامع، فتدبّر جيّدا.

ثمّ إنّ الظاهر من الآية الكريمة أنّ تحصيل الطهارة بالوضوء و الغسل و التيمّم شرط الصلاة. روى الصدوق في عيون الأخبار، و العلل عن الفضل بن شاذان، عن الرضا عليه السلام قال: إنّما اُمر بالوضوء و بُدئ به لأن يكون العبد طاهرا إذا قام بين يدي الجبّار عند مناجاته إيّاه، مطيعا له فيما أمره، نقيّا من الأدناس و النجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل و طرد النعاس و تزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبّار، الحديث[1].

و مقتضى شرطيّة الطهارة أنّه و لايصحّ الصلاة إلّا بطهور. و عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ثمانية لايقبل الله منهم صلاة، و عدّ منهم تارك الوضوء[2]. و هذا لاينافي استحباب الوضوء في نفسه، كما استدلّ له بقوله: سبحانه و تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[3].

---

١. الوسائل: ج ١، ص ٣٦٧.

٢. الوسائل: ج ١، ص ٣٦٩.

٣. التوبة: ١٠٨.

بل يستحب الوضوء لقضاء الحاجة و كراهة تركه عند السعي فيها. عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: من طلب حاجة و هو على غير وضوء فلم تقض فلايلومنّ إلّا نفسه[1]. و عن رسول‌الله صلى الله عليه وآله ألا أدلّكم على شيء يكفّر الله به الخطايا و يزيد في الحسنات؟ قيل: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله ! قال: إسباغ الوضوء على المكاره و كثرة الخطى إلى هذه المساجد و انتظار الصلاة بعد الصلاة[2]. و الإسباغ: إكمال الوضوء و إتمامه.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾

قال في جوامع الجامع: و هي نعمة الإسلام، «وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ» أي: عاقدكم به عقدا وثيقا، و هو الميثاق الذي أخذه عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله حين بايعهم على السمع و الطاعة في حال اليسر و العسر، فقبلوا و قالوا: «سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا».

و قيل: هو ما بيّن لهم في حجّة الوداع من تحريم المحرّمات و فرض الولاية و غير ذلك، عن الباقر عليه السلام، انتهى.

---

١. تهذيب الأحكام: ج ١، ص ٣٥٩.

٢. الوسائل: ج ١، ص ٣٨١.

قال في كنز الدقائق: قيل: (يعني) الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع و الطاعة في العسر و اليسر و المنشط و المكره، أو ميثاق ليلة العقبة، أو بيعة الرضوان، انتهى.

قال في الميزان: هذا هو الميثاق الذي كان مأخوذا منهم على الإسلام كما تشهد به تذكرته لهم بقوله: «إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، فإنّه السمع المطلق، و الطاعة المطلقة، و هو الإسلام لله. فالمعني بالنعمة في قوله: «وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ» هو المواهب الجميلة التي وهبهم الله سبحانه إيّاها في شعاع الإسلام، و هو التفاضل الذي بين حالهم في جاهليتهم و حالهم في إسلامهم من الأمن والعافية و الثروة و صفاء القلوب و طهارة الأعمال، إلى أن قال: أو أنّ الإسلام بحقيقته هو المراد بالنعمة، فإنّه أُمّ النعم، ترتضع منها كلّ نعمة و غير مخفي عليك أنّ المراد بكون النعمة هي الإسلام بحقيقته أو الولاية إنّما هو تعيين المصداق دون تشخيص مفهوم اللفظ، فإنّ المفهوم هو الذي يتشخّصه اللغة، و لا كلام لنا فيه، انتهى.

قال الشبّر في قوله: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ»: ««وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ» في كفران النعمة و نقض ميثاقه، «إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ»: بسرائرها، فبغيرها أولى، انتهى.

و قال في كنز الدقائق: «إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ»: بخفياتها فيجازيكم عليها، فضلا عن جليّات أعمالكم، انتهى. و نحوه في تفسير خلاصة منهج الصادقين.

و قال في مجمع البحرين في قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ» أي: عليم بنفس الصدور أي: ببواطنها و خفيّاتها، إلى أن قال: ذات الشيء نفسه و حقيقته، انتهى.

ثمّ لايخفى عليك إمكان أن يقال: نعمة الله عامّة و تشمل النعمات الماديّة و المعنوية، و لاوجه لتخصيص ذلك بالمواهب التي وهبهم الله في شعاع الإسلام، كما أنّ الميثاق يعمّ جميع الميثاقات المؤكدة، فلاوجه لحمله على ميثاق خاص، فلاتغفل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾

قال في جوامع الجامع: و عدّى «يَجْرِمَنَّكُمْ» بـ«عَلَى» لأنّه في معنى و لايحملنّكم بغضكم للمشركين «عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ»، أي: تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم و تتشفّوا ما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لايحلّ لكم من مثلة أو قتل أولاد أو نساء أو غير ذلك «ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»، نهاهم أوّلا عن ترك العدل، ثمّ صرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيدا أو تشديدا، ثمّ استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل بقوله: «هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»، أي: أقرب إلى التقوى لكونه لطفا فيها، و إذا كان العدل إلى الكفّار بهذه الصفة من القوّة، فكيف

يكون مع المؤمنين! «لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ»، بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله كأنّه قدّم لهم وعداً، انتهى.

قال في الميزان: قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ» الآية، نظيرة الآية التي في سورة النساء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1].

و إنّما الفرق بين الآيتين أنّ آية النساء في مقام النهي عن الانحراف عن العدل في الشهادة لاتّباع الهوى، بأن يهوى الشاهد المشهود له لقرابة و نحوها، فيشهد له بما ينتفع به على خلاف الحقّ، و هذه الآية (أعني: آية المائدة) في مقام الردع عن الانحراف عن العدل في الشهادة لشنآن و بغض من الشاهد للمشهود عليه، فيقيم الشهادة عليه يريد بها نوع انتقام منه و دحض لحقّه. و هذا الاختلاف في غرض البيان هو الذي أوجب اختلاف القيود في الآيتين: فقال في آية النساء: «كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ»، و في آية المائدة: «كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ».

و ذلك أنّ الغرض في آية المائدة لمّا كان هو الردع عن الظلم في الشهادة لسابق عداوة من الشاهد للمشهود عليه، قيّد الشهادة بالقسط، فأمر بالعدل في الشهادة و أن لايشتمل على ظلم حتّى على العدوّ بخلاف الشهادة لأحد بغير الحقّ

---

١. النساء: ١٣٥.

لسابق حب و هوى، فإنّها لاتعدّ ظلما في الشهادة و انحرافا عن العدل، و إن كانت في الحقيقة لاتخلو عن ظلم و حيف، و لذلك أمر في آية المائدة بالشهادة بالقسط، و فرّعه على الأمر بالقيام لله، و أمر في آية النساء بالشهادة لله، أي: أن لايتبع فيها الهوى، و فرّعه على الأمر بالقيام بالقسط.

و لذلك أيضا فرّع في آية المائدة على الأمر بالشهادة بالقسط قوله: «ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ»، فدعا إلى العدل، و عدّه ذريعة إلى حصول التقوى، و عكس الأمر في آية النساء ففرّع على الأمر بالشهادة لله قوله: «فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ»[1] فنهى عن اتّباع الهوى و ترك التقوى، و عدّه وسيلة سيّئة إلى ترك العدل. ثمّ حذّر في الآيتين جميعا في ترك التقوى تحذيرا واحدا، فقال في آية النساء: «وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا»، أي: إن لم تتّقوا. و قال في آية المائدة: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ».

قال في القرآن و العقل: ثمّ أمرهم بدوام قيامهم في إطاعة الله لأنّ الكلّ من رشحات جوده و بكونهم شهداء بالقسط و العدل، أي: كون العدل نصب عيونهم دائما، و عدم حمل بغض المؤمنين لكفّار على عدم العدل مع الكفّار، بل يلزم العدل معهم و هو أقرب للحفظ و الوقاية، إذ الله خبير بأفعالكم. انتهى.

و لايخفى عليك أنّ الآية الكريمة في المقام تدلّ على الأمر باتصاف القواميّة لله تعالى، و عليه، فالمؤمنون موظّفون بهذا الاتّصاف العظيم، ثمّ إنّ الآية الكريمة تدلّ على النهي عن ترك العدالة بالنسبة إلى الكفّار الذين كانوا موجبين لبغضهم.

---

١. المائدة: ١٣٥.

ثمّ إنّ إعمال العدالة حتّى بالنسبة إلى تلك الكفّار له تأثير تامّ في رسوخ التقوى و حصوله، و بهذه المناسبة كانت العدالة بين تلك الكفّار أقرب للتقوى، فلاتغفل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

و في جوامع الجامع: يقال: «بسط إليه كفّه»: إذا بطش به، و معنى بسط اليد مدّها إلى المبطوش به. و الكفّ: المنع، انتهى.

و في الميزان: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ» إلخ، هذا المضمون يقبل الانطباق على وقائع متعدّدة مختلفة، وقعت بين الكفّار و المسلمين، كغزوات بدر و اُحد و الأحزاب و غير ذلك، فالظاهر أنّ المراد به مطلق ما هم به المشركون من قتل المؤمنين و إمحاء أثر الإسلام و دين التوحيد.

و ما ذكره بعض المفسّرين أنّ المراد به ما همّ به بعض المشركين من قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو ما همّ به بعض اليهود من الفتك به، ـ و سيجيء قصتهما ـ فبعيد من ظاهر اللفظ، انتهى.

و المراد بالظاهر هو خطاب الآية الكريمة للمؤمنين، لا للنبيّ في نعمة كفّ أيدي القوم عنهم بعد بسط أيديهم إليهم، اللّهمّ إلّا أن يقال: إنّ ذلك من باب أنّ

سلامة النبي سلامة لهم. ثمّ إنّ ذيل الآية الكريمة يدلّ على التقوى الذي أمر به بقوله: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ»، و التوكل الذي أمر أيضا به بقوله: «فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ»، و لعلّ المقصود هو الإشارة إلى مدخليّتها في كفّ أيدي الكفّار عن المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

قال في جوامع الجامع: نقيباً يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما اُمروا به من الخروج إلى الجبابرة. إلى أن قال: و النقيب: الذي ينقب عن أحوال القوم، أي: يفتّش عنها إلى أن قال: «وَعَزَّرْتُمُوهُمْ»، أي: نصرتموهم و منعتموهم من أيدي العدوّ و منه التعزير و هو التنكيل و المنع من معاودة الفساد و قيل: معناه و لقد أخذنا ميثاقهم بالإيمان و العدل «وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا» (أي) ملكا يقيمون فيهم العدل، انتهى.

قال في الميزان: قال الراغب: النقب في الحائط و الجلد كالثقب في الخشب. و قال: النقيب الباحث عن القوم و عن أحوالهم، و جمعه نقباء. و الله سبحانه يقصّ على المؤمنين من هذه الاُمّة ما جرى على بني إسرائيل من إحكام دينهم و

تثبيت أمرهم بأخذ الميثاق، إلى أن قال: و ما قابلهم به الله سبحانه من اللعن و تقسية القلوب، إلخ.

فقال: «وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ»، و هو الذي يذكره كثيراً في سورة البقرة و غيرها: «وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا»، و الظاهر أنّهم رؤساء الأسباط الاثنى عشر، كانوا كالولاة عليهم يتولّون اُمورهم، فنسبتهم إلى أسباطهم بوجه كنسبة اُولي الأمر إلى الأفراد في هذه الاُمّة لهم المرجعيّة في اُمور الدين و الدنيا، غير أنّهم لايتلقّون وحيا، و لايشرّعون شريعة، و إنّما ذلك إلى الله و رسوله. «وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ» إيذان بالحفظ و المراقبة، فيتفرّع عليه أن ينصرهم إن أطاعوه و يخذلهم إن عصوه، و لذلك ذكر الأمرين جميعا قال: «لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ»، و التعزيز هو النصرة مع التعظيم، و المراد بالرسل ما سيستقبلهم ببعثته و دعوته كعيسى و محمّد عليهما السلام و سائر من بعثه الله بين موسى و محمّد عليهما السلام.

«وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» و هو الإنفاق المندوب دون الزكاة الواجبة، انتهى. و الوجه في اختصاص القرض بغير الزكاة هو عطف القرض على الزكاة كما لايخفى.

قال في تفسير الكرمي: و مفاد الآية إنّنا بعد أن نصرنا بني إسرائيل على الأقباط، أخذنا منهم موثقا بمقاتلة العمالقة حتّى يحتلّوا أرضهم القديمة و بعثنا منهم طلائع اثنى عشر نقيبا و قلنا لهم: إنّنا في عونكم مادمتم مقيمين للصلاة،

رافعين من كيانها، مروّجين لها، مؤتين للزكاة تقيمون بذلك أود ضعفائكم و ترمّمون نواقص فقرائكم، مؤمنين برسل الله سابقهم و لاحقهم، محترمين لهم مؤيّدين لخطتهم، سامعين لكلامهم، مشرّفين لمواقفهم، مسلفين في هذه الدنيا من مالكم و جاهكم ما يكون ذخيرة لكم في مستقبلكم، انتهى.

قال في كنز الدقائق: قيل: إنّ بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون و استقرّوا بمصرهم، أمرهم الله بالمسير إلى أريحا من أرض الشام و كان يسكنها الجبابرة الكنعانيّون و قال: إنّي كتبتها لكم دارا و قراراً فأخرجوا إليها و جاهدوا من فيها فإنّي ناصركم، و أمر موسى أن يأخذ من كلّ سبط كفيلا عليهم بالوفاء بما اُمروا به، فأخذ عليهم الميثاق و اختار منهم النقباء و ساربهم، فلمّا دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسّسون الأخبار، و نهاهم أن يحدّثوا قومهم، فرأوا أجراما عظيماً و بأسا شديدا، فهابوا فرجعوا و حدّثوا قومهم، فنكثوا الميثاق إلّا كالب بن يوفنا من سبط يهودا و يوشع بن نون من سبط افراثيم بن يوسف، انتهى.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

قال في جوامع الجامع: «لَعَنَّٰهُمْ» أبعدناهم من رحمتنا و طردناهم، «وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً»، خذلناهم و منعناهم الألطاف حتّى قست قلوبهم، و القسوة خلاف اللين و الرقّة. و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ من قلّ تقواه مات قلبه.

«يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ»، بيان لقسوة قلوبهم، فإنّ تغيير كلام الله و الكذب عليه من القسوة.

«وَنَسُواْ حَظًّا» و تركوا نصيبا وافيا «مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ» في التوراة، يعنى: أنّ إعراضهم عن التوراة إغفال حظّ عظيم، أو يكون المعنى فسدت قلوبهم فحرّفوا التوراة و ذهبت أشياء منها عن حفظهم. و عن ابن مسعود قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية و تلا هذه الآية: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ»، أي: خيانة منهم أو على نفس أو فرقة خائنة منهم.

«إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ»، و هم الذين آمنوا منهم، و قيل: إلّا قليلا داموا على عهدهم.

«فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ» ما داموا على عهدك و لم يخونوك.

«وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ»، سمّوا أنفسهم بذلك ادّعاءً لنصرة الله، و هم الذين قالوا لعيسى عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[1]، ثمّ اختلفوا بعد نسطورية و يعقوبية و ملكانية (و في الجمع ملكائية)، فصاروا أنصارا للشيطان «فَأَغْرَيْنَا» فألصقنا و ألزمنا من غرى بالشيء إذا لزمه و لصق به و أغراه غيره. «بَيْنَهُمُ»، بين فرق النصارى المختلفين، و قيل: بينهم و بين اليهود، و نحوه ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[2]، انتهى.

---

١. الصف: ١٤.

٢. الأنعام: ٦٥.

قال الفاضل الشعراني: في معنى التحريف قولان: أحدهما: أنّهم فسرّوا الكلمات على الخلاف، و ثانيهما: أنّهم ذكروا الألفاظ على نحو لم تقع على موضعها فتزيد أو يتنقص الكلمات و تقيد الخلاف أنّهم فسروا آيات البشارة لمجيء رسول الله بما تطبيق عليه. قال موسى **(على نبينا و آله و عليه السلام)**: جاء نبيّ مثلي من بين إخوانهم، و المقصود منه هو نبيّ الإسلام الذي جاء من بين العرب، ولكنّهم قالوا: ليس المراد منه هو نبي الإسلام. و هكذا قال المسيح **(على نبينا و آله و عليه السلام)**: جاء بعدي فارقليط يعني أحمد، ولكن المسيحيّين قالوا: المراد روح القدس.

ثمّ المراد من الملكانية فرقة كاتوليك و الپاپ رئيسهم. و النسطورية و يعقوبية فرقتان من المسيحيين، لم يبق منهما إلّا قليل و الآشورية من بقايا النسطورية الذين يسكنون في شمال عراق و الآذربايجان و الكردستان، و الأرامنة غيرهم، انتهى.

قال في الميزان: و المعنى: فبنقض مامنهم لميثاقهم «لَعَنَّٰهُمْ» و اللعن هو الإبعاد من الرحمة «وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً» و قسوة القلب مأخوذ من قسوة الحجارة و هي صلابتها و القسي من القلوب مالايخشع لحقّ و لايتأثّر برحمة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1].

---

١. الحديد: ١٦.

و بالجملة عقّبت قسوة قلوبهم أنّهم عادوا «يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ» بتفسيرها بما لايرضى به الله سبحانه و بإسقاط أو زيادة أو تغيير، فكلّ ذلك من التحريف، و أفضاهم ذلك إلى أن فاتهم حقائق ناصعة من الدين «وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ» و لم يكن إلّا حظّا من الأُصول التي تدور على مدارها السعادة، و لايقوم مقامها إلّا ما يسجّل عليهم الشقوة اللازمة كقولهم بالتشبيه، و خاتميّة نبوّة موسى **(على نبينا و آله عليه السلام)**، و دوام شريعة التوراة، و بطلان النسخ و البداء إلى غير ذلك، إلى أن قال: و قد كان المسيح عيسى بن مريم نبيّ رحمة يدعو الناس إلى الصلح و السلم، و يندبهم إلى الإشراف على الآخرة، و الإعراض عن ملاذ الدنيا و زخارفها، و ينهاهم عن التكالب لأجل هذا العرض الأدنى. فلمّا نسوا حظا ممّا ذكروا به أثبت الله سبحانه في قلوبهم مكان السلم و الصلح حربا، و بدّل المؤاخاة و الموادّة التي ندبوا إليها معادة و مباغضة، كما يقول: «وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ» و هذه العداوة و البغضاء اللتان ذكرهما الله تعالى صارتا من الملكات الراسخة المرتكزة بين هؤلاء الأُمم المسيحيّة، و كالنار الآخرة التي لامناص لهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق[1].

و لم يزل منذ رفع عيسى بن مريم عليه السلام ، اختلف حواريّوه و الدعاة السائحون من تلامذتهم فيما بينهم نشب الاختلاف فيما بينهم، و لم يزل ينمو و يكثر حتّى تبدل إلى الحروب و المقاتلات و الغارات و أنواع الشرد و الطرد و غير ذلك حتّى انتهى إلى حروب عالمية كبرى تهدّد الأرض بالخراب، و الإنسانيّة بالفناء و

---

١. حج: ٥٠.

الانقراض. كلّ ذلك من تبدّل النعمة نقمة، و إنتاج السعي ضلالا «وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ»، انتهى.

و في خلاصة منهج الصالحين: النسطورية هم الذين يقولون: المسيح ابن الله و اليعقوبية هم الذين يقولون: إنّ الله هو المسيح بن مريم، و ملكانية هم الذين يقولون: إنّ الله ثالث ثلثة، انتهى.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: خاطب اليهود و النصارى «قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا» محمّد ﷺ «يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ» من أمر الرجم و أشياء حرّفتموها «وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ» ممّا تخفونه لايبيّنه، و عن الحسن: و يعفوا عن كثير منكم لايؤاخذه، «قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ»، و هو محمّد ﷺ يهتدي به الخلق كما يهتدي بالنور، و قيل: هو القرآن لكشفه ظلمات الشك و الشرك. «وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ»، يبيّن ما كان خافيا على الناس من الحقّ أو مبين ظاهر الإعجاز، «يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ»، يريد من آمن منهم، «سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ»، أي: طرق النجاة من عذاب الله، أو سبل الله و هي شرائع الإسلام. «وَيُخْرِجُهُم مِّنَ» الكفر «إِلَى» الإيمان «بِإِذْنِهِۦ» أي: بلطفه، و يرشدهم إلى طريق الحقّ أو طريق الجنّة، انتهى.

و في الميزان: فإنّ النبي ﷺ أحد الأسباب الظاهرية في مرحلة الهداية، و كذا القرآن، و حقيقة الهداية قائمة به قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1]، و قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[2].

و الآيات كما ترى تنسب الهداية إلى القرآن و إلى الرسول ﷺ في عين أنّها ترجعها إلى الله سبحانه، فهو الهادي حقيقة و غيره سبب ظاهري مسخّر لإحياء أمر الهداية.

و قد قيّد تعالى قوله: «يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ» بقوله: «مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ»، و يؤول إلى اشتراط فعلية الهداية الإلهية باتّباع رضوانه، فالمراد بالهداية هو الإيصال إلى المطلوب، و هو أن يورده الله تعالى سبيلا من سبل السلام أو جميع السبل أو أكثرها واحدا بعد آخر، إلى أن قال: فمعنى الآية ـ و الله العالم ـ يهدي الله سبحانه و يورد بسبب كتابه أو بسبب نبيّه من اتّبع رضاه سبلا من شأنها أنّه يسلم من سار فيها من شقاء الحياة الدنيا و الآخرة، و كلّ ماتتكدر به العيشة السعيدة، انتهى.

قال الكرمي في تفسيره: أهل الكتاب هنا عامّ لليهود و النصارى، و المراد بالرسول هنا نبيّ الإسلام ﷺ، يبيّن لكم من طريق وحينا إليه كثيرا ممّا علّمتموه من العقائد و الأحكام عن طريق أنبيائكم و أخفيتموه، لأنّه لايتّفق مع

---

١. القصص: ٥٦.

٢. الشورى: ٥٣ ـ ٥٢.

أهوائكم و لاينسجم مع مصالحكم الشخصية و يسكت عن كثير كان مقرّرا في شرائعكم، لكنّه لاتقرّر له في شريعة الإسلام لانقضاء أمده، و لذلك سكت عنه، إذ لانتيجة في إبدائه سوى افتضاحكم و هو لا قصد له في ذلك، انتهى.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: كفّرهم الله ـ تعالى ـ بهذا القول: ...«فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا»، أي: فمن يمنع من قدرته و مشيّته شيئا «إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِك» من دعوه إلهاً من المسيح و اُمّه، و عطف من في الأرض على المسيح و اُمّه ليدلّ على أنّهما من جنسهم لاتفاوت في البشريّة بينهما و بينهم. «يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ» من ذكر و اُنثى و ما يشاء من اُنثى غير ذكر، كما خلق عيسى و ما يشاء من غير ذكر و اُنثى كما خلق آدم. «نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ»، أي: أشياع ابني الله عزير و المسيح، كما يقول أقرباء الملك: نحن الملوك، انتهى.

و قال في الميزان: إنّما قيّد المسيح بقوله: «ٱبْنُ مَرْيَمَ» للدلالة على كونه بشرا تامّا واقعا تحت التأثير الربوبي كسائر البشر، و لذلك بعينه عطف عليه «أُمَّهُ»

لكونها مسانخة له من دون ريب، و عطف عليه «وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» لكون الحكم في الجميع على حدّ سواء.

و من هنا يظهر أنّ في هذا التقييد و العطف تلويحا إلى برهان الإمكان، و محصّلة أنّ المسيح يماثل غيره من أفراد البشر كأُمّه و سائر من في الأرض، فيجوز عليه ما يجوز عليهم لأنّ حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لايجوز واحد، و يجوز على غيره أن يقع تحت حكم الهلاك فيجوز عليه ذلك و لامانع هناك يمنع، و لو كان هو الله سبحانه لما جاز عليه ذلك، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ»، لاريب أنّهم لم يكونوا يدّعون البنوة الحقيقيّة كما يدّعيه معظم النصارى للمسيح عليه السلام، فلااليهود كانت تدّعي ذلك حقيقة و لاالنصارى، و إنّما كانوا يطلقونها على أنفسهم إطلاقا تشريفيا بنوع من التجوّز، إلى أن قال: و كيف كان، فإنّما اُريد بالأبناء أنّهم من الله سبحانه بمنزلة الأبناء من الأب، فهم بمنزلة أبناء الملك بالنسبة إليه المنحازين عن الرعيّة المخصوصين بخصيصة القرب المقتضية أن لايعامل معهم معاملة الرعيّة، كأنّهم مستثنون عن إجراء القوانين و الأحكام المجراة بين الناس، لأنّ تعلّقهم بعرش الملك لايلائم مجازاتهم بما يجازي به غيرهم و لاإيقافهم موقفا توقّف فيه سائر الرعيّة، فلايستهان بهم كما يستهان بغيرهم، فكلّ ذلك لما تتعقّبه علقة النسب من علقة الحبّ و الكرامة.

فالمراد بهذه البنوة الاختصاص و التقرّب، و يكون عطف قوله: «وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ» على قوله: «أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ» كعطف التفسير و ليس به حقيقة، و غرضهم من دعوى هذا الاختصاص و المحبوبية إثبات لازمه و هو أنّه لاسبيل إلى تعذيبهم و عقوبتهم فلن يصيروا إلّا إلى النعمة و الكرامة، لأنّ تعذيبه تعالى إيّاهم يناقض ما خصّهم به من المزيّة، و حباهم به من الكرامة.

و الدليل عليه ما ورد في الردّ عليهم من قوله تعالى: «يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ»، إذ لو لا أنّهم كانوا يريدون بقولهم: «نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ» أنّه لاسبيل إلى عذابهم و إن لم يستجيبوا الدعوة الحقّة لم يكن وجه لذكر هذه الجملة: «يَغْفِرُ»، ردّا عليهم، و لا لقوله: «بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ» موقع حسن مناسب، فمعنى قولهم: «نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ» أنّا خاصّة الله و محبوبوه لاسبيل له تعالى إلى تعذيبنا و إن فعلنا ما فعلنا، و تركنا ما تركنا، لأنّ انتفاء السبيل و وقوع الأمن التامّ من كلّ مكروه و محذور هو لازم معنى الاختصاص و الحبّ.

قوله تعالى: «قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم» أمر نبيّه بالاحتجاج عليهم و ردّ دعواهم بالحجّة، و تلك حجّتان: إحداهما: النقض عليهم بالتعذيب الواقع عليهم، و ثانيتهما: معارضتهم بحجة تنتج نقيض دعواهم.

و محصّل الحجّة الأُولى التي يشتمل عليها قوله: «فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم» أنّه لو صحّت دعواكم ... لكنتم مأمونين من كلّ عذاب اُخروي أو دنيوي، فما هذا العذاب الواقع عليكم المستمرّ فيكم بسبب ذنوبكم؟ إلى أن قال: قوله تعالى:

«بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ»، حجّة ثانية مسوّقة على نحو المعارضة، محصّلها: أنّ النظر في حقيقتكم يؤدّي إلى بطلان دعواكم أنّكم أبنوا الله و أحبؤه، فإنّكم بشر من جملة من خلقه الله من بشر أو غيره لاتمتازون عن سائر من خلقه الله منهم، و لايزيد أحد من الخليقة من السماوات و الأرض و ما بينهما على أنّه مخلوق لله الذي هو المليك الحاكم فيه و في غيره بما شاء و كيف ما شاء و سيصير إلى ربّه المليك الحاكم فيه و في غيره، و إذا كان كذلك، كان لله سبحانه أن يغفر لمن شاء منهم، و يعذّب من شاء منهم من غير أن تمانعه مزيّة أو كرامة أو غير ذلك من أن يريد في شيء ما يريده من مغفرة، أو عذاب، أو يقطع سبيله قاطع، أو يضرب دونه حجاب يحجبه عن نفوذ المشيئة و مضيّ الحكم.

فقوله: «بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ»، بمنزلة إحدى مقدّمات الحجّة، و قوله: «وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» مقدّمة اُخرى و قوله: «وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ» مقدّمة ثالثة، و قوله: «يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ» بمنزلة نتيجة البيان التي تناقض دعواهم: أنّه لاسبيل إلى تعذيبهم، انتهى.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «عَلَىٰ فَتْرَةٍ» متعلّق بـ «جَآءَكُمْ»، أي: جاءكم على حين فترة من إرسال الرسل و انقطاع من الوحي، «أَن تَقُولُواْ»، كراهة أن تقولوا «مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ» بالثواب «وَلَانَذِيرٍ» بالعقاب، «فَقَدْجَآءَكُم» متعلّق بمحذوف أي: لاتعتذروا فقد جاءكم، إلى أن قال: و معنى الآية الامتنان عليهم بإرسال الرسول إليهم بعد اندراس آثار الوحي أحوج ما يكونون إليه ليعدّوه أعظم نعمة من الله، انتهى.

و في الميزان: و الآية خطاب ثان لأهل الكتاب متمّم للخطاب السابق، فإنّ الآية الأُولى بيّنت لهم أنّ الله أرسل إليهم رسولا أيّده بكتاب مبين يهدي بإذن الله إلى كلّ خير و سعادة، و هذه الآية تبيّن أنّ ذلك البيان الإلهي إنّما هو لإتمام الحجّة عليهم أن يقولوا: ما جاءنا من بشير و لانذير، إلى أن قال: و يمكن أن يكون خطابا مستأنفا، و الفعل يبين لكم إنّما حذف متعلّقه. للدلالة على العموم، أي: يبين لكم جميع ما يحتاج إلى البيان، أو لتفخيم أمره، أي: يبيّن لكم أمرا عظيما تحتاجون إلى بيانه، انتهى.

و في تفسير الكرمي: «عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ»، أي: بعد فترة لم يأت فيها نبيّ، جاء في أصحّ الأقوال: إنّ الفاصلة بين ميلاد المسيح و نبي الإسلام تبلغ ٥٦٩ سنة، و قد تخللتها أربع رسالات لأربع أنبياء لم تكن لهم شهرة، و قد يكون مؤدّى رسالتهم تقرير ما جاء به المسيح، و «أَن تَقُولُواْ» ينسبك بمصدر يكون مضافا إليه لمضاف محذوف، تقديره: مخافة «أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا» بشر يبشّر بالسعادة «وَلَانَذِيرٍ»، يخوّف من العاقبة السيّئة، «فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ» و هو نبي

الإسلام يبيّن لكم كلّ ما هو سبب سعادتكم و موجب شقائكم «وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ» من إرسال الرسل، و إسعادكم بالبينات الناجعة الموفية بعاملها على السعادة و إنذاركم بالمواعظ و الزواجر الزامّة للنفس عن المفاسد السالكة بها سبيل النجاة، انتهى.

قال الصدوق (رحمه‌الله) في كتاب كمال الدين و تمام النعمة: معنى الفترة أن لايكون نبي و لاوصيّ ظاهر مشهور، و قد كان بين نبيّنا و بين عيسى عليهما السلام أنبياء و أئمّة مستورون خائفون منهم: خالد بن سنان العبسي لايدفعه دافع و لاينكره منكر، و كان بين مبعثه و مبعث نبيّنا خمسون سنة، إلى أن قال:

و تصديق ذلك قول أميرالمؤمنين عليه السلام: لاتخلو الأرض من قائم لله بحجّة إمّا ظاهر مشهور و إمّا خائف مغمور، إلى أن قال:

عن الكافي: عن أبي عبدالله عليه السلام قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا إذ جاءته امرأة، فرحب بها و أخذ بيدها و أقعدها، ثمّ قال: ابنة نبيّ ضيّعه قومه خالد بن سنان دعاهم فأبوا أن يؤمنوا.

تذييل: و هو أنّ الفترة لو لم يتمّ الحجّة بالنسبة إلى بعض، بجهة سعي المعاندين أو بجهة عدم البلوغ أو اختلال العقل تحت الحجّة عليهم بشكل آخر في النهاية.

و قد روى في الكافي بإسناد صحيحة عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته، هل سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الأطفال؟ فقال: قد سئل، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثمّ قال: يا زرارة و هل تدري قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين؟»

قلت: لا، قال: لله فيهم المشيئة أنّه إذا كان يوم القيامة جمع الله (عزّوجلّ) الأطفال، و الذي مات من الناس في الفترة، و الشيخ الكبير الذي أدرك النبيّ ﷺ و هو لايعقل، و الأصمّ و الأبكم الذي لايعقل، و المجنون و الأبله الذي لايعقل، و كلّ واحد منهم يحتجّ على الله عزّوجلّ، فيبعث الله إليهم ملكا (من الملائكة) فيؤجّج لهم نارا، ثمّ يبعث الله إليهم ملكا فيقول لهم: إنّ ربّكم يأمركم أن تثبّوا فيها، فمن دخلها كانت عليه برداً و سلاما و اُدخل الجنّة، و من تخلّف عنها دخل النار، انتهى.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠﴾

و في جوامع الجامع: لم يبعث في اُمّة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، و ذلك من نعم الله عليهم و آلائه لديهم، «وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا»، لأنّ الله سبحانه ملّكهم ملك فرعون و ملك الجبائرة.

وقيل: إنّهم كانوا مملوكين في أيدي القبط فسمّى الله ـ سبحانه ـ إنقاذهم منهم ملكا. «وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ» من فلق البحر و تظليل الغمام و غير ذلك من الاُمور العظام و قيل: أراد عالمي زمانهم، انتهى.

و في الميزان: و يدلّ قوله: «وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ» على سبق عدّة من الآيات النازلة عليهم كالمنّ و السلوى وانفجار العيون من الحجارة و

إظلال الغمام، إلى أن قال: إنّ الآية تنفي أن يكون أُمّة من الأُمم إلى ذلك الوقت أُوتيت من النعم ما أُوتي بنو إسرائيل، و هو كذلك، انتهى.

و في الميزان: أيضا ثمّ قال: «وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا»، أي: مستقلّين بأنفسكم خارجين من ذلّ استرقاق الفراعنة و تحكم الجبابرة، و ليس الملك إلّا من استقلّ في أمر نفسه و أهله و ماله، و قد كان بنوإسرائيل في زمن موسى يسيرون بسنّة اجتماعية هي أحسن السنن، و هي سنّة التوحيد التي تأمرهم بطاعة الله و رسوله، و العدل التامّ في مجتمعهم، و عدم الاعتداء على غيرهم من الأُمم من غير أن يتأمر عليهم بعضهم أو يختلف طبقاتهم اختلافا يختلّ به أمر المجتمع، و ما عليهم إلّا موسى و هو نبيّ غير سائر سيرة ملك أو رئيس عشيرة يستعلي عليهم بغير الحقّ.

وقيل: المراد بجعلهم ملوكا هو ما قدّر الله فيهم من الملك الذي يبتدىء من طالوت فداود إلى آخر ملوكهم، فالكلام على هذا وعد بالملك إخبارا بالغيب، فإن الملك لم يستقرّ فيهم إلّا بعد موسى بزمان.

و هذا الوجه لابأس به لكن لا يلائمه قوله: «وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا»، و لم يقل: و جعل منكم ملوكا، و كما قال: «جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ»، انتهى.

و لقائل أن يقول: كثيرا ما ينسب فعل بعض الأُمّة إلى جميعهم، و عليه، فلاينافي قوله: و جعلكم ملوكا مع هذا الاحتمال.

و في تفسير الكرمي: فيه حدّ الأقلّ نعمتان كبريان: النعمة الأُولى: أنّ تهذيب المتوحّش و كلّ إنسان وحشي بدون التهذيب من النعم العظمى عليه، فإنّ

الإنسان من دون فضيلة العلم حمّال جاهل، إذ غاية ما يتأتّى منه أن يستخدم بنيته الطبيعية، و استخدامها مع الجهل لايتصوّر فيه سوى الاُمور المنحطّة كحمل الأثقال و نظيره، مضافا إلى الجهل بكيفية صرف ما يستحصله من حمله.

والنعمة الثانية: أنّ كون الأنبياء منهم تشريف لهم، فإنّ الإنسان يعتزّ حتّى بالتوافه التي تنسب إليه من قبيل فرسه و حماره و غير ذلك، فكيف لو حمل الشرف الواقعي و من جعلهم «مُلُوكًا» يملكون اُمور أنفسهم بعد أن كانوا أذلاء عند الأقباط بل عبيدا لهم، إلى أن قال: و من إيتائهم ما لم يؤت أحدا من العالمين السابقين عليهم و المعاصرين لهم من الأنبياء العظماء كموسى و هارون، و من الآيات البيّنات و المعجزات الشامخات و الاستقلال التام و النعم الموفورة، فإنّ هذه المطالب بمجموعها لم تحصل لأيّة اُمّة سابقة و معاصرة، انتهى.

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾

و في جوامع الجامع: «ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ» أرض بيت المقدس، و قيل: فلسطين و دمشق، و بعض: الاُردن، و قيل: الشام، و كان بيت المقدس مستقر الأنبياء و مسكن المؤمنين.

«ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ»، أي: قسّمها لكم أو خطّها في اللوح المحفوظ أنها لكم، «وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ» و لاتنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبنا، أو «وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ» في دينكم بعصيانكم نبيّكم و مخالفتكم أمر ربّكم فترجعوا «خَٰسِرِينَ» ثواب الدنيا و الآخرة.

و الجبّار فعّال من جبره على الأمر، بمعنى أجبره و هو الذي يجبر الناس على ما يريد، انتهى.

و في الميزان: و قد وصف الأرض بالمقدسة، و قد فسّروه بالمطهّرة من الشرك لسكون الأنبياء و المؤمنين فيها، إلى أن قال: و ليست المباركة في الأرض إلّا جعل الخير الكثير فيها، و من الخير الكثير إقامة الدين و إذهاب قذارة الشرك، انتهى.

و في تفسير الكرمي: و خلاصة ما جاء في الآثار عن هذه الآيات، أنّ موسى و بني إسرائيل لما عبروا البحر و هلك فرعون، أمرهم الله سبحانه بدخول الأرض المقدسّة التي اُشير إليها آنفا فلمّا نزلوا على نهر الاُردن خافوا من الدخول، فبعث موسى من كلّ سبط «و الأسباط اثنى عشر» رجلا و هم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: «وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا»، فعاين النقباء من عظم شأن الأقوام شيئاً عجيبا، فرجعوا إلى بني إسرائيل فأخبروا موسى بذلك فأمرهم موسى أن يكتموا و صف ما شاهدوا، فوفى اثنان منهم، يقال: هما يوشع ابن نون و كالب بن يوفنّا، و عصى الباقون فأخبروا و فشا الخبر في الناس فقالوا: إن دخلنا عليهم تكون نساؤنا و أهالينا غنيمة لهم، و همّوا بالانصراف إلى مصر و أرادوا الإيقاع بيوشع

بن نون و كالب بن يوفنّا، لأنّهما لم يخبراهم كما أخبر الباقون، فاغتاظ لذلك موسى و «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي»، فأوحى الله إليهم أنّهم «يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ» أربعين سنة فتاهوا هذه المدّة في مسافة ستّة عشر فرسخا و هم ستمأة ألف إنسان، و مات في التيه موسى و هارون و جملة وافرة من بني إسرائيل و عشرة من النقباء الاثنى عشر و بقي يوشع و كالب، و بعد انسلاخ الأربعين سنة خرج بهم يوشع و فتحوا الأرض المقدسّة و دخلوها.

و معنى قوله تعالى: «إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ» أنّهم كانوا أقوياء في بناهم البدنية بما أهال منظرهم بني إسرائيل، و مرادهم من قولهم «إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا» أنّهم لم يمنّوا أنفسهم بدخولها، و إنّما اُمروا من ناحية الله بذلك، فالله يلزمه أن يفعل بالأقوام الشاغلين للأرض المقدّسة فعلا يوجب خروجهم منها و إخلائها منهم حتّى يدخل بنو إسرائيل إليها دخولا براحة و من غير مؤونة، انتهى.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴿٢٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: الرجلان: كالب و يوشع، أي: «يَخَافُونَ» الله و يخشونه كأنّه قال: «رجلان من المتقين» و قيل: الواو لبني إسرائيل، أي: «مِنَ ٱلَّذِينَ» يخافونهم و هم الجبّارون، و كانا منهم على دين موسى لمّا بلغهما خبر موسى أتياه فاتّبعاه، «أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا» بالإيمان، إلى أن قال: و يجوز أن يكون «أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا» في محلّ رفع وصفا لـ «رَجُلَانِ»، و يجوز أن يكون اعتراضا لامحلّ له من الإعراب، إلى أن قال: و ذكر في إعراب أخي وجوه: أن يكون منصوبا معطوفا على «نَفْسِي»، و على الضمير في «إِنِّي»، بمعنى و إنّ أخي لايملك إلّا نفسه، إلى أن قال: «مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ» لايدخلونها و لايملكونها «أَرْبَعِينَ سَنَةً»، فقد روي: أنّ موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل، و كان يوشع على مقدّمته ففتح أريحا و أقام فيها ما شاء الله ثمّ قبض و قيل: مات موسى في التيه و كان هارون مات قبله بسنة و سار يوشع بهم إلى أريحا.

و قيل: لم يدخل الأرض المقدسّة أحد ممّن قال: «إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ» و هلكوا في التيه و نشأت ذراريهم فقاتلوا الجبارين و دخلوها، فيكون التقدير كتب الله لكم الأرض المقدّسة بشرط أن تجاهدوا أهلها، فلمّا أبوا الجهاد قيل: فإنّها محرّمة عليهم، فالعامل في الظرف «يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ» أي: يسيرون فيها متحيّرين لايهتدون طريقا. و التيه: المفازة التي يتاه فيها. فروي أنّهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ، يسيرون كلّ يوم جادين حتّى إذا أمسوا كانوا بحيث ارتحلوا عنه، و كان الغمام يظلهم من حرّ الشمس، و يطلع لهم بالليل عمود من نور يضيء لهم، و ينزل عليهم المنّ و السلوى، و لاتطول شعورهم، و إذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر، و يطول بطوله.

و اختلف في موسى و هارون هل كانا معهم في التيه؟، فقيل: لم يكونا معهم لقوله: «فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ»، و قيل: كانا معهم إلّا أنّه كان ذلك روحا لهما و سلاما لاعقوبة كالنار لإبراهيم، انتهى.

و بالجملة: نستفيد من الآيات المذكورة أنّ فسق اليهود من ناحية عصيان أمر نبيّهم و تكراره بحيث يصدق عليهم عنوان الفاسقين.

و طلب اليهود من موسى و هارون فاذهبا و «فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ»، يحكي عن عدم معرفتهم بأنّ الأمر بالجهاد مع الأعداء لحصول الكمال و نيل المقامات المعنوية و هو لايحصل بفعل الآخرين.

و التوصيف للرجلين بأنّهم يخافون يدلّ على أنّ الكمال يحصل للإنسان بالخوف و هذا هو الخوف من الله تعالى، و هو من النعم التي أعطاها للأنبياء و الأولياء.

و مضافا إلى أن الاستفادة من الأنبياء و الأولياء بعنوان الأسباب و الآلات للنيل إلى الراحة تحكي عن نازل معرفتهم، كما لايخفى.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: ابنا آدم هما هابيل و قابيل أوحى الله ـ تعالى ـ إلى آدم أن يزوّج كلّ واحد منهما توأمة الآخر، و كانت توأمة قابيل أجمل، فحسد عليها أخاه، فأبى ذلك، فقال لهما آدم: قربا قربانا فمن أيّكما قبل زوّجها، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسدا و سخطا و توعّده بالقتل. أي: اتل نبأهما تلاوة ملتبسة بالحقّ و الصدق موافقا لما في كتب الأوّلين، أو اتل عليهم و أنت محقّ صادق، إلى أن قال: و القربان اسم ما يتقرّب به إلى الله ـ تعالى ـ يقال: قرب نسكاً و تقرّب به، «قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ» أي: قال الذي لم يتقبّل قربانه منهما للذي تقبّل قربانه: «لَأَقْتُلَنَّكَ»، «قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ»، كأنّه قال له: لِمَ تقتلني؟ قال: لأنّه تقبّل منك و لم يتقبّل منّي. فقال: إنّما اُوتيت من قبل نفسك لانسلاخك من لباس التقوى لا من قبلي فلم تقتلني؟ و فيه دليل على أنّ لله ـ تعالى ـ إنّما يقبل الطاعة ممّن هو زاكي القلب متّق. «مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» لأنّ إرادة القتل قبيحة، و إنّما يحسن من المظلوم قتل الظالم على وجه المدافعة له طلبا للتخلّص من غير أن يقصد إلى قتله. فكأنّه قال: لئن ظلمتني لم أظلمك. «إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ» معناه أن تحتمل إثم قتلي لك و إثم قتلك لي، و المراد بمثل إثمي على الاتّساع، فكأنّه قال: اُريد أن تبوء بمثل إثمي لو بسطت إليك يدي. و قيل: إنّ المعنى أنّي اُريد أن تبوء بإثم قتلي و إثمك الذي من أجله لم يتقبّل قربانك. «فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ»، أي: فوسعته له و يسّرته من طاع له المرتع: إذا اتّسع، أي: زيّنته له و شجعته عليه، «فَقَتَلَهُۥ» و قيل: إنّه كان أوّل قتيل في الناس، انتهى.

قال في الميزان: فتبين أنّ قوله: «نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ»، يراد به قصّة ابني آدم أبي البشر، و تقييد الكلام بقوله: «بِٱلْحَقِّ» و هو متعلّق بالنبأ أو بقوله: و «ٱتْلُ» لايخلو عن إشعار أو دلالة على أنّ المعروف الدائر بينهم من النبأ لايخلو من تحريف و سقط، و هو كذلك، فإنّ القصّة موجودة في الفصل الرابع من سفر التكوين من التوراة، و ليس فيها خبر بعث الغراب و بحثه في الأرض، و القصّة مع ذلك صريحة في تجسّم الربّ تعالى عن ذلك علوّا كبيرا، إلى أن قال: و سياق الكلام يدلّ على أنّهما علما تقبّل قربان أحدهما و عدم تقبّله من الآخر، و أمّا أنّهما من أين علما ذلك؟ أو بأيّ طريق استدلّوا عليه؟ فالآية ساكتة عن ذلك.

غير أنّه ذكر في موضع من كلامه تعالى: أنّه كان من المعهود عند الأُمم السابقة أو عند بني إسرائيل خاصّة تقبّل القربان المتقرّب به بأكل النار إيّاه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]، إلى أن قال: فمن الممكن أن يكون التقبّل للقربان في هذه القصّة أيضا على ذلك النحو، إلى أن قال: ثمّ السياق يدلّ أيضا على أنّ القائل «لَأَقْتُلَنَّكَ» هو الذي لم يتقبّل قربانه، و أنّه إنّما قال ذلك حسدا من نفسه، إذ لم يكن هناك سبب آخر، و لا أنّ المقتول كان قد أجرم إجراما باختيار منه حتّى يواجه بمثل هذا القول و يهدّد بالقتل. فقول القاتل: «لَأَقْتُلَنَّكَ» تهديد بالقتل حسدا لقبول قربان المقتول دون القاتل، فقول المقتول: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ» إلى آخر ما

---

١. آل عمران: ١٨٣.

حكى الله تعالى عنه، جواب عمّا قاله القاتل فيذكر له أوّلا: أنّ مسألة قبول القربان و عدم قبوله لاصنع له في ذلك و لاإجرام، و إنّما الإجرام من قبل القاتل حيث لم يتّق الله فجازاه الله بعدم قبول قربانه. و ثانيا: أنّ القاتل لو أراد قتله و بسط إليه يده لذلك ما هو بباسط يده إليه ليقتله لتقواه و خوفه من الله سبحانه، و إنّما يريد على هذا التقدير أن يرجع القاتل و هو يحمل إثم المقتول و إثم نفسه فيكون من أصحاب النار و ذلك جزاء الظالمين، إلى أن قال: ثمّ ذكر تأويل قوله: «لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ»، إلخ، بمعنى حقيقة هذا الذي أخبر به، و محصّله: أنّ الأمر على هذا التقدير يدور بين أن يقتل هو أخاه فيكون هو الظالم الحامل للإثم الداخل في النار، أو يقتله أخوه فيكون هو كذلك، و ليس يختار قتل أخيه الظالم على سعادة نفسه و ليس بظالم، بل يختار أن يشقي أخوه الظالم بقتله و يسعد هو و ليس بظالم، و هذا هو المراد بقوله: «إِنِّيٓ أُرِيدُ»، إلخ، كنّى بالإرادة عن الاختيار على تقدير دوران الأمر.

فالآية في كونها تأويلا لقوله: «لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ»، إلخ، كالذي وقع في قصّة موسى و صاحبه حين قتل غلاما لقياه فاعترض عليه موسى بقوله: «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا» فنبّأه صاحبه بتأويل ما فعله بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[1].

فقد أراد المقتول، أي: اختار الموت مع السعادة و إن استلزم شقاء أخيه بسوء اختياره على الحياة مع الشقاء و الدخول في حزب الظالمين، كما اختار صاحب

---

١. الكهف: ٨١ ـ ٨٠.

موسى موت الغلام مع السعادة و إن استلزم الحزن و الأسى من أبويه على حياته و صيرورته طاغيا كافرا يضلّ بنفسه و يضلّ أبويه، و الله يعوّضهما منه من هو خير منه زكاة و أقرب رحما، إلى أن قال: و من هنا، يظهر اندفاع ما اُورد على القصّة: أنّه كما أنّ القاتل منهما أفرط بالظلم و التعدي، كذلك المقتول قصّر بالتفريط و الانظلام حيث لم يخاطبه و لم يقابله بالدفاع عن نفسه، بل سلّم له أمر نفسه و طاوعه في إرادة قتله حيث قال له: «لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ» إلخ.

وجه الاندفاع أنّه، لم يقل: إنّي لاأدافع عن نفسي و أدعك و ما تريد منّي و إنّما قال: لست اُريد قتلك، و لم يذكر في الآية أنّه قتل و لم يدافع عن نفسه على علم منه بالأمر، فلعلّه قتله غيلة أو قتله و هو يدافع أو يحترز، إلى أن قال: و المراد بقوله: ﴿أَن تَبُوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أن ينتقل إثم المقتول ظلما إلى قاتله على إثمه الذي كان له فيجتمع عليه الإثمان، و المقتول يلقي الله سبحانه و لا إثم عليه، فهذا ظاهر قوله: «أَن تَبُوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ» و قد ورد بذلك الروايات و الاعتبار العقلي يساعد عليه، إلى أن قال: و الإشكال عليه بأنّ لازمه جواز مؤاخذة الإنسان بذنب غيره، و العقل يحكم بخلافه، و قد قال الله تعالى: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] مدفوع بأنّ ذلك ليس من أحكام العقل النظري حتّى يختم عليه باستحالة الوقوع، بل من أحكام العقل العملي التي تتبع مصالح المجتمع الإنساني في ثبوتها و تغيرها، و من الجائز أن يعتبر المجتمع الفعل الصادر عن أحد فعلا صادرا عن غيره و يكتبه عليه و يؤاخذه به، أو الفعل الصادر عنه غير صادر عنه كما إذا قتل إنسانا و

---

١. النجم: ٣٨.

للمجتمع على المقتول حقوق كان يجب أن يستوفيها منه، فمن الجائز أن يستوفي المجتمع حقوقه من القاتل، و كما إذا بغي على المجتمع بالخروج و الإفساد و الإخلال بالأمن العام فإنّ للمجتمع أن يعتبر جميع حسنات الباغي كأن لم تكن، إلى غير ذلك. ففي هذه الموارد و أمثالها لايرى المجتمع السيئات التي صدرت من المظلوم إلا أوزارا للظالم، و إنّما تزر وازرته وزر نفسها لاوزر غيرها، لأنّها تملكتها من الغير بما أوقعته عليه من الظلم و الشرّ نظير ما يبتاع الإنسان ما يملكه غيره بثمن، فكما أنّ تصرّفات المالك الجديد لاتمنع لكون المالك الأوّل مالكا للعين زمان لانتقالها إلى غيره ملكا، كذلك لايمنع قوله: «لَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» مؤاخذة النفس القاتلة بسيئة بمجرّد أنّ النفس الوازرة كانت غيرها زمانا، و لا أنّ قوله: «لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» يبقى بلافائدة و لاأثر بسبب جواز انتقال الوزر بسبب جديد كما لايبقى قوله عليه السلام: «لايحلّ مال امرىء مسلم إلّا بطيب نفسه» بلافائدة بتجويز انتقال الملك ببيع و نحوه.

و قد ذكر بعض المفسرين: أنّ المراد بقوله: «بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ» بإثم قتلي إن قتلتني و إثمك الذي كنت أثمته قبل ذلك، إلى أن قال: أو أنّ المراد بإثم قتلي و إثمك الذي لم يتقبّل من أجله قربانك، إلى أن قال: أو أنّ معناه بإثمي و إثمك الذي هو قتل جميع الناس، إلى أن قال:

و هذه وجوه ذكروها ليس على شيء منها من جهة اللفظ دليل، و لايساعد عليه اعتبار. على أنّ المقابلة بين الإثمين مع كونهما جميعا للقاتل، ثمّ تسمية أحدهما بإثم المقتول و غيره بإثم القاتل خالية عن الوجه، انتهى.

و في كنز الدقائق: و في كتاب ثواب الأعمال: قال أبوجعفر عليه السلام: من قتل مؤمنا متعمدا أثبت الله على قاتله جميع الذنوب و برأ المقتول منها، و ذلك قول الله عزّوجلّ: «إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ» و كلاهما متعلق بمحذوف في موضع الحال من فاعل تبوء، أي: متلبسا بالإثمين حاملاً لهما، انتهى.

و في تفسير الكرمي: قائل قول: لئن بسطت هو الأخ المحسود الذي هدّده حاسده بالقتل و ليس معنى «مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ»، أنّني حتّى في مقام الدفاع أقف أمامك مكتوف اليدين، بل معناه أنّني لاأبتدؤك بقتال أصلا، لأنّني «أَخَافُ ٱللَّهَ»، و الله سبحانه منع من الابتداء بأيّة أذيّة لأيّ أحد كان، و لاشك أنّ سكوني عنك سيغريك بالجهل لأنّك جاهل، و متى أعملت جهلك فقد رجعت إلى زاوية مظلمة بالجرائم تلك الجرائم التي تلحقك بسبب قتلك لي و جرائمك السابقة التي من بعضها أعمالك للحسد، و إذا كنت مضاعف الذنوب كنت «مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ» الملازمين لها و ملازمة النار جزاء الظالم، فرغّبت هذا الجاهل نفسه في قتل أخيه فأعمل رغبة نفسه فأصبح خاسرا لنفسه عند ربّه و خاسرا لأخيه عند نفسه لو التفت، انتهى.

و المحكيّ عن الشعراني: هذا الاختلاف لم ينجرّ فقط إلى قتل هابيل من أولاد آدم في عصر آدم، بل يجري فيهما إلى قيام يوم الدين، واحد منهم يهيأ أسباب التقرّب إلى الله و يدرك السعادة و الآخر يقصر و يصير محروما. و الحسد يوجب الحرب بينهم، انتهى.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

و في جوامع الجامع: روي أنه لمّا قتله تركه بالعراء لايدري ما يصنع به؟ فقصده السباع فحمله في جراب على ظهره حتّى أروح و عكفت عليه الطير و السباع، «فَبَعَثَ ٱللَّهُ» غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثمّ حفر له بمنقاره و رجليه ثمّ ألقاه في الحفرة فـ«قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ»، «لِيُرِيَهُۥ» الله أو ليريه الغرابُ، أي: ليعلمه، و لمّا كان سبب تعليمه فكأنّه قصد تعليمه. و السوءة: ما لايجوز أن ينكشف من الجسد، و أصلها الفضيحة، فكني بها عن العورة.

«فَأُوَٰرِىَ» جواب الاستفهام، «فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ» على قتله لما تعب فيه من حمله على ظهره و تحيّره في أمره و سخط أبيه و لم يندم ندم التائبين، انتهى.

و في الميزان: البحث طلب الشيء في التراب، ثمّ يقال: بحثت عن الأمر بحثا كذا في المجمع. و المواراة: الستر، و منه التواري للتستّر، و الوراء لما خلف الشيء. و السوأة ما يتكرّهه الإنسان. و الويل: الهلاك، و يا ويلتا كلمة تقال عند الهلكة، و العجز مقابل الاستطاعة.

و الآية بسياقها تدلّ على أنّ القاتل قد كان بقي زمانا على تحيّر من أمره، و كان يحذر أن يعلم به غيره، و لايدري كيف الحيلة إلى أن يظفروا بجسده حتّى بعث الله الغراب، و لو كان بعث الغراب و بحثه و قتله أخاه متقاربين لم يكن وجه لقوله: «يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ»، إلى أن قال: و الغراب من بين الطير من عادته أنّه يدّخر بعض ما اصطاده لنفسه بدفنه في الأرض و بعض ما يقتات بالحبّ و نحوه من الطير و إن كان ربّما بحث في الأرض ولكنّه للحصول على مثل الحبوب و الديدان لاللدفن و الإدخار. و ما تقدّم من إرجاع ضمير الفاعل في «لِيُرِيَهُۥ» إلى الغراب و هو الظاهر من الكلام لكونه هو المرجع القريب، و ربّما قيل: إنّ الضمير راجع إلى الله سبحانه، و لا بأس به لكنّه لايخلو عن شيء من البعد، و المعنى صحيح على التقديرين، و أمّا قوله قال: «يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ» (الآية)، فإنّما قاله لأنّه استسهل ما رأى من حيلة الغراب للموارة فإنّه وجد نفسه تقدر على إتيان مثل ما أتى به الغراب من البحث ثمّ التوسّل به إلى المواراة لظهور الرابطة بين البحث و المواراة، و عند ذلك تأسّف على ما فاته من الفائدة، و ندم على إهماله في التفكر في التوسّل إلى المواراة حتّى يستبين له أنّ البحث هو الوسيلة القريبة إليه، فأظهر هذه الندامة بقوله: «يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي»، إلى أن قال: و قد اتّضح بما تقدّم من البيان: أنّ قوله: «فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ» إشارة إلى ندامته على عدم مواراته سوأة أخيه، و ربّما أمكن أن يقال: إنّ المراد به ندمه على أصل القتل و ليس ببعيد، انتهى.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: و «ذَٰلِكَ» إشارة إلى قتل المذكور، و «مِنْ» لابتداء الغاية، أي: ابتدأ كتبنا على بني إسرائيل من أجل ذلك، إلى أن قال: «أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ» «بِغَيْرِ نَفْسٍ» أي: بغير قتل نفس بمعنى بغير قود، «أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ» أو بغير فساد في الأرض و هو الحرب لله و رسوله و إخافة السبل.

«فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» أي: فكأنّه قصد لقتلهم جميعا إذ قتل أخاهم و صار الناس كلّهم خصماءه في قتل تلك النفس.

«وَمَنْ أَحْيَاهَا» بأن استنقذها من غرق أو حرق أو هدم و نحوها أو أخرجها من ضلال إلى هدى «فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» يأجره الله على ذلك أجر من أحياهم بأسرهم، لأنّهم في إسدائه المعروف إليهم بإحيائه أخاهم المؤمن بمنزلة من أحيا كلّ واحد منهم.

«بَعْدَ ذَٰلِكَ» أي: بعد ما كتبنا عليهم «فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» في القتل لايبالون به، انتهى.

و في الميزان: و أمّا المنزلة التي يدلّ عليها قوله: «فَكَأَنَّمَا»، إلخ، فقد تقدّم بيانه أنّ الفرد من الإنسان من حيث حقيقته المحمولة له التي تحيا و تموت إنّما

يحمل الإنسانية التي هي حقيقة واحدة في جميع الأفراد و البعض و الكلّ، و الفرد الواحد و الأفراد الكثيرون فيه واحد، و لازم هذا المعنى أن يكون قتل النفس الواحدة بمنزلة قتل نوع الإنسان و بالعكس إحياء النفس الواحدة بمنزلة إحياء الناس جميعا، و هو الذي تفيده الآية الشريفة، انتهى.

و فيه: أنّ الفرد حامل للحصّة لا الطبيعة الكلية، و لعلّ التشبيه المذكور لإفادة فخامة أمر الإنسان، فإنّه بين الأمرين: قتل واحد منهم كقتل جميع الأفرد، و إنقاذ واحد منهم كإنقاذ جميع الآحاد.

و كيف كان، ففي الميزان: و ربّما أشكل على الآية أوّلا: بأنّ هذا التنزيل يفضي إلى نقض الغرض فإنّ الغرض، بيان أهميّة قتل النفس و عظمته من حيث الإثم و الأثر، و لازمه أن تزيد الأهميّة كلّما زاد عدد القتل، و تنزيل الواحد منزلة الجميع يوجب أن لايقع بإزاء الزائد على الواحد شيء، فإنّ من قتل عشرا كان الواحدة من هذه المقاتل تعدّ قتل الجميع، و تبقى الباقي و ليس بإزائه شيء.

و لايندفع الإشكال بأن يقال: إنّ قتل العشرة يعدل عشرة أضعاف قتل الجميع، و إنّ قتل الجميع يعدل قتل الجميع بعدد الجميع، لأنّ مرجعه إلى المضاعفة في عدد العقاب، و اللفظ لايفي ببيان ذلك.

على أنّ الجميع مؤلّف من آحاد كلّ واحد منها يعدل الجميع المؤلّف من الآحاد كذلك، و يذهب إلى ما لانهاية له، و لامعنى للجميع بهذا المعنى، إذ لافرد واحد له فلاجميع من غير آحاد. على أنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[1].

---

١. الأنعام: ١٦٠.

و ثانياً: بأنّ كون قتل الواحد يعدل قتل الجميع، إن أُريد به قتل الجميع الذي يشتمل على هذا الواحد كان لازمه مساواة الواحد مجموع نفسه و غيره و هو محال بالبداهة، و إن أُريد به قتل الجميع باستثناء هذا الواحد كان معناه من قتل نفسا فكأنّما قتل غيرها من النفوس، و هو معنى رديء مفسد للغرض من الكلام و هو بيان غاية أهميّة هذا الظلم. على أنّ إطلاق قوله: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» من غير استثناء يدفع هذا الاحتمال. و لايندفع هذا الإشكال بمثل قولهم: إنّ المراد هو المعادلة من حيث العقوبة أو مضاعفة العذاب و نحو ذلك و هو ظاهر.

و الجواب عن الإشكالين: أنّ قوله: «مَن قَتَلَ نَفْسَا» إلى قوله: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» كناية عن كون الناس جميعا ذوي حقيقة واحدة إنسانية متّحدة فيها، الواحد منهم و الجميع فيها سواء، فمن قصد الإنسانيّة التي في الواحد منهم فقد قصد الإنسانيّة التي في الجميع كالماء إذا وزّع بين أواني كثيرة، فمن شرب من أحد الآنية فقد شرب الماء، و قد قصد الماء من حيث إنّه ماء و ما في جميع الآنية لايزيد على الماء من حيث أنّه ماء فكأنّه شرب الجميع، فجملة: «مَن قَتَلَ»، إلخ، كناية في صورة التشبيه، و الإشكالان مندفعان، فإنّ بناءهما على كون التشبيه بسيطا يزيد فيه وجه الشبه على حسب زيادة المشبه عددا، إذ لو سوي حينئذٍ بين الواحد و الجميع فسد المعنى و عرض الإشكال كما لو قيل: الواحد من القوم كالواحد من الأسد و الواحد منهم كالجميع في البطش و البسالة، إلى أن قال: و أمّا قوله تعالى: «ثمّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» فهو متمّم للكلام، بانضمامه إليه يستنتج الغرض المطلوب من البيان، و

هو ظهور أنّهم قوم مفسدون مصرّون على استكبارهم و عتوهم، فلقد بيّنّا لهم منزلة القتل و جاءتهم رسلنا فيها و في غيرها بالبيّنات، و بيّنوا لهم و حذروهم، و هم مع ذلك لم ينتهوا عن إصرارهم على العتوّ و الاستكبار، فأسرفوا في الأرض قديما و لايزالون يسرفون. و الإسراف الخروج عن القصد و تجاوز الحدّ في كلّ فعل يفعله الإنسان، انتهى.

و لايخفى عليك: أنّ التشبيه المذكور في طرف القتل، و الإحياء أمر يعرفه العرف إذ يحكي عن أهميّة الفرد الواحد من هذه الحقيقة، فإنّه يساوي الجميع في طرف النفي و الإثبات.

قال الفاضل الشعراني: من سنّ سنّة سيّئة كان عليه مثل وزر من عمل بها، يعني: من سنّ سنّة سيّئة أو حسنة كان شريكا مع كلّ من ارتكبها و أتى بها. و الوجه فيه: أنّ الإتيان بالسيّئة يوجب رفع شناعتها و التجرّي نحوها، كما أنّ الإتيان بالحسنة يوجب رغبة الآخرين لارتكابها. و التجرّي و الرغبة توجبان شركة من سنّ السيّئة و الحسنة و تجري الغير نحوه، فمن رغب بفعل السيّئة أو الخير من الغير كان شريكا معه، انتهى.

قال كنز الدقائق في قوله: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» (الآية)، و من تسبّب لبقاء لحياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنّما فعل ذلك بالناس جميعا، و الغرض منه تعظيم قتل النفس و إحيائها في القلوب ترهيبا عن التعرّض لها و ترغيبا في المحاماة عليها، إلى أن قال:

و في كتاب الاحتجاج للطبرسي(رحمه‌الله): عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل، و فيه: قال النبي صلى الله عليه وآله : من استنّ بسنّة حقّ كان له أجرها و أجر من عمل

بها إلى يوم القيامة، و من استنّ بسنّة باطل كان عليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة، و لهذا القول من النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاهد من كتاب الله و هو قول الله عزّوجلّ في قصّة قابيل قاتل أخيه: « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا»، انتهى.

قال في تفسير الكرمي: طبعا يكون فعل كلّ حكيم متمركزا على أسس صالحة و قواعد رصينة و غايات عالية و في طليعة ذلك فعل الله، فإنّه لم يخلق البشر لتحمّل الأذى و نشر الفساد و إيجاد الخصومات، بل خلقته لينوش لذّة جسمه و سعادة نفسه، و لذلك لم يسنّ له في أصل خلقته قانون جزاء، لأنّ قوانين المجازاة إنّما تسنّ للمخربين، و التخريب ليس من أهداف الخلقة لكن البشر لمّا انحرف عن الجادّة المرادة له باختياره و أخذت السيئات تتبادر منه وضع له عند بروز كلّ بادرة حدّ فاصل و أوّل بروز البوادر ما صنعه قابيل بهابيل، فكان ذلك مدعاة لوضع قانون القصاص بعد الإشارة بأصل علمي جعل كالمقدّمة لوضع هذا القانون و هو أنّ كلّ من يسنّ سنّة سيّئة تحمل عليه أوزار سيّئته و أوزار كلّ عامل بها إلى الأبد لأنّه اخترع بذلك ما لم يكن موجودا بين الناس فمهّده و وضعه بين أيديهم فعرفوه و ألفوه، و هكذا مخترع الحسنة يكون له ثوابها و ثواب من يعمل بها بعين الملاك، انتهى.

و لايخفى عليك أنّ الآية المباركة ليست في مقام بيان القصاص، بل هي في مقام فخامة قتل الإنسان و حفظ حياته لبني إسرائيل الذين لايكون عندهم قتل الإنسان واجدا للأهميّة المناسبة، فلاتغفل.

و قال في الميزان: و أمّا قوله تعالى: «ثمّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» فهو متمّم للكلام، بانضمامه إليه يستنتج الغرض المطلوب من البيان، و هو ظهور أنّهم قوم مفسدون مصرّون على استكبارهم و عتّوهم، فلقد بيّنّا لهم منزلة القتل و جاءتهم رسلنا فيها و في غيرها بالبيّنات، و بيّنوا لهم و حذّروهم، و هم مع ذلك لم ينتهوا عن إصرارهم على العتوّ و الاستكبار، فأسرفوا في الأرض قديما و لايزالون يسرفون. و الإسراف الخروج عن القصد و تجاوز الحدّ في كلّ فعل يفعله الإنسان، و إن كان يغلب عليه الاستعمال في مورد الإنفاق كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1] على ما ذكره الراغب في المفردات، انتهى.

و في كنز الدقائق و في مجمع البيان عن أبي جعفر عليه السلام: المسرفون هم الذين يستحلّون المحارم و يسفكون الدماء، انتهى.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

---

١. الفرقان: ٦٧.

و في جوامع الجامع: لفظة «إِنَّمَا» تفيد أنّ المعنى ما جزاؤهم إلّا هذا. «يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ» أي: أولياء الله كقوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ» «وَرَسُولَهُۥ» أي: و يحاربون رسوله، و محاربة المسلمين في حكم محاربته. «وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا» أي: مفسدين، أو لأنّ سعيهم في الأرض لمّا كان على طريق الفساد نزل منزلة أن يقال: و يفسدون في الأرض فساداً، و يجوز أن يكون مفعولا له أي: للفساد، و روي عن أئمّتنا عليهم السلام أنّ المحارب كلّ من شهر السلاح و أخاف الطريق، و جزاؤه على قدر استحقاقه: فإن جمع بين القتل و أخذ المال فجزاؤه أن يقتل و يصلب، و إن أفرد القتل فجزاؤه أن يقتل، و إن أفرد أخذ المال، فجزاؤه أن تقطع يده لأخذ المال و رجله لإخافة السبيل، و من أفرد الإخافة نفي من الأرض. و قوله: «مِّنْ خِلَٰفٍ» معناه اليد اليمنى و الرجل اليسرى،و النفي هو أن ينفى من بلد إلى بلد إلى أن يتوب و يرجع. «ذَٰلِكَ» إشارة إلى ما ذكرناه. «لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا» أي: فضيحة و هوان. «وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» يدلّ على أنّ الحدود لاتكفّر المعاصي لأنّه بيّن أنّهم يستحقّون العذاب العظيم مع إقامة الحدود عليهم، «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟»، استثناء من المعاقبين، فأمّا حكم القتل و الجرح و أخذ المال فإلى الأولياء، انتهى.

و في كنز الدقائق: محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن ابن محبوب، عن أبي أيّوب، عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من شهر السلاح في مصر من الأمصار فعقر اقتصّ منه و نفي من ذلك البلد، و من شهر السلاح في غير الأمصار و ضرب و عقر و أخذ المال و لم يقتل فهو محارب فجزاؤه جزاء

المحارب و أمره إلى الإمام إن شاء قتله، و إن شاء صلبه، و إن شاء قطع يده و رجله، قال: و إن ضرب و قتل و أخذ المال فعلى الإمام أن يقطع يده اليمنى بالسرقة ثمّ يدفعه إلى أولياء المقتول فيتبعونه بالمال ثمّ يقتلونه، قال: فقال أبوعبيدة: أصلحك الله إن رأيت إن عفا عنه أولياء المقتول؟ قال: فقال أبوجعفر عليه السلام: إن عفوا عنه فإنّ على الإمام أن يقتله، لأنّه قد حارب و قتل و سرق، قال: فقال أبوعبيدة: أرأيت إن «أراد» أولياء المقتول أن يأخذوا منه الدية و يدعونه، ألهم ذلك؟ قال: لا عليه القتل، إلى أن قال:

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن محمّد بن يحيى، عن طلحة «بن زيد» قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: كان أبي عليه السلام يقول: إنّ للحرب حكمين، إذا كانت الحرب قائمة لم تضع أوزارها و لم يثخن أهلها فكلّ أسير أُخذ في تلك الحال، فإنّ الإمام فيه بالخيار، إن شاء ضرب عنقه، و إن شاء قطع يده و رجله من خلاف بغير حسم، و تركه يتشحّط في دمه حتّى يموت، و هو قول الله عزّوجلّ: «إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». ألا ترى أنّ المخيّر الذي خيّره الله الإمام على شيء واحد و هو الكفر و ليس هو على أشياء مختلفة، فقلت لأبي عبدالله صلوات الله عليه: قول الله تعالى: «أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ»، قال: ذلك الطلب أن تطلبه الخيل حتّى يهرب، فإن أخذته الخيل حكم عليه ببعض الأحكام التي وصفت لك، انتهى.

قال في كلمات سديدة: فالجاري على لسان جمّ غفير أنّ المراد بالمحارب المذكور في الآية الشريفة إنّما هو خصوص من جرّد سلاحه لإخافة الناس، فلايعمّ من قام بالسيف و السلاح في وجه الحكومة.

و لتحقيق هذا الأمر يجب البحث عن مقامين:

أحدهما: الفحص عن كلمات علمائنا الأخيار، و أنهم هل خصّوا المحارب أو حكمه بخصوص الشاهر سلاحه لإخافة الناس، المقام الثاني: البحث في مقتضى نصّ الدليل، أعني الآية الكريمة و الروايات المعتبرة الواردة في تفسيرها. أمّا المقام الأوّل: ... إلى أن قال: و قال شيخ الطائفة﵀ في كتاب قطّاع الطريق من المبسوط، بعد ذكر الآية و نقل قول قوم بأنّ المراد بها أهل الذمّة إذا نقضوا العهد و لحقوا بدار الحرب و حاربوا المسلمين، و قول قوم آخر بأنّ المراد بها المرتدّون عن الإسلام، إذا ظفر بهم الإمام عاقبهم بهذه العقوبة، و قول جميع الفقهاء بأنّ المراد بها قطّاع الطريق، و هو من شهر السلاح و أخاف السبيل لقطع الطريق، قال﵀ ما لفظه: و الذي رواه أصحابنا أنّ المراد بها كلّ من شهر السلاح و أخاف الناس في برّ كانوا أو في بحر. و في البنيان أو في الصحراء، و رووا أنّ اللصّ أيضا محارب. و في بعض رواياتنا أنّ المراد بها قطّاع الطريق كما قال الفقهاء، فكلامه﵀ ظاهر في اختصاص المراد من المحارب المذكور في الآية بحسب مشهور رواياتنا بخصوص من شهر السلاح لإخافة الناس، و بحسب بعض الروايات بقطّاع الطريق و على أيّ حال فاللصّ المسلح أيضا ملحق به.

و قال الشيخ ﷺ في كتاب قطّاع الطريق من الخلاف مسألة ١: المحارب الذي ذكره الله تعالى في آية المحاربة هم قطّاع الطريق الذي يشهرون السلاح و يخيفون السبيل. و به قال ابن عباس و جماعة الفقهاء. و قال قوم: هم أهل الذمّة إذا نقضوا العهد و لحقوا بدار الحرب و حاربوا المسلمين. و قال ابن عمر: المراد بالآية، المرتدّون، لأنّها نزلت في العرينيين[1].

دليلنا إجماع الفرقة و أخبارهم. و أيضا قوله تعالى: في سياق الآية «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، فأخبر أنّ العقوبة تسقط بالتوبة قبل القدرة عليه. و لو كان المراد بها أهل الذمّة و أهل الردّة كانت التوبة منهم قبل القدرة و بعد القدرة سواء، فلمّا خصّ بالذكر التوبة قبل القدرة و أفردها بالحكم دلّت الآية على ما قلناه. أقول: فتراه ﷺ قد اختار أنّ المراد بالمحارب في الآية المباركة قطّاع الطريق بالسلاح، و ادّعى عليه إجماع الفرقة و أخبارهم مع أنّ ظاهر مبسوطه الذي نسبه إلى رواية الأصحاب أنّ المراد به كلّ من شهر السلاح و أخاف الناس، و نسب ما اختاره في الخلاف إلى بعض الروايات.

ثمّ نقل في كلمات سديدة كلمات الأصحاب و قال: و المتحصّل منها أنّهم متّفقون على تفسير المحارب بمن يشهر السلاح و يجرّده إلا أنّ أكثرهم قيّده بكون الغاية من الإشهار المذكور مجرد إخافة الناس كما في المبسوط و النهاية و المهذب لابن البراج و حدود السرائر و الشرائع و النافع و القواعد و الإرشاد و

---

١. العرينة: موضع قريب مكة.

الدروس، و بعضهم جعل الغاية إخافة الناس لأخذ المال و قطع الطريق كما في الخلاف و التبيان و كافي أبي الصلاح و مجمع البيان و كما أنّ بعضهم فسّره بمجرّد تجريد السلاح، كابن حمزة في وسيلته، و بعضهم بتجريد السلاح لأخذ المال، كما في الغنية و إشارة السبق و جهاد السرائر و لعلّ كلا منهما ملحق بأحد الأوّلين، فإن تجريد السلاح لايخلو في الغالب عن غاية الإخافة.

هذا محصّل الكلمات المذكورة، و سيّدنا الأُستاذ الإمام الراحل قدس سره، قد وافق المطائفة الأُولى و هم الأكثرون، فقال في تحرير الوسيلة: مسألة ١ ـ المحارب هو كلّ من جرّد سلاحه أو جهّزه لإخافة الناس، و إرادة الإفساد في الأرض في برّ كان أو في بحر في مصر أو غيره ليلاً أو نهاراً.

و لعلّه الظاهر من سيّدنا الأُستاذ العلّامة الخوئي قدس سره في تكملته حيث قال في كتاب الحدود: الخامس عشر: المحاربة: مسألة ٢٦٠: من شهر السلاح لإخافة الناس نفي من البلد، و من شهر فعقر اقتصّ منه ثمّ نفي من البلد، إلخ.

فإنّ عنوان البحث بالمحاربة ثمّ تصدير المسألة بقوله: من شهر السلاح لإخافة الناس ربّما يستظهر منه أنّ المحاربة ليست أزيد من إشهار السلاح لإخافة الناس و الأمر سهل.

فالحاصل من جميع ما ذكرنا: أنّه لو كان وجب علينا الأخذ بتفسير الأصحاب رضي الله عنهم في تفسير المحاربة لكان لازمه أن لايكون من يقوم بالسلاح في وجه الدولة الإسلامية فقط داخلا في عموم الآية المباركة، فإنّه حينئذٍ لم يشهر السلاح لإخافة الناس و لا لأخذ المال. اللهمّ إلّا أن يكون داخلا في عموم تفسير ابن حمزة في الوسيلة إذ لم يقيّد هو تجريد السلاح بشيء، و ذلك أيضا لو لم

ينصرف إلى ما كان للإخافة، لكنّك تعلم أنّ تفسيرهم لها إنّما يكون حجّة إذا كان اتّفاق كلمتهم فيه كاشفا عن رأي المعصوم عليه السلام أو حجّة معتبرة، و إلّا فلو احتمل استنادهم إلى بعض ما لا نراه حجة فلاحجّة في كلماتهم علينا كما هو واضح.

و أمّا المقام الثاني: أعني البحث عن مفاد الآية المباركة «إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ» إلخ.

فنقول: إنّ المحاربة مأخوذة من الحرب، و الحرب معناه واضح معروف كما في مفردات الراغب: و هو المقاتلة و المنازلة، و مرادفه بالفارسية «جنگ»، كما يظهر ذلك كلّه بعد بداهته في نفسه بمراجعة كتب اللغة، و عليه، فالمحاربة هي القيام بالحرب و محاربة الله و رسوله إنّما تكون بأن يكون طرف هذا الحرب هو الله و الرسول، أي بأن يقاتل المحارب جنود الله و رسوله و هو أن يشهر سلاحه في وجه الدولة الإسلامية التي أسّسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امتثالا لأمر الله تعالى، ... إلى أن قال: فمقتضى قاعدة أصالة الحقيقة في مادّة المحاربة هو أن يراد منها ذلك المعنى لا غير و عليه، فما لم يكن قيام بالسيف في وجه الدولة الإلهية لايصدق المعنى الحقيقي للمحاربة و لايكون مشمولا للآية المباركة.

فمن شهر سلاحه لإخافة الناس أو لأخذ أموالهم فليس مشمولا للآية بحسب ظاهرها بنفسه كما أنّ من قام بصدد عصيان أمر الله تعالى و نواهيه حتّى في الواجبات و المحرّمات المؤكدة فلايصدق عليه المحارب إذا روعي المعني الحقيقي لمادّة المحاربة، بل إنّ مصداقه الحقيقي ينحصر في من قام للقتال مع

الدولة الإسلامية و شهر سلاحه له سواء كان قيامه قيام دولة اُخرى في وجه الدولة الإسلامية، أم قيام فرقة مارقة مسلمة في وجهها.

بل ربّما يدّعى عمومه للكفّار المقاتلين للمسلمين، لكنّه لايمكن التصديق له، و ذلك أنّ قوله تعالى: «إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» ظاهر في أنّ المحاربين المذكورين في الآية السابقة هم المسلمون إذ لم يشترط في شمول غفران الله و رحمته لهم أزيد من توبتهم عن هذه المحاربة، و هذا قرينة على أنّهم كانوا مسلمين و أنّه بمجرّد التوبة عن المحاربة يجري عليهم أحكام سائر المسلمين، و إلّا فلو كانوا كفّارا لاحتاج شمول الرحمة و المغفرة لهم إلى أن يدخلوا في حصن الإسلام و لم يكف مجرّد رفع يدهم عن المقاتلة.

فالحاصل أنّ ظاهر الآية بنفسها أنّ موضوع الأحكام المذكورة فيها إنّما هو خصوص المسلمين الذين يقومون بالسلاح في وجه الدولة و لايعمّ من شهر سلاحه لإخافة الناس أو أخذ مالهم و لا من عصى الله تعالى و لو بمعاصي كبيرة.

نعم إن قام دليل خاص على إرادة كلّ منهما فلابأس به فإنّه من المصاديق الادّعائية للموضوع المذكور، إلى أن قال: هذا هو ظاهر الآية المباركة بنفسها و هي و في قبال ما حقّقناه أمران:

أحدهما: ما عن سيّدنا الأستاذ العلّامة الطباطبائي: من أنّ ظاهر الآية بنفسها أنّ المراد بالمحارب المذكور هو عين ما فسّره به الأكثرون من الأصحاب أعني من شهر السلاح لإخافة الناس. إلى أن قال: حمل مادّة المحاربة على شهر السلاح لإخافة الناس غير مستقيم، أمّا أوّلا فلأنّ قولنا: يحاربون الله مشتمل على مادّة

المحاربة و هيأة تعليق الفعل على المفعول به، و لكلّ منهما معنى حقيقي و مجازي، فإرادة حقيقة القتال و أنّه واقع على الله تعالى هي التي صحّ أن يقال: إنّها مستحيلة، لكنّه إذا اُريد من مادة المحاربة إبطال أثر أحكام الله تعالى و لاسيّما ما كان للرسول ﷺ فيه ولاية ارتفع المحذور كما أنّه لو اُريد منها معناها الحقيقى، و كان تعليقه على الله تعالى من باب المجاز في الإسناد و بعناية أنّ من قاتل الدولة الإلهية التي أسّسها رسول الله ﷺ فكأنّه قاتل الله تعالى ارتفع المحذور. و بالجملة فالأمر دائر بين أن يقع المجاز في الكلمة و بين أن يقع المجاز في الإسناد، و الظاهر أنّه عند هذا الدوران يكون إرادة المجاز في الإسناد أولى و أظهر عند العرف، فينعقد عندهم ظهور الآية في القتال لرسول الله و دولته الإلهية، و هذا هو الذي قلناه. و أمّا ثانيا: فلأنّه و إن سلّمنا كونه من باب المجاز في الكلمة إلّا أنّ اختصاص المراد منها بخصوص شهر السلاح لإخافة الناس ممنوع، بل عليه ينبغي أن يقال: بصدقه في الموردين و ممّا يشهد لشمول الآية المباركة لما ادّعيناه معتبرة طلحة بن زيد، لأنّ الحديث صريح في التطبيق على باب الحرب و الجهاد و هو دليل على عدم اختصاصه بغيره، إلى أن قال: ثانيهما: أن يقال: ظاهر الآية بنفسها و إن كان الاختصاص و لاأقلّ من الشمول لما إذا كان القيام بالحرب لهدم الدولة الإسلامية، و لما إذا قاموا بالقتال معها و حاربوها، إلّا أنّ هنا عدّة من الأخبار هو خصوص ما قاله المشهور من أنّ المحمارب هو خصوص من شهر سيفه لإخافة الناس، إلى أن قال: لادلالة على أنّ المحاربة منحصرة في شهر السلاح لإخافة الناس، و إنّما يكون في مقام بيان المورد و هو

لاينافي أن يؤخذ بظاهر الآية، إذ يكون مورد النزول و أمثاله افرادا ادّعائيا له، إلى أن قال: فالمتحصّل ممّا ذكرنا أنّه لم يقم دليل على إرادة خلاف الظاهر من آية المحاربة و على اختصاص عنوان المحارب بخصوص من شهر سلاحه لإخافة الناس، بل لاأقلّ من أنّه عامّ شامل لمن قام بسلاحه في وجه الدولة الإسلامية فيجري عليه أحد الحدود الأربعة المذكورة في الآية الشريفة جزاء على المحاربة، و لانحتاج في إجراء القتل عليه إلى صدق عنوان البغي على الإمام العادل و عموم أدلّته و إن كان هو أيضا حقّا و الله العالم. انتهى.

و لقائل أن يقول: تخصيص الآية الشريفة أعني آية المحاربة بالمسلمين بقرينة التوبة كما ترى، لأنّ التوبة بإطلاقها يشمل الكافر و المسلم، و عليه فالآية الكريمة تشمل الكافر كما يشهد له صحيحة طلحة بن زيد. و لافرق في ذلك بين كون الكافر ذميّا أو غير ذمّي. ثمّ إنّ تطبيق المحارب على من شهر سيفه يدلّ على عمومية الآية الكريمة، و لاينافي شمول الآية للمحاربين للدولة الإسلامية. و بقية الكلام في محلّه.

ثمّ إنّ التقبّل كما في الميزان يفيد شدّة في معنى المجرّد أو زيادة فيه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «ٱلْوَسِيلَةَ» كلّ ما يتوسّل به إليه من الطاعات و ترك المقبحات، و عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلوا الله لي الوسيلة فإنّها درجة في الجنّة لاينالها إلا عبد واحد أرجو أن أكون أنا هو. و روى الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام في الجنّة لؤلؤتان إلى بطنان العرش: إحداهما بيضاء و الأُخرى صفراء، في كلّ واحد منهما سبعون ألف غرفة فالبيضاء: الوسيلة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم و أهل بيته عليهم السلام و الصفراء لإبراهيم و أهل بيته عليهم السلام . «لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ»، ليجعلوه فدية لأنفسهم، و هذا تمثيل لنزول العذاب بهم و أنّه لاسبيل لهم إلى الخلاص منه بوجه، و «لَوْ» مع ما في حيّزه خبر «إِنَّ»، و وحّد الضمير في «بِهِۦ» مع أنّ المذكور شيئان لأنّه أجرى مجرى اسم الإشارة، أي: ليفتدوا بذلك، أو يكون نحو قوله: « فإنّي و قيّار بها لغريب»، انتهى.

و في الميزان: قال الراغب في المفردات، الوسيلة التوصّل إلى الشيء برغبة، و هي أخصّ من الوصيلة، لتضمّنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: «وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ»، و حقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم و العبادة، و تحري مكارم الشريعة، و هي كالقربة، و إذ كانت نوعا من التوصّل و ليس إلّا توصّلا و اتّصالا معنويا بما يوصل بين العبد و ربّه و يربط هذا بذاك، و لارابط يربط العبد بربّه إلّا ذلّة العبودية، فالوسيلة هي التحقّق بحقيقة العبودية و توجيه وجه المسكنة و الفقر إلى جنابه تعالى، فهذه هي الوسيلة الرابطة، و أما العلم و العمل فإنّما هما من لوازمها و أدواتها كما هو ظاهر، إلّا أن يطلق العلم و العمل على نفس هذه الحالة. و من هنا يظهر أنّ المراد بقوله: «وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ» مطلق الجهاد الذي يعمّ

جهاد النفس و جهاد الكفّار جميعا، إذ لادليل على تخصيصه بجهاد الكفّار مع اتّصال الجملة بما تقدّمها من حديث ابتغاء الوسيلة، إلى أن قال: على أنّ الآيتين التاليتين بما تشتملان عليه من التعليل إنّما تناسبان إرادة مطلق الجهاد من قوله: «وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ»، إلى أن قال: قوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ»، إلى آخر الآيتين ظاهره كما تقدّمت الإشارة إليه أن يكون تعليلا لمضمون الآية السابقة، و المحصّل: أنّه يجب عليكم أن تتّقوا الله و تبتغوا إليه الوسيلة و تجاهدوا في سبيله، فإنّ ذلك أمر يهمكم في صرف عذاب أليم مقيم عن أنفسكم، و لابدل له يحلّ محلّه فإنّ الذين كفروا فلم يتّقوا الله و لم يبتغوا إليه الوسيلة و لم يجاهدوا في سبيله لو أنّهم ملكوا ما في الأرض جميعا و هو أقصى ما يتمنّاه ابن آدم من الملك الدنيوي عادة، ثمّ زيد عليه مثله ليكون لهم ضعفا ما في الأرض ثمّ أرادوا أن يفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم، و لهم عذاب أليم، يريدون أن يخرجوا من النار و هي العذاب و ما هم بخارجين منها لأنّه عذاب خالد مقيم عليهم لايفارقهم أبدا.

و في الآية إشارة أوّلا إلى أنّ العذاب هو الأصل القريب من الإنسان و إنّما يصرف عنه الإيمان و التقوى كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1]

و كذا قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2].

---

١. مريم: ٧٢ـ ٧١.

٢. العصر: ٣ـ ٢.

و ثانياً: أنّ الفطرة الأصلية الإنسانية و هي التي تتألّم من النار غير باطلة فيهم و لامنتفية عنهم و إلّا لم يتألّموا و لم يتعذّبوا بها و لم يريدوا الخروج منها، انتهى.

و في كنز الدقائق في ذيل قوله: «وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ» أي: ما تتوسّلون به إلى ثوابه و الزلفى منه من فعل الطاعات و ترك المعاصي و هو معرفة الإمام و اتباعه، من وسل إلى كذا تقرّب إليه. و في تفسير عليّ بن إبراهيم: قال: «تقرّبوا إليه بالإمام. و في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة و بإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الأئمّة من ولد الحسين من أطاعهم فقد أطاع الله، و من عصاهم فقد عصى الله، هم العروة الوثقى و هم الوسيلة إلى الله تعالى، انتهى. «اللام» متعلّق بمحذوف يستدعيه «لو» إذ التقدير لو ثبت أنّ لهم ما في الأرض، و توحيد الضمير في «به» و المذكور شيئان إمّا لإجرائه مجرى اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أو لأنّ الواو في مثله بمعنى مع.

و في كنز الدقائق في ذيل قوله: «وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ»: و عن تفسير العياشي: عن أبي بصير قال: سمعت أباجعفر عليه السلام يقول: عدوّ عليّ عليه السلام هم المخلّدون في النار، قال الله تعالى: «وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا»، إلى أن قال: و عن تفسير الفرات: و إنّما قال: « وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ» بدل للمبالغة باسمية الجملة و التأكيد المنفي بالباء، انتهى.

و در تفسير خلاصه منهج الصادقين ذيل قوله تعالى:«وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ» می‌فرماید: زهری روایت کند که: بیمار شدم چنان که به هلاکت نزدیك بودم، گفتم: که مرا با خدا وسیلتی باید کرد و هیچ کس را در عهد خود از عليّ بن

الحسين بهتر نيافتم، نزد او رفتم و گفتم: يابن رسول الله! حال من اين است كه مى‌بينى، بر من ببخشاى و در حق من دعا كن تا به آن از اين مرض شفا يابم و از غم و اندوه خلاص شوم و سبب آمرزش من گردد، چه در نزد خداى تعالى از تو گرامى‌تر نمى‌دانم و نمى‌بينم. فرمود: كه من دعا كنم و تو آمين گو، يا تو دعا كن من آمين، گفتم: يا امام، تو دعا كن و من بر اثر تو آمين گويم.

حضرت دست برداشت و گفت: بار خدايا! پسر شهاب در من گريخته است و به من و پدران من وسيله جسته، بحق آن اخلاصى كه پدران من به جنات عزت تو داشته‌اند كه حاجت او را روا كن، و او را شفايى كرامت كن، و روزى بر وى فراخ گردان، و مرتبه او را در علم رفيع ساز.زهرى گويد: به خدايى كه همه جان ما به امر اوست كه بعد از اين هرگز بيمار نشدم و دست تنگ نگشتم و هيچ سختى به من نرسيد و اميد مى‌دارم كه خداى تعالى به ميمنت دعاى آن حضرت مرا آمرزيده باشد، انتهى.

فتحصّل: أنّ المصداق الكامل للوسيلة بالمعنى الذي ذكره في جوامع الجامع و هو كلّ ما يتوسّل به إليه من الطاعات و ترك المحرّمات و المقرّبات الإلهية.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: هما مرفوعان على الابتداء، و الخبر محذوف كأنّه قيل: و فيما فرض عليكم: «وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ» أي: حكمهما، و يجوز أن يكون الخبر «فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا»، و دخلت الفاء لأنّهما قد تضمّنا معنى الشرط فإنّ المعنى و الذي سرق و التي سرقت فاقطعوا أيديهما أي: يديهما، و نحوه ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، و المراد باليدين اليمينان بدليل قراءة عبدالله بن مسعود: و السارقون و السارقات فاقطعوا أيمانهم. و المقدار الذي يجب به القطع ربع دينار إذا سرق من الحرز و إليه ذهب الشافعي و مالك إلّا أنّ المقطع عندهم هو الرسغ و عندنا اُصول الأصابع و يترك الإبهام و الكفّ، و في المرّة الثانية يقطع رجله اليسرى من أصل الساق و يترك عقبه يعتمد عليها في الصلاة، فإن سرق بعد ذلك خلّد في السجن، هذا هو المشهور من مذهب عليّ عليه السلام.

و قوله: «جَزَآءَ» مفعول له، و كذا قوله: «نَكَٰلًا» « فَمَن تَابَ» من السراق «مِن بَعْدِ ظُلْمِهِۦ» أي: سرقته «وَأَصْلَحَ» أمره بالتفصي عن التبعات «فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» و يسقط عنه عقاب الآخرة، انتهى.

و في الميزان: الواو للاستئناف و الكلام في مقام التفصيل فهو في معنى: «أمّا ٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ»، إلخ، و لذلك دخل الفاء في الخبر أعني قوله: «فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا»، لأنّه في معنى جواب أمّا، كذا قيل. و أمّا استعمال الجمع في قوله: «أَيْدِيَهُمَا» مع أنّ المراد هو المثنى، فقد قيل: إنّه استعمال شائع، و الوجه فيه: أنّ بعض الأعضاء أو أكثرها في الإنسان مزدوجة كالقرنين و العينين و الاُذنين و

اليدين و الرجلين و القدمين، و إذا اُضيفت هذه إلى المثنّى صارت أربعا و لها لفظ الجمع كأعينهما و أيديهما و أرجلهما و نحو ذلك، ثمّ اطّرد الجمع في الكلام إذا اُضيفت عضو إلى المثنّى و إن لم يكن العضو من المزدوجات كقولهم: ملأت ظهورهما و بطونهما ضربا، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1]، إلى أن قال: و النكال هو العقوبة التي يعاقب بها المجرم لينتهي عن إجرامه، و يعتبر بها غيره من الناس. و هذا المعنى أعني: كون القطع نكالا هو المصحّح لأن يتفرّع عليه قوله: «فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ»، إلخ، أي: لمّا كان القطع نكالا يراد به رجوع المنكول به عن معصيته فمن تاب من بعد ظلمه توبة ثمّ أصلح و لم يحم حول السرقة و هذا أمر يستثبت به معنى التوبة فإن الله يتوب عليه و يرجع إليه بالمغفرة و الرحمة لأنّ الله غفور رحيم، انتهى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

---

١. التحريم: ٤.

و في جوامع الجامع: و قرئ «لَايُحْزِنكَ» بضمّ الياء، أي: لايهمنّك مسارعة المنافقين. «ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى» إظهار «ٱلْكُفْرِ» بما يلوح من حالهم من آثار الكيد للإسلام. «وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ» أي: و من اليهود قوم «سَمَّٰعُونَ» فيكون منقطعا عمّا قبله، و يجوز أن يكون عطفا على قوله: «مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ» و ارتفع «سَمَّٰعُونَ» على هم سمّاعون، و الضمير للمنافقين و اليهود أو لليهود، و معنى «سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ» قابلون لما يفتريه الأحبار من الكذب على الله و تحريف التوراة، و نحوه «سمع الله لمن حمده».

«سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ» يعني: اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله ﷺ لشدّة عداوتهم إيّاه، أي: قابلون من الأحبار و من أُولئك المفرطين في العداوة. و قيل: معناه سمّاعون إليك ليكذبوا عليك بأن يزيدوا فيما سمعوا منك و ينقصوا و يغيروا. سمّاعون منك لأجل قوم آخرين من اليهود وجّهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منك. «يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ» يميلونه و يزيلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا مواضع. « يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا» المحرف المزال عن مواضعه «فَخُذُوهُ» و اعملوا به، «وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ» أي: إن أفتاكم محمّد ﷺ بخلافه «فَٱحْذَرُواْ» فهو الباطل.

و روي أنّ شريفا من خيبر زنى بشريفة و هما محصنان وحدّهما الرجم في التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا نفرا منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله عن ذلك و قالوا: إن أمركم محمّد ﷺ بالجلد فاقبلوا و إن أمركم بالرجم فلاتقبلوا، و أرسلوا الزانيين معهم، فأمرهم بالرجم، فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبرئيل: إجعل بينك و بينهم ابن صوريا، فقال: هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور

يسكن فدك يقال له: ابن صوريا، قالوا: نعم، و هو أعلم يهودي على وجه الأرض، و رضوا به حكما، فقال له رسول الله ﷺ : أُنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر و رفع فوقكم الطور و أنزل عليكم كتابه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن؟ قال: نعم، فوثب عليه سفلة اليهود، فقال: خفت إن كذبته أنّ ينزّل علينا العذاب، ثمّ سأل رسول الله ﷺ عن أشياء كان يعرفها من أعلامه و أسلم، و قال: أشهد أنك رسول الله النبيّ المبشّر به، و أمر رسول الله بالزانيين فرجما عند باب مسجده، «وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ» أي: تركه مفتونا و خذلانه « فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ»، أي: فلن تستطيع له «مِنَ» لطف «ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن» يمنحهم من ألطافه ما «يُطَهِّرَ» به «قُلُوبَهُمْ» لأنّهم ليسوا من أهلها لعلمه أنّها لاتنجع فيهم، انتهى.

و في كنز الدقائق: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ»، أي: ضع الذين يقعون في الكفر سريعا إذا وجدوا منه فرصة، إلى أن قال:

«سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ»: خبر مبتدأ محذوف، أي: هم سمّاعون، و الضمير للفريقين أو للذين يسرعون، و يجوز أن يكون مبتدأ «وَمِنَ ٱلَّذِينَ» خبره، أي: و من اليهود قوم سمّاعون، و اللام في « لِلْكَذِبِ» إمّا مزيدة للتأكيد أو لتضمّن السماع معنى القبول، أي: قابلون لما يقربه الأخبار أو للعلّة و المفعول محذوف، أي: سمّاعون كلامك ليكذبوا عليك، إلى أن قال: «يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ»، أي: يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها إمّا لفظا بإهمالهم أو تغيير وضعه، و إمّا معنى بحمله على غير المراد و إجرائه في غير مورده، و الجملة

صفة اُخرى «لِقَوْمٍ»، أو صفة (لسمّاعون)، أو حال من الضمير فيه، أو استئناف لاموضع له، أو في موضع الرفع خبر المحذوف، أي: هم يحرفون، إلى أن قال: «فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا»: فلن تستطيع له من الله شيئا في دفعها. «أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ» من العقوبات المترتّبة على الكفر كالختم و الطبع و الضيق، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ»، تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و تطييب لنفسه ممّا لقي من هؤلاء المذكورين في الآية، و هم الذين يسارعون في الكفر أي: يمشون فيه المشيّة السريعة، و يسيرون فيه السير الحثيث، تظهر من أفعالهم و أقوالهم موجبات الكفر واحدة بعد اُخرى فهم كافرون مسارعون في كفرهم، و المسارعة في الكفر غير المسارعة إلى الكفر.

و قوله: «مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ» بيان لهؤلاء الذين يسارعون في الكفر، أي: من المنافقين، و في وضع هذا الوصف موضع الموصوف إشارة إلى علّة النهي.

كما أن الأخذ بالوصف السابق أعني قوله: «ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ» للإشارة إلى علة المنهي عنه، و المعنى و الله أعلم: لايحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم في الكفر، فإنّهم إنّما آمنوا بألسنتهم لابقلوبهم و ما اُولئك بالمؤمنين، و كذلك اليهود الذين جاؤوك و قالوا ما قالوا. و قوله: «وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ» عطف على قوله: «مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا» على ما يفيده السياق، و ليس من الاستئناف في شيء، و على هذا فقوله: «سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ» خبر

لمبتدأ محذوف، أي: هم سمّاعون، إلخ، إلى أن قال: و اختلاف معنى السمع هو الذي أوجب تكرار قوله: «سَمَّٰعُونَ» فإنّ الأوّل يفيد معنى الإصغاء و الثانية معنى القبول.

و قوله: «يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ»، أي: بعد استقرارها في مستقرّها، و الجملة صفة لقوله: «لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ»، و كذا قوله: «يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ».

و يتحصّل من المجموع: أنّ عدّة من اليهود ابتلوا بواقعة دينية فيما بينهم، لها حكم إلهي عندهم لكن علماءهم غيّروا الحكم بعد ثبوته ثمّ بعثوا طائفة منهم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و أمروهم أن يحكموه في الواقعة فإن حكم بما أنبأهم علماؤهم من الحكم المحرّف فليأخذوه، و إن حكم بغير ذلك فليحذروا.

و قوله: «وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا»، الظاهر أنّه معترضة يبيّن بها أنّهم في أمرهم هذا مفتونون بفتنة إلهية، فلتطب نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ الأمر من الله و إليه، و ليس يملك منه تعالى شيء في ذلك، و لاموجب للتحزّن فيما لاسبيل إلى التخلّص منه.

و قوله: «أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ»، فقلوبهم باقية على قذارتها الأوليّة لمّا تكرّر منهم من الفسق بعد الفسق فأضلّهم الله به، و ما يضلّ به إلّا الفاسقين، انتهى.

و الحاصل: أنّ الآية الكريمة بيّنت بعضا من خصال المنافقين و اليهود، إحداهما: المسارعة في الكفر و السعي في تخريب الإسلام. و ثانيتهما: كثرة

السماع للتكذيب و لاطّلاع قوم آخرين لم يأتوا رسول الله ﷺ . هذا، مضافاً إلى أنّ التعرّض للتحريف للنيل إلى الأهواء الباطلة و هم الذين خرجوا عن قابلية قبول الإسلام و تطهير قلوبهم، فلايشملهم رحمة الله تعالى في هذا المضمار .

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: السحت: كلّ ما لايحلّ كسبه، إلى أن قال: و كان رسول الله ﷺ إذا تحاكم إليه أهل الكتاب مخيّرا بين أن يحكم بينهم و بين أن لايحكم، و هذا التخيير عندنا ثابت للأئمّة في الشرع.

«وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ الحكم بينهم فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا» أي: لايقدرون على إضرار بك في دين أو دنيا.

«بِٱلْقِسْطِ»، أي: بالعدل كما حكم عليه السلام بالرجم. «وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ»، تعجيب من تحكيمهم لمن لايؤمنون به و بكتابه مع أنّ الحكم منصوص عليه في كتابهم. «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ» و هو إشارة إلى حكم الله في التوراة. و يتركون الحكم به، و قيل: ثمّ يتولّون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم لايرضون به، «وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ» بكتابهم كما يدّعون.

«فِيهَا هُدًى» يهدي للحقّ و العدل. «وَنُورٌ» يبيّن ما استبهم من الأحكام.

«ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ»، صفة للنبيّين على سبيل المدح، و فيه تعريض باليهود و أنّهم بعداء عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء كلّهم قديما و حديثا. و قوله: «لِلَّذِينَ هَادُواْ» يدلّ على ذلك. «وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ» أي: و الزهّاد و العلماء من ولد هارون الذين التزموا طريقة النبيّين و جانبوا دين اليهود. «بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ» بما سألهم أنبياؤهم حفظه من التوراة، أي: بسبب إيصائهم إيّاهم أن يحفظوه من التغيير و التبديل. و «مِن» في «مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ» للتبيين.

«وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ»، أي: رقباء لئلّا يغيّروا المعنى. «يَحْكُم» بأحكام التوراة «ٱلنَّبِيُّونَ» بين موسى و عيسى و كان بينهما ألف نبي، «لِلَّذِينَ هَادُواْ» يحملونهم على أحكام التوراة لايتركونهم أن يعدلوا عنها كما فعله رسول الله من حملهم على حكم الرجم و كذلك حكم الربّانيون و الأحبار المسلمون بسبب ما استحفظهم أنبياؤهم من كتاب الله و بسبب كونهم عليه شهداء.

«فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ» نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم و إدهانهم فيها، انتهى.

و في الميزان: يتبيّن من إيراد هذا الوصف في المقام أنّ علماءهم الذين بعثوا طائفة منهم إلى النبيّ ﷺ كانوا قد أخذوا في الواقعة رشوة لتحريف حكم الله، إلى أن قال: و المحصّل: أنّ اليهود منهم علماء يأكلون الرشا، و عامّة مقلّدون سمّاعون لأكاذبيهم، إلى أن قال:إنّما وصف النبيين بالإسلام و هو التسليم لله، الذي هو الدين عند الله سبحانه للإشارة إلى أنّ الدين واحد، و هو الإسلام لله و عدم الاستنكاف عن عبادته، و ليس لمؤمن بالله ـ و هو مسلم له ـ أن يستكبر عن قبول شيء من أحكامه و شرائعه.

و قوله: «وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ»، أي: و يحكم بها الربّانيون و هم العلماء المنقطعون إلى الله علما و عملا، أو الذين إليهم تربية الناس بعلومهم بناء على اشتقاق اللفظ من الربّ أو التربية، و الأحباروهم الخبراء من علمائهم يحكمون بما أمرهم الله به و أراده منهم أن يحفظوه من كتاب الله، و كانوا من جهة حفظهم له و تحملهم إيّاه شهداء عليه لايتطرّق إليه تغيير و تحريف لحفظهم له في قلوبهم، فقوله: «وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ» بمنزلة النتيجة لقوله: «بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ»، إلخ، أي: أمروا بحفظه فكانوا حافظين له بشهادتهم عليه.

و ما ذكرناه من معنى الشهادة هو الذي يلوح من سياق الآية، إلى أن قال: و أمّا قوله تعالى: «فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا» فهو متفرّع على قوله: «إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا» (الآية)، أي: لما كانت التوراة منزلة من عندنا مشتملة على شريعة يقضي بها النبيّون و الربّانيون و الأحبار بينكم فلاتكتموا شيئا منها و لاتغيّروها، خوفا و طمعا. أمّا خوفا فبأن تخشوا الناس و تنسوا ربّكم، بل الله فاخشوا حتّى لاتخشوا الناس، و أمّا طمعا فبأن تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا هو مال أو جاه دنيوي زائل باطل.

و يمكن أن يكون قوله تعالى: «فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ» متفرعا على قوله: «بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ بحسب المعنى لأنّه في معنى أخذ الميثاق على الحفظ أي: أخذنا منهم الميثاق على حفظ الكتاب و أشهدناهم عليه أن لايغيّروه و لايخشوا في إظهاره غيري، إلى أن قال: و هذا المعنى الثاني لعلّه أنسب و أوفق لما يتلوه من التأكيد و التشديد بقوله: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ»، انتهى.

قال في تفسير الكرمي: «ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ» أي: الذين أسلموا وجوهم و اُمورهم لله و هذا القيد توضيحي إذ يستحيل على الأنبياء، ألّا يكونوا مسلمين، إلى أن قال: الجارّ و المجرور (في قوله: «لِلَّذِينَ هَادُواْ») متعلّق بـ«يحكم»، إلى أن قال: «بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ» أي: جعلوا حفظة لكتاب الله الذي هو التوراة و قوله: «وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ» معناه: أنّهم كانوا عليه ناظرين، انتهى.

قال في كنز الدقائق: «وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ»: تعجيب من تحكيمهم من لايؤمنون به، و الحال أنّ الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي عندهم و تنبيه على أنّهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحقّ و إقامة الشرع و إنّما طلبوا به ما يكون أهون عليهم و إن لم يكن حكم الله في زعمهم، إلى أن قال: «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ»: ثمّ يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم و هو عطف على «يُحَكِّمُونَكَ» داخل في حكم التعجيب، إلى أن قال:

و في اُصول الكافي: عن صالح بن حمزة رفعه قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: إنّ من العبادة شدّة الخوف من الله عزّوجلّ، يقول الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1] و قال جلّ ثناؤه: «فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ»، انتهى.

والحاصل: أنّ هنا نكات: أحدها: أنّ السماع لغرض التكذيب من الصفات المذمومة و ضدّه و هو السماع لغرض التصديق من الأوصاف المحمودة.

و ثانيها: أنّ أكال السحت هو الذي يطلب المأكول من غير طريقه الحلال و لذا لايكون رجوعه إلى وليّ الأمر للوصول إلى الحلال، بل يطلب الحرام و لو بواسطة الرجوع إلى وليّ الأمر و هو من أقبح الاُمور.

و ثالثها: أنّ وليّ الأمر يكون مخيّرا عند رجوع أهل الكتاب إليه في الحكم طبقا لما في الإسلام و الحكم طبقا لما في التوراة.

---

١. فاطر: ٢٨.

و رابعها: أنّ التوراة النازلة من الله كتاب هداية و نور يحكم به النبيّون و الربّانيون المنسوبون إلى الله بالزهد و الإطاعة و العلماء طبقا لما استحفظوا من التوراة و كانوا ناظرين إليه.

و خامسها: أنّ اتصاف النبيّين بالإسلام تنبيه على أنّ وصف الإسلام لايختصّ بمن آمن بنبيّ بل سمى به النبيّيون.

و سادسها: أنّ المناسب للمقام الربوبي هو الخشية منه لاالخشية من الناس.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

و في الميزان: قوله تعالى: «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ»، في أقسام الجنايات من القتل و القطع و الجرح، فالمقابلة الواقعة في قوله: «ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ» و غيره إنّما وقعت بين المقتصّ له و المقتصّ به، و المراد به أنّ النفس تعادل النفس في باب القصاص، و العين تقابل العين و الأنف الأنف و هكذا، و الباء للمقابلة كما في قولك: بعت هذا بهذا. فيؤول معنى الجمل المتّسقة إلى أن النفس تقتل بالنفس، و العين تفقأ بالعين و الأنف تجدع بالأنف، و الأُذن تصلم بالأُذن، و

السنّ تقلع بالسنّ، و الجروح ذوات قصاص، و بالجملة: أنّ كلّا من النفس و أعضاء الإنسان مقتصّ بمثله.

و لعلّ هذا هو مراد من قدر في قوله: «ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ» أنّ النفس مقتصّة أو مقتولة بالنفس و هكذا، و إلّا فالتقدير بمعزل عن الحاجة، و الجمل تامّة من دونه و الظرف لغو، إلى أن قال: قوله تعالى: «فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ»، أي: فمن عفا من أولياء القصاص ... فهو أي: العفو كفّارة لذنوب المتصدّق أو كفّارة عن الجاني في جنايته.

و الظاهر من السياق أنّ الكلام في تقدير قولنا: فإن تصدّق به من له القصاص فهو كفّارة له، و إن لم يتصدّق فليحكم صاحب الحكم بما أنزله الله من القصاص، و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، انتهى.

قال في تفسير الكرمي: القصاص مأخوذ من اقتصاص الأثر و هو ترسّم ما أحدث في الأرض من علائم و من خصائص ما أنزلناه في التوراة و حكمنا به، و هو بنفسه ثابت في دين الإسلام، و نظامه القصاص في الأنفس و الأطراف و الجروح في الجنايات العمدية مع التكافؤ بين الجاني و المجني عليه، و مع عدم خوف التلف في الجراحات، فمن قتل إنسانا عمدا بغير حقّ فإنّ وليّ المقتول يستحقّ عليه القود إلّا أن يتنزّل إلى الدية أو يعفو بالمرّة، و من قطع عضواً من آخر عمداً بغير حقّ، ثبت للمجنيّ عليه حقّ القصاص إذا لم يكن في القصاص تغرير بالنفس كما في المأمومة و الجائفة، و في كلّ ما أشرنا إليه تفاصيل في كتب الفقه، لامجال للتعرّض لها هنا لسعتها، انتهى.

و في تفسير كاشف في ذيل: «فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ» ضمير «بِهِۦ» يعود على حقّ القصاص، و ضمير «فَهُوَ» يعود على التصدق، أي المصدر المتصيد من (تصدّق) و ضمير «لَّهُۥ» يعود على المتصدّق، انتهى.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قال في جوامع الجامع: قفّاه بفلان: عقّبه به، تعدّى إلى المفعول الثاني بالباء، و المفعول الأوّل في الآية محذوف سدّ مسدّه الظرف الذي هو «عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم» لأنّه إذا قفّى به على أثره فقد قفّى به إيّاه، و الضمير في «ءَاثَٰرِهِم» للنبيّين في قوله: «يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ»، و «مُصَدِّقًا» نصب على الحال عطف على محلّ «فِيهِ هُدًى»، «وَهُدًى وَمَوْعِظَةً» يجوز أن ينتصبا على الحال و على المفعول له لقوله: «وَلْيَحْكُمْ»، انتهى.

و في الميزان: فقوله: «وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ» استعارة بالكناية اُريد بها الدلالة على أنّه سلك به عليه السلام المسلك الذي سلكه من قبله من الأنبياء، و هو طريق الدعوة إلى التوحيد و الإسلام لله.

و قوله: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ» تبيين لما تقدّمه من الجملة و إشارة إلى أنّ دعوة عيسى هي دعوة موسى عليه السلام من غير بينونة بينهما أصلا.

وقوله تعالى:«وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ»، إلخ، سياق الآيات من جهة تعرّضها لحال شريعة موسى و عيسى و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و نزولها في حقّ كتبهم يقضي بانطباق بعضها على بعض، و لازم ذلك: أولا: أنّ الإنجيل المذكور في الآية ـ و معناها البشارة ـ كان كتابا نازلا على المسيح عليه السلام لامجرّد البشارة من غير كتاب غير أنّ الله سبحانه لم يفصّل القول في كلامه في كيفيّة نزوله على عيسى كما فصّله في خصوص التوراة و القرآن. إلى أن قال:

و ثانياً: أنّ قوله تعالى: في وصف الإنجيل: «فِيهِ هُدًى وَنُورٌ»، محاذاة لقوله في وصف التوراة: إنّا أنزلنا التوراة «فِيهِ هُدًى وَنُورٌ» يراد به ما يشتمل عليه الكتاب من المعارف و الأحكام غير أنّ قوله تعالى في هذه الآية ثانياً: «وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» يدلّ على أنّ الهدى المذكور أوّلا غير الهدى الذي تفسيره الموعظة فالهدى المذكور أوّلا هو نوع المعارف التي يحصل به الاهتداء في باب الاعتقادات، و أمّا ما يهدي من المعارف إلى التقوى في الدين فهو الذي يراد بالهدى المذكور ثانيا.

و على هذا لايبقى لقوله: «وَنُورٌ»، من المصداق إلّا الأحكام و الشرائع، و التدبّر ربّما ساعد على ذلك فإنّها اُمور يستضاء بها و يسلك في ضوئها و تنورها مسلك الحياة، إلى أن قال: و ظهر أيضا وجه تكرار الهدى في الآية، فالهدى المذكور ثانيا غير الهدى المذكور أوّلا و أنّ قوله: «وَمَوْعِظَةً» من قبيل عطف التفسير، و الله أعلم.

و ثالثاً: أنّ قوله ثانيا في وصف الإنجيل: «وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ» ليس من قبيل التكرار لتأكيد و نحوه، بل المراد به تبعيّة الإنجيل لشريعة التوراة، فلم يكن في الإنجيل إلا الإمضاء لشريعة التوراة و الدعوة إليها إلّا ما استثناه عيسى المسيح على ما حكاه الله تعالى من قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[1]، و الدليل على ذلك قوله تعالى في الآية الآتية في وصف القرآن: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ».

و قوله تعالى: «وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» قد مرّ توضيحه، و الآية تدلّ على أنّ في الإنجيل النازل على المسيح عناية خاصّة بالتقوى في الدين مضافا إلى ما يشتمل عليه التوراة من المعارف الاعتقادية و الأحكام العملية، انتهى.

و في كنز الدقائق: و في تفسير العياشي، عن أحدهما عليه السلام قال: قد فرض الله في الخمس نصيبا لآل محمّد، فأبى أبوبكر أن يعطيهم نصيبهم حسداً و عداوة، و قد قال الله: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ». و كان أبوبكر أوّل من منع آل محمّد عليهم السلام حقّهم و ظلمهم و حمل الناس على رقابهم. و لمّا قبض أبوبكر استخلف عمر على غير شورى من المسلمين و لارضا من آل محمّد، فعاش عمر بذلك لم يعط آل محمّد حقّهم و صنع ما صنع أبوبكر، انتهى.

و كيف كان، فاعلم أنّ لطف الله و حكمته كان يقتضي أن يعقب الأنبياء بعيسى بن مريم حالكون عيسى المسيح مصدّقا للتورية و أن ينزّل الإنجيل إليه حالكون الإنجيل أيضا مصدّقا للتوراة و هداية و نورا و موعظة للمتقين، و لعلّ

---

١. آل عمران: ٥٠.

الآية الكريمة تشير إلى ما يلزمه السالك من تصحيح أهدافه و من أن يكون له ما ينوّر أطرافه و يرفع أو يدفع الظلمات المتراكمة حوله، و من الموعظة ممّا وقع على الاُمم أو الأفراد و الأشخاص، و هذه الاُمور متحقّقة بالنسبة إلى المتقين. ثمّ إنّ مع إدامة هذه الاُمور و اختلاف مراتبها لايستغني المتّقون على الهداية و النور و الموعظة بأيّ مرتبة نالوا إليه.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَ أَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَ ٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ» أي: القرآن، و التعريف فيه للعهد و في «ٱلْكِتَٰبَ» بعده للجنس لأنّ المعنى «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ» التوراة و الإنجيل، و كلّ كتاب اُنزل من السماء سواه، «وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ»، أي: رقيبا على

سائر الكتب لأنّه يشهد لها بالصحّة «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ»، ضمّن معناه معنى لاتنحرف، و لذلك عدّى بعن كأنّه قيل: و لاتنحرف «عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ» متّبعا أهواءهم. «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ» أيّها الناس «شِرْعَةً» أي: شريعة «وَمِنْهَاجًا»، طريقا واضحاً في الدين تجرون عليه، و فيه دليل على أنّا غير متعبّدين بشرائع من كان قبلنا من الأنبياء، «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»، أي: جماعة متّفقة على شريعة واحدة أو ذوي اُمّة واحدة أي: دين واحد لااختلاف فيه ولكن أراد «لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ» من الشرائع المختلفة هل تعملون بها معتقدين أنّها مصالح لكم قد اختلفت بحسب اختلاف الأحوال أو تتّبعون الشبه و تفرّطون في العمل، «فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ» فابتدروها، «إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ»، استئناف في معنى التعليل لاستباق الخيرات، إلى أن قال: «وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم»، معطوف على الكتاب أي: و أنزلنا إليك أن احكم وصلت «أَن» بالأمر، و يجوز أن يكون معطوفا على «بِٱلْحَقِّ» أي: أنزلناه بالحقّ و بأن احكم، «وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ» أن يضلّوك و يستزلّوك، إلى أن قال: «أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ»، هذا تعبير لليهود بأنّهم أهل الكتاب و هم يبغون حكم الملّة الجاهلية التي هي هوى و جهل لايصدر عن كتاب و لايرجع إلى وحي. إلى أن قال: و اللام في قوله: «لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» للبيان، كاللام في «هَيْتَ لَكَ»، أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنّهم هم الذين يتبيّنون أن لا أعدل و لاأحسن حكما من الله تعالى، انتهى.

و في الميزان: في ذيل كون القرآن مهيمنا: هيمنة الشيء على الشيء على ما يتحصل من معناها كون الشيء ذا سلطة على الشيء في حفظه مراقبته و أنواع

التصرف فيه، و هذا حال القرآن الذي وصفه الله تعالى بأنّه تبيان كلّ شيء بالنسبة إلى ما بين يديه من الكتب السماوية: يحفظ منها الأُصول الثابتة غير المتغيّرة و ينسخ منها ما ينبغي أن ينسخ من الفروع التي يمكن أن يتطرق إليها التغيّر و التبدّل حتّى يناسب حال الإنسان بحسب سلوكه صراط الترقّي و التكامل بمرور الزمان، إلى أن قال: فهذه الجملة أعني قوله: «وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» متمّمة لقول: «وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ» تتميم إيضاح إذ لولاها لأمكن أن يتوهّم من تصديق القرآن للتوراة و الإنجيل أنّه يصدّق ما فيهما من الشرائع و الأحكام تصديق إبقاء من غير تغيير و تبديل، لكن توصيفه بالهيمنة يبيّن أنّ تصديقه لها تصديق أنّها معارف و شرائع حقّة من عند الله، و لله أن يتصرّف منها فيما يشاء بالنسخ و التكميل كما يشير إليه قوله ذيلا: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ».

فقوله: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» معناه تقرير ما فيها من المعارف و الأحكام بما يناسب حال هذه الأُمّة فلاينافيه ما تطرق إليها من النسخ و التكميل و الزيادة، إلى أن قال: قوله تعالى: «فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ»، أي: إذا كانت الشريعة النازلة إليك المودّعة في الكتاب حقّا، و هو حقّ فيما وافق ما بين يديه من الكتب، و حقّ فيما خالفه، لكونه مهيمنا عليه، فليس لك إلّا أن تحكم بين أهل الكتاب كما يؤيّده ظاهر الآيات السابقة، أو بين الناس كما تؤيّده الآيات اللاحقة بما أنزل الله إليك و لاتتّبع أهواءهم بالإعراض و العدول عمّا جاءك من الحقّ، إلى أن قال: قوله تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا»، قال الراغب في المفردات: الشرع نهج الطريق الواضح يقال: شرعت

له طريقا، و الشرع مصدر ثمّ جعل اسما للطريق النهج، فقيل له: شرِع و شرَع شريعة، و اُستعير ذلك للطريقة الإلهية. قال: «شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» إلى أن قال: قال بعضهم: سمّيت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء.

و لعلّ الشريعة بالمعنى الثاني مأخوذ من المعنى الأوّل، لوضوح طريق الماء عندهم بكثرة الورود و الصدور. و قال: النهج بالفتح فالسكون: الطريق الواضح، إلى أن قال: معنى الشريعة كما عرفت هو الطريقة، و الدين و كذلك الملّة طريقة متّخذة، لكنّ الظاهر من القرآن أنّه يستعمل الشريعة في معنى أخصّ من الدين، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، و قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]، إذا انضما إلى قوله: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» الآية، و قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[3].

فكان الشريعة هي الطريقة الممهّدة لاُمّة من الاُمم أو لنبيّ من الأنبياء الذين بعثوا بها كشريعة نوح و شريعة إبراهيم و شريعة موسى و شريعة عيسى و شريعة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، و الدين هو السنة و الطريقة الإلهية العامّة لجميع الاُمم فالشريعة تقبل النسخ دون الدين بمعناه الوسيع، إلى أن قال: و أمّا الملّة فكان المراد بها السنة الحيوية المسلوكة بين الناس، و كان فيها معنى الإملال و الإملاء، فيكون هي الطريقة المأخوذة من الغير، و ليس الأصل في معناه واضحا ذاك الوضوح،

---

١. آل عمران: ١٩.

٢. آل عمران: ٨٥.

٣. الجاثية: ١٨.

فالأشبه أن تكون مرادفة الشريعة بمعنى أنّ الملّة كالشريعة هي الطريقة الخاصّة بخلاف الدين، و إن كان بينهما فرق من حيث إنّ الشريعة تستعمل فيها بعناية أنّها سبيل مهّده الله تعالى لسلوك الناس إليه، و الملة إنّما تطلق عليها لكونها مأخوذة عن الغير بالإتباع العملي، و لعلّه لذلك لاتضاف إلى الله سبحانه كما يضاف الدين و الشريعة، يقال: دين الله و شريعة الله، و لايقال: ملّة الله. بل إنّما تضاف إلى النبيّ مثلاً من حيث إنّها سيرته و سنّته، أو إلى الأُمّة من جهة أنّهم سائرون مستنّون به، إلى أن قال: فقد تلخّص أنّ الدين في عرف القرآن أعمّ من الشريعة و الملّة، و هما كالمترادفين مع فرق ما من حيث العناية اللفظية.

قوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ»، بيان لسبب اختلاف الشرائع، و ليس المراد بجعلهم أُمّة واحدة الجعل التكويني بمعنى النوعية الواحدة، فإنّ الناس أفراد نوع واحد يعيشون على نسق واحد، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[1].

بل المراد أخذهم بحسب الاعتبار أُمة واحدة على مستوى واحد من الاستعداد و التهيؤ حتّى تشرع لهم شريعة واحدة لتقارب درجاتهم المحفوظة.

فقوله: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً» من قبيل وضع علّة الشرط موضع الشرط ليتّضح باستحضارها معنى الجزاء أعني قوله: «وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ» أي: ليمتحنكم فيما أعطاكم و أنعم عليكم، و لامحالة هذه العطايا

---

١. الزخرف: ٣٣.

المشار إليها في الآية مختلفة في الأُمم، و ليست هي الاختلافات بحسب المساكن و الألسنة و الألوان، فإنّ الله لم يشرع شريعتين أو أكثر في زمان واحد قطّ، بل هي الاختلافات بحسب مرور الزمان، و ارتقاء الإنسان في مدارج الاستعداد و التهيؤ، و ليست التكاليف الإلهية و الأحكام المشرعة إلّا امتحانا إلهيا للإنسان في مختلف مواقف الحياة.

و إن شئت فقل: إخراجاً له من القوّة إلى الفعل في جانبي السعادة و الشقاوة، و إن شئت فقل: تمييزا لحزب الرحمان و عباده من حزب الشيطان فقد اختلف التعبير عنه في الكتاب العزيز، و مآل الجميع إلى معنى واحد. قال تعالى جريا على مسلك الامتحان: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات، إلى أن قال: و بالجملة لمّا كانت العطايا الإلهية لنوع الإنسان من الاستعداد و التهيؤ مختلفة باختلاف الأزمان، و كانت الشريعة و السنّة الإلهية الواجب إجراؤها بينهم لتتميم سعادة حياتهم و هي الامتحانات الإلهية تختلف لامحالة باختلاف مراتب الاستعدادات و تنوّعها، أنتج ذلك لزوم اختلاف الشرائع، و لذلك علّل تعالى ما ذكره من اختلاف الشرعة و المنهاج بأن إرادته تعلقت ببلائكم و امتحانكم فيما أنعم عليكم فقال: «﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ

---

١. آل عمران: ١٤٢ ـ ١٤٠.

ءَاتَىٰكُمْ»، فمعنى الآية و الله أعلم: لكلّ أُمّة جعلنا منكم جعلا تشريعيا «شرعة و منهاجا و لو شاء الله لجعلكم أُمة واحدة» و شرع لكم شريعة واحدة، ولكن جعل لكم شرائع مختلفة ليمتحنكم فيما آتاكم من النعم المختلفة، و اختلاف النعم كان يستدعي اختلاف الامتحان الذي هو عنوان التكاليف و الأحكام المجعولة، فلامحالة ألقي الاختلاف بين الشرائع.

وهذه الأُمم المختلفة هي أُمم نوح وإبراهيم و موسى و عيسى و محمّد ﷺ ، إلى أن قال:

قوله تعالى: «فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا»، إلخ. الاستباق أخذ السبق، و المرجع مصدر ميمي من الرجوع، و الكلام متفرّع على قوله: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا» بما له من لازم المعنى، أي: و جعلنا هذه الشريعة الحقّة المهيمنة على سائر الشرائع شريعة لكم، و فيه خيركم و صلاحكم لامحالة فاستقبوا الخيرات و هي الأحكام و التكاليف، و لاتشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التي بينكم و بين غيركم، فإنّ مرجعكم جميعا إلى ربّكم تعالى فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون و يحكم بينكم حكما فصلا، و يقضي قضاء عدلا.

قوله تعالى: «وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ»، إلخ، هذا الصدر يتّحد مع ما في الآية السابقة من قوله: «فاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أهواءهم» ـ الآية ـ، ثمّ يختلفان فيما فرّع على كلّ منهما، و يعلم منه أنّ التكرار لحيازة هذه الفائدة. فالآية الأُولى تأمر بالحكم بما أنزل الله، و تحذّر اتّباع أهواء الناس لأنّ هذا الذي أنزله الله هي الشريعة المجعولة للنبيّ ﷺ و لأُمّته، فالواجب عليهم أن

يستبقوا هذه الخيرات، و الآية الثانية تأمر بالحكم بما أنزل الله، و تحذر اتباع أهواء الناس، إلى أن قال: فيتحصّل ممّا تقدّم: أنّ هذه الآية بمنزلة البيان لبعض ما تتضمنه الآية السابقة من المعاني المفتقرة إلى البيان، و هو أنّ إعراض أرباب الأهواء عن اتباع ما أنزل الله بالحقّ إنّما هو لكونهم فاسقين، و قد أراد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم الموجبة لفسقهم، و الإصابة هو الإضلال ظاهرا، فقوله: «وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ» عطف على الكتاب في قوله: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ» كما قيل، و الأنسب حينئذٍ أن يكون اللام فيه مشعرة بالتلميح إلى المعنى الحدثي، و يصير المعنى: و أنزلنا إليك ماكتب عليهم من الأحكام و أن احكم بينهم بما أنزل الله، إلخ.

إلى أن قال: قوله تعالى: «أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ»، تفريع، إلى أن قال: و المعنى: و إذا كانت هذه الأحكام و الشرائع حقّة نازلة من عندالله و لم يكن وراءها حكم حقّ لايكون دونها إلّا حكم الجاهلية الناشئة عن اتّباع الهوى، فهؤلاء الذين يتولّون عن الحكم الحقّ ماذا يريدون بتولّيهم و ليس هناك إلّا حكم الجاهلية؟ أفحكم الجاهلية يبغون و الحال أنّه ليس أحد أحسن حكما من الله لهؤلاء المدّعين للإيمان؟، انتهى.

و في كنز الدقائق: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ»: أيّها الناس. «شِرْعَةً»: و هي الطريقة إلى الماء شبّه بها الدين، لأنّه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. «وَمِنْهَاجًا»: واضحا في الدين، إلى أن قال: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ»: أي: عندهم، و «اللام» للبيان، كما في قوله: «هَيْتَ لَكَ»، أي: هذا الاستفهام «لِّقَوْمٍ

يُوقِنُونَ»، فإنّهم هم الذين يبتدرون الأُمور و يتحقّقون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنّ لا أحسن حكما من الله. و في الكافي: عن أبي عبدالله عليه السلام قال: الحكم حكمان: حكم الله و حكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية، انتهى.

فتحصّل: أنّ الحكم بين الناس لزم أن يكون بما أنزل الله مع الاحتراز عن الأهواء و الاختلاف في الطريقة بين الأديان للامتحان، فالمناسب هو السبق إليها لأنّ بالامتحان يحصل التكامل للإنسان، و أكد بقوله تعالى: «وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ» على كون الحكم ناشئا عن ما أنزل الله و أمر بالحذر عن الاتّباع عن أهوائهم الذي يوجب الإضلال، ثمّ صرّح بأنّ أثر ارتكاب بعض المعاصي هو التولّي و الإعراض عمّا أنزل الله تعالى. و في نهاية المطاف أفاد أنّ الله سبحانه تعالى يكون أحسن حكما لأهل اليقين، و أهل الإضلال يبغون حكم الجاهلية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: نهى ـ سبحانه ـ المؤمنين عن اتّخاذهم أولياء ينصرونهم و يستنصرونهم و يوالونهم، ثمّ علّل النهي بقوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ» أي: إنّما يوالي بعضهم بعضا لاجتماعهم في الكفر، «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ» جملتهم و حكمه حكمهم، و هذا تشديد من الله في وجوب مجانبة المخالف في الدين، إلى أن قال: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ» الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكافرين يمنعهم ألطافه و يخذلهم، «فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم» شك و نفاق «يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ» في موالاتهم و يرغبون فيها و يعتذرون بأنّهم لايأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان، أي: صرف من صروفه فيحتاجوا إليهم و إلى معونتهم، «فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ» لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أعدائه «أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ» بقتل اليهود و إجلائهم من ديارهم، فيصبح المنافقون «نَـٰدِمِينَ» على ما أسرّوه في أنفسهم من النفاق و قيل: أو أمر من عنده و هو أن يؤمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإظهار أسرار المنافقين فيندموا، «وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ» قرئ بالنصب عطفا على «أَن يَأْتِىَ» أو على «بِٱلْفَتْحِ»، أي: و بأن يقول: و بالرفع على أنّه كلام مبتدأ، أي: و يقول الذين آمنوا في ذلك الحال، و قرئ: يقول بغير واو، «أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ» أي: حلفوا بالله، أغلظ الأيمان «إِنَّهُمْ» أولياؤكم «حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ» من جملة كلام المؤمنين، أي: بطلت أعمالهم التي كانوا يتكفّلونها في مرأى الناس، «فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ»، خسروا الدنيا و الآخرة، انتهى.

و في الميزان: و إجمال ما يتحصّل من الآيات أنّ الله سبحانه يحذّر المؤمنين فيها اتّخاذ اليهود و النصارى أولياء، و يهدّدهم في ذلك أشدّ التهديد، و يشير في

ملحمة قرآنية إلى ما يؤول إليه أمر هذه الموالاة من انهدام بنية السيرة الدينية، و أنّ الله سيبعث قوما يقومون بالأمر، و يعيدون بنية الدين إلى عمارتها الأصلية.

قال في قوله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ»، إلى أن قال:

و بالجملة: الولاية نوع اقتراب من الشيء يوجب ارتفاع الموانع و الحجب بينهما من حيث ما اقترب منه لأجله، فإن كان من جهة التقوى و الانتصار فالوليّ هو الناصر الذي لايمنعه عن نصرة من اقترب منه شيء، و إن كان من جهة الالتيام في المعاشرة و المحبّة التي هي الانجذاب الروحي فالولي هو المحبوب الذي لايملك الإنسان نفسه دون أن ينفعل عن إرادته، و يعطيه فيما يهواه و إن كان من جهة النسب فالولي هو الذي يرثه مثلا من غير مانع يمنعه، و إن كان من جهة الطاعة فالولي هو الذي يحكم في أمره بما يشاء.

و لم يقيّد الله سبحانه في قوله: «لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ»، الولاية بشيء من الخصوصيات و القيود، فهي مطلقة غير أنّ قوله تعالى: في الآية التالية: «فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ»، يدلّ على أنّ المراد بالولاية نوع من القرب و الاتّصال يناسب هذا الذي اعتذروا به بقولهم: «نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ» و هي الدولة تدور عليهم، و كما أنّ الدائرة من الجائز أن تصيبهم من غير اليهود و النصارى فيتأيّدوا بنصرة الطائفتين بأخذهما أولياء النصرة كذلك يجوز أن تصيبهم من نفس اليهود و النصارى فينجو منها باتّخاذهما أولياء المحبّة و الخلطة.

و الولاية بمعنى قرب المحبّة و الخلطة تجمع الفائدتين جميعا، أعني فائدة النصرة و الامتزاج الروحي فهو المراد بالآية، و سيجيء ما في القيود و الصفات المأخوذة في الآية الأخيرة: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ»، من الدلالة على أن المراد بالولاية هاهنا ولاية المحبّة لاغير، إلى أن قال: و بالجملة الولاية التي تقتضي بحسب الاعتبار لحوق قوم بقوم هي ولاية المحبّة و المودّة دون الحلف و النصرة و هو ظاهر، إلى أن قال: و من دأب القرآن في كلّ ما ينهى عن أمر كان جائزا سائغا قبل النهي أن يشير إليه رعاية لجانب الحكم المشروع سابقا، و احتراما للسيرة النبوية الجارية قبله، إلى أن قال: فالمراد بقوله: «لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ»، النهي عن موادتهم الموجب لتجاذب الأرواح و النفوس الذي يفضي إلى التأثير و التأثر الأخلاقيين، فإنّ ذلك يقلب حال مجتمعهم من السيرة الدينية المبنيّة على سعادة اتباع الحق إلى سيرة الكفر المبنية على اتّباع الهوى و عبادة الشيطان و الخروج عن صراط الحياة الفطرية، إلى أن قال: و أمّا قوله تعالى: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ»، فالمراد بالولاية ـ كما تقدّم ـ ولاية المحبّة المستلزمة لتقارب نفوسهم، و تجاذب أرواحهم المستوجب لاجتماع آرائهم على اتّباع الهوى، و الاستكبار عن الحق و قبوله، إلى أن قال: و الجملة في موضع التعليل لقوله: «لَاتَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ»، و المعنى لاتتّخذوهم أولياء لأنّهم على تفرّقهم و شقاقهم فيما بينهم يد واحدة عليكم لانفع لكم في الاقتراب منهم بالمودّة و المحبّة.

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ» معنى آخر، و هو أن لاتتّخذوهم أولياء لأنّكم إنّما تتّخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الذي هم

أولياؤكم على البعض الآخر، و لاينفعكم ذلك فإنّ بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم، انتهى.

ولايخفى عليك أنّ النهي عن اتّخاذهم بعنوان المحبوب يكون من جهة أنّ الحبّ و المودّة يوجب انجذاب المسلمين في الكفّار. هذا مضافا إلى أن المحبّة مع من يكون مودّته مع مثله من الكفّار لامورد لها.

ثم إنّ النهي عن المحبّة و المودّة مع الكفّار يدلّ على النهي عن تولّيهم بعنوان المولى بالأولوية.

و قال في الميزان في قوله تعالى: «فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ»: تفريع على قوله في الآية السابقة: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ»، فمن عدم شمول الهداية الإلهية لحالهم ـ و هو الضلال ـ مسارعتهم فيهم و اعتذارهم في ذلك بما لايسمع من القول، و قد قال تعالى: «يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ»، و لم يقل يسارعون إليهم، فهم منهم و حالون في الضلال محلهم، فهؤلاء يسارعون فيهم لالخشية إصابة دائرة عليهم فليسوا يخافون ذلك، و إنّما هي معذرة يختلقونها لأنفسهم لدفع ما يتوجّه إليهم من ناحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المؤمنين من اللوم و التوبيخ، بل إنّما يحملهم على تلك المسارعة تولّيهم أولئك اليهود و النصارى، إلى أن قال في قوله: «فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ»:

لفظة «عَسَى» و إن كان في كلامه تعالى للترجّي كسائر الكلام ـ على ما قدّمنا أنّه للترجي العائد إلى السامع أو إلى المقام ـ لكنّ القرينة قائمة على أنّه ممّا سيقع قطعاً فإنّ الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ»،

و تثبيت صدقه، فما يشتمل عليه واقع لامحالة، إلى أن قال: و أمّا قوله: «فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ»، فإنّ الندامة إنّما تحصل عند فعل ما لم يكن ينبغي أن يفعل أو ترك ما لم يكن ينبغي أن يترك، و قد فعلوا شيئا، و الله سبحانه يذكر في الآية التالية حبط أعمالهم و خسرانهم في صفقتهم فإنّما أسرّوا في أنفسهم تولّي اليهود و النصارى لينالوا به و بالمسارعة فيهم ما كانت اليهود و النصارى يريدونه من انطفاء نور الله و التسلط على شهوات الدنيا، من غير مانع من الدين، إلى أن قال: «وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ» إلى آخر الآية، إلى أن قال: لكن الظاهر من السياق أنّ الخطاب للذين في قلوبهم مرض، و الإشارة إلى اليهود و النصارى، و قوله: «حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ» (الآية)، كالجواب لسؤال مقدر، و المعنى: و عسى أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، فيقول الذين آمنوا لهؤلاء الضعفاء الإيمان عند حلول السخط الإلهي بهم: أهؤلاء اليهود و النصارى هم الذين أقسموا بالله جهد أيمنهم، أي: أيمانهم التي بالغوا و جهدوا فيها جهدا إنّهم لمعكم، فلماذا لاينفعونكم؟ ثمّ كأنّه سئل فقيل: فإلى من انتهى أمر هؤلاء الموالين؟ فقيل في جوابه: حبطت أعمالهم فاصبحوا خاسرين، انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: و هو من الكائنات التي اُخبر عنها في القرآن قبل كونها و هو أنّ قوما يرتدّون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، و أنّه ـ سبحانه ـ ينصر دينه بقوم لهم هذه الصفات المذكورة، قيل: هم أهل اليمن، إلى أن قال: و قيل: هم أهل الفرس و أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضرب بيده على عاتق سلمان فقال: هذا و ذووه، و قال:لو كان الدين معلّقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس، و عن أئمّة الهدى عليهم السلام و عمّارٍ و حذيفة أنّهم علي عليه السلام و أصحابه حين قاتل الناكثين و القاسطين و المارقين، و يؤيّده الحديث: لتنتهنّ يا معشر قريش أو ليبعثنّ الله عليكم رجلا يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتُكم على تنزيله، ثمّ قال من بعد: إنّه خاصف النعل في الحجرة و كان علي عليه السلام يخصف نعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، و «أَذِلَّةٍ» جمع ذليل، أي: عاطفين على المؤمنين على وجه التذلّل و التواضع أشدّاء «عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ». و اللومة المرّة من اللوم و فيه أنّهم لايخافون شيئا قط من لوم أحد من اللوّام، «ذَٰلِكَ» أي: محبّتهم و لين جانبهم على المؤمنين و شدّتهم على الكفّار «فَضْلُ» من الله و منّة و لطف من جهته يعطيه من يعلم أنّه أهل له، «وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ» كثير الفواضل و الألطاف «عَلِيمٌ» بمن هو من أهلها، انتهى.

و في الميزان: ارتدّ عن دينه: رجع عنه، و هو في اصطلاح أهل الدين الرجوع من الإيمان إلى الكفر سواء كان إيمانه مسبوقا بكفر آخر كالكافر يؤمن ثمّ يرتدّ، أولم يكن، و هما المسميان بالارتداد الملّي و الفطري حقيقة شرعية أو متشرّعية.

ربّما يسبق إلى الذهن أنّ المراد بالارتداد في الآية هو ما اصطلح عليه أهل الدين، و يكون الآية على هذا غير متّصلة بما قبلها، و إنّما هي آية مستقلّة تحكي عن نحو استغناء من الله سبحانه عن إيمان طائفة من المؤمنين بإيمان آخرين.

لكنّ التدبّر في الآية و ما تقدّم عليها من الآيات يدفع هذا الاحتمال، فإنّ الآية على هذا تذكر المؤمنين بقدرة الله سبحانه على أن يعبد في أرضه، و أنّه سوف يأتي بأقوام لايرتدّون عن دينه، بل يلازمونه، إلى أن قال: و المقام الذي هذه صفته لايقتضي أزيد من التعرّض لأصل الغرض، و هو الإخبار بالإتيان بقوم مؤمنين لايرتدّون عن دين الله، و أمّا أنّهم يحبّون الله و يحبّهم، و أنّهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين إلى آخر ما ذكر في الآية من الأوصاف فهي اُمور زائدة يحتاج التعرّض لها إلى اقتضاء زائد من المقام و الحال، انتهى.

و لايخفى أنّ الآيات المتقدّمة دلّت على ارتداد من اتّخذ اليهود و النصارى أولياء بقوله: «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ» كما يؤيّد الآية التي بعدها من أنّهم «فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ» في اُمور الكفّار و ظهور كذبهم في حلفهم على أنّهم لمعكم.

فلابأس بإرادة الارتداد بمعناه الحقيقي، فإنّه صادق بالنسبة إلى المذكورين في الآية المتقدّمة، و عليه، فهذه الآية تدلّ على أوصاف المؤمنين التي يجب أن يكون كلّ مؤمن كذلك في قبال قوم آخر اُشير إليه في الآية السابقة. و كيف كان، أظهرت الآية بقوله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟» الآية، عن ملحمة غيبيّة أنّ الله سبحانه يأتي بقوم في قبال قوم سابق الذكرهم المؤمنون حقّا.

و لهم صفات: من الثبات و محبّة الله تعالى و الجهاد في سبيل الله تعالى و عدم الخوف من لومة لائم.

و في الميزان: و أمّا قوله تعالى: «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ» فالحبّ مطلق معلّق على الذات من غير تقييده بوصف أو غير ذلك، أمّا حبّهم لله فلازمه إيثارهم ربّهم على كلّ شيء سواه ممّا يتعلّق به نفس الإنسان من مال أو جاه أو عشيرة أو غيرها، فهؤلاء لايوالون أحدا من أعداء الله سبحانه، و إن والوا أحدا فإنّما يوالون أولياء الله بولاية الله تعالى.

و أمّا حبّه تعالى لهم فلازمه براءتهم من كلّ ظلم، و طهارتهم من كلّ قذارة معنوية من الكفر و الفسق بعصمة أو مغفرة إلهية عن توبة، و ذلك أنّ جمل المظالم و المعاصي غير محبوبة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١]، و قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

و قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٣]، و قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٤]، و قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٥]، و قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٦]، و قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[٧]. إلى غير ذلك من الآيات.

---

١. آل عمران: ٣٢.

٢. آل عمران: ٥٧.

٣. الأنعام: ١٤١.

٤. المائدة: ٦٤.

٥. البقرة: ١٩٠.

٦. النحل: ٢٣.

٧. الأنفال: ٥٨.

و في هذه الآيات جماع الرذائل الإنسانية، و إذا ارتفعت عن إنسان بشهادة محبة الله له اتّصف بما يقابلها من الفضائل، لأنّ الإنسان لامخلص له عن أحد طرفي الفضيلة و الرذيلة إذا تخلّق بخلق.

فهؤلاء هم المؤمنون بالله حقّا غير مشوب إيمانهم بظلم، و قد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١]، فهم مأمونون من الضلال و قد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾[٢]، إلى أن قال: و عند ذلك يتمّ أنّهم من مصاديق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٣]، إلىأن قال: «أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ»، الأذلّة و الأعزّة جمعا الذليل و العزيز، و هما كنايتان عن خفضهم الجناح للمؤمنين، تعظيما لله الذي هو وليّهم و هم أولياؤه، و عن ترفعهم من الاعتناء بما عند الكافرين من العزّة الكاذبة التي لايعبأ بأمرها الدين، كما أدّب بذلك نبيه في قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، انتهى.

و في كنز الدقائق: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ»: و قرئ يرتدد بدالين و جوابه محذوف، يعني: فلن يضرّوا الله شيئا، فإنّ الله لايخلي دينه من أنصار يحمونه، إلى أن قال: «أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ»: عاطفين عليهم، إلى أن قال:

---

١. الأنعام: ٨٢.

٢. النحل: ٣٧.

٣. آل عمران: ٣١.

٤. الحجر: ٨٨.

و استعماله مع «عَلَى» إمّا لتضمين معنى العطف (و الحنّو)، أو للتنبيه على أنّهم مع علوّ طبقتهم و فضلهم على المؤمنين خاضعون لهم، أو للمقابلة.

«أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ»: شداد متغلّبين عليهم، من عزّه إذا غلبه، و قرئ بالنصب على الحال، انتهى.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾

و في جوامع الجامع: نزلت في (حقّ) علي عليه السلام حين سأله سائل و هو راكع في صلاته فأومأ بخنصره اليمنى إليه فأخذ السائل الخاتم من خنصره، و رواه الثعلبي في تفسيره، و الحديث طويل رويناه في الكتاب الكبير، و فيه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: اللّهمّ اشرح لي صدري و يسّر لي أمري و اجعل لي وزيرا من أهلي عليّا عليه السلام أخي اشدد به ظهري، قال أبوذر: فوالله ما استتم الكلمة حتّى نزل جبرئيل فقال: يا محمّد اقرأ: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ» الآية.

و المعنى «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ» أي: الذي يتولّى تدبيركم و يلي اُموركم «ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ» هذه صفاتهم، «وَهُمْ رَٰكِعُونَ»، حال من «وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ»، أي: يؤتونها في حال ركوعهم.

قال جار الله: و إنّما جيء به على لفظ الجمع و إن كان السبب فيه رجلا واحداً ليرغب الناس في مثل فعله، و لينبّه على أنّ سجيّة المؤمنين يجب أن يكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ و الإحسان.

و أقول: قد اشتهر في اللغة العبارة عن الواحد بلفظ الجمع على سبيل التعظيم، فلايحتاج إلى الاستدلال عليه و إذا ثبت أنّه المعني في الآية على ما ذكرناه صحّت إمامته بالنصّ الصريح، «فإنّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ».

قال الفاضل الشعراني: و العمدة في التمسك بقوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ» هو إثبات أنّ الآيةنزلت في شأن علي عليه السلام و حيث ثبت ذلك، فلاشبهة في الإمامة و الولاية، انتهى.

قال الكرمي في تفسيره: «إِنَّمَا» للحصر بلاشك، و الذي أُريد حصره هو الولاية بمعنى القيمومة و الإشراف على الأُمور لوضوح أن لاقيمومة لغير الله و رسوله في عالم التكليف إلّا لمن ينصبانه قيّما كالإمام الشرعي، قيمومة الإمام الشرعي على المكلّفين كقيمومة منصوب الأب أو الجدّ للأب على غير البالغ من أولادهما و الذي له الولاية الشرعية بعد الله و الرسول هو الإمام الذي يوصي إليه النبيّ و نائب الإمام و هو الحاكم الشرعي، أعني: الفقيه الجامع لشروط المرجعيّة و العدل الثقة الأمين من المؤمنين، حيث لايكون أحد من السالفة عناوينهم و قد يكون هذا المعنى هو المشار إليه بقوله تعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ».

و قد وردت آثار كثيرة عن العامّة و الخاصّة أنّ مورد نزول هذه الآية هو أميرالمؤمنين علي عليه السلام، و أنّه في حادثة خاصّة تصدّق على مسكين و هو في حال الركوع بخاتمه، فنزلت هذه الآية في حقّه، ثمّ أعرب سبحانه أنّ كلّ مكلّف يتّخذ الله وليّا له مدبّرا لشؤونه قيّما عليه، و هكذا يتّخذ رسوله و يتّخذ المؤمنين الصادقين في إيمانهم فإنّه يكون غالبا في دنياه و اُخراه قطعا، إذ لاأنصح و لاأصدق و لا أصحّ علما و عملا من الباري و النبيّ المعصوم و المؤمن القائم بموجبات الإيمان، فكيف لايكون متّبع أولئك غالبالغيره مهيمنا على الحوادث.

و في ذلك إيماء مصارح بأنّ تولّى الإنسان للظلمة ممّا يصيّره ظالما على الميزان قدرته في تعدّيه، لأنّ الناس على دين ملوكهم، و من هنا غلط أبناء العامّة في تجويزهم خلافة الظلمة و شرعيتها و لزوم الإصاخة لها، فإنّ في الإصاخة لها ما فيه من إشاعة الفحشاء و ارتباك الحقوق و العوائل كما انجرّ ذلك إلى ما يلابس المجتمعات فعلا على الأخصّ الممالك المسلمة، انتهى.

قال في تفسير كاشف: إنّ الولاية التي لله و الرسول ثابتة أيضا لمن جمع بين الزكاة و الركوع، انتهى. و حيث إنّ ولاية الله و رسوله تكون بمعنى الدخل و التصرف في الاُمور، فالولاية الثابتة لمن جمع بين الزكاة و الركوع هي الولاية الثابتة لله تعالى و رسوله أيضا، فالآية صريحة في أنّ معنى الولاية في الله و رسوله و المؤمنين بمعنى واحد.

و في كنز الدقائق: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ»: لمّا نهى عن موالاة الكفرة، ذكر عقيبه من هو حقيق بها، و إنّما قال: «وَلِيُّكُمُ»، و لم يقل: «أولياؤكم»، للتنبيه على أنّ الولاية لله و لرسول و للمؤمنين واحدة، و المراد

بالولي، المتولّي للاُمور و المستحقّ للتصرّف فيهم. «ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ»: صفة لـ«ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» لأنّه جرى مجرى الأسماء أو بدل منه و يجوز رفعه و نصبه، على المدح. «وَهُمْ رَٰكِعُونَ»: حال من فاعل «يُؤْتُونَ»، أي: يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة، حرصا على الإحسان و مسارعة إليه.

و اُصول في الكافي: عن أبي عبدالله عليه السلام في تفسير هذه الآية، يعني: أولى بكم، أي: أحقّ بكم و باُموركم من أنفسكم و أموالكم، الله و رسوله و الذين آمنوا، يعني: عليّا و أولاده الأئمّة عليهم السلام إلى يوم القيامة، (الحديث) إلى أن قال:

و في الكافي: عن الحسين بن أبي العلاء قال: ذكرت لأبى عبدالله عليه السلام قولنا في الأوصياء أن طاعتهم مفترضة، قال: فقال: نعم، هم الذين قال الله عزّوجلّ: «أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ»، و هم الذين قال الله عزّوجلّ: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ».

إلى أن قال: «وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ»، (أي: فإنّهم الغالبون)، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تنبيها على البرهان عليه، و كأنّه قيل: و من يتولّ هؤلاء فهم حزب الله، و حزب الله هم الغالبون، انتهى.

و في خلاصة منهج الصادقين: جمهور مفسران از علماى شيعه و اهل سنت برآنند كه اين آيه در شأن عالى شأن حضرت على بن أبي طالب عليه السلام است، و اماميه به اين استدلال كرده‌اند كه خلافت منصب آن حضرت است، زيرا كه

«ولی» در این آیه بمعنای أولی به تصرف است در امور مسلمانان، و أحق در مصالح خلقان، پس ولایت آن کس را باشد که در رکوع تصدّق نموده باشد، زیرا که به اتفاق این وصف به او علیه السلام مخصوص است.

و از جمله ثعلبی که از افاضل اهل سنت است و در تفسیر خود آورده که این آیه در حق شاه اولیاست، انتهی.

و في الميزان: الآيتان ـ كما ترى ـ موضوعتان بين آيات تنهى عن ولاية أهل الكتاب و الكفّار، و لذلك رام جماعة من مفسّري القوم إشراكهما مع ما قبلهما و ما بعدهما من حيث السياق، و جعل الجميع ذات سياق واحد يقصد به بيان وظيفة المؤمنين في أمر ولاية الأشخاص ولاية النصرة، و النهي عن ولاية اليهود و النصارى و الكفّار، و قصر الولاية في الله سبحانه و رسوله و المؤمنين الذين يقيمون الصلوة و يؤتون الزكوة و هم راكعون، و هؤلاء هم المؤمنون حقّا، إلى أن قال: و تكون الآية دالة على مثل ما يدلّ عليه مجموع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] و قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٢].

و قوله تعالى في المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[٣]، و قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآية[٤]. فمحصّل الآية: جعل ولاية النصرة لله و لرسوله و المؤمنين على المؤمنين.

---

١. آل عمران: ٦٨.

٢. الأحزاب:٦.

٣. الأنفال: ٧٢.

٤. التوبة: ٧١.

نعم يبقى هناك إشكال الجملة الحالية التي يتعقّبها قوله: «وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ» و هي قوله: «وَهُمْ رَٰكِعُونَ» و يرتفع الإشكال بحمل الركوع على معناه المجازي و هو مطلق الخضوع لله سبحانه أو انحطاط الحال لفقر و نحوه، و يعود معنى الآية إلى أنّه ليس أولياؤكم اليهود و النصارى و المنافقين، بل أولياؤكم الله و رسوله و المؤمنون الذين يقيمون الصلاة، و يؤتون الزكاة، و هم في جميع هذه الأحوال خاضعون لساحة الربوبية بالسمع و الطاعة، أو أنّهم يؤتون الزكاة و هم فقراء معسرون هذا. لكن التدبّر و استيفاء النظر في الآيتين و ما يحفهما من آيات ثمّ في أمر السورة يعطي خلاف ما ذكروه، و أوّل ما يفسد من كلامهم ما ذكروه من أمر وحدة سياق الآيات، و أنّ غرض الآيات التعرّض لأمر ولاية النصرة، و تمييز الحقّ منها عن غير الحقّ، فإنّ السورة و إن كان من المسلّم نزولها في آخر عهد رسول الله ﷺ في حجّة الوداع، لكن من المسلّم أيضا أنّ جميع آياتها لم تنزل دفعة واحدة، ففي خلالها آيات لاشبهة في نزولها قبل ذلك، و مضامينها تشهد بذلك، و ما ورد فيها من أسباب النزول يؤيّده فليس مجرّد وقوع الآية بعد الآية أو قبل الآية يدلّ على وحدة السياق، و لا أنّ بعض المناسبة بين آية و آية يدلّ على نزولهما معاً دفعة واحدة أو اتّحادهما في السياق.

على أنّ الآيات السابقة أعني قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَاتَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ»، إلخ، تنهى المؤمنين عن ولاية اليهود و النصارى، و تعيّر المنافقين و الذين في قلوبهم مرض بالمسارعة إليهم و رعاية جانبهم، من غير أن يرتبط الكلام بمخاطبة اليهود و النصارى و إسماعهم الحديث بوجه، بخلاف الآية التالية، أعني قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ»، إلخ، فإنّها تنهى عن ولايتهم و تتعرّض لحالهم بالأمر بمخاطبتهم، ثمّ يعيّرهم بالنفاق و الفسق فالغرض في القبيلين من الآيات السابقة و اللاحقة مختلف، و معه كيف يتّحد السياق؟!

على أنّك قد عرفت في البحث عن الآيات السابقة أعني قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ» الآيات أنّ ولاية النصرة لاتلائم سياقها، و أنّ خصوصيات الآيات و العقود المأخوذة فيها و خاصّة قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ» و قوله: «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ» لاتناسبها فإنّ عقد ولاية النصرة و اشتراطها بين قومين لايوجب صيرورة أحدهما الآخر و لحوقه به، و لا أنّه يصحّ تعليل النهي عن هذا العقد بأنّ القوم الفلاني بعضهم أولياء بعض بخلاف عقد ولاية المودّة التي توجب الامتزاج النفسي و الروحي بين الطرفين، و تبيح لأحدهما التصرف الروحي و الجسمي في شؤون الآخر الحيوية، و تقارب الجماعتين في الأخلاق و الأعمال الذي يذهب بالخصائص القومية.

على أنّه ليس من الجائز أن يعدّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليّا للمؤمنين بمعنى ولاية النصرة بخلاف العكس، إلى أن قال: فقد ظهر أنّ الآيتين أعني قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ» إلى آخر الآيتين لاتشاركان السياق السابق عليهما، لو فرض أنّه متعرّض لحال ولاية النصرة، إلى أن قال: على أنّ الروايات متكاثرة من طرق الشيعة و أهل السنّة على أنّ الآيتين نازلتان في أميرالمؤمنين علي عليه السلام، إلى أن قال:

و لو صحّ الإعراض في تفسير آية بالأسباب المأثورة عن مثل هذه الروايات على تكاثرها و تراكمها، لم يصحّ الركون إلى شيء من أسباب النزول المأثورة في شيء من آيات القرآن و هو ظاهر، فلاوجه لحمل الآيتين على إرادة ولاية المؤمنين بعضهم لبعض بجعلها عامّة، إلى أن قال: في ذيل قوله: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» (الآية). قال الراغب في المفردات: الولاء بفتح الواو و التوالي أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، و يستعار ذلك للقرب من حيث المكان و من حيث النسبة و من حيث الصداقة و النصرة و الاعتقاد، و الولاية النصرة، و الولاية تولّى الأمر، و قيل: الولاية و الولاية بالفتح و الكسر واحدة نحو الدلالة و الدلالة، إلى أن قال: و إذا فرضت الولاية ـ و هي القرب الخاصّ ـ في الأُمور المعنوية كان لازمها أنّ للولي ممّن وليه ما ليس لغيره إلّا بواسطته، فكلّ ما كان من التصرف في شؤون من وليه ممّا يجوز فيه أن يخلفه فيه غيره، فإنّما يخلفه الولي لاغيره كولي الميت، فإنّ التركة التي كان للميّت أن يتصرّف فيها بالملك، فإنّ لوارثه الولي أن يتصرف فيها بولاية الوراثة، و وليّ الصغير يتصرّف بولايته في شؤون الصغير المالية بتدبير أمره، و وليّ النصرة له أن يتصرّف في أمر المنصور من حيث تقويته في الدفاع، و الله سبحانه وليّ عباده يدبّر أمرهم في الدنيا و الآخرة، لاولي غيره، و هو وليّ المؤمنين في تدبير أمر دينهم بالهداية و الدعوة و التوفيق و النصرة و غير ذلك، و النبي وليّ المؤمنين من حيث إنّ له أن يحكم فيهم و لهم و عليهم بالتشريع و القضاء، و الحاكم وليّ الناس بالحكم فيهم على مقدار سعة حكومته، و على هذا القياس سائر موارد

الولاية، كولاية العتق و الحلف و الجوار و الطلاق و ابن العمّ، و ولاية الحبّ و ولاية العهد و هكذا، إلى أن قال: فالمحصّل: من معنى الآية في موارد استعمالها هو نحو من القرب يوجب نوعا من حقّ التصرف و مالكية التدبير.

و قد اشتمل قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» (الآية)، «إلخ»، من السياق على ما يدلّ على وحدة ما في معنى الولاية المذكورة فيه حيث تضمن العدّ في قوله: «ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ»، و اُسند الجميع إلى قوله: «وَلِيُّكُمُ» و ظاهره كون الولاية في الجميع بمعنى واحد. و يؤيّد ذلك أيضا قوله في الآية التالية: «فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ»، حيث يشعر أو يدلّ على كون المتولّين جميعا حزبا لله، لكونهم تحت ولايته، فولاية الرسول و الذين آمنوا إنّما هو من سنخ ولاية الله، إلى أن قال: و يجمع الجميع أنّ له ﷺ الولاية على الاُمّة في سوقهم إلى الله و الحكم فيهم و القضاء عليهم في جميع شؤونهم، فله عليهم الإطاعة المطلقة، فترجع ولايته ﷺ إلى ولاية الله سبحانه بالولاية التشريعية، و نعني بذلك أنّ له ﷺ التقدّم عليهم بافتراض الطاعة، لأنّ طاعته طاعة الله، فولايته ولاية الله، كما يدلّ عليه بعض الآيات السابقة كقوله: «وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ» الآية، و قوله: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا» الآية، و غير ذلك.

و هذا المعنى من الولاية لله و رسوله، هو الذي تذكره الآية للذين آمنوا بعطفه على الله و رسوله في قوله: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» على ما عرفت

من دلالة السياق على كون هذه الولاية ولاية واحدة هي لله سبحانه بالأصالة و لرسوله و الذين آمنوا بالتبع و بإذن منه تعالى.

و لو كانت الولاية المنسوبة إلى الله تعالى في الآية غير المنسوبة إلى الذين آمنوا، (و المقام مقام الالتباس)، كان الأنسب أن تفرد ولاية اُخرى للمؤمنين بالذكر رفعا للالتباس، إلى أن قال: على أنّ لفظ «وَلِيُّكُمُ» اُتي به مفردا، و قد نسب إلى الذين أمنوا و هو جمع، و قد وجّهه المفسرون بكون الولاية ذات معنى واحد هو لله سبحانه على الأصالة، و لغيره بالتبع.

و قد تبيّن من جميع ما مرّ أنّ القصر في قوله: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ»، «إلخ» لقصر الإفراد، كأنّ المخاطبين يظنّون أنّ الولاية عامّة للمذكورين في الآية و غيرهم، فأفرد المذكورون للقصر، إلى أن قال: «وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ»، التولّي هو الأخذ وليّا، و «ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» مفيد للعهد، و المراد به المذكور في الآية السابقة: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ»، إلخ، و قوله: «فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ» واقع موقع الجزاء، و ليس به بل هو من قبيل وضع الكبرى موضع النتيجة للدلالة على علّة الحكم، و التقدير: و من يتولّ فهو غالب لأنّه من حزب الله، و حزب الله هم الغالبون.

إلى أن قال: بعد نقل الروايات الدالّة على بيان القصّة، أقول: و الروايات في نزول الآيتين في قصة التصدق بالخاتم كثيرة أخرجنا عدّة منها من كتاب غاية المرام للبحراني، و هي موجودة في الكتب المنقول عنها، و قد اقتصرنا على ما نقل عليه من اختلاف اللحن في سرد القصة. و قد اشترك في نقلها عدة من الصحابة كأبي ذر و ابن عباس و أنس بن مالك و عمار و جابر و سلمة بن كهيل و

أبي رافع و عمرو بن العاص، و عليّ و الحسين و كذا السجاد و الباقر و الصادق و الهادي و غيرهم من أئمّة أهل البيت عليهم السلام . و قد اتّفق على نقلها من غير ردّ أئمة التفسير المأثور، كأحمد و النسائي و الطبري و الطبراني و عبد بن حميد و غيرهم من الحفّاظ و أئمّة الحديث. و قد تسلّم ورود الرواية المتكلمون، و أوردها الفقهاء في مسألة الفعل الكثير من بحث الصلاة، و في مسألة (هل تسمّى صدقة التطوّع زكاة) و لم يناقش في صحّة انطباق الآية على الرواية فحول الأدب من المفسرين كالزمخشري في الكشّاف، و أبي حيّان في تفسيره، و لا الرواة النقلة و هم أهل اللسان، انتهى.

و في مصباح الهداية: و لاخلاف بين الأُمّة أنّ هذه الآية نزلت في مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام كما صرّح به ابن شهر آشوب، فلاحاجة إلى إكثار ذكر الروايات من طريقتهم، و نتبرك بذكر روايات من طريقنا: منها ما في الكافي عن مولانا الصادق عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» الآية، قال: إنّما يعني أولى بكم، أي: أحقّ بكم و بأموالكم من أنفسكم. «ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» يعني: عليّا و أولاده الأئمة عليهم السلام إلى يوم القيامة ثمّ وصفهم الله عزّوجلّ فقال: «ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ».

و كان أميرالمؤمنين عليه السلام في صلاة الظهر و قد صلّى ركعتين و هو راكع و عليه حلّة قيمتها ألف دينار، و كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كساها إيّاها و كان النجاشي أهداها له و جاء سائل فقال: السلام عليك يا وليّ الله و أولى بالمؤمنين من أنفسهم! تصدّق على مسكين، فطرح الحلّة إليه و أومئ بيده أن احملها، فأنزل الله عزّوجلّ فيه هذه الآية، و صيّر نعمة أولاده بنعمته، فكلّ من بلغ من أولاده مبلغ

الإمامة يكون بهذه النعمة مثله فيتصدّقون و هم راكعون، و السائل الذي سأل أميرالمؤمنين عليه السلام هو من الملائكة، و الذين يسألون الأئمّة من أولاده يكونون من الملائكة، إلى أن قال: و ليس بين الاُمّة خلاف أنّه لم يؤت الزكاة يومئذ و هو راكع غير رجل واحد، لو ذكر اسمه في الكتاب لأسقط مع ما أسقط من ذكره، و هذا و ما أشبهه من الرموز التي ذكرت لك ثبوتها في الكتاب ليجهل معناها المحرّفون فيبلغ إلى أمثالك، إلى أن قال: بيان عين التوفيق بين ما رواه في الكافي، المتصدّق به كان حلّة، و بين ما رواه غيره. و اشتهر بين الخاصّة و العامّة أنّه كان خاتما بأنّه عليه السلام لعلّه تصدّق في ركوع صلاة الظهر بالحلّة و في ركوع صلاة اُخرى بالخاتم و نزلت الآية بعد الثانية، إلى أن قال: أقول: و قد تبيّن لك ممّا بيّناه أنّه لاخلاف بين المسلمين في نزول الآية، و ممّا يوضح ذلك أيضا مع وضوحه و ظهوره أنّ المراد من الذين يقيمون الصلاة مصداق مخصوص، لا العنوان العامّ الشامل لكلّ من آتى الزكاة في حال الركوع، إذ ليس له مزيّة خاصّة يختصّ به بعض المؤمنين حتّى يناسب حصر الولاية في المتّصف به دون غيره، فالصفة المأخوذة من القضية إنّما أخذت معرّفة لاعنوانا يدور مداره الحكم بحيث يعمّ الحكم كلّ من يتصدّق في حال الركوع، فلابدّ حينئذٍ من تعريف المصداق المخصوص الذي هو موضوع الحكم.

و لم يعرف في الروايات الواردة من الطريقين مع كثرتها و استفاضتها بل تواترها إلا مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام، فلامجال للتردّد و التزلزل في عدم صدقه إلّا على مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام.

ولاينافي ذلك التعبير بصيغة الجمع، لأنّ التعبير بها في مقام التعظيم شائع، مع أنّ في التعبير عنه عليه السلام بصيغة الجمع إشارة إلى أمر آخر و هو أنّ إيمانه عليه السلام أكمل مراتب الإيمان سبقا و ثباتا و يقينا و أنّ طاعته لله تعالى أتمّ درجات الطاعات إخلاصا متمحّضة في وجه الله تعالى خالية عن شائبة الطمع في جنّتك بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك، فعبّر عنه بصيغة الجمع تنبيها على هذا المعنى و تنزيلا له منزلة جميع المؤمنين من حيث استكمال جميع مراتب الإيمان و أشدّ درجات الطاعات فيه و ارتقاه على أعلى مراتب اليقين و الإيمان و أكمل درجات الطاعة قد دلّت عليه نصوص الفريقين في مواطن كثيرة مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم حين برز عليه السلام إلى عمرو بن عبدودّ: برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه، و أنّه أحبّ الخلق إلى الله تعالى و رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الطير المشوي، و في غزوة تبوك: لأُعطينّ الراية غدا رجلا يحبّ الله و رسوله و يحبّه الله و رسوله، كرّارا غير فرّار لايرجع حتّى يفتح الله على يديه. و هكذا من النصوص المسلّمة و ما هو مشهود من حاله عليه السلام لايرتاب فيه من له أدنى اطلاع بحاله.

و إذا تبيّن لك ما بيّناه، فاعلم أنّ الآية الكريمة صريحة في اختصاص الولاية التامّة و الإمامة الكبرى و الخلافة العظمى بمولانا أميرالمؤمنين عليه السلام لأنّ الوليّ و إن أُطلق على معان متعدّدة: مالك الأمر و الصديق و المحبّ و الناصر، إلّا أنّ المعنى الشائع المنصرف إليه الإطلاق هو الأول، فولي الصغير من يملك أمره، و وليّ المرأة من يملك تدبير نكاحها، و وليّ الدم من كان له المطالبة بالقود، و وليّ العهد من يملك عهد السلطنة، و هكذا من الموارد.

في مجمع البيان: قال المبرّد في كتاب العبارة عن صفات الله: أصل الوليّ الذي هو أولى (أي: أحقّ)، و مثله المولى، انتهى.

فالوليّ بمعنى أولى و أحقّ هو الظاهر مع قطع النظر عن قرائن المقام. و أما بملاحظتها فهو متعيّن و هي في المقام من وجهين:

الأول: أنّه كما تكون إضافة الولي إلى من له حاجة إلى من يقوم بأمره قرينة معيّنة عند أهل العرف على إرادة مالك الأمر كولي الصغير و وليّ المرأة بحيث لايحتمل أحد أن يراد من العبارتين محبّتهما أو ناصرهما أو صديقهما أو جارهما، و يحكمون قطعا بأنّ المراد منه مالك الأمر، فكذلك إسناد الوليّ إلى من كانت سلطنته ثابتة على الطرف عقلا أو شرعا أو عرفا، قرينة معيّنة عندهم على إرادة مالك الأمر.

ألا ترى أنّك إذا قلت وليّ الرعيّة السلطان، و وليّ عهده و القائم مقامه من بعده، لايحتمل أحد أن يكون المراد منه المحبّ أو الناصر مثلا، بل يحكمون جزما بأنّ المراد منه مالك الأمر، و المقام من هذا القبيل، فإنّ سلطنة رسول الله ﷺ على الأُمّة من حيث رسالته و خلافته عن الربّ تعالى شأنه، فيتعيّن الوليّ حينئذٍ في المقامين في مالك الأمر، و عطف «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ» الآية، عليه تعالى شأنه أو على رسوله، يوجب اشتراك المعطوف مع المعطوف عليه في الحكم، كما هو ظاهر، فيتعيّن أن تكون الولاية الثابتة له تعالى و لرسوله هي الولاية بمعنى الأحقية و الأولويّة و ملك الأمر.

و الثاني: أداة الحصر و هي كلمة «إنّما» المفيدة للحصر باتّفاق أهل العربية بل بالضرورة، فإنّ الولاية بمعنى سائرالمعاني لاتنحصر فيه تعالى شأنه و في رسوله و المؤمن الموصوف بأنّه يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة في حال الركوع، فتحقيق معنى الحصر يوجب القطع بأنّ المراد بالولاية إنّما هي ولاية الأمر و أولويّة التصرّف.

فإن قلت: الظاهر بقرينة الآية السابقة عليه بأربع آيات و هو قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ» الآية، و الآية اللاحقة عليه بآيتين، و هي قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا» إلى قوله تعالى: «وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ» أنّ المراد من الولاية هنا المحبّة، لأنّ المنهيّ عنها بالنسبة إلى اليهود و النصارى و الكفّار إنّما هي الولاية بمعنى المحبّة لابمعنى الأولويّة، لأنّ المؤمنين لم يتّخذوهم أولي الأمر حتّى ينهوا عنه، فحينئذٍ يحكم بأنّ المراد من الولاية في الجميع بمعنى المحبّة، و الحصر إنّما يكون مجازيا لاحقيقيا.

قلت: مجرد كون الوليّ في آية اُخرى سابقة أو لاحقة، غير مربوطة بهذه الآية بمعنى المحبّ لايوجب أخذ الوليّ في هذه الآية بمعناه أيضا، مع أنّ المناسب للسابقة و اللاحقة أخذ الوليّ هنا بمعنى وليّ الأمر و الأولى و الأحقّ بالاُمور، فهي إرشاد للمؤمنين بأنّ وليّ أمركم هو الله تعالى ورسوله ﷺ، و المؤمن الموصوف بما وصفه و أنتم تحت ولاية أمرهم و لااختيارلكم في اتّخاذ المودّة بينكم و بين من كفر بهم، و وجب عليكم إطاعة مواليكم و الائتمار بأمرهم و الانتهاء عمّا نهوا عنه، فالآية تأكيد و تثبيت للنهي السابق و اللاحق.

ثمّ إنّ التجوّز في الحصر لايكون إلّا على سبيل التنزيل، ضرورة أنّ التجوّز في الحروف إنّما يكون بتبع مدخولها، فما لم ينزل المدخول المحصور فيه لايصحّ دخول أداة الحصر، و حصر الوليّ فيه تعالى شأنه و في رسوله و المؤمن الموصوف بما وصفه لو كان تنزيليا بأخذ الوليّ بمعنى المحبّ أو الناصر مثلا، إنّما يصحّ إذا نزلت محبتهم و مودّتهم منزلة جميع من وجبت مودّتهم و محبتهم من المؤمنين، و هذا لايتمّ إلّا بأن يكون المؤمن الموصوف بما وصفه قريبا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، خليفة عنه، و حجّته على عباده، و إلّا فلا مجال للتنزيل.

و جعله قرينا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في حصر المحبّة فيه و ثبوت الخلافة له صلى الله عليه وآله وسلم بالآية الكريمة، يقتضي اختصاصها به، لعدم النصّ على خلافة الخلفاء الثلاثة بالضرورة و باعتراف الخصم، مع أنّ حصر الولاية بعده تعالى شأنه و بعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في المؤمن الموصوف بما وصفه و لو كان تنزيليا، لايجامع مع كونهم عند الله تعالى مستحقّين لمقام الخلافة، بل وجب حينئذٍ أن يقرنهم بالرسول كما قرن به المؤمن بما وصفه.

فإن قلت: الحصر لايتمّ على مذهبكم أيضا لاتحقيقا و لاتنزيلا، لأنّ الإمامة و الخلافة لاتنحصر في واحد باعتقادكم، بل عدد الأئمّة عندكم اثنا عشر كعدد الشهور و عدد أسباط بني إسرائيل.

قلت: إنّما لايصحّ حصر الولاية في مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام إذا كانت إمامة كلّ واحد من الائمّة عليهم السلام في عرض إمامة الآخر كاستحقاق الشركاء بالنسبة إلى ما اشتركوا فيه، و أمّا إذا كانت إمامة كلّ واحد منهم على سبيل الترتيب بأن

يكون الإمام في كلّ عصر واحد أو يكون كلّ منهم قائم مقام الآخر فيصحّ حصر الولاية في المترتّب عليه لرجوع ولاية المترتبين إلى ولايته عليه السلام، فيصحّ حصر الولاية في مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام لرجوع ولاية سائر الأئمّة عليهم السلام إلى ولايته، كما يصحّ حصر الولاية في الرسول باعتبار رجوع ولاية الجميع إلى ولايته، كما يصحّ حصر الولاية في الله تعالى شأنه، لأنّه الأصل في الولاية، و ولاية الرسول و ولاية الائمّة عليهم السلام مترتّبة على ولايته عزّوجلّ. نعم لايصحّ حصر الولاية في المترتّب لعدم رجوع ولاية المترتّب عليه إلى ولايته، فالحصر إنّما لايتمّ على مذهب المخالفين الذين جعلوا مولانا أميرالمؤمنين متأخّرا عن خلفائهم، و أمّا على مذهبنا من أنّه صلى الله عليه وآله وسلم أوّل الخلفاء و سيّد الأوصياء، فالحصر تامّ و لاغضاضة فيه بوجه.

فتحصّل: أنّ الآية المباركة «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» الآية، تدلّ على الولاية الكلّية بمعنى مالكية الأمور و الأحقيّة بشهادة الانصراف إليها عند ما يقال: الله وليّ، و الرسول وليّ، و الذين آمنوا وليّ.

هذا مضافا إلى أنّ الحصر لامعنى له لو أُريد من الوليّ المحبّ أو الناصر لعدم انحصار المحبّ أو الناصر فيهم، و أيضا قوله تعالى في الآيات السابقة: «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ» لايساعد مع إرادة المحبّ أو الناصر من الوليّ، إذ ربّما يقع حلف النصرة بين الكفّار و المسلمين، و لايكون ذلك موجبا لكون المتولّي من الكفّار. هذا مع الغمض عن ما ورد في شأن نزول الآية الكريمة في حقّ مولانا أميرالمؤمنين عليه السلام، و المقصود منها هو جعل الولاية الكلية لمولانا

أمير المؤمنين عليه السلام كولاية الله و الرسول صلى الله عليه و آله ، اللّهمّ و ال من والاه و عاد من عاداه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

تفصيل للآيات السابقة الدالّة على النهي عن اتّخاذ الكفّار أولياء.

و في الميزان: قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ»، «إلخ» قال الراغب: الهزء مزح في خفية، و قد يقال لما هو كالمزح، انتهى.

و قال: و لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحا يلعب لعبا، و إنّما يتّخذ الشيء هزؤاً و يستهزئ به إذا اتّخذ به على وصف لايعتنى بأمره اعتناء جدّ لإظهار أنّه ممّا لاينبغي أن يلتفت إليه، و كذا الشيء يلعب به إذا كان ممّا لايتّخذ لواحد من الأغراض الصحيحة العقلائية، إلى أن قال: إنّ ذكر اتّخاذهم الدين هزؤاً و لعباً في وصف من نهي عن ولايتهم إنّما هو للإشارة إلى علّة النهي، فإنّ الولاية التي من لوازمها الامتزاج الروحي و التصرّف في الشؤون النفسية و الاجتماعية لايلائم استهزاء الوليّ و لعبة بما يقدّسه وليّه و يحترمه و يراه أعزّ من كلّ شيء حتّى من نفسه، فمن الواجب أن لايتّخذ من هذا شأنه وليّا، و لايلقى أزمة التصرّف في الروح و الجسم إليه، إلى أن قال في ذيل قوله تعالى: «وَإِذَا

نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا» (الآية)، «إلخ»، تحقيق لما ذكر أنّهم يتّخذون دين الذين آمنوا هزوا و لعباً، و المراد بالنداء إلى الصلاة الأذان المشروع في الإسلام قبل الصلوات المفروضة اليومية. و لم يذكر الأذان في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع ـ كما قيل. و الضمير في قوله: «ٱتَّخَذُوهَا» راجع إلى الصلاة أو إلى المصدر المفهوم من قوله: «إِذَا نَادَيْتُمْ» أعني: المناداة، و يجوز في الضمير العائد إلى المصدر التذكير و التأنيث، و قوله: «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ» تذييل يجري مجرى الجواب عن فعلهم و بيان أنّ صدور هذا الفعل أعني: اتّخاذ الصلاة أو الأذان هزوا و لعبا منهم إنّما هو لكونهم قوما لايعقلون فلايسعهم أن يتحقّقوا ما في هذه الأركان و الأعمال العبادية الدينية من حقيقة العبودية و فوائد القرب من الله، و جماع سعادة الحياة في الدنيا و العقبى، انتهى.

و في جوامع الجوامع: و كانوا إذا أذّن المؤذّن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم، و ذلك بأنّهم قوم «لَّا يَعْقِلُونَ» لأنّ هزأهم و لعبهم من أفعال السفهاء فكأنّه لاعقل لهم، انتهى.

و في تفسير كاشف: در اين آيه، كفّار را بر اهل الكتاب عطف كرده و اين از باب عطف عام بر خاصّ است، انتهى.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: ما تعيبون منّا و تنكرون إلّا الإيمان بالله و الكتب المنزلة كلّها، «وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ» فيه وجوه: أن يكون عطفا على «أَنْ ءَامَنَّا» أي: ما تنقمون منّا إلّا مخالفتكم حيث دخلنا في الإيمان و أنتم خارجون منه.

و يجوز أن يكون عطفا على المجرور، أي: إلّا الإيمان بالله و بأنّ أكثركم فاسقون، و يجوز أن يكون تعليلا معطوفا على تعليل محذوف، أي: ما تنقمون منّا إلا الإيمان، لقلّة إنصافكم و لأنّكم فاسقون، انتهى.

و في الميزان: و محصّل المعنى: أنا لانفرّق بين كتاب و كتاب ممّا أنزله الله على رسله، فلانفرق بين رسله، و فيه تعريض لهم أنّهم يفرّقون بين رسل الله و يقولون: نؤمن ببعض و نكفر ببعض، انتهى.

و في كنز الدقائق: «إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ» الإيمان بالكتب المنزلة كلّها، انتهى.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: « ذَٰلِكَ » إشارة إلى المنقوم و لابدّ من حذف المضاف و التقدير هل اُنبئكم بشر من أهل ذلك أو بشر من ذلك دين من لعنه الله، وضعت المثوبة موضع العقوبة. و منه قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] و كان اليهود يزعمون

---

١. التوبة: ٣٤.

أنّ المسلمين مستوجبون للعقاب، فقيل لهم: «مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ» شرّ عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم، و «مَن لَّعَنَهُ» في موضع الرفع أي: هو من لعنه الله، أو في محلّ الجرّ على البدل من شرّ، «وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ» عطف على صلة «من» أي: و من عبد الطاغوت، انتهى.

و في الميزان قوله تعالى: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ»، إلى أن قال: فمحصّل المعنى أنّ إيماننا بالله و ما أنزله على رسله إن كان شرّا عندكم فأنا أُخبركم بشرّ من ذلك يجب عليكم أن تنقموه و هو النعت الذي فيكم.

و ربّما قيل: إنّ الإشارة بقوله: «ذَٰلِكَ» إلى جمع المؤمنين المدلول عليه بقوله: «هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ» و على هذا فالكلام على استوائه من غير قلب، و المعنى هل أُنبئكم بمن هو شرّ من المؤمنين لتنقموهم؟ و هم أنتم أنفسكم، و قد ابتليتم باللعن و المسخ و عبادة الطاغوت. و ربّما قيل: إنّ قوله: «مِّن ذَٰلِكَ» إشارة إلى المصدر المدلول عليه بقوله: «هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ» أي: هل أُنبئكم بشر من نقمتكم هذه مثوبة و جزاء؟ هو ما ابتليتم به من اللعن و المسخ و غير ذلك، انتهى.

و في كنز الدقائق: «مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ»: بدل من «شَرٍّ» على حذف مضاف، أي: بشرّ من أهل ذلك من لعنه الله، أو بشرّ من ذلك دين من لعنه الله، أو خبر مبتدأ محذوف أي: هو من لعنه الله، و هم اليهود، أبعدهم الله من رحمته، و سخط عليهم بكفرهم و انهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، إلى أن قال: «وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ»: عطف على صلة «من»، انتهى.

و في تفسير الكرمي: الإثابة هو مطلق الجزاء، خيرا كان أم شرّا. و الطاغوت فاعول من الطغيان و هو الخروج عن التوازن الصحيح.

هذه الآية معقّبة للآية السابقة التي كان مفادها أنّ ما لايرضاه أهل الكتاب من نبيّ الإسلام و المسلمين كان دائرا على إيمانهم بالله و بما أُنزل من الكتب السماوية سابقا و القرآن لاحقا، فوجّه الله نبيّه أن يقول لهم: إن كان ما نقمتموه حقّا و اعتبرتموه شرا، و لذلك نقمتموه فهناك ما شرّ منه جزاء «عِندَ ٱللَّهِ»، و الذي هو شرّ من ذلك وقوع العبد مطروداً من ربه مغضوبا عليه ممسوخا قردا أو خنزيرا مترسما خطى الشياطين عابدا لها، و هذه الصفات كلّها تخصّ اليهود و الكفّار. فمفاد الآية إنّنا مهما نكن في نظركم شرّا، فأنتم يا معشر اليهود و الكفّار شرّ منّا لأنّكم مطرودون من رحمة الله، مغضوب عليكم من ناحيته ممسوخين قردة و خنازير، عابدون للطاغوت و من يكن كذلك فهو شرّ مكانا و أضلّ عن قصد الطريق، و عبد الطاغوت بصيغة الماضي معطوف على قوله: «لَّعَنَهُ ٱللَّهُ» و التقدير: «مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ» و من «عَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ»، انتهى.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: نزلت في ناس من اليهود كانوا يظهرون الإيمان نفاقا، «وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ» أي: دخلوا كافرين و خرجوا كافرين، و التقدير ملتبسين بالكفر، فقوله: « بِٱلْكُفْرِ» و «بِهِۦ» حالان، و كذلك قوله: «وَقَد دَّخَلُواْ» و «وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ» و لذلك دخلت «قَد» تقريبا للماضي من الحال، أي: «قَالُوٓاْ ءَامَنَّا» و هذه حالهم، إلى أن قال: «لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ» كأنّهم جعلوا آثم من مرتكبي الكبائر لأنّ كلّ عامل لايسمّى صانعا حتّى يتمكن فيه و يمهر، و عن ابن عباس: هي أشدّ آية في القرآن، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا»: نزلت في يهود نافقوا رسول الله ﷺ أو في عامّة المنافقين.

«وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ»، أي: يخرجون من عندك كما دخلوا، و لم يؤثّر فيهم ما سمعوا منك. و الجملتان حالان من فاعل قالوا، و بالكفر: و «به» حالان من فاعلي«دَّخَلُواْ » و «خَرَجُواْ» إلى أن قال: «وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ»، أي: من اليهود و المنافقين. «يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ»: أي: (في) الحرام، إلى أن قال: «وَٱلْعُدْوَٰنِ»: الظلم، و مجاوزة الحدّ في المعاصي، إلى أن قال: «وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ»: أي: الحرام. خصّه في الذكر للمبالغة. إلى أن قال: «لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ»: تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك. فإنّ «لَوْلَا» إذا دخل على الماضي، أفاد التوبيخ و إذا دخل على المستقبل، أفاد التحضيض.

«لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ»: أبلغ من قوله: «لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعملونَ»، من حيث إنّ الصنع عمل الإنسان بعد تدرّب فيه و تروّ و تحرّي إجادة و لذلك ذمّ به خواصّهم،

و لأنّ ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية لأنّ النفس تلتذّ بها و تميل إليها و لا كذلك ترك الإنكار عليها، فكان جديرا بأبلغ الذمّ.

إلى أن قال: و عن الكافي: عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، إلى أن قال: عن حسن قال: خطب أميرالمؤمنين **(صلوات الله عليه)** فحمدالله و أثنى عليه و قال: أمّا بعد، فإنّه إنّما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصي و لم ينههم الربّانيون و الأحبار عن ذلك، و أنّهم لمّا تمادوا في المعاصي و لم ينههم الربانيّون و الأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف و انهوا عن المنكر، انتهى.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: غلّ اليد مستعار للبخل و بسط اليد للجود، إلى أن قال: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» يجوز أن يكون دعاء عليهم بالبخل و النكد و لذلك كانوا أبخل خلق الله، و يجوز أن يكون دعاءً عليهم بغلّ الأيدي حقيقة يُغلّون في الدنيا اُسارى و في الآخرة بالأغلال في النار، و يجوز أن يكون إخباراً بأنّهم اُلزموا البخل و جعلوا بخلاء.

«وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ» أي: أُبعِدوا عن رحمة الله و عذّبوا، «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» ثنّيت اليد هنا ليكون الإنكار لقولهم أبلغ و على إثبات غاية السخاء أدلّ، و ذلك أنّ غاية ما يبذله السخي أن يعطي باليدين جميعا، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ» قيل: أي: هو ممسك يقترّ بالرزق، إلى أن قال: و قيل: معناه أنّه فقير لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[1]، إلى أن قال:

و في كتاب التوحيد عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال في قول الله عزّوجلّ: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ» لم يعنوا أنّه هكذا ولكنّهم قالوا: قد فرغ من الأمر، فلايزيد و لاينقص، و قال الله جل جلاله تكذيبا لقولهم: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ» ألم تسمع الله ـ عزّوجلّ ـ يقول: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2]، إلى أن قال: و في كتاب التوحيد عن عبدالله بن قيس، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» فقلت له: يدان هكذا، و أشرت بيدي إلى يديه فقال: لا، لو كان هكذا كان مخلوقا، انتهى.

و في الميزان: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ» ... (إنّ اليهود) إنّما تفوّهوا بذلك لمّا سمعوا أمثال قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[3]، و قوله

---

١. آل عمران: ١٨١.

٢. الرعد: ٣٩.

٣. البقرة: ٢٤٥.

تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[١]، فقالوا: يدالله مغلولة لايقدر على تحصيل ما ينفق في حوائجه لترويج دينه و إحياء دعوته. و قد قالوا: ذلك سخريّة و استهزاء على ما يظهر من بعض آخر ممّا ورد في أسباب النزول، و هذا الوجه أقرب إلى النظر. و كيف كان، فهذه النسبة أعني: نسبة غلّ اليد و المغلوبية عند بعض الحوادث ممّا لايأباه تعليمهم الديني و الآراء الموجودة في التوراة، فالتوراة تجوز أن يكون الاُمور معجزا لله سبحانه و صادّا مانعا له من إنفاذ بعض ما يريده من مقاصده، إلى أن قال: فعندهم من وجوه الاعتقاد ما يبيح لهم أن ينسبوا إليه تعالى ما لايناسب ساحة قدسه و كبرياء ذاته جلّت عظمته و إن كانت الكلمة إنّما صدرت منهم استهزاء فإنّ لكلّ فعل مبادئ في الاعتقاد ينبعث إليه الإنسان منها و يتجرّأ بها، إلى أن قال قوله تعالى: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ». ضمير بينهم راجع إلى اليهود على ما هو ظاهر وقوع الجملة في سياق الكلام على اليهود خاصّة و إن كانت الآيات بدأت الكلام في أهل الكتاب عامّة، و على هذا فالمراد بالعداوة و البغضاء بينهم ما يرجع إلى الاختلاف في المذاهب و الآراء، و قد أشار الله سبحانه إليه في مواضع من كلامه كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، إلى أن قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢] و غير ذلك من الآيات، إلى أن قال: قوله تعالى: «كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ»، إيقاد النار إشعالها، و إطفاؤها إخمادها، و المعنى واضح، و من المحتمل أن يكون قوله:

---

١. المزمل: ٢٠.

٢. الجاثية: ١٧.

«كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ»، إلخ، بيانا لقوله: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ»، إلخ، فيعود المعنى إلى أنّه كلّما أثاروا حربا على النبي ﷺ و المؤمنين أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بينهم.

و الآية على ما يدلّ عليه السياق تسجل عليهم خيبة المسعى في إيقاد النيران التي يوقدونها على دين الله سبحانه، و على المسلمين بما أنّهم مؤمنون بالله و آياته، و أمّا الحروب التي ربّما أمكن أن يوقدوا نارها لا لأمر الدين الحقّ، بل لسياسة أو تغلب جنسي أو ملي فهي خارجة عن مساق الآية، انتهى.

و في تفسير كاشف: و المراد من الحرب خصوص القتال مع فقدان الأمنية و الراحة، و المراد من اليهود هم الذين عاهدوا مع المشركين على الحرب مع النبيّ ﷺ لاكلّ يهود في كلّ عصر، انتهى.

و عليه فالقضايا خارجية لاحقيقية.

و في خلاصة منهج الصادقين: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ»، و ألقينا بين طوائف اليهود كقريظة و نضير، العداوة و الخصومة إلى يوم القيامة، انتهى.

و في تفسير الكرمي: غلّ اليد، شدّها إلى العنق، و إذا كانت كذلك امتنعت من الانبساط، انتهى.

و لايخفى عليك أنّ القضايا في تلك الآيات أمكن أن تكون قضايا خارجية، فالمراد من اليهود هم اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ كما أمكن أن يكون حقيقية. و يؤيّد الأوّل بسبب التعبير عن القضية بالمضيّ كقوله: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ» و «وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ»، «كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ». و عليه فقوله: «وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا»، لعلّه حال من المضيّ.

فالمعنى: أنّ اليهود المعاصر للنبي ﷺ كانوا في ضعف من المعارف و المباني حتّى قالوا: «يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ»، مع أنّ قدرة الله سبحانه و تعالى لاحدّ لها أيضا، و نزول الآيات لم تفيدهم إلا الطغيان و الكفر، مع أنّ الآيات للتنبّه و التقرّب إلى الله سبحانه و تعالى، و لذا ابتلاهم الله بالعدواة و البغضاء إلى يوم القيامة و لم يرفعوا أيديهم عن الفساد بل كانوا في صدد إيقاد النار، و الله سبحانه و تعالى منعهم عن النيل إلى ذلك في عين جدّيّتهم في الفساد بإطفاء نارهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ» بمحمّد ﷺ «وَٱتَّقَوْاْ» و قرنوا إيمانهم بالتقوى «لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ» تلك السيئات و لم نؤاخذهم بها «وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ» مع المسلمين «جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ»، «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ» أحكام «ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ» و حدودهما و ما فيهما من نعت رسول الله ﷺ «وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن» سائر كتب الله لأنّهم كلّفوا الإيمان بجميعها فكأنها نزلت إليهم، و قيل: هو القرآن، «لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم».

المعنى: لوسّع الله عليهم الرزق و كانوا قد قحطوا، و المراد لأفضنا عليهم بركات السماء و بركات الأرض و لأكثرنا ثمرات أشجارهم و غلّات زروعهم،

أو لرزقناهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ثمار أشجارها و يلتقطون ما سقط منها على الأرض، «مِّنْهُمْ أُمَّةٌ» أي: طائفة «مُّقْتَصِدَةٌ» مسلمة آمنت بالنبي ﷺ «وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ»، فيه معنى التعجب أي: ما أسوأ عملهم و هم الذين أقاموا على الكفر و الجحود بالنبي ﷺ ، انتهى.

قال في الميزان: و المراد بالتقوى بعد الإيمان التورّع عن محارم الله و اتّقاء الذنوب التي تحتم السخط الإلهي و عذاب النار، و هي الشرك بالله و سائر الكبائر الموبقة التي أوعد الله عليها النار، فيكون المراد بالسيّئات التي وعد الله سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب، و ينطبق على قوله سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1].

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم» و المراد بالتوراة و الإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أنّ الله أنزلهما على موسى و عيسى عليهما السلام دون ما بأيدي القوم من الكتب التي يذكر أنّه لعبت بها يد التحريف.

و الظاهر أنّ المراد بما أُنزل إليهم من ربّهم سائر الكتب المنسوبة إلى الأنبياء الموجودة عندهم كمزامير داود الذي يسمّيه القرآن بالزبور، و غيره من الكتب.

و أمّا احتمال أن يكون المراد به القرآن فيبعده أنّ القرآن نسخ بأحكامه شرائع التوراة و الإنجيل، فلاوجه لعدهما معه و تمنّي أن يكونوا أقاموهما مع القرآن الناسخ لهما، إلى أن قال: على أنّ قوله تعالى: «وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ» يعدّهم منزلا إليهم، و غيرمعهود من كلامه تعالى أن يذكر أنّ القرآن نزل إليهم.

---

١. النساء:٣١.

فالظاهر أنّ المراد بما أنزل إليهم من ربّهم بعد التوراة و الإنجيل سائر الكتب و أقسام الوحي المنزلة على أنبياء بني إسرائيل، كزبور داود و غيره، و المراد بإقامة هذه الكتب حفظ العمل العامّ بما فيها من شرائع الله تعالى، و الاعتقاد بما بيّن الله تعالى فيها من معارف المبدأ و المعاد من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف و الكتمان و الترك الصريح، فلو أقاموها هذه الإقامة لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم، إلى أن قال: و الآية من الدليل على أنّ لإيمان هذا النوع أعني: نوع الإنسان و أعماله الصالحة تأثيرا في صلاح النظام الكوني من حيث ارتباطه بالنوع الإنساني، فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنيا من حيث إيفائه باللازم لحياة الإنسان السعيدة من اندفاع النقم و وفور النعم، إلى أن قال: قوله تعالى: «مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ» الاقتصاد أخذ القصد و هو التوسّط في الأُمور، فالأُمّة المقتصدة هي المعتدلة في أمر الدين و التسليم لأمر الله.

و الكلام مستأنف أُريد به بيان حال جميع ما نسب إليهم من التعدّي عن حدود الله و الكفر بآيات الله و نزول السخط و اللعن على جماعتهم أنّ ذلك كلّه إنّما تلبّس به أكثرهم، و هو المصحّح لنسبة هذه الفظائع إليهم، و أنّ منهم أُمّة معتدلة ليست على هذا النعت، و هذا من نصفة الكلام الإلهي حيث لايضيع حقّا من الحقوق، و يراقب إحياء أمر الحقّ و إن كان قليلا، انتهى.

و في تفسير كاشف: و المراد من «وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم» هو التعاليم التي كانوا يسمعونها من الأنبياء عليهم السلام، إلى أن قال:

و قوله: «مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم» كناية عن السعة في الرزق تماماً، كما يقال: فلان غارق في النعم من قرنه إلى قدمه، إلى أن قال: الإسلام كشف عن هذا

الموضوع و هو أنّ بين الإيمان و الوسعة و الكفر و فساد الأوضاع و حلول أنواع العسر رابطة مستحكمة.

لايقال: إنّ الآية الكريمة تدلّ على جواز الأخذ بكلّ من التوراة و الإنجيل و القرآن، فلايلزم أن يؤمن الكتابي بالإسلام، بل يكفيه كتابه من التوراة أو الإنجيل.

لأنّا نقول: غايته هو الإطلاق فيقيّده قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]. هذا مضافا إلى أنّ عطف الإنجيل و ما اُنزل إليهم من ربّهم على التوراة بالواو يقتضي اعتبار مجموع الكتب المذكورة، فلايجوز الاكتفاء ببعضها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: روى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عبّاس و جابر بن عبدالله: أنّ الله ـ تعالى ـ أمر نبيّه أن ينصب عليّا عليه السلام للناس و يخبرهم بولايته، فتخوّف عليه السلام أن يقولوا حابى «حامى» ابن عمّه و أن يشقّ ذلك على جماعة من أصحابه، فنزلت هذه الآية، فأخذ بيده يوم غدير خم و قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، و قرئ: فما بلّغت رسالاته، أي: إن لم تبلّغ هذه الرسالة فما بلّغت

---

١. آل عمران: ٨٥.

إذن ما كلّفت به من الرسالات، و كنت كأنّك لم تؤدّ منها شيئا قطّ لأنّك إذا لم تؤدّها فكأنّك أغفلت أداءها جميعا، «وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ» هذا وعد من الله بالحفظ و الكلاءة، و معناه: و الله يضمن لك العصمة من أن ينالوك بسوء، فما عذرك في مراقبتهم، «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ»، يريد أن لايمكنهم من إنزال مكروه بك، انتهى.

ولايذهب عليك أنّ إطلاق قوله: من كنت مولاه، يكفي في شمول المولى للإمامة و الحكومة أيضا. ثمّ جعل هذا المعنى العامّ لعلي عليه السلام، فيقوم علي عليه السلام مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع شؤونه إلّا النبوّة.

و في الميزان بعد توضيح الآية الكريمة و دفع الإشكالات: فقد ظهر من جميع ما تقدّم أنّ الآية تكشف عن حكم نازل فيه شوب انتفاع للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، و اختصاصه بمزيّة حيويّة مطلوبة لغيره أيضا يوجب تبليغه و العمل به حرمان الناس عنه، فكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يخاف إظهاره، فأمره الله بتبليغه و شدّد فيه، و وعده العصمة من الناس و عدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه.

و هذا يؤيّد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أنّ الآية نزلت في أمر ولاية علي عليه السلام، و أنّ الله أمر تبليغها و كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخاف أن يتّهموه في ابن عمّه، و يؤخّر تبليغها وقتا إلى وقت حتّى نزلت الآية فبلّغها بغدير خم، و قال فيه: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه.

و كون ولاية أمر الأُمّة ممّا لاغنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، و كيف يسوغ لمتوهّم أن يتوهّم أنّ الدين الذي يقرّر بسعته لعامّة البشر في عامّة الأعصار و الأقطار جميع ما يتعلّق بالمعارف الأصلية، و الأُصول الخلقية، و الأحكام

الفرعية العامّة لجميع حركات الإنسان و سكناته، فرادى و مجتمعين على خلاف جميع القوانين العامّة لايحتاج إلى حافظ يحفظه حقّ الحفظ؟ أو أنّ الأُمّة الإسلامية و المجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية مستغنية عن وال يتولّى أمرها و مدبّر يدبّرها و مجر يجريها؟ و بأيّ عذر يمكن أن يعتذر إلى الباحث عن سيرة النبيّ ﷺ الاجتماعية؟ حيث يرى أنّه ﷺ كان إذا خرج إلى غزوة خلّف مكانه رجلا يدير رحى المجتمع، و قد خلّف عليّا عليه السلام مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء و الصبيان؟ فقال ﷺ : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لانبيّ بعدي؟

و كان ﷺ ينصب الولاة الحكام في ما بيد المسلمين من البلاد كمكة و الطائف و اليمن و غيرها، و يؤمر رجالا على السرايا و الجيوش التي يبعثها إلى الأطراف، و أيّ فرق بين زمان حياته و ما بعد مماته دون أنّ الحاجة إلى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، و الضرورة إليه أمس ثم أمس.

قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» خاطبه ﷺ بالرسالة لكونها أنسب الصفات إلى ما تتضمّنه الآية من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل فهو كالبرهان على وجوب التبليغ الذي تظهره الآية و تقرعه سمع رسول الله ﷺ ، فإنّ الرسول لاشأن له إلّا تبليغ ما حمل من الرسالة فتحمل الرسالة يفرض عليه القيام بالتبليغ، إلى أن قال:

قوله تعالى: «وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ»، المراد بقوله: «رِسَالَتَهُۥ» و قرئ «رِسَالَاتَهُۥ» كما تقدّم، مجموع رسالات الله سبحانه التي حملها رسوله الله ﷺ ،

و قد تقدّم أنّ الكلام يفيد أهميّة هذا الحكم المرموز إليه، و أنّ له من المكانة ما لو لم يبلغه كأن لم يبلغ شيئا من الرسالات التي حملها.

فالكلام موضوع في صورة التهديد، و حقيقته بيان أهميّة الحكم، و أنّه بحيث لولم يصل إلى الناس، و لم يراع حقّه كان كأن لم يراع حقّ شيء من أجزاء الدين، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ» قال الراغب: العصم بالفتح فالسكون الإمساك، و الاعتصام الاستمساك، إلى أن قال: و كيف كان، فالمتحصّل من موارد استعمال الكلمة أنّها بمعنى الإمساك و القبض فاستعماله في معنى الحفظ من قبيل استعارة اللازم لملزومه، فإنّ الحفظ يلزمه القبض، إلى أن قال: في ذيل«بحث روائي»: في تفسير العياشي، عن أبي صالح، عن ابن عباس و جابر بن عبدالله قالا: أمر الله تعالى نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن ينصب عليّا علما في الناس ليخبرهم بولايته، فتخوّف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقولوا: خابى ابن عمّه و أن يطعنوا في ذلك عليه، قال: فأوحى الله إليه هذه الآية: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ»، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بولايته يوم غدير خم، إلى أن قال: أقول: و روى نزول الآية في أمر الولاية و قصّة الغدير معه الكليني في الكافي، إلى أن قال: و عن تفسير الثعلبي، قال: قال جعفر بن محمّد عليهما السلام : معنى قوله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» في فضل عليّ، فلمّا نزلت هذه أخذ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بيد عليّ فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، إلى أن قال: و عن الفصول المهمّة، للمالكي قال: روى الإمام أبوالحسن الواحدي في كتابه المسمّى بأسباب النزول، رفعه بسنده إلى أبي سعيد الخدري(رضي الله عنه) قال:

نزلت هذه الآية: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» يوم غدير خم في عليّ بن أبي طالب: أقول: رواه في فتح القدير، عن ابن أبي حاتم و ابن مردوية و ابن عساكر، عن أبي سعيد الخدري و كذلك في الدر المنثور. و قوله: «بغدير خم»، هو بضمّ الخاء المعجمة و تشديد الميم مع التنوين اسم لغيطة على ثلاثة أميال من الجحفة عندها غدير مشهور يضاف إلى الغيطة، هكذا ذكره الشيخ محي الدين النووي.

و في فتح القدير، أخرج ابن مردوية عن ابن مسعود قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أيها الرسول بلغ ما اُنزل اليك من ربّك إن عليّا مولى المؤمنين و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس.

أقول: و هذه نبذة من الأخبار الدالة على نزول قوله تعالى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ»، إلخ، في حق علي عليه السلام يوم غدير خم، و أما حديث الغدير أعني قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، فهو حديث متواتر منقول من طرق الشيعة و أهل السنة بما يزيد على مأة طريق.

و قد روي عن جمع كثير من الصحابة، إلى أن قال: و قد أجمع عليه أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، و قد ناشد علي عليه السلام الناس بالرحبة في الحديث، فقام جماعة من الصحابة حضروا المجلس، فشهدوا أنّهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوله يوم الغدير. و في كثير من هذه الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا أيها الناس ألستم تعلمون أنّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، كما في عدّة من الأخبار التي رواها أحمد بن حنبل في مسنده أو رواها

غيره، و قد أفردت لإحصاء طرقها و البحث في متنها تأليف من أهل السنة و الشيعة بحثوا فيها بما لامزيد عليه، انتهى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: و المعنى: «لَسْتُمْ عَلَىٰ» دين يعتدّ به حتّى يسمّى شيئا لفساده و بطلانه كما يقال: هذا ليس بشيء، يراد به التحقير، «حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَ ٱلْإِنجِيلَ» بالتصديق، لما فيهما من البشارة بمحمّد و العمل بما فيهما، «وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ» و هو القرآن، «فَلَا تَأْسَ»، أي: فلاتتأسف عليهم لزيادة طغيانهم و كفرهم، فإنّ ضرر ذلك يرجع إليهم لاإليك، انتهى.

و لعلّ المعنى أنّ قيمة الإنسان بالعلم و الحكمة الإلهية التي نزلت من جانب الله من التوراة و الإنجيل و ما اُنزل من ربّ العالمين إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، و هذا أمر واضح، ولكن مع وضوحه زادت الحكمة و العلم الإلهي بالنسبة إلى المترفين طغيانا و كفرا.

و هذا أمر يختاره المترفون، و هو ضرر يرونها على أنفسهم و لامجال للتأسّف عليهم، فالآية دالّة على تحقير أهل الكتاب الذين لم يصدّقوا الكتب الإلهية و لم

يؤمنوا بها، و لم يعملوا بما فيها من جملته البشارات التي كان فيها بالنسبة إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَٱلصَّٰبِـُٔونَ» رفع على الابتداء و خبره محذوف، و النيّة به التأخير عمّا في حيّز «إنّ»، أي: و الصابئون كذلك، و استشهد لذلك سيبويه بقول الشاعر: «و إلّا فاعلموا أنّا و أنتم بغاة ما بقينا في شقاق»، أي: فاعلموا أنّا بغاة و أنتم كذلك، و قول الآخر: «فإنّي و قيّار بها لغريب».

و إنّما سُمُّوا صابئين لأنّهم صَبَؤوا عن الأديان كلّها أي: خرجوا، و «مَنْ ءَامَنَ» مبتدأ و خبره «فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ»، و التقدير من آمن منهم، و الجملة كما هي خبر «إنّ»، و يجوز أن يكون من آمن منصوبا على البدل من اسم إنّ و ما عُطِف عليه أو من المعطوف عليه، انتهى.

و في الميزان: الآية ظاهرها أنّ الصابئون عطف على «ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» بحسب موضعه و جماعة من النحويين يمنعون العطف على اسم إنّ بالرفع قبل مضي الخبر، و الآية حجّة عليهم.

(ثمّ إنّ) الآية في مقام بيان أن لاعبرة في باب السعادة بالأسماء و الألقاب كتسمي جمع بالمؤمنين و فرقة بالذين هادوا، و طائفة بالصابئين و آخرين بالنصارى، و إنّما العبرة بالإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، انتهى.

ثمّ إنّه ليس المراد بالصابئين عبدة الكواكب من الوثنية بدليل ما في آية ١٧ من سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، حيث جعل الصابئين متقابلا للذين أشركوا، بل هم على ما قيل قوم متوسّطون بين اليهودية و المجوسية، و لهم كتاب ينسبونه إلى يحيى بن زكريّا النبي عليه السلام ، و ليس الواحد منهم اليوم عند العامّة صبي.

و في جوامع الجامع: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» بألسنتهم و هم المنافقون، «وَٱلَّذِينَ هَادُواْ» تهوّدوا إلى أن قال: «وَٱلصَّٰبِـِٔينَ» من صبأ: إذا خرج من الدين، و هم قوم عدلوا عن دين اليهودية و النصرانية، و عبدوا الملائكة أو النجوم، «مَنْ ءَامَنَ» من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصا، «وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ» الذي يستوجبونه بإيمانهم و أعمالهم. و محلّ «مَنْ ءَامَنَ» رفع بالابتداء و خبره «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ»، لتضمّن «مَنْ» معنى الشرط، و الجملة خبر إنّ، أو نصب بدل من اسم إنّ، و المعطوف عليه، و خبر إنّ «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ»، انتهى.

و في الميزان: تكرار الإيمان ثانيا و هو الاتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أنّ المراد: بـ«ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» في صدر الآية هم المتّصفون بالإيمان ظاهرا، المتسمّون بهذا الاسم، فيكون محصّل المعنى: أنّ الأسماء و التسمي بها مثل المؤمنين و اليهود و النصارى و الصابئين لايوجب عندالله تعالى أجرا و لا أمنا من العذاب كقولهم: لن يدخل الجنة إلّا من كان هودا أو نصرى[1]، و إنّما ملاك الأمر و سبب الكرامة و السعادة حقيقة الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و

---

١. البقرة: ١١١.

لذلك لم يقل من آمن منهم بإرجاع الضمير إلى الموصول اللازم في الصلة، لئلّا يكون تقريراً للفائدة في التسمّي على ما يعطيه النظم كما لايخفى. و هذا ممّا تكررت فيه آيات القرآن: أنّ السعادة و الكرامة تدور مدار العبودية، فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسمّيه شيئا، و لاوصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه و ينجيه إلّا مع لزوم العبودية، الأنبياء و من دونهم فيه سواء، فقد قال تعالى في أنبيائه بعد ما وصفهم بكل وصف جميل.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[١]، و قال تعالى في أصحاب نبيّه و من آمن معه مع ما ذكر من عظم شأنهم و علوّ قدرهم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢]، فأتى بكلمة منهم و قال في غيرهم ممّن اُوتي آيات الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَالَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[٣]، إلى غير ذلك من الآيات الناصّة على أنّ الكرامة بالحقيقة دون ظاهر، انتهى.

ثمّ لايذهب عليك أنّ مفاد الآية أنّ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ مصدّقا بقلبه بالمبدأ و المعاد عاملا بمقتضى شرعه فله كذا و كذا، و أما بعد نسخه فمقتضى الإيمان بالله هو الإيمان بالنسخ. و من المعلوم أنّ معنى « مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ» بحسب الأزمنة يتفاوت معناه، فقبل الإسلام هو الالتزام بما اُنزل من الله إلى هذا الحين و أمّا بعده فمقتضى الإيمان و العمل الصالح هو الإيمان بالإسلام و

---

١. الأنعام: ٨٨.

٢. الفتح: ٢٩.

٣. الأعراف: ١٧٦.

الالتزام به، لأنّ الإيمان بالله و اليوم الآخر ملازم مع الإيمان بالرسول الجديد و النسخ، و عليه فمن توهّم كفاية الأديان المختلفة في كلّ عصر حتّى اليوم، وقع في الخطأ الواضح.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي «أَخَذْنَا» ميثاقهم بالتوحيد و البشارة بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم «وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا» ليقفوهم على الأوامر و النواهي، «كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُ» جملة شرطية، و جواب الشرط محذوف يدلّ عليه قوله: «فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ» لأنّ التقدير كلّما جاءهم رسول من تلك الرسل ناصبوه و خالفوه، و قوله: «فَرِيقًا كَذَّبُوا۟»، كأنّه جواب سائل يسأل عنهم: كيف فعلوا برسلهم؟، إلى أن قال: و جعل الحسبان بمنزلة العلم حيث اُدخل على أنّ التي هي للتحقيق لقوته في صدورهم، و المعنى: و حسب بنو إسرائيل أنّهم لايصيبهم من الله «فِتْنَةٌ» أي: بلاء و عذاب في الدنيا و الآخرة، انتهى.

و في الميزان: قال في المجمع: فإن قيل: لم عطف المستقبل على الماضي يعني في قوله: «فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ؟» فجوابه: ليدل على أنّ ذلك من

شأنهم، ففيه معنى كذّبوا و قتلوا و يكذّبون و يقتلون مع أنّ قوله: «يَقْتُلُونَ» فاصلة يجب أن يكون موافقا لرءوس الآي.

قوله تعالى: «وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ»، إلخ، متمّم للكلام في الآية السابقة، و الحسبان هو الظنّ، و الفتنة هي المحنة التي تغرّ الإنسان أوهي أعم من كلّ شرّ و بليّة، و العمى هو عدم إبصار الحقّ و عدم تمييز الخير من الشرّ، و الصمم عدم سماع العظة و عدم الإعباء بالنصيحة، و هذا العمى و الصمم معلولا لحسبانهم أن لاتكون فتنة، و الظاهر أنّ حسبانهم ذلك معلول ما قدروا لأنفسهم من الكرامة بكونهم من شعب إسرائيل، و أنّهم أبناء الله و أحبّاؤه فلايمسّهم السوء و إن فعلوا ما فعلوا و ارتكبوا ما ارتكبوا.

فمعنى الآية ـ و الله أعلم ـ أنّهم لمكان ما اعتقدوا لأنفسهم من كرامة التهوّد ظنّوا أن لايصيبهم سوء أو لايفتنون بما فعلوا، فأعمى ذلك الظن و الحسبان أبصارهم عن إبصار الحقّ، و أصمّ ذلك آذانهم عن سماع ما ينفعهم من دعوة أنبيائهم.

و هذا ممّا يرجح ما احتملناه أنّ الآيات كالحجّة المبيّنة لقوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ»، الآية فمحصّل المعنى: أنّ الأسماء و الألقاب لاتنفع أحدا شيئا، فهؤلاء اليهود لم ينفعهم ما قدروا لأنفسهم من الكرامة بالتسمّي، بل أعماهم أوردهم مورد الهلكة و الفتنة لما كذّبوا أنبياء الله و قتلوهم.

قوله تعالى: «ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرُ بِمَا يَعْمَلُونَ»، التوبة من الله على عباده رجوعه تعالى بالرحمة إليهم، و هذا يدلّ على

أنّ الله سبحانه قد كان بعّدهم من رحمته و عنايته، و لذلك أخذهم الحسبان المذكور و لزمهم العمى و الصمم، لكن الله سبحانه رجع إليهم ثانية بالتوبة فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم، و العمى و الصمم عن أبصارهم و آذانهم، فعرفوا أنفسهم بأنّهم عباد لاكرامة لهم على الله إلّا بالتقوى، و أبصروا الحقّ و سمعوا عظةالله لهم بلسان أنبيائه فتبيّن لهم أنّ التسمّي لاينفع شيئا، إلى أن قال: ثمّ ختم تعالى الآية بقوله: «وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ» للدلالة على أنّ الله تعالى لايغفله شيء، فغيره تعالى إذا أكرم قوما بكرامة ضرب ذلك على بصره بحجاب يمنعه أن يرى منهم السوء و المكروه، و ليس الله سبحانه على هذا النعت، بل هو البصير لايحجبه شيء عن شيء، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٌ»، أي: و حسب بنو إسرائيل أن لايصيبهم بلاء و عذاب بقتل الأنبياء و تكذيبهم، انتهى.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾

و في جوامع الجامع: احتجّ ـ سبحانه ـ على النصارى بقول عيسى ـ عليه السلام ـ: «ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» إذ لم يفرّق بينه و بينهم في أنّه عبد مربوب مثلهم، «إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ» في عبادته أو فيما يختصّ به من صفاته أو أفعاله «فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ» التي هي دار الموحّدين، إلى أن قال: «وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» يخلّصونهم من عذاب الله، و ظلمهم أنّهم عدلوا عن سبيل الحقّ فيما تقوّلوا على عيسى، و «مِن» في قوله: «وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ» للاستغراق و العموم و هي المقدرة مع لا التي لنفي الجنس في قولك: «إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ»، و التقدير و ما إله قطّ في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له في القدم، و هو الله وحده لاشريك له.

«لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ»، «مِنْ» للتبيين فكأنّه قال: ليمسنّهم، ولكن أقام الظاهر موقع المضمر لتتكرّر شهادته عليهم بالكفر، و يجوز أن يكون «مِنْ» للتبعيض ـ أيضا ـ على معنى ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم، «أَفَلَا يَتُوبُونَ» بعد هذا الوعيد الشديد ممّا هم عليه! و فيه تعجيب من إصرارهم على الكفر، «وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» يستر الذنوب على العباد و يرحمهم، انتهى.

و في كنز الدقائق: «يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ»، أي: إنّى عبد مربوب مثلكم، فاعبدوا خالقي و خالقكم. إلى أن قال: «لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ»، قيل: القائلون بذلك جمهور النصارى [من الماكانيّة و اليعقوبيّة و النسطوريّة. لأنهم] يقولون: ثلاثة أقانيم جوهر واحد، أب، و ابن، و روح القدس إله واحد. و لايقولون: ثلاثة آلهة، و يمنعون من هذه العبارة، و إن كان

يلزمهم ذلك، لأنّهم يقولون: الابن إله، و الأب إله، و روح القدس إله، و الابن ليس هو الأب.

و في تفسير علي بن إبراهيم: و في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث: أمّا المسيح فعصوه و عظّموه في أنفسهم، حتّى زعموا أنّه إله و أنّه ابن الله. و طائفة منهم قالوا: ثالث ثلاثة. و طائفة منهم قالوا: هو الله.

«وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ»: و ما في الوجود ذات واجب مستحقّ للعبادة ـ من حيث أنّه مبدأ جميع الموجودات ـ إلّا إله واحد. موصوف بالوحدانيّة، متعال عن قبول الشركة. و «مِنْ» مزيدة، للاستغراق.

و في الميزان: ذيل قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ»: و هذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانية و الانتساب إلى المسيح عليه السلام عن تعلّق الكفر بهم إذ أشركوا بالله و لم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا: «إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ». و النصارى و إن اختلفوا في كيفية اشتمال المسيح بن مريم على جوهرة الأُلوهية بين قائل باشتقاق أقنوم المسيح و هو العلم من أقنوم الربّ تعالى و هو الحياة، و ذلك الأُبوّة و البنوّة، و قائل بأنّه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب، و قائل بأنّه حلّ فيه، إلى أن قال: لكنّ الأقوال الثلاثة جميعا تقبل الانطباق على هذه الكلمة أن الله هو المسيح بن مريم، فالظاهر أنّ المراد بالذين تفوّهوا بهذه الكلمة جميع النصارى الغالين في المسيح عليه السلام لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب.

و توصيف المسيح بابن مريم لايخلو من دلالة أو إشعار بسبب كفرهم و هو نسبة الألُوهية إلى إنسان ابن إنسان مخلوقين من تراب، و أين التراب و ربّ الأرباب؟!

قوله تعالى: «وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» إلى آخر الآية، احتجاج على كفرهم و بطلان قولهم بقول المسيح عليه السلام نفسه، فإنّ قوله عليه السلام: «ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» يدلّ على أنّه عبد مربوب مثلهم، و قوله: «إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ» يدلّ على أن من يجعل لله شريكا في ألُوهيته فهو مشرك كافر محرّم عليه الجنّة.

و في قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: «فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ»، عناية بإبطال ما ينسبونه إلى المسيح من حديث التفدية، و أنه عليه السلام باختياره الصلب فدى بنفسه عنهم، فهم مغفور لهم، مرفوع عنهم التكاليف الإلهية، و مصيرهم إلى الجنّة و لايمسّون نارا، إلى أن قال: قوله تعالى: «لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ»، أي: أحد الثلاثة: الأب و الابن و الروح، أي: هو ينطبق على كلّ واحد من الثلاثة، و هذا لازم قولهم: إنّ الأب إله، و الابن إله، و الروح إله، و هو ثلاثة، و هو واحد، يضاهئون بذلك نظير قولنا: إنّ زيد بن عمرو إنسان، فهناك أُمور ثلاثة هي: زيد و ابن عمرو و الإنسان، و هناك أمر واحد و هو المنعوت بهذه النعوت، و قد غفلوا عن أنّ هذه الكثرة إن كانت حقيقية غير اعتبارية أوجبت الكثرة في المنعوت حقيقة، و أنّ المنعوت إن كان واحدا حقيقة أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتبارية غير حقيقية، فالجمع بين هذه الكثرة العددية و الوحدة العددية في زيد المنعوت بحسب الحقيقة ممّا يستنكف العقل

عن تعقّله. و لذا ربّما ذكر بعض الدعاة من النصارى أنّ مسألة التثليث من المسائل المأثورة من مذاهب الأسلاف التي لايقبل الحلّ بحسب الموازين العلمية، و لم يتنبّه أنّ عليه أن يطالب الدليل على كلّ دعوى يقرع سمعه سواء كان من دعاوي الأسلاف أو من دعاوي الأخلاف.

قوله تعالى: «وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ» إلى آخر الآية، ردّ منه تعالى لقولهم: «إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ»، بأنّ الله سبحانه لايقبل بذاته المتعالية الكثرة بوجه من الوجوه. فهو تعالى في ذاته واحد، و إذا اتّصف بصفاته الكريمة و أسمائه الحسنى لم يزد ذلك على ذاته الواحدة شيئا و لا الصفة إذا اُضيفت إلى الصفة أورث ذلك كثرة و تعدّدا، فهو تعالى أحدي الذات، لاينقسم لا في خارج و لا في وهم و لا في عقل.

فليس الله سبحانه بحيث يتجزأ في ذاته إلى شيء و شيء قطّ، و لا أنّ ذاته بحيث يجوز أن يضاف إليه شيء فيصير اثنين أو أكثر، كيف؟ و هو تعالى مع هذا الشيء الذي تراد إضافته إليه تعالى في وهم أو فرض أو خارج. فهو تعالى واحد في ذاته لكن لا بالوحدة العددية التي لسائر الأشياء المتكوّن منها الكثرات، و لامنعوت بكثرة في ذات أو اسم، أو صفة، كيف؟ و هذه الوحدة العددية و الكثرة المتألّفة منها كلتاهما من آثار صنعه و إيجاده فكيف يتّصف بما هو من صنعه؟

و في قوله تعالى: «وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ»، من التأكيد في إثبات التوحيد ما ليس في غيره حيث سيق الكلام بنحو النفي و الاستثناء، ثمّ أدخل «مِنْ» على النفي لإفادة تأكيد الاستغراق، ثمّ جيء بالمستثنى و هو قوله: «إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ» بالتنكير

المفيد للتنويع، و لو أورد معرفة كقولنا: (إلّا الإله الواحد)، لم يفد ما يرام من حقيقة التوحيد. فالمعنى: «ليس في الوجود شيء من جنس الإله أصلا إلّا إله واحد» نوعا من الوحدة لايقبل التعدّد أصلا، لاتعدّد الذات، و لا تعدّد الصفات، لاخارجا و لافرضا، و لو قيل: و ما من إله إلا الله الواحد لم يدفع به قول النصارى: «إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ»، فإنّهم لاينكرون الوحدة فيه تعالى، و إنّما يقولون: إنّه ذات واحدة لها تعيّن بصفاتها الثلاث، و هي واحدة في عين أنّها كثيرة حقيقة.

و لايندفع ما احتملوه من المعنى إلا بإثبات وحدة لاتتألّف منه كثرة أصلا، و هو الذي يتوخّاه القرآن الكريم بقوله: « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ»، انتهى.

و هذا من لطائف المعاني التي يلوح إليها الكتاب الإلهي في حقيقة معنى التوحيد، انتهى.

هذا، مضافا إلى أنّ الأدلة الأُخرى الواردة لإثبات التوحيد المذكورة في مجالها من الكتب الكلامية و الاعتقادية.

و أضف إلى ذلك بعض الروايات، فقد روي في التوحيد و الخصال أنّ أعرابيا قام يوم الجمل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: يا أميرالمؤمنين! أتقول إنّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه و قالوا: يا أعرابي! أما ترى ما فيه أميرالمؤمنين عليه السلام من تقسم القلب! فقال أميرالمؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم.

ثمّ قال: يا أعرابي! إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لايجوزان على الله عزّوجلّ، و وجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لايجوزان عليه،

فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد، فهذا ما لايجوز، لأنّ ما لاثاني له لايدخل في باب الأعداد، ألا ترى أنّه كفر من قال: إنّه ثالث ثلاثة، و قول القائل هو واحد من الناس، يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لايجوز، لأنّه تشبيه و جلّ ربّنا و تعالى عن ذلك.

و أما الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء شبه كذلك ربّنا. و قول القائل: إنّه عزّوجلّ أحدي المعنى يعني به أنّه لاينقسم في وجود و لاعقل و لاوهم، كذلك ربّنا عزّوجلّ[1]، و أوضحه في الميزان، فراجع.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ»، هذا تصريح ببعدهما عمّا نسب إليهما، لأنّ من احتاج إلى الغذاء و ما يتبعه من الهضم و النفض (الاستنجاء) لم يكن إلّا جسما مؤلّفا محدثا، إلى أن قال: «ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ!» أي: كيف يصرفون عن استماع الحقّ و تدبّره!

---

١. معاني الأخبار: ص ٥.

و المعنى في قوله:«ثمّ ٱنظُرْ» تراخى ما بين العجبين، بمعنى أنّه نبيّن لهم الآيات بيانا عجبا ثمّ إنّ إعراضهم عنها أعجب منه، و المراد بقوله: «مَا لَا يَمْلِكُ» عيسى عليه السلام، أي: شيئا لايستطيع أن يضرّكم بمثل ما يضرّكم الله به من البلاء و النقص من الأموال و الأنفس و لا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من الصحّة و السعة و الخصب، و صفة المعبود أن يكون قادرا على كلّ شيء، إلى أن قال: «لَاتَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ»، أي: لاتتجاوزوا الحدّ الذي حدّه الله لكم إلى الازدياد، «غَيْرَ ٱلْحَقِّ»، صفة للمصدر أي: لاتغلوا غلوّا غير الحقّ أي: غلوّا باطلا، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ»، ردّ لقولهم: «إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ» أو لقولهم هذا، وقولهم المحكي في الآية السابقة: «إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ» جميعا، و محصّله: اشتمال المسيح على جوهرة الألوهية، بأنّ المسيح لايفارق سائر رسل الله الذين توفّاهم الله من قبله كانوا بشرا مرسلين من غير أن يكونوا أربابا من دون الله سبحانه، و كذلك أُمّه مريم كانت صدّيقة تصدّق بآيات الله تعالى و هي بشر، و قد كان هو و أُمّه جميعا يأكلان الطعام، و أكل الطعام مع ما يتعقّبه مبنيّ على أساس الحاجة التي هو أوّل أمارة من أمارات الإمكان و المصنوعية، فقد كان المسيح عليه السلام ممكنا متولّدا من ممكن، و عبدا و رسولا مخلوقا من أُمّه كانا يعبدان الله، و يجريان في سبيل الحاجة و الافتقار من دون أن يكون ربّا. و ما بيد القوم من كتب الإنجيل معترفة بذلك، تصرّح بكون مريم فتاة كانت تؤمن بالله و تعبده، و تصرّح بأنّ عيسى تولّد منها كالإنسان من الإنسان، و

تصرّح بأنّ عيسى كان رسولاً من الله إلى الناس كسائر الرسل و تصرّح بأن عيسى و اُمّه مريم كانا يأكلان الطعام. فهذه اُمور صرّحت بها الأناجيل، و هي حجج على كونه عليه السلام عبدا رسولا.

و يمكن أن تكون الآية مسوقة لنفي اُلوهية المسيح و اُمّه كليهما على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] أنّه كان هناك من يقول باُلوهيتها كالمسيح، أو أنّ المراد به اتّخاذها إلهاً، كما ينسب إلى أهل الكتاب أنّهم اتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله، و ذلك بالخضوع لها و لهم بما لايخضع لبشر بمثله.

و كيف كان، فالآية على هذا التقدير تنفي عن المسيح و اُمّه معا الاُلوهية بأنّ المسيح كان رسولا كسائر الرسل، و اُمّه كانت صدّيقة، و هما معا كانا يأكلان الطعام، و ذلك كلّه ينافي الاُلوهية.

و في قوله تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ»، حيث وصف الرسل بالخلوّ من قبله، و هو الموت، تأكيد للحجّة بكونه بشراً يجوز عليه الموت و الحياة كما جاز على الرسل من قبله، إلى أن قال: فتحصّل أنّ مسّ الضرّ أبعث للإنسان إلى الخضوع للربّ و عبادته من وجدان النفع، و لذلك قدّم الله سبحانه الضرّ على النفع في قوله: «مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا»، إلى أن قال: إنّ مجموع الآية «أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ» إلى آخرها، حجّة على وجوب قصر العبادة في الله سبحانه

---

١. المائدة: ١١٦.

من دون إشراك غيره معه، و هي منحلّة إلى حجّتين ملخّصهما: أنّ اتخاذ الإله و عبادة الربّ إنّما هو لغرض دفع الضرّ و جلب النفع، فيجب أن يكون الإله المعبود مالكا لذلك، و لايجوز عبادة من لايملك شيئا، و الله سبحانه هو السميع المجيب للدعوة العليم بكنه الحاجة من غير جهل دون غيره، فوجب عبادته من غير إشراك غيره، إلى أن قال: و تقييد الغلوّ في الدين بغير الحقّ، ـ و لايكون الغلوّ إلّا كذلك ـ إنّما هو للتأكيد و تذكير لازم المعنى مع ملزومه، لئلّا يذهل عنه السامع و قد ذهل حين غلا أو كان كالذاهل.

و إطلاق الأب على الله سبحانه بتحليل معناه و تجريده عن وسمة نواقص المادّة الجسمانية أي: من بيده الإيجاد و التربية، و كذلك الابن بمعناه المجرّد التحليلي و إن لم يمنعه العقل، لكنّه ممنوع شرعا لتوقيفية أسماء الله سبحانه، لما في التوسّع في إطلاق الأسماء المختلفة عليه تعالى من المفاسد، انتهى.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠﴾

في جوامع الجامع: لعنوا «عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ» لمّا اعتدوا في سبتهم، فقال: اللّهمّ ألبسهم اللعنة مثل الرداء فمسخهم الله قردة، (وَ على لسان عِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ) لمّا

كفروا بعد نزول المائدة، فقال عيسى: اللّهمّ عذّب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذابا لاتعذّبه أحدا من العالمين، و العنهم كما لعنت أصحاب السبت فصاروا خنازير، و كانوا خمسة آلاف رجل، «ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ» أي: ذلك اللعن الشنيع بمعصيتهم و اعتدائهم، ثمّ فسّر المعصية و الاعتداء بقوله:«كَانُواْ لَايَتَنَاهَوْنَ» أي: لاينهى بعضهم بعضا «عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ»، ثمّ قال: «لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ» للتعجّب من سوء فعلهم مؤكدا لذلك بالقسم.

و يجوز أن يكون المعنى كانوا لايتناهون أي: لاينتهون و لايمتنعون عن منكر فعلوه، بل يصرّون عليه و يداومون على فعله، «تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ»، أي: يوالون المشركين و يصادقونهم «لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ»، أي: لبئس زادهم إلى الآخرة، «أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ» أي: سخط الله عليهم و هو المخصوص بالذمّ، انتهى.

و في كنز الدقائق: في روضة الكافي: عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله ـ عزّوجلّ ـ : «لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ» قال: الخنازير على لسان داود، و القردة على لسان عيسى بن مريم عليهما السلام ، إلى أن قال:

قوله: «أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ»: و هو المخصوص بالذمّ، و المعنى: موجب سخط الله و الخلود في العذاب، أو علّة الذمّ و المخصوص محذوف، أي: لبئس شيئا ذلك، لأنّه كسبهم السخط و الخلود، انتهى.

و في الميزان: إخبار بأنّ الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم، و فيه تعريض لهؤلاء الذين كفرهم الله في هذه الآيات من اليهود ملعونين بدعوة أنبيائهم

أنفسهم، و ذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم، و هم كانوا مستمرّين على الاعتداء، و قوله: «كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ»، إلخ، بيان لقوله: «وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ».

قوله تعالى: «تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ»، إلخ، و هذا من قبيل الاستشهاد بالحسّ على كونهم معتدين، فإنّهم لو قدروا دينهم حقّ قدره لزموه و لم يتعدّوه، و لازم ذلك أن يتولّوا أهل التوحيد و يتبرّؤوا من الذين كفروا، لأنّ أعداء ما يقدّسه قوم، اعداء لذلك القوم، فإذا تحابّوا و توالوا دلّ ذلك على إعراض ذلك القوم و تركهم ما كانوا يقدّسونه و يحترمونه، و صديق العدوّ عدوّ، ثمّ ذمّهم الله تعالى بقوله: «لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ» و هو ولاية الكفّار عن هوى النفس، و كان جزاؤه و وباله «أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ»، ففي الآية وضع جزاء العمل و عاقبته موضع العمل كأنّ أنفسهم قدّمت لهم جزاء العملَ بتقديم نفس العمل، انتهى.

﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

و في جوامع الجامع: «وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ» متمرّدون في كفرهم، ثمّ ذكر شدّة عداوة اليهود للمؤمنين و لين عريكة النصارى و ميلهم إلى الإسلام، و قرن اليهود بالمشركين في العداوة، و نبّه على تقدّم قدمهم فيها بتقديم ذكرهم، و علّل سهولة مأخذ النصارى و قرب مودّتهم للمؤمنين «بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا» أي: علماء و عبّادا و «أَنَّهُمْ» قوم فيهم تواضع و إخبات و لا كبر فيهم، و اليهود على خلاف ذلك، و فيه دلالة على أنّ العلم يهدي إلى الخير و ينفع في أبواب البرّ، و كذلك التألّه و التفكر في أمر الآخرة و البراءة من الكبر، ثمّ وصفهم برقّة القلوب و البكاء عند استماع القرآن، و ذلك نحو ما حكي عن النجاشي: أنّه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة و عمرو بن العاص مع من معه من المشركين و هم يغرونه عليهم: «هل في كتابكم ذكر مريم»؟، فقال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، و قرأها إلى قوله: «ذلك عيسى بن مريم» و قرأ سورة «طه» إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، فبكى النجاشي، و كذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ و هم سبعون رجلا حين قرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة «يس»، فبكوا. و اللام في «لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟» يتعلق بـ «عَدَٰوَةً» و «مَّوَدَّةً»، إلى أن قال: «يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا»، المراد به إنشاء الإيمان و الدخول فيه، «فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ» مع أُمّة محمّد ﷺ الذين هم شهداء على

سائر الأُمم ـ يوم القيامة ـ كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، و إنّما قالوا ذلك لأنّهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك، «وَمَا لَنَا لَانُؤْمِنُ» إنكار و استبعاد لانتفاء الإيمان مع ثبوت موجبه و هو الطمع في أن ينعم الله عليهم بصحبة الصالحين. و محلّ «لَانُؤْمِنُ» النصب على الحال بمعنى غير مؤمنين، و الواو في «وَنَطْمَعُ» واو الحال، انتهى.

و في كنز الدقائق: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ»: لشدّة شكهم، و تضاعف كفرهم، و انهماكهم في إتّباع الهوى، و ركونهم إلى التقليد، و بعدهم عن التحقيق، و تمرّنهم على تكذيب الأنبياء و معاداتهم.

«وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ»: للين جانبهم، و رقّة قلوبهم، و قلّة حرصهم على الدنيا، و كثرة اهتمامهم بالعلم و العمل، انتهى.

و في الميزان: علّل تعالى ما ذكره: من كون النصارى أقرب مودّة و آنس قلوبا للذين آمنوا بخصال ثلاث يفقدها غيرهم من اليهود و المشركين، و هي أنّ فيهم علماء و أنّ فيهم رهبانا و زهّادا، و أنّهم لايستكبرون، و ذلك مفتاح تهيّؤهم للسعادة، إلى أن قال: و من هنا يظهر أنّ المجتمع إنّما يتهيّؤ لقبول الحقّ إذا اشتمل على علماء يعلمونه و يعلّمونه، و على رجال يقومون بالعمل به حتّى يذعن العامّة بإمكان العمل و يشاهدوا حسنه، و على اعتياد عامّتهم على الخضوع للحقّ و عدم الاستكبار عنه إذا انكشف لهم. و لهذا علّل الله سبحانه قرب النصارى من قبول الدعوة الحقّة الدينية بأنّ فيهم قسّيسين و رهبانا و أنّهم لايستكبرون ففيهم علماء لايزالون يذكرونهم مقام الحقّ و معارف الدين قولا، و فيهم زهّاد

يذكرونهم عظمة ربّهم و أهمّيّة سعادتهم الاُخروية و الدنيوية عملا، و فيهم عدم الاستكبار عن قبول الحقّ، و أما اليهود فإنّهم و إن كان فيهم أحبار علماء لكنهم مستكبرون لاتدعهم رذيلة العناد و الاستعلاء أن يتهيّؤوا لقبول الحق. و أمّا الذين أشركوا فإنّهم يفقدون العلماء و الزهّاد، و فيهم رذيلة الاستكبار، انتهى.

و إن قلت: لاينطبق الآية على النصارى الذين يكونون في زماننا هذا، قلت: لو سلّم ذلك فالقضايا المذكورة في الآية الكريمة، قضايا خارجية لاالقضايا الحقيقية، و يؤيّده قوله: لتجدنّ خطابا إلى شخص النبي ﷺ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: روي أنّ رسول الله ﷺ ذكر أصحابه يوماً و وصف القيامة لهم فبالغ في الإنذار فرّقوا و اجتمع عشرة في بيت عثمان بن مظعون و اتفقوا على أن يصوموا النهار و يقوموا الليل و لاياموا على الفرش و لايأكلوا اللحم و لاالوَدَك «دسم اللحم» و لايقربوا النساء و يلبسوا المسوح و يرفضوا الدنيا و يسيحوا في الأرض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: إنّى لم اُؤمر بذلك، إنّ لأنفسكم عليكم حقّا، فصوموا و أفطروا، و قوموا و ناموا، فإنّي أقوم و أنام، و أصوم و اُفطر، و آكل اللحم و الدسم، و آتي النساء، و من رغب عن سنّتي

فليس منّي، و نزلت الآية، إلى أن قال: و يدلّ الآيتان على كراهية التفرّد و الخروج ممّا عليه الناس في التأهّل و طلب الولد و عمارة الأرض، انتهى.

و في الميزان: و الآية أعني قوله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ»، «إلخ» تنهى المؤمنين عن تحريم ما أحلّ الله لهم و تحريم ما أحلّ الله هو جعله حراما كما جعله الله تعالى حلالا، و ذلك إمّا بتشريع قبال تشريع، و إمّا بالمنع أو الامتناع بأن يترك شيئا من المحلّلات بالامتناع عن إتيانه أو منع نفسه أو غيره من ذلك، فإنّ ذلك كلّه تحريم و منع و منازعة لله سبحانه في سلطانه، و اعتداء عليه ينافي الإيمان بالله و آياته، و لذلك صدر النهي بقوله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ»، فإنّ المعنى: «لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ» و قد آمنتم به و سلّمتم لأمره. و يؤيّده أيضا قوله في ذيل الآية التالية: «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ»، إلى أن قال: إنّ المراد بالاعتداء في قوله: «وَلَا تَعْتَدُوٓاْ» هو الاعتداء على الله سبحانه في سلطانه التشريعي، أو التعدّي عن حدود الله بالانخلاع عن طاعته و التسليم له و تحريم ما أحلّه، كما قال تعالى في ذيل آية الطلاق: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[1]، إلى أن قال: و الآيات ـ كما ترى ـ تعدّ الاستقامة و الالتزام بما شرّعه الله طاعة له تعالى و لرسوله ممدوحة، و الخروج عن التسليم و الالتزام و الانقياد اعتداء و تعدّيا لحدود الله مذموماً معاقبا عليه، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ». قد عرفت أنّ ظاهر السياق أنّ المراد بالاعتداء هو التحريم المذكور في الجملة السابقة عليه فقوله: «وَلَا تَعْتَدُوٓاْ» يجري مجرى التأكيد لقوله: «لَا تُحَرِّمُواْ»، إلخ.

---

١. البقرة: ٢٢٩.

و أمّا ما ذكره بعضهم: أنّ المراد بالاعتداء تجاوز حد الاعتدال في المحلّلات بالانكباب على التمتّع بها و لاستلذاذ منها قبال تركها، و اجتناب تناولها تقشفا و ترهبّا، فيكون معنى الآية: لاتحرّموا على أنفسكم ما أحلّ الله لكم من الطيبات المستلذّة بأن تتعمّدوا ترك التمتّع بها تنسّكا و تقرّبا إليه تعالى، و لاتعتدوا بتجاوز حدّ الاعتدال إلى الإسراف و الإفراط الضارّ بأبدانكم أو نفوسكم. أو أنّ المراد بالاعتداء تجاوز المحلّلات الطيّبة إلى الخبائث المحرّمة، و يعود المعنى إلى أن لاتجتنبوا المحلّلات و لاتقترفوا المحرّمات، و بعبارة اُخرى: لاتحرّموا ما أحلّ الله لكم، و لاتحلّلوا ما حرّم الله عليكم.

فكلّ من المعنيين و إن كان في نفسه صحيحا يدلّ عليه الكتاب بما لاغبار عليه لكن شيئا منهما لاينطبق على الآية بظاهر سياقها و سياق ما يتلوها من الآية اللاحقة فما كل معنى صحيح يمكن تحميله على كل لفظ كيفما سيق و أينما وقع. قوله تعالى: «وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا» إلى آخر الآية، ظاهر العطف أعني انعطاف قوله: «وَكُلُواْ» على قوله: «لَاتُحَرِّمُواْ» أن يكون مفاد هذه الآية بمنزلة التكرار و التأكيد لمضمون الآية السابقة، إلى أن قال: و على هذا فقوله: «كُلُواْ»، إلخ، من قبيل ورود الأمر عقيب الحظر، و تخصيص قوله: «كُلُواْ» بعد تعميم قوله: «لَاتُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ»، (الآية) «إلخ»، انتهى.

فتحصّل: أنّ الآية الاُولى تدلّ على اختصاص التشريع بالله تعالى، و الأحكام حدود الله، و لامجال للتعرّض بالنسبة إليها، و أنّ الله تعالى لايحبّ المتجاوزين.

و الآية الثانية تدلّ على ترخيص جواز الانتفاع من الطيّبات، و لامجال لامتناع الاستفادة منها بتوهّم أنّ ذلك رياضات شرعية أو تقوى من تقوى الله تعالى، بل التقوى هو الاستفادة منها كما استفاد منها النبي صلى الله عليه وآله و الأئمّة عليهم السلام .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: اللغو في اليمين هو الساقط الذي لايتعلّق به حكم و يقع من غير قصد مثل قول القائل: «لا والله» و «بلى و الله»، «بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ» أي: بتعقيدكم الأيمان و هو توثيقها بالقصد و النيّة، إلى أن قال: و المعنى: ولكن يؤاخذكم بنكث ما عقّدتم، فحذف المضاف، أو بما عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذة لكونه معلوما، «فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ» أي: فكفّارة حنثه «إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ»، يعطى كلّ واحد منهم مدّين أو مدّا، والمدّ: رطلان و ربع، «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ»، أي: من أقصده لأنّ من الناس من يسرف في إطعام أهله و منهم من يُقتِّر، و أفضله الخبز و اللحم و أدونه الخبز و الملح، إلى أن قال: و أما تسكين الياء في حال النصب «في أهليكم» فللتخفيف، إلى أن قال: «أَوْ

كِسْوَتُهُمْ» عطف على «إِطْعَامُ»، و الكسوة عندنا ثوبان، مئزر و قميص، و عند الضرورة قميص.

«أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» عبد أو أمة، و هذه الثلاثة واجبة على التخيير، «فَمَن لَّمْ يَجِدْ» إحداها «فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ» متتابعات، إلى أن قال: «ذَٰلِكَ» المذكور «كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» و حنثتم، ترك ذكر الحنث لحصول العلم بأنّ الكفّارة إنّما تجب بالحنث لا بنفس الحلف، «وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ» فبرُّوا فيها و لا تحنثوا، إلى أن قال: «كَذَٰلِكَ» أي: مثل ذلك البيان «يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ»، أي: أحكام شريعته، «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» نعمته فيما يعلّمكم و يبيّنه لكم، انتهى.

و في الميزان: و التقابل الواقع بين قوله (عزّوجلّ): «بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ» و قوله تعالى: «بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ» يعطي أنّ المراد باللغو في الأيمان ما لا يعقد عليه الحالف، و إنّما يجري على لسانه جريا لعادة اعتادها أو لغيرها و هو قولهم، و خاصة في قبيل البيع و الشراء: لا و الله، بلى و الله، بخلاف ما عقد عليه عقدا بالالتزام بفعل أو ترك كقول القائل: و الله لأفعلنّ كذا، و و الله لأتركن كذا.

هذا هو الظاهر من الآية، إلى أن قال: فالمتعيّن أنّ اللغو من الأيمان في الآية ما لا عقد فيه، و ما عقد عليه هو اليمين الممضاة، انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ

بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

و في جوامع الجامع: أكد ـ سبحانه ـ تحريم الخمر و الميسر بوجوه من التأكيد: منها: أنّه قرنهما بعبادة الأنصاب التي هي الأصنام، و منه قوله عليه السلام: «شارب الخمر كعابد الوثن».

و منها: أنّه جعلهما رجسا كما قال: «فَٱجْتَنِبُوهُ الرجس من الأوثان»، و منها: أنّه جعلهما من عمل الشيطان، و منها: أنّه أمر بالاجتناب، و منها: أنّه جعل الاجتناب من الفلاح، و الهاء في «فَٱجْتَنِبُوهُ» يعود إلى عمل الشيطان أو إلى مضاف محذوف كأنّه قيل: إنّما شأن الخمر و الميسر أو تعاطي الخمر و الميسر و نحو ذلك، و منها: أنّه ذكر نتائجهما من المفاسد التي هي وقوع التعادي و التباغض بين أصحاب الخمر و القمر و ما يؤديّان إليه من الصدّ «عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ» التي هي عماد الدين، و قوله: «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ» نهي بليغ، أي: فهل أنتم مع ما تلي عليكم من هذه الصوارف منتهون!، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَٱلْأَنصَابُ»، أي: الأصنام التي نصبت للعبادة، إلى أن قال: «رِجْسٌ»: قذر تعاف عنه العقول، و أفرده لأنّه خبر للخمر، و خبر المعطوف محذوف أو لمضاف محذوف، كأنّه قال: إنّما تعاطي الخمر و الميسر رجس.

في الكافي: عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا أنزل الله ـ عزّوجلّ ـ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية قيل: يا رسول الله، ما الميسر؟ فقال: كلّ ما تقومر به، حتّى الكعاب و

الجوز، قيل: فما الأنصاب؟ قال: ما ذبحوه لآلهتهم، قيل: فما الأزلام؟ قال: قداحهم التي يستقسمون بها. «مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ»: لأنّه مسبب تسويله و تزيينه. «فَٱجْتَنِبُوهُ»: الضمير «للرجس»، أو لما ذكر، أو للتعاطي، إلى أن قال: و في عيون الأخبار، عن الريان بن الصلت قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: ما بعث الله ـ عزّوجلّ ـ نبيّا إلّا بتحريم الخمر. و في كتاب الخصال: عن أبي جعفر عليه السلام قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الخمر عشرة: غارسها، و حارسها، و عاصرها، و شاربها، و ساقيها، و حاملها، و المحمولة إليه، و بائعها، و مشتريها، و آكل ثمنها، إلى أن قال: و في الكافي: بعض أصحابنا مرسلا قال: إنّ أوّل ما نزل في تحريم الخمر قول الله (عزّوجلّ): يسألونك عن «ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ» الآية، ثمّ أنزل الله آية اُخرى: «إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، إلى أن قال: فأمر الله «عزّوجلّ» باجتنابها، و فسّر عللها التي لها و من أجلها حرّمها، انتهى.

و في الميزان: فالخمر ما يخمر العقل من كلّ مائع مسكر عمل بالتخمير، و الميسر هو القمار مطلقا، و الأنصاب هي الأصنام أو الحجارة التي كانت تنصب لذبح القرابين عليها و كانت تحترم و يتبرّك بها، و الأزلام هي الأقداح التي كانت يستقسم بها، و ربّما كانت تطلق على السهام التي كانت يتفأل بها ابتداء الاُمور و العزيمة عليها كالخروج إلى سفر و نحوه، لكنّ اللفظ قد وقع في أوّل السورة للمعنى الأوّل، لوقوعه بين محرّمات الأكل، فيتأيّد بذلك كون المراد به هاهنا هو ذلك، إلى أن قال: قد عرفت أنّ الآية في أوّل السورة: «وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ»

ظاهرة في الاستقسام بالأقداح الذي هو نوع من القمار، لوقوعه في ضمن محرّمات الأكل، و يتأيّد به أنّ ذلك هو المراد بالأزلام في هذه الآية.

و لو سلّم عدم تأيّد هذه بتلك، عاد إلى لفظ مشترك لاقرينة عليه من الكلام تبيّن المراد، فيتوقّف على ما يشرحه من السنّة، و قد وردت عدّة أخبار من أئمّة أهل البيت عليهم السلام في جواز الأخذ بالخيرة من السبحة و غيرها عند الحيرة.

و حقيقته أنّ الإنسان إذا أراد أن يقدم على أمر كان له أن يعرف وجه المصلحة فيه بما أغرز الله فيه من موهبة الفكر أو بالاستشارة ممّن له صلاحيّة المعرفة بالصواب و الخطأ، و إن لم يهده ذلك إلى معرفة وجه الصواب، و تردّد متحيّراً كان له أن يعيّن ما ينبغي أن يختاره بنوع من التوجّه إلى ربّه.

و ليس في اختيار ما يختاره الإنسان بهذا النوع من الاستخارة دعوى علم الغيب، و لاتعرّض لما يختصّ بالله سبحانه من شؤون الألوهية، و لاشرك بسبب تشريك غير الله تعالى إيّاه في تدبير الأمور، و لا أيّ محذور ديني آخر، إذ لاشأن لهذا العمل إلّا تعيّن الفعل أو الترك من غير إيجاب و لاتحريم، و لا أي حكم تكليفي آخر، و لاكشف عمّا وراء حجب الغيب من خير أو شرّ إلّا أنّ خير المستخير في أن يعمل أو يترك فيخرج عن الحيرة و التذبذب.

و أمّا ما يستقبل الفعل أو الترك من الحوادث فربّما كان فيه خير و ربّما كان فيه شرّ على حدّ ما لو فعله أو تركه عن فكر أو استشارة، فهو كالتفكر و الاستشارة طريق لقطع الحيرة و التردّد في مقام العمل، و يترتّب على الفعل الموافق له ما كان يترتّب عليه لو فعله من فكر أو مشورة.

نعم، ربّما أمكن لمتوهّم أن يتوهّم التعرّض لدعوى علم الغيب في ما ورد من التفأل بالقرآن و نحوه فربّما كانت النفس تتحدّث معه بيمن أو شأمة، و تتوقّع خيرا أو شرا أو نفعا أو ضرّا، لكن قد ورد في الصحيح من طرق الفريقين: أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يتفأّل بالخير و يأمر به، و ينهى عن التطيّر و يأمر بالمضي معه و التوكل على الله تعالى. فلامانع من التفأل بالكتاب و نحوه، فإن كان معه ما يتفأل به من الخير، و إلا مضى في الأمر متوكلا على الله تعالى، و ليس في ذلك أزيد ممّا يطيب به الإنسان نفسه في الاُمور و الأعمال التي يتفرس فيها السعادة و النفع، إلى أن قال: فتبيّن أن ما وقع في بعض التفاسير من حمل الأزلام على سهم التفؤل و استنتاج حرمة الاستخارة بذلك ممّا لاينبغي المصير إليه.

و أمّا قوله: «رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ»، فالرجس الشيء القذر على ما ذكره الراغب في مفرداته فالرجاسة بالفتح كالنجاسة و القذارة هو الوصف الذي يبتعد و يتنزّه عن الشيء بسببه لتنفّر الطبع عنه.

و كون هذه المعدودات من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجسا هو اشتمالها على وصف لاتستبيح الفطرة الإنسانية الاقتراب منها لأجله، و ليس إلّا أنّها بحيث لاتشتمل على شيء ممّا فيه سعادة إنسانية أصلا، سعادة يمكن أن تصفو و تتخلّص في حين من الأحيان، كما ربّما أومأ إليه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1]،

---

١. البقرة: ٢١٩.

حيث غلب الإثم على النفع و لم يستثن. و لعلّه لذلك نسب هذه الأرجاس إلى عمل الشيطان و لم يشرك له أحدا، ثمّ قال في الآية التالية: «إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ».

و ذلك أنّ الله سبحانه عرّف الشيطان في كلامه بأنّه عدوّ للإنسان لايريد به خيرا البتّة، إلى أن قال: و أمّا قوله تعالى: «فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، فتصريح بالنهي بعد بيان المفسدة ليكون أوقع في النفوس، ثمّ ترج للفلاح على تقدير الاجتناب، و فيه أشدّ التأكيد للنهي لتشبيته أن لارجاء لفلاح من لايجتنب هذه الأرجاس، إلى أن قال: و قصر إيقاع العداوة و البغضاء في الخمر و الميسر لكونهما مَن آثارهما الظاهرة، أمّا الخمر فلأنّ شربها تهيّج سلسلة الأعصاب تهيّجا يخمر العقل و يستظهر العواطف العصبية فإن وقعت في طريق الغضب جوّزت للسكران أي: جناية فرضت و إن عظمت ما عظمت، و فظعت ما فظعت ممّا لايستبيحه حتّى السباع الضارية، و إن وقعت في طريق الشهوة و البهيمية زينت للإنسان أيّ: شناعة و فجور في نفسه أو ماله أو عرضه، و كلّ ما يحترمه و يقدّسه من نواميس الدين و حدود المجتمع و غير ذلك من سرقة أو خيانة أو هتك محرّم أو إفشاء سرّ أو ورود فيما فيه هلاك الإنسانية، و قد دلّ الإحصاء على أنّ للخمر السهم الأوفر من أنواع الجنايات الحادثة و في أقسام الفجورات الفظيعة في المجتمعات التي دار فيها شربها.

و أما الميسر و هو القمار، فإنّه يبطل في أيسر زمان مسعاة الإنسان التي صرفها في اقتناء المال و الثروة و الوجاهة في أزمنة طويلة فيذهب به المال و ربّما تبعه

العرض و النفس و الجاه، فإن تقمر و غلب و أحرز المال أدّاه ذلك إلى إبطال السير المعتدل في الحياة و التوسّع في الملاهي و الفجور، و الكسل و التبطّؤ عن الاشتغال بالمكسب و اقتناء موادّ الحياة من طرقها المشروعة، و إن كان هو المغلوب أدّاه فقدان المال و خيبة السعي إلى العداوة و البغضاء لقميرة الغالب، و الحسرة و الحنق.

و هذه المفاسد و إن كانت لاتظهر للأذهان الساذجة البسيطة ذاك الظهور في النادر القليل و المرّة و المرّتين، لكن النادر يدعو إلى الغالب، و القليل يهدي إلى الكثير و المرّة تجرّ إلى المرّات و لاتلبث إن لم تمنع من رأس أن تشيع في الملأ، و تسري إلى المجتمع فتعود بلوى همجية لاحكومة فيها إلّا للعواطف الطاغية و الأهواء المردية، انتهى.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَٱحۡذَرُواْ» أي: كونوا حذرين خائفين، أو و احذروا ما عليكم في ترك طاعة الله و الرسول.

«فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ» و لم تعملوا بما أمرتكم به «فَٱعۡلَمُوٓاْ» أنّكم لم تضرّوا الرسول بتولّيكم عمّا أدّاه إليكم، لأنّ الرسول لم يكلّف إلّا «ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ» و إنّما ضررتم

أنفسكم، و هذا وعيد، «لَيْسَ عَلَى» المؤمنين الصالحين «جناح في» أي شيء «طَعِمُوٓه» من المطاعم المستلذّة «إِذَا مَا ٱتَّقَواْ» ما حرّم عليهم منها و ثبّتوا على الإيمان و العمل الصالح و ازدادوه، «ثمّ ٱتَّقَواْ وَّآمَنُواْ»، أي: ثمّ ثبّتوا على التقوى و الإيمان، «ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ»، أي: ثمّ ثبّتوا على اتّقاء المعاصي و أحسنوا أعمالهم أو أحسنوا إلى الناس يواسونهم بما رزقهم الله من الطيّبات، انتهى.

و في كنز الدقائق: «لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ»: من المستلذّات، أكلا كان أو شربا، فإنّ الطعم يعمّها، انتهى.

و في تفسير مجمع البيان في تفسير أهل البيت عليهم السلام: فيما طعموا من الحلال، «إِذَا مَا ٱتَّقَواْ»: المحرم، إلى أن قال: ثمّ «ٱتَّقَواْ»: ثمّ تثبّتوا على اتقاء المعاصي. «وَّأَحْسَنُواْ»: و تحرّوا الأعمال الجميلة و اشتغلوا بها، إلى أن قال: و اعلم أنّه لمّا كان لكلّ من الإيمان و التقوى درجات و منازل كما ورد عنهم عليهم السلام لم يبعد أن يكون تكريرهما في الآية إشارة إلى تلك الدرجات و المنازل، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام: الإيمان حالات و درجات و طبقات و منازل: فمنه التامّ المنتهى تمامه، و منه الناقص البيّن نقصانه، و منه الراجح الزائد رجحانه، انتهى.

قال في الميزان ـ بعد ذكر آيات ٩٠ إلى ٩٣ـ : الآيات متلائمة سياقا فكأنّها نزلت دفعة أو هي متقاربة نزولا، و الآية الأخيرة بمنزلة دفع الدخل على ما سنبيّنه تفصيلا، فهي جميعا تتعرّض لحال الخمر، و بعضها يضيف إليها الميسر و الأنصاب و الأزلام. و قد تقدّم في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1]، في الجزء الأوّل، و في

---

١. البقرة: ٢١٩.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1] في الجزء الرابع من هذا الكتاب، أنّ هاتين الآيتين مع قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾[2]، و هذه الآية المبحوث عنها: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ» ـ إلى قوله ـ : «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ» إذا انضمّ بعضها إلى بعض دلّت سياقاتها المختلفة على تدرّج الشارع في تحريم الخمر. لكن لابمعنى السلوك التدريجي في تحريمها من تنزيه و إعافة إلى كراهية إلى تحريم صريح حتّى ينتج معنى النسخ، أو من إبهام في البيان إلى إيضاح أو كناية خفيّة إلى تصريح لمصلحة السياسية الدينية في إجراء الأحكام الشرعية، فإنّ قوله تعالى: «وَٱلْإِثْمَ» آية مكيّة في سورة الأعراف، إذ انضمّ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ و هي آية مدنية واقعة في سورة البقرة أوّل سورة مفصّلة نزلت بعد الهجرة، أنتج ذلك حرمة الخمر إنتاجا صريحا لايدع عذرا لمعتذر، و لامجالاً لمتأوّل. بل بمعنى أنّ الآيات تدرّجت في النهي عنها بالتحريم على وجه عامّ و ذلك قوله تعالى: «وَٱلْإِثْمَ» ثمّ بالتحريم الخاصّ في صورة النصيحة، و ذلك قوله: «قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا» و قوله: «لَاتَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ»، إن كانت الآية ناظرة إلى سكر الخمر لا إلى سكر النوم، ثمّ بالتحريم الخاصّ بالتشديد البالغ الذي يدلّ عليه قوله: «إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ» إلى قوله: «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ»، الآيتان، إلى أن قال: «أَطِيعُواْ ٱللَّهَ

---

١. النساء: ٤٣.

٢. الأعراف: ٣٣.

وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ»، إلى آخر الآية، تأكيد للأمر السابق باجتناب هذه الأرجاس أوّلا بالأمر بطاعة الله سبحانه و بيده أمر التشريع، و ثانيا بالأمر بطاعة الرسول و إليه الإجراء، و ثالثا بالتحذير صريحا.

ثمّ في قوله: «فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ»، تأكيد فيه معنى التهديد و خاصّة لاشتماله على قوله: «فَٱعْلَمُوٓاْ»، فإنّ فيه تلويحا إلى أنّكم إن تولّيتم و اقترفتم هذه المعاصي فكأنّكم ظننتم أنّكم كابرتم النبيّ ﷺ في نهيه عنها و غلبتموه، و قد جهلتم أو نسيتم أنّه رسول من قبلنا ليس له من الأمر شيء إلّا بلاغ مبين لما يوحى إليه و يؤمر بتبليغه، و إنّما نازعتم ربّكم في ربوبيّته، إلى أن قال: قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ» إلى آخر الآية، إلى أن قال: و الآية لاتصلح بسياقها إلّا أن تتّصل بالآيات السابقة فتكون دفع دخل تتعرّض لحال المؤمنين ممّن ابتلي بشرب الخمر قبل نزول التحريم أو قبل نزول هذه الآيات، و ذلك أنّ قوله فيها: «فِيمَا طَعِمُوٓاْ» مطلق غير مقيّد بشيء ممّا يصلح لتقييده، و الآية مسوقة لرفع الحظر عن هذا الطعام المطلق، و قد قيّد رفع الحظر بقوله: «إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثمّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثمّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ». و المتيقّن من معنى هذا القيد ـ (و قد ذكر فيه التقوى ثلاث مرّات) ـ هو التقوى الشديد الذي هو حقّ التقوى. ففي الجناح للمؤمنين المتّقين عن مطلق ما طعموا الطعام المحلّل إن كان لغرض إثبات المفهوم في غيرهم أي: إثبات مطلق المنع لغير أهل التقوى من سائر المؤمنين و الكفّار ناقضه أمثال قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ

﴿ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1]، على أنّ من معلوم مذاق هذا الدين أنّه لايمنع أحدا عن الطيبات المحلّلة التي تضطرّ الفطرة إلى استباحتها في الحياة.

و إن لم تكن الآية مسوقة لتحريمه على غير ذكر عاد المعنى إلى مثل قولنا: يجوز الطعام للذين آمنوا و عملوا الصالحات بشرط أن يتّقوا ثمّ يتّقوا ثمّ يتّقوا، و من المعلوم: أنّ الجواز لايختصّ بالذين آمنوا و عملوا الصالحات، بل يعمّهم و غيرهم، و على تقدير اختصاصه بهم لايشترط فيه هذا الشرط الشديد، إلى أن قال: فتلخّص من جميع ما مرّ، أنّ المراد بالآية أعني قوله: «لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟» إلى آخر الآية، أنّه لاجناح على الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيما ذاقوه من خمر أو غيره من المحرّمات المعدودة بشرط أن يكونوا ملازمين للتقوى في جميع أطوارهم و متلبّسين بالإيمان بالله و رسوله، و محسنين في أعمالهم عاملين بالواجبات و تاركين لكلّ محرّم نهوا عنه، فإنّ اتّفق لهم أن ابتلوا بشيء من الرجس الذي هو من عمل الشيطان قبل نزول التحريم أو قبل وصوله إليهم أو قبل تفقههم به، لم يضرّهم ذلك شيئا.

و هذا نظير قوله تعالى في آيات تحويل القبلة في جواب سؤالهم عن حال الصلوات التي صلّوها إلى غير الكعبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[2].

---

١. الأعراف: ٣٢.

٢. البقرة: ١٤٣.

و سياق هذا الكلام شاهد آخر على كون هذه الآية: «لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ»، إلخ، متّصلة بما قبلها من الآيات، و أنّها نازلة مع تلك الآيات التي لسانها يشهد أنّها آخر الآيات المحرّمة للخمر نزولا، و أنّ بعض المسلمين كما يشعر به لسان الآيات ـ على ما استفدناه ـ آنفا لم يكونوا منتهين عن شربها ما بين الآيات السابقة المحرّمة و بين هذه الآيات، انتهى.

و لايخفى عليك أنّ القضية إمّا قضية خارجية و النظر فيها إلى جماعة خاصّ الذين شربوا الخمر في السابق، ولكن كانوا خائفين من ذلك. فقال الله تعالى: لاخوف عليهم إذا آمنوا بعد الشرب و اتّقوا و كانوا ثابتين في الإيمان و عملوا الصالحات، فمن شرب في السابق ثمّ آمن و اتقى و كان في ثبات من الإيمان و عمل الصالح فلاخوف عليه من ناحية ارتكاب الخمر في السابق بل الإيمان الثابت و العمل الصالح يوجب الجبران.

و إمّا قضية حقيقية و النظر فيها ليس إلى من شرب الخمر ثمّ خاف، بل النظر إلى الذين تصرّفوا في المحلّلات ثمّ لم يثبتوا في الإيمان و العمل الصالح فقال: إنّ التصرف في المحلّلات مورد السؤال و المؤاخذة لأنّ الطيّبات للطيّبين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله بالصيد و هم محرمون، و كان قد كثر عندهم حتّى أنّه كان يغشاهم في رحالهم فيتمكنون من صيده أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم.

«بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ» أي: بتحريم بعض الصيد، لأنّه عنى صيد البرّ خاصّة و أنّهم ابتلوا بذلك كما ابتلى اُمّة موسى عليه السلام بصيد البحر و هو السمك، «لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ» أي: ليتميّز من يخاف عقاب الآخرة و هو غائب منتظر فيتقّي الصيد ممّن لايخافه فيقدم عليه، «فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ» فصاد «بَعْدَ ذَٰلِكَ» الابتلاء فالوعيد لاحق به، انتهى.

و في الميزان: البلاء هو الامتحان و الاختبار، إلى أن قال: و قوله: بشيء من الصيد يفيد التحقير، ليكون تلقينه للمخاطبين عونا لهم على انتهائهم إلى ما سيواجههم من النهي في الآية الآتية، و قوله: «تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ» تعميم للصيد من حيث سهولة الاصطياد، كما في فراخ الطير و صغار الوحش و البيض تنالها الأيدي فتصطاد بسهولة، ومن حيث صعوبة الاصطياد ككبار الوحش لاتصطاد عادة إلّا بالسلاح و ظاهر الآية أنها مسوقة كالتوطئة لما ينزل من الحكم المشدد في الآية التالية، و لذلك عقب الكلام بقوله: «لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ» فإن فيه إشعاراً بأنّه هناك حكما من قبيل المنع و التحريم ثم عقبه بقوله: «فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ». قوله تعالى: «لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ» لايبعد أن يكون قوله: ليبلوكم الله ليعلم كذا كناية عن أنه سيقدر كذا ليتميز منكم من يخاف الله بالغي عمن لايخافه لأن الله سبحانه لايجوز عليه الجهل حتى يرفعه بالعلم.

و أمّا قوله: «مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ» فالظرف متعلّق بالخوف، و معنى الخوف بالغيب أن يخاف الإنسان ربّه و يحترز ما ينذره من عذاب الآخرة و أليم عقابه، و كلّ ذلك في غيب من الإنسان لايشاهد شيئا منه بظاهر مشاعره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، و قال: و اُزلفت الجنّة للمتقين غير بعيد، إلى أن قال: و قوله: «فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ» أي: تجاوز الحدّ الذي يحدّه الله بعد البلاء المذكور، فله عذاب أليم، انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: «ٱلصَّيْدَ»: ما يصاد من الوحش، اُكل أم لم يؤكل، «وَأَنتُمْ حُرُمٌ» أي: محرمون بحجّ أو عمرة، جمع حرام، «وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا»، و هو أن يقتله و هو ذاكر لإحرامه أو عالم بأنّ ما يقتله ممّا يحرم عليه قتله، و عن الزهري نزل الكتاب بالعمد و جرت السنة في الخطأ، «فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا

---

١. يس: ١١.

قَتَلَ»، برفع «جزاءٌ»، و «مِّثْلُ» معناه: فالواجب عليه جزاءٌ يماثل ما قتل من الصيد، إلى أن قال: «مِنَ ٱلنَّعَمِ» و هي الإبل و البقر و الغنم، و يقال للإبل ـ أيضا ـ: نعم و إن انفرد، و هذه المماثلة عند أئمّة الهدى عليهم السلام إنّما تعتبر في الخلقة، ففي النعامة بدنة، و في حمار الوحش و بقر الوحش بقرة، و في الظبي و الإرنب و نحوهما شاة.

«يَحْكُمُ بِهِۦ» أي: بمثل ما قتل، «ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ»، أي: حكمان عدلان من الفقهاء ينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به، و قراءة السيدين: الباقر و الصادق عليهما السلام : ذو عدل منكم، المراد به الإمام.

«هَدْيَا» حال من «جَزَآءٌ» لأنّه تخصّص بالصفة فأشبه المعرفة، أو حال من الضمير في «بِهِۦ» أو بدل من محلّ «مِّثْلُ» إذا جررته. و «بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ» وصف له، أي: هديا يبلغ الكعبة، و معنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم، و قال أصحابنا: إذا كان محرما بالعمرة ذبح أو نحر بمكة، و إن كان محرما بالحجّ فبمنى.

«أَوْ كَفَّٰرَةٌ»، معناه أو الواجب عليه كفّارة، و قرئ: أو كفّارةُ طعام مساكين، على الإضافة، و تقديره: أو كفّارة من طعام مساكين، كقولك: «خاتم فضّة»، و المعنى خاتم من فضّة، و هو أن يقوّم الجزاء و يفض ثمنه على الحنطة و يتصدّق به على كلّ مسكين نصف صاع، «أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا»، و عدل الشيء ما عادله من غير جنسه، و صياما تمييز للعدل، و «ذَٰلِكَ» إشارة إلى الطعام و هو أن يصام عن كلّ نصف صاع يوما.

و الخيار في هذه الكفّارات الثلاث إلى قاتل الصيد، و قيل: هي مرتبّة، و كلا القولين رواه أصحابنا، «لِّيَذُوقَ» متعلق بـ«جَزَآءٌ» و المعنى: فالواجب عليه أن

يجازي أو يكفّر لِّيَذُوقَ سوء عاقبة فعله، «عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ» لكم من الصيد في حال الإحرام، يعني الدفعة الأُولى، و من عاد ثانية إلى قتل الصيد محرما «فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ»، تقديره فهو ينتقم الله منه و يعاقبه بما صنع و لا كفّارة عليه، «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ» أي: مصيداته و «طَعَامُهُۥ» و ما يطعم من صيده، و المعنى: أُحلّ لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر و أُحلّ لكم أكل المأكول منه و هو السمك وحده، «مَتَٰعًا لَّكُمْ» مفعول له أي: تمتيعا لكم و المعنى: و أُحلّ لكم طعام البحر تمتيعا لتنّائكم تأكلونه طريّا و لسيارتكم تتزوّدونه قديدا، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا»: و التقييد به، لأنّ الآية نزلت فيمن تعمّد على ما نقل، إلى أن قال: لا لتقييد وجوب الجزاء فإنّ إتلاف العامد و المخطىء و الناسي، واحد في إيجاب الكفّارة.

في مجمع البيان: فأمّا إذا قتل الصيد خطأ أو ناسيا، فهو كالمتعمّد في وجوب الجزاء عليه، و هو مذهب عامّة أهل التفسير و العلم وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام، إلى أن قال: في مجمع البيان: اختلف في هذه المماثلة، أهي في القيمة أو الخلقة؟ فالذي عليه معظم أهل التفسير، أنّ المماثلة معتبرة في الخلقة، ففي النعامة بدنة، و في حمار الوحش و شبهه بقرة، و في الظبي و الأرنب، شاة و هو المروي عن أهل البيت عليهم السلام . إلى أن قال: و في الكافي: عن الباقر والصادق عليهما السلام : العدل: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الإمام من بعده. (الحديث)، إلى أن قال: فإذا علمت ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الإمام، فحسبك و لا تسأل عنه.

و الوجه في الرجوع إلى ذي العدل، أنّ الأنواع تتشابه كثيرا فيحتاج تحقيق المماثلة الرجوع إليه، انتهى.

ثمّ إنّ قيد التعمّد إذا ورد بتبع المورد لايوجب التقييد كما قرّر في محله. و في تفسير كاشف: اتّفق الفقهاء على أنّ الصيد في داخل الحرم لايجوز للمحرم و لا للمحلّ، أمّا الصيد في خارج الحرم فلايجوز للمحرم.

ثمّ إن قتل المحرم أو المحلّ في الحرم الصيد المنهي عنه و له مماثل من الحيوانات الأهلية كالبقر و الإبل و الشاة، يختار القاتل أن يذبح شبه المقتول و يتصدّق لحمه أو يشتري بقيمته الطعام و يتصدّقه على المساكين و يعطي لكلّ مسكين مدّين أو مدّ، على الخلاف بين الفقهاء. و القاتل أن يصوم يوما بدل كلّ المدين أو المدّ.

و المراد من السيارة: هم المسافرون (الذين لم يكونوا) محرمين و التفصيل في الفقه.

و عن الشعراني: و يمكن أن يقال بمقتضى الآية في كلّ حيوان لم يرد به نصّ صحيح عن الأئمّة عليهم السلام فإذا قتله الصائد، رجع في تعيين مثله إلى نظر رجلين عدلين من أهل الخبرة بأمثال ذلك، و أمّا الحيوانات المعروفة فقد أغنى عنه نظر السابقين و نصوص الأئمّة عليهم السلام ، انتهى.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

و في جوامع الجامع: «الْبَيْتَ الْحَرَامَ» عطف بيان لـ «الْكَعْبَةَ»، «قِيَامًا لِّلنَّاسِ»، أي: لمعايش الناس و مكاسبهم ليستقيم به اُمور دينهم و دنياهم لما يتمّ به من أمر حجّهم و عمرتهم و تجارتهم و أنواع منافعهم.

و جاء في الأثر: أنّه لو ترك عاما واحدا لم يحجّ إليه لم يناظروا و لم يؤخّروا، و معناه يهلكوا، «وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ» أي: و الشهر الذي يؤدّى فيه الحجّ و هو ذو الحجّة، إلى أن قال: «وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ» أي: و المقلّد من الهدي خصوصا لأنّ الثواب فيه أكثر. «ذَلِكَ» إشارة إلى جعل الكعبة قياما للناس «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ» كلّ شيء، فيعلم ما يصلحكم ممّا أمركم به.

«مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ»، فيه تهديد و إيذان بأنّ الرسول قد بلّغ ما وجب عليه تبليغه و قامت عليكم الحجة فلاعذر لكم في التقصير، أي: لايستوي الحلال و الحرام و الصالح و الطالح و الصحيح من المذاهب و الفاسد، و لاتعجبوا بكثرة الخبيث حتّى تؤثروه لكثرته على الطيّب القليل، «فَاتَّقُوا اللَّهَ» و اختاروا الطيّب و إن قلّ، على الخبيث و إن كثر، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ» ظاهر تعليق الكلام بالكعبة ثمّ بيانه بالبيت بأنّه بيت

حرام، و كذا توصيف الشهر بالحرام، ثمّ ذكر الهدي و القلائد اللذين يرتبط شأنهما بحرمة البيت، كلّ ذلك يدلّ على أنّ الملاك فيما يبيّن الله سبحانه في هذه الآية من الأمر إنّما هو الحرمة.

و القيام ما يقوم به الشيء، إلى أن قال: فيرجع معنى قوله: «جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ»، إلى أنّه تعالى جعل الكعبة بيتا حراما احترمه، و جعل بعض الشهور حراما، و وصل بينهما حكما كالحجّ في ذي الحجّة الحرام، و جعل هناك اُمورا تناسب الحرمة كالهدي و القلائد، كلّ ذلك لتعتمد عليه حياة الناس الاجتماعة السعيدة.

فإنّه جعل البيت الحرام قبلة يوجّه إليه الناس وجوههم في صلواتهم و يوجّهون إليه ذبائحهم و أمواتهم، و يحترمونه في سيّئ حالاتهم، فيتوحّد بذلك جمعهم، و يجتمع به شملهم، و يحيي و يدوم به دينهم، و يحجّون إليه من مختلف الأقطار و أقاصي الآفاق فيشهدون منافع لهم، و يسلكون به طرق العبودية.

ويهدي باسمه و بذكره و النظر إليه و التقرّب به و التوجّه إليه العالمون، إلى أن قال: و نظير ذلك الكلام في كون الشهر الحرام قياما للناس و قد حرّم الله فيه القتال، و جعل الناس في أمن من حيث دمائهم و أعراضهم و أموالهم، و يصلحون فيه ما فسد أو اختلّ من شؤون حياتهم، و الشهر الحرام بين الشهور كالموقف و المحطّ الذي يستريح فيه المتطرّق التعبان، و بالجملة: البيت الحرام و الشهر الحرام و ما يتعلّق بذلك من هدي و قلائد قيام للناس من عامّة جهات معاشهم و معادهم، و لو استقرأ المفكر المتأمّل جزئيات ما ينتفع به الناس انتفاعا جاريا أو ثابتا من بركات البيت العتيق و الشهر الحرام من صلة الأرحام، و مواصلة

الأصدقاء، و إنفاق الفقراء، و استرباح الأسواق، و موادّة الأقرباء و الأداني، و معارفة الأجانب و الأباعد، و تقارب القلوب، و تطهّر الأرواح، و اشتداد القوى، و اعتضاد الملّة، و حياة الدين، و ارتفاع أعلام الحقّ، و رايات التوحيد أصاب بركات جمة و رأى عجبا. و كان المراد من ذكر هذه الحقيقة عقيب الآيات الناهية عن الصيد هو دفع ما يتوهّم أنّ هذه أحكام عديمة أو قليلة الجدوى، فأيّ فائدة لتحريم الصيد في مكان من الأمكنة أو زمان من الأزمنة؟ إلى أن قال: فأُجيب عن ذلك بأنّ اعتبار البيت الحرام و الشهر الحرام و ما يتبعهما من الحكم مبنيّ على حقيقة علمية و أساس جدّي و هو أنّها قيام يقوم به صلب حياتهم.

و من هنا يظهر وجه اتّصال قوله: «ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ»، إلى آخر الآية بما قبله، إلى أن قال: قوله تعالى: «لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ»، كان المراد بعدم استواء الخبيث و الطيّب أنّ الطيب خير من الخبيث، و هو أمر بيّن فيكون الكلام مسوقا للكناية، و ذلك أن الطيب بحسب طبعه و بقضاء من الفطرة أعلى درجة و أسمى منزلة من الخبيث، فلو فرض انعكاس الأمر و صيرورة الخبيث خيرا من الطيّب لعارض يعرضه كان من الواجب أن يتدرّج الخبيث في الرقي و الصعود حتّى يصل إلى حدّ يحاذي الطيب في منزلته و يساويه، ثمّ يتجاوزه فيفوقه، فإذا نفي استواء الخبيث و الطيّب كان ذلك أبلغ في نفي خيرية الخبيث من الطيّب.

و من هنا يظهر وجه تقديم الخبيث على الطيّب، فإنّ الكلام مسوق لبيان أنّ كثرة الخبيث لاتصيره خيرا من الطيّب، و إنّما يكون ذلك بارتفاع الخبيث من حضيض الرداءة و الخسّة إلى أوج الكرامة و العزّة حتّى يساوي الطيّب في مكانته

ثمّ يعلو عليه و لو قيل: لايستوي الطيّب و الخبيث كانت العناية الكلامية متعلقة ببيان أن الطيب لايكون أردى و أخس من الخبيث، و كان من الواجب حينئذٍ أن يذكر بعده أمر قلّة الطيّب مكان كثرة الخبيث، إلى أن قال: فقد تحصّل أنّ الكلام أعني: «لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ»، مثل مضروب لبيان أنّ قواعد الدين ركبت على صفات تكوينية في الأشياء من طيب أو خباثة مؤثّرة في سبيل السعادة و الشقاوة و الإنسانيتين، و لايؤثّر فيها قلّة و لاكثرة، فالطيّب طيّب و إن كان قليلا، و الخبيث خبيث و إن كان كثيرا.

فمن الواجب على كلّ ذي لبّ يميّز الخبيث من الطيّب، و يقضي بأنّ الطيّب خير من الخبيث، و أنّ من الواجب على الإنسان أن يجتهد في إسعاد حياته، و يختار الخير على الشرّ أن يتّقي الله ربّه بسلوك سبيله، و لايغترّ بانكباب الكثيرين من الناس على خبائث الأعمال و مهلكات الأخلاق و الأحوال، و لايصرفه الأهواء عن اتّباع الحقّ بتولية أو تهويل لعلّه يفلح بركوب السعادة الإنسانية.

قوله تعالى: «فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، تفريع على المثل المضروب في صدر الآية، و محصّل المعنى: أنّ التقوى لمّا كان متعلّقه الشرائع الإلهية التي تبتني هي أيضا على طيّبات و خبائث تكوينية في رعاية أمرها، سعادة الإنسان و فلاحه على ما لايرتاب في ذلك ذو لبّ و عقل، فيجب عليكم يا اُولي الألباب أن تتّقوا الله بالعمل بشرائعه لعلّكم تفلحون، انتهى.

و في كنز الدقائق: «قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ»: انتعاشا لهم أي: سبب انتعاشهم في أمر معاشهم و معادهم يلوذ به الخائف، و يأمن فيه الضعيف، و يربح فيه التجّار، و يتوجّه إليه الحجّاج و العمّار، أو ما يقوم به أمر دينهم و دنياهم. و في تفسير

العياشي: عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ»، قال: جعلها الله لدينهم و دنياهم. ... و «ذَٰلِكَ»: إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر، بحفظ حرمة الإحرام و غيره، إلى أن قال: «قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ»: حكم عامّ في نفي المساواة عند الله، بين الرديء من الأشخاص و الأعمال و الأموال و جيّدها رغب به في صالح العمل و الحلال من المال، انتهى.

و في تفسير الكرمي: و قيام هنا بمعنى قوام أي: إنّ الله سبحانه جعل هذا البيت مادّة رزق و اكتساب لمجاوريه و الوافدين عليه من سائر الأقطار، انتهى.

و في تفسير خلاصه منهج الصادقين: «جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ» گردانيد خداى تعالى كعبه را كه بيت الحرام و خانه محترم است «قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ»، آن چيزى كه قائم است به آن امور مردمان در دين به واسطه آن كسى كه قيام حجّ و مناسك بدو است، و در دنيا به جهت آنكه ايمنى از قتل و غارت در اوست. «وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ»، و گردانيده ماه حرام را نيز رابطهٔ قوام مهمّات مردمان، يعنى كارهاى حج در او سازند و آن ماه ذو الحجة است كه معظم مناسك حج در او گزارند، يا مراد جميع اشهر حرام است كه مردمان در آن از قتل و غارت ايمنند و آن چهار ماه است سه در پى يكديگر، و آن ذو القعدة و ذوالحجّة و محرّم، يكى منفرد و آن رجب است، إلى أن قال: «وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ»، و نيز گردانيد قربانى را و نيز حيواناتى كه ذوات القلايدند سبب قيام مردمان، چه مساكين بدان منتفع مى‌شوند. «ذَٰلِكَ» آنچه مذكور شد از اوامر به حفظ حرمت حرام و غير آن، «لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ»، براى آن است كه تا بدانند حق تعالى «يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا

فِي ٱلْأَرْضِ»، می‌داند آنچه در آسمان هاست و آنچه در زمین‌ها است، خلاصه معنی آن است که چون مطّلع شدید در حکمت بر تعیین کعبه برای قیام مردمان، و آنچه در حجّ است از طرق مناسك و کیفیت آن، هر آینه علی الاجمال دانستید که حق تعالی عالم است به آنچه در آسمان‌ها و زمین‌ها است از جواهر و اجسام و اعراض بر وجه کلي و جزئي، انتهی.

و الحاصل: أنّ جعل الحجّ و الحرمة لهذا البیت تکون للمنافع الدنیویة و الأُخرویة للوافدین و المجاورین، بل غیر المجاورین، و هذه المنافع قابلة للشهود کما نصّ علیه قوله تعالی: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾[1] لیزیلوا شعثهم بقصّ الشارب و الظفر و حلق الشعر و الغسل إذا أحلّوا، و لیوفوا نذورهم من البرّ في حجّهم و لیطّوّفوا طواف الزیادة و النساء أو الوداع أو ما یعمّها بالبیت العتیق، و قابلیتها للشهود توجب العلم بحکمة هذه الأحکام بل حکمة جمیع الأحکام الصادرة عن الله تعالی، کما قال جلّ جلاله: ذلك أي جعل الکعبة قیاماً للناس لتعلموا أنّ الله یعلم کلّ شيء فیعلم ما یصلحکم ممّا أمرکم به.

و في المواهب و قوله تعالی: «قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ»، الخطاب لأشرف خلقه باعتباره واسطة القبض، و لأنّه الرسول الکریم الذي اختیر لإبلاغ

---

١. الحج: ٢٩ ـ ٢٧.

رسالات ربّه أو لأنّ له مقام جمع الجمع، و قد أعطى من الكمالات ما لم يدركه الفهم الإنساني و لم يسعه اللسان الإمكاني أن يبيّنها فهو قد أدرك حقائق الأشياء و ملكوت السماوات و الأرض، فعرف الطيّب و الخبيث و ميّز بينهما بحسب ما أوتي من الإدراك المستقيم و العقل القيّوم، بل هو الطيّب بكلّ معنى الكلمة فهو الغاية و الواسطة و الرسول، فاجتمعت فيه العلل لأنّه محور النظام و علّة بقاء الأكوان، و لعلّه لأجل ما ذكرناه اختاره عزّوجلّ أن يقول للناس: هذه الحقيقة التي تبيّن الحقّ و ترشد إلى مصاديقه و تميّزه عن الباطل الخبيث الذي يلزم بحكم العقل اجتنابه و الابتعاد عنه، و الغاية التي تتوخّى من العمل بالحقّ، إلخ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: لاتكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتّى تسألوه عن تكاليف شاقّة إن أفتاكم بها و كلّفكم إيّاها وجبت و ربّما غمّكم ذلك و شقّ عليكم و ذلك نحو ما روي أنّ سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن قال: يا رسول الله أفي كلّ عام كتب الحجّ علينا؟ فأعرض عنه حتّى أعاد المسألة ثلاثا فقال: ويحك و ما يؤمنك أن أقول: نعم!! و الله لو قلت: نعم لوجبت، و لو وجبت ما استطعتم، و قد تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنّما هلك من هلك

قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، و إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه «وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْ» هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي «تُبْدَ لَكُم» تلك التكاليف التي تسؤكم و تؤمروا بتحمّلها، إلى أن قال: «قَدْ سَأَلَهَا» أي: قد سأل هذه المسألة قوم من الأوّلين «ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا» بمرجوعها أو بسببها «كَـٰفِرِينَ» و ذلك أنّ بني اسرائيل كانوا يسألون عن أنبيائهم عن أشياء، فإذا أمروها تركوها فهلكوا، انتهى.

و في الميزان: فيرجع مفاد قوله: «لَاتَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ»، «إلخ» (الآية) إلى نحو قولنا: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُوا» النبي ﷺ عن أشياء مسكوت عنها في الشريعة عفا الله عنها و لم يتعرّض لبيانها تخفيفا و تسهيلا فإنّها بحيث تبيّن لكم أن تسألوا عنها حين نزول القرآن، و تسوؤكم إن أبدئت لكم و بينت.

و قد تبيّن مما مرّ أوّلا: أنّ قوله تعالى: «وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُم» من تتمّة النهي كما عرفت، لالرفع النهي عن السؤال حين نزول القرآن، كما ربّما قيل.

و ثانياً: أنّ قوله تعالى: «عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا»، جملة مستقلة مسوقة لتعليل النهي عن السؤال فتفيد فائدة الوصف من غير أن يكون وصفا بحسب التركيب الكلامي.

و ثالثاً: وجه تذييل الكلام بقوله: «وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» مع كون الكلام مشتملا على النهي غير الملائم لصفتي المغفرة و الحلم، فالاسمان يعودان إلى مفاد العفو المذكور في قوله: «عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا»، دون النهي الموضوع في الآية، انتهى.

و في المواهب: و إبهام السؤال لبيان النهي عن كلّ سؤال يتعلّق بأمر يتعلّق الغرض بإخفائه لكون الاطّلاع على حقيقته يوقع الإنسان في المهلكة و الشقاء. إلى أن قال: إنّ السؤال النهي عنه هو الذي يوقع الإنسان في المساءة و الشدّة دون غيره، فلاتنافي بينه و بين قوله تعالى: «فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» فإنّه في السؤال الذي فيه النفع دينا أو دنيويا.

و في الآية المباركة إرشاد إلى أهل الإيمان بترك السؤال الذي لافائدة منه إلّا الحزازة و المساءة و غير ذلك.

إلى أن قال قوله تعالى: «وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ» تتمّة النهي السابق و قد ذكر عزّوجلّ فيها تلك الأشياء التي لها ارتباط بالأحكام الشرعية ممّا يكون الاستقصاء في الحثّ عنها. و الإصرار في التعرف عليها يوجب التشديد بل ربّما يوجب الكفر، و المعنى، «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ» النبي ﷺ عن أشياء، لايخلو انكشاف الحال فيها غالباً عن أن يكون مشتملا على ما يسوء الإنسان و يحزنه و إن كان المسؤول من الأحكام الشرعية مسكوت عنها ظاهرا و لم يتعرّض لبيانها تخفيفا و تسهيلا، فإنّها تبيّن لكم أن تسألوا عنها حين نزول القرآن الكريم.

و في تفسير الكرمي: ملخّص ما اُفيد في هذه الآية أنّ المكلّفين في ابتداء أيّة شريعة تفرض وظيفتهم التلّقي لمّا يدلى به إليهم لاالفحص عن أنّ هذا الشيء أو ذاك ما هو حكمه؟ فإنّهم يجلبون بذلك تشديدا على أنفسهم حيث لا داعي له فـ «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» بنبوّة محمّد ﷺ عند ما دعاكم إلى الله، قفوا من دعوة الله

موقف المنفّذ لإرادته لاالجالب لوظايفه، فـ«لَا تَسْئَلُواْ عَنْ أَشْيَآء» لم يوظّفها الله لكم و سؤالكم عنها يكون مثيرا لها، فإن أبديت لكم و ظهرت من غامض علم الله إلى منصة التوظيف ساءتكم بأنّها تكليف جديد اُضيف إلى تكاليف كانت، أمّا إذا سألتم عن حكم شرعي قد علمتم نزوله على الرسول و لكنّكم جهلتموه أو جهلتم وجهه و طريقته فإنّه يبدي لكم قطعا و لايسؤكم مساءة ما ذكرناه في التصوير السابق لأنّكم في السابق أنتم جلبتموه لأنفسكم، و في هذا التصوير كان بنفسه مجلوبا فلم يكن منكم استدعاء له، فمعنى: «حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَان» أنّ القرآن نزل بها قبل سؤالكم كوظائف مبتدأة مؤسّسة لامجلوبة عن طلب: «عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا»: أي: عن مبادرتكم إلى السؤال حيث لا داعى له أو عفا الله عن بوادركم التي تدفعكم إلى أن تضجروا النبيّ ﷺ بأسئلة تافهة فقد كانوا يزاحمونه ﷺ بالسؤال عمّا لاطائل تحته بأنّ أبي من هو؟ و أنّ مصيري من إقدامي هذا أيّ شيء يكون؟ و أنّ ناقتي أين ضلّت؟ و ما إلى ذلك من أسئلة جوفاء تنافي مقام السائل العاقل و رسالة السماء التي يراد بها ما هو أهمّ و أعظم من هذه التوافه، إلى أن قال: و في الخلاصة تفيد الآية أدبا عاليا في المجالسة و المدارسة، و أنّه يجب على الإنسان أن يزن سؤاله و كلامه فلايسأل عمّا لاحاجة له به، و أن لايطرح سؤاله بمطرح تعنّت مشفوع إمّا بتهكم، و إمّا بامتحان لازمه دك الطرف، لشيء سوى حبّ التفوّق عليه، و أن لايحلف بسؤاله لو كان محلّ حاجة له، فإنّ في ذلك مضايقة للمسؤول و خروجا عن حريم الأدب، و إن كل من ارتكب شيئا من ذلك أو كلّه فهو مخطئ و قد يكون مجرما معاقبا، انتهى.

و در تفسیر کاشف آمده «لَاتَسْئَلُوا» اشاره بدین موضوع دارد که برخی از صحابه در استفسار از اموری که روشن شدن آنها چندان ضرورتی نداشت اصرار می‌ورزیدند و چه بسا پاسخ دادن به آنها به ناراحتی سؤال کنندگان می‌انجامید. در روایتی آمده است مردی از پیامبر ﷺ پرسید پدرم کیست؟ پیامبر فرمود: پدرت فلانی است و دیگر پرسید: ای پیامبر خدا! پدرم کجاست؟ فرمود: در آتش.

سپس این آیه نازل شد، إلی أن قال : «وَإِن تَسْئَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُم»، درباره چیزهایی مپرسید مگر پس از آنکه قرآن درباره آنها نازل شود، و زمانی که نزول قرآن آغاز شد و موضوع هم به شرح و توضیح نیاز داشت و شما از پیامبر ﷺ سؤال کردید آنگاه مورد سؤال شما برایتان آشکار خواهد شد، انتهی.

و الحاصل، مطالبی را که خدا صلاح ندانسته از آنها ذکری کند سؤال در اطراف آنها پسندیده نیست، به خلاف مطالبی که خدا در مقام بیان و ابراز آنها برآمده که سؤال توضیحی در چنین موقعیتی اشکالی ندارد.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: البحيرة: الناقة التي إذا نتجت خمسة أبطن، فإن كان آخرها ذكرا بحروا اُذنها، أي: شقّوها و حرّموا ركوبها، و لاتطرد عن ماء و لامرعى و لو لقيها المعيي لم يركبها.

و السائبة: ما كانوا يسيبونه، كان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، و كان الرجل إذا أعتق عبدا قال: هو سائبة و لاعقل بينهما و لاميراث، و كانوا يسيبونها لطواغيتهم و لسدنة الأصنام، و الوصيلة في الغنم: كانت الشاة إذا ولدت اُنثى فهي لهم، و إذا ولدت ذكرا ذبحوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً أو اُنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لأجلها، و الحامي: هو الفحل إذا نتجت من صلبه عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلايركب و لايحمل عليه و لايمنع من ماء و لامرعى،

و معنى «مَا جَعَلَ ٱللَّهُ» ما شرع ذلك و لا أمر بالتبحير و لابالتسبيب و لاغير ذلك، ولكنّهم بتحريمهم ما حرّموا «يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ» يدّعون أنّ الله حرّمها، «وَأَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ» أنّ ذلك افتراء و كذب يعني: الاتّباع للذين يقلّدون في تحريمها رؤساءهم. و الواو في قوله: «أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ» واو الحال دخل عليه همزة الاستفهام التي للإنكار، و التقدير: أحسبهم ذلك و لو كان آباؤهم «لَايَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» و الاقتداء إنّما يصحّ بالعالم المهتدي و لايعرف ذلك إلّا بالدليل، انتهى.

و في الميزان: و هذه الأسماء و إن اختلفوا في تفسيرها إلّا أنّ من المحتمل قريبا أن يكون ذلك الاختلاف ناشئا من اختلاف سلائق الأقوام في سننهم، فإنّ

أمثال ذلك كثيرة في السنن الدائرة بين الأقوام الهمجية، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ»، إلى آخر الآية في حكاية دعوتهم إلى ما أنزل الله و إلى الرسول الذي شأنه البلاغ، فقط فالدعوة دعوة إلى الحقّ و هو الصدق الخالي عن الفرية، و العلم المبرّى من الجهل، فإنّ الآية السابقة تجمع الافتراء و عدم التعقل في جانبهم فلايبقى لما يدعون إليه ـ أعني: جانب الله سبحانه ـ إلّا الصدق و العلم.

لكنّهم ما دفعوه إلّا بالتقليد حيث قالوا: «حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ»، و التقليد و إن كان حقّا في بعض الأحيان و على بعض الشروط و هو رجوع الجاهل إلى العالم، و هو ممّا استقرّ عليه سير المجتمع الإنساني في جميع أحكام الحياة التي لايتيسّر فيها للإنسان أن يحصّل العلم بما يحتاج إلى سلوكه من الطريق الحيوي، لكنّ تقليد الجاهل في جهله بمعنى رجوع الجاهل إلى جاهل آخر مثله مذموم في سنّة العقلاء كما يذمّ رجوع العالم إلى عالم آخر بترك ما يستقلّ بعمله من نفسه و الأخذ بما يعلم غيره. و لذلك ردّه تعالى بقوله: «أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيْـا وَلَايَهْتَدُونَ»، و مفاده أنّ العقل ـ لو كان هناك عقل ـ لايبيح للإنسان الرجوع إلى من لاعلم عنده و لااهتداء فهذه سنّة الحياة لاتبيح سلوك طريق لاتؤمن مخاطره، و لايعلم وصفه لابالاستقلال و لاباتّباع من له به خبرة، انتهى.

و في تفسير الكرمي: و من هذا يعلم أنّ كلّ عادة و اتّخاذ يوجد أنّ في الدين الإسلامي بين أهله، و لامدرك يدلّ عليه فهو باطل، و ما أكثر ذلك بين العوام. و اهمّ من كلّ هذا و ذاك ما تدلس به السياسات الحاضرة القابعة بظاهرة الإسلام و الرامية منه إلى الكفر الصريح، من أنّ الإسلام دين الحريّة و توسيع نطاق الماديات بكلّ ما يوسّع أمر الاقتصاد و دين المساواة و ينفذون من هذه الأساطير إلى هذا التهتّك في التبرّج و الاستهتار في تناول المسكرات و الشهوات بعامة أنواعها و على غصب الناس أموالهم و حقوقهم و العبث بكراماتهم و الاستهزاء بما عليه فقهاء المسلمين و عظماؤهم الدينيون الواقعيون، كما يلمس ذلك جهارا في كافّة الممالك الإسلامية بدون استثناء، فإنّ ذلك كلّه من الافتراء على الله، مضافا إلى كونه مقولا عن غير تعقّل صحيح، و إنّما هو انحراف مع الشهوة و استجابة للكفرة المستعمرين، انتهى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

في جوامع الجامع: «عَلَيْكُمْ» من أسماء الأفعال، و معناه ألزموا إصلاح أنفسكم، و قوله: «لَايَضُرُّكُم» جواب الأمر و هو مجزوم و إنّما ضمّت الراء إتباعاً لضمّة الضاد و الأصل لايضررکم، إلى أن قال: و يجوز أن يكون خبرا مرفوعا، و المعنى لايضرّكم ضلال «مَّن ضَلَّ» عن دينكم «إِذَا» كنتم مهتدين، و

هو مثل قوله: ﴿فَلَاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، و كان المؤمنون يتأسّفون حسرة على أهل العناد من الكفّار يتمنّون دخولهم في الإسلام فخوطبوا بذلك، انتهى.

فالآية لاتنافي وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و لزوم دعوة الناس نحو الإسلام، بل هي تسلية للمجاهدين و الداعين نحو الإسلام إذا عملوا بالوظائف و لم يؤثر بالنسبة إليهم.

و في الميزان: و تسع الآية أن تحمل على الخطاب الاجتماعي، بأن يكون المخاطب بقوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» مجتمع المؤمنين فيكون المراد بقوله: «عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ» هو إصلاح المؤمنين مجتمعهم الإسلامي باتّخاذ صفة الاهتداء بالهداية الإلهية بأن يحتفظوا على معارفهم الدينية و الأعمال الصالحة و الشعائر الإسلامية العامّة، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[1]، و قد تقدّم في تفسيره أنّ المراد بهذا الاعتصام الاجتماعي الأخذ بالكتاب و السنّة. و يكون قوله: «لَايَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ» يراد به أنّهم في أمن من إضرار المجتمعات الضالّة غير الإسلامية، فليس من الواجب على المسلمين أن يبالغوا الجدّ في انتشار الإسلام بين الطوائف غير المسلمة أزيد من الدعوة المتعارفة. أو أنّه لايجوز لهم أن ينسلوا ممّا بأيديهم من الهدى من مشاهدة ما عليه المجتمعات الضالّة من الانهماك في الشهوات و التمتّع من مزايا العيش الباطلة، فإنّ الجميع مرجعهم إلى الله فينبّئهم بما كانوا يعملون، انتهى.

---

١. آل عمران: ١٠٣.

و قد تقدّم من الميزان آنفاً أيضا أنّ الدعوة إلى الله و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر من شؤون اشتغال المؤمن بنفسه و سلوكه سبيل ربّه، و كيف يمكن أن تنافي الآية، آيات الدعوة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أو تنسخها! و قد عدّهما الله سبحانه من مشخّصات هذا الدين و أسسه التي بنى عليها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1] وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2].

فعلى المؤمن أن يدعو إلى الله على بصيرة و أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر على سبيل أداء الفرائض الإلهية، و ليس عليه أن يجيش و يهلك نفسه حزنا أو يبالغ في الجدّ في تأثير ذلك في نفوس أهل الضلال فذلك موضوع عنه. و ممّا تقدّم ينقدح خطأ ما ذهب إليه جمع من مفسري السلف، من أنّ مفاد الآية هو الترخيص في ترك الدعوة الدينية و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و ذكروا أنّ الآية خاصّة تختصّ بزمان أو حال لايوجد فيه شرط الدعوة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و هو الأمن من الضرر، إلى أن قال: و لازم هذا المعنى أن يكون قوله: «لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ» كناية عن انتفاء التكليف، أي: لاتكليف عليكم في ذلك، و إلّا فتضرّر المجتمع الديني من شيوع الضلال من كفر أو فسق ممّا لايرتاب فيه ذو ريب. لكن ذلك معنى بعيد لايحتمله سياق

---

١. يوسف: ١٠٨.

٢. آل عمران: ١١٠.

الآية، فإنّ الآية لو أخذت مخصّصة لعمومات وجوب الدعوة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فلسانها ليس لسان التخصيص، و إن أخذت ناسخة فآيات الدعوة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر آبية من النسخ، إلى أن قال: أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن حذيفة: في قوله: «عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ» قال: إذا أمرتم بالمعروف و نهيتم عن المنكر. أقول: هو معنى معتدل مآله إلى ما ذكرناه، انتهى.

و في تفسير الكرمي: وصّى الله المؤمنين إذا وجدوا أنفسهم أمام ظلمة مستحكمة من الجهل و الشرك بملازمتهم لأيمانهم، و استقرارهم في نصابهم، و عدم اهتمامهم بالأغيار، بقوله: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ» أي: ألزموها و أثبتوا، فإنّكم إذا فعلتم كذلك لم يضرّبكم ضلال من ضلّ، إذا اهتديتم فإنّكم جميعا، المهتدى و الضال، ترجعون إلى الله «فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

المهتدى بمشيه على الطريقة الحقّة، و الضالّ بانحرافه و تحيّره، و قد يلوح من الآية الثانية عدم وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر على المؤمن بعد أن هدى نفسه و عمل على مقتضى إيمانه، لكنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ هذه الآية سيقت عقيب الآية الأُولى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

و هي مشعرة بلزوم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، لكن هذا الإلزام يتقلّص عن المكلّف إذا وجد في الطرف استنكافا واضحا و انكماشا إلى جانب

الباطل و اعتداداً بالنفس. و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر إنّما يلزمان حيث يحتمل التأثير، و أمّا مع القطع بعدمه فلامساغ له.

و قد روي في هذا الباب أنّ أبا ثعلبة سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية فقال: ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر حتّى إذا رأيت دنيا مؤثرة و شحّا مطاعا و هوى متّبعا و إعجاب كلّ ذي رأي برأيه، فعليك بخاصّة نفسك و ذر الناس و عواهم، انتهى.

فتحصّل: أنّ الآية المباركة لاتدلّ على العقود بالنسبة إلى الوظائف الاجتماعية، بل تدلّ بعد القيام بالوظائف الاجتماعية و عدم التأثير على أنّ الوظيفة هي أطرافية بالنسبة إلى الوظائف النفسية، و عليه فلانسخ بالنسبة إلى أدلّة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، كما لاتخصيص بالنسبة إليها، لدلالة الآيات و الروايات الكثيرة و المتعدّدة على وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. هذا مضافا إلى إباء الآيات و الروايات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر عن التخصيص، على أنّ قيام الحسين بن علي عليهما السلام ليس إلّا للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و هكذا دعوة الأنبياء و نبيّنا صلوات الله عليهم ليست إلّا لذلك. فمقتضى الجمع بين الأدلّة، هو بقاء وظيفة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. نعم إذا لم تكن مؤثّرة لايسقط الوظيفة بالنسبة إلى الأمور النفسية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

و في جوامع الجامع: «شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ» مبتدأ و «ٱثْنَانِ» خبره، و التقدير شهادة بينكم شهادة اثنين، و اُضيف المصدر الذي هو «شَهَٰدَةُ» إلى «بَيْنِ» فجعل الظرف اسما اتّساعا، و «إِذَا حَضَرَ» ظرف للشهادة و «حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ» بدل منه، و في إبداله منه دلالة على وجوب الوصيّة عند حضور الموت و ظهور أماراته لأنّ زمان حضور أسباب الموت جعل زمان الوصية، «إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ»، يعني: إن وقع الموت في السفر و لم يكن معكم رجلان عدلان «مِّنكُمْ» أي: من المسلمين فاستشهدوا على الوصية آخرين «مِنْ غَيْرِكُمْ» أي: من أهل الذمّة.

و روي: أنّ ثلاثة نفر خرجوا تجّارا من المدينة إلى الشام: تميم بن أوس و عديّ و هما نصرانيان و ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص، فمرض ابن أبي مارية و كتب كتاب وصيّة فيه ما معه من المتاع و دسّ كتابه في متاعه لم يخبر به صاحبيه، و أمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله و مات، ففتشا متاعه و أخذا إناءً من فضّة ثمّ رجعا بالمال إلى الورثة، فوجدوا الكتاب فطالبوهما بالإناء فجحدا،

فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فنزلت، قوله: «تَحْبِسُونَهُمَا» معناه: تقفونهما ليحلفا «مِن بَعْدِ ٱلصَّلَاٰةِ» أي: من بعد صلاة العصر وقت اجتماع الناس، و قيل: أو الظهر. و قيل: من بعد صلاة أهل دينهما يعني الذميين، «فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ» في شهادتهما و شككتم و اتهمتموهما، فقوله: «إِنِ ٱرْتَبْتُمْ» اعتراض بين القسم و المقسم عليه و هو قوله: «لَانَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا» أي: لانستبدل بتحريف شهادتنا ذا ثمن، فحذف المضاف في الموضعين، لأن من المعلوم أن المبيع يشترى دون ثمنه، و قيل: إن الضمير في «بِهِۦ» للقسم يعني: لانستبدل بالقسم بالله عوضا من الدنيا أي: لانحلف بالله كاذبين لأجل المال، «وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» الضمير في «كَانَ» للمقسم له أي: و لو كان من نقسم له قريبا منا و لانحابى في شهادتنا أحدا و لانكتم شهادة الله التي أمرنا الله بحفظها و ألزمنا أداءها، إلى أن قال: «إِنَّآ إِذًا» أي: إن فعلنا ذلك «لَّمِنَ ٱلْآثِمِينَ».

«فَإِنْ عُثِرَ» أي: «فَإِنْ» اطلع «عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا» أي: فعلا ما أوجب إثما و استوجبا أن يقال: إنهما من الآثمين بخيانتهما «فَـاخَرَانِ» أي: فشاهدان آخران «يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» الإثم.

و المعنى من الذين جنى عليهم و هم أهل الميت و عشيرته، و في الحديث: أنه لما عثر على خيانة الرجلين و وجد الإناء بمكة بعد أن استحلفهما رسول الله ﷺ عند المنبر حلف رجلان من ورثته أنّه إناء صاحبهما و أنّهما خانا و كذبا فدفع الإناء إليهما.

و «ٱلْأَوْلَيَٰنِ»: الأحقان بالشهادة لقرابتهما، و ارتفاعهما على أنها بدل من «ءَاخَرَانِ» أو من الضمير في «يَقُومَانِ» أو على «هما الأوليان» كأنه قيل: و من هما؟ فقيل: «ٱلْأَوْلَيَٰنِ»، و قُرئ الأولين على أنه وصف لـ«ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ» و معنى الأوّلية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها، و في هذا دلالة على جواز رد اليمين على المدعى، و قرئ: استحقّ عليهم الأوليان على البناء للفاعل، و معناه من الورثة الذين استحقّ عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجرّدوهما للقيام بالشهادة و يظهروا بهما كذب الكاذبين، «فَيُقْسِمَانِ» أي: يحلفان «بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ»، إلى أن قال: «أَحَقُّ» بالقبول «مِن شَهَٰدَتِهِمَا»، و قولهما، «وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ» و ما جاوزنا الحقّ فيما طلبناه من حقّنا، «ذَٰلِكَ» الذي تقدّم من بيان الحكم «أَدْنَىٰٓ» أي: أقرب إلى أن يأتي الشهداء على نحو تلك الحادثة «بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌ» أي: أو أقرب إلى أن يخافوا أن تكرّ أيمان شهود آخرين «بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ» فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في هذه القصّة فربّما لا يحلفون كاذبين و يتحفظون في الشهادة مخافة ردّ اليمين إلى المستحق عليهم، «وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ» أن تخونوا و تحلفوا كاذبين « وَٱسْمَعُواْ» سمع إجابة و قبول، انتهى.

و في الميزان: محصّل مضمون الآيتين أنّ أحدهم إذا كان على سفر فأراد أن يوصي فعليه أن يشهد حين الوصيّة شاهدين عدلين من المسلمين، و إن لم يجد فشاهدين آخرين من غير المسلمين من أهل الكتاب، فإن ارتاب أولياء الميّت في أمر الوصيّة يحبس الشاهدان بعد الصلاة فيقسمان بالله على صدقهما فيما يشهدان عليه و ترفع بذلك الخصومة، فإن اطّلعوا على أنّ الشاهدين كذبا في شهادتهما أو

خانا في الأمر، فيوقف شاهدان آخران مقام الشاهدين الأولين فيشهدان على خلافهما و يقسمان بالله على ذلك، إلى أن قال: و حضور الموت كناية عن حضور داعي الوصية، فإنّ الناس بحسب الطبع لايشتغلون بأمثال هذه الأُمور من غير حضور أمر يوجب الظنّ بالموت، إلى أن قال: فقوله: «أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» ترديد على سبيل الترتيب، أي: إن كان هناك نفر من المسلمين يستشهد اثنان منهم، و إن لم يكن إلّا من غير المسلمين يستشهد باثنين منهم، إلى أن قال: و قرينة المقام أعني: المناسبة بين الحكم و الموضوع بالذوق المتّخذ من كلامه تعالى، تدلّ على أنّ المراد من غير المسلمين أهل الكتاب خاصّة، لأنّ كلامه تعالى لايشرف المشركين بكرامة، انتهى.

و في التفسير الكرمي: و قوله تعالى: «ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ» يفيد لزوم أن يكون الشاهد مسلما عادلا حيث يمكن ذلك، و إلّا يمكن، و أغلب محتملاته كون الإنسان في سفر و رفقته غير مسلمين، أو في بلد غير إسلامي، فيكفي في شهداء الوصيّة أن يكونوا غير مسلمين، و بعد هذا فمفاد الآية يكون بهذا الترتيب: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ». و تخصيص المؤمنين بالذكر لأنّهم المتوجّهون لأوامرالله و تنفيذها إذ أردتم أن توصوا بما يلزمكم الأيصاء به أو يستحبّ عند ما يلوح لكم شبح الموت من أيّ داع كان، فالذي يتحمّل الشهادة على ذلك بينكم، رجلان مسلمان عادلان أو غير مسلمين إذا أعوز المسلمان العادلان و مظانّ الأعواز ضربكم في الأرض و حضور الأجل عندكم حينذاك و ضمير الجماعة في تحبسونهما على هذا المجرى الذي نحن بصدده يعود للمؤمنين الموصين، بمعنى أنّكم أيّها الموصون تثبيتاً لمفادّ الوصيّة توقفون الشاهدين اللذين تريدون أن

تحمّلوهما وصيّتكم من بعد الصلاة، أيّة صلاة كانت، لأنّها مظنّة صدق و ردع عن الانحراف و خوف من التبديل فيحلفان لكم أنّكم صرّحتم بما أردتم، و لم تترددوا فيما تريدون إيفائه و أنّهما لايبدّلان مفاد الوصيّة بأيّ ثمن يرضخ لهما و حتّى لو كان المشهود له قريبا منهما، بمعنى أنّ العواطف لاتميل بهما إلى جانب باطل و أنّهما لايكتمان شهادة تحمّلاها لله و أنّهما إذا غيّرا أو بدّلا كانا من الآثمين.

و يجوز أن يكون الضمير في «تَحْبِسُونَهُمَا» للقضاة الذين يترافع إليهم، لو حصل اختلاف بين الورثة و شهود الوصيّة، و يكون قوله: «تَحْبِسُونَهُمَا» ابتداء كلام. و عليه يكون معنى «إِنِ ٱرْتَبْتُمْ» إن حصل لكم يا معشر القضاة شك و تردّد ممّا أدّاه الشهداء، أمّا على المعنى الأوّل الذي اعتبرناه مفادا للآية فإن نافية لاشرطية، انتهى.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: «يَوْمَ يَجْمَعُ» ظرف لقوله: «لَايَهْدِى» أي: لايهديهم طريق الجنّة يومئذ كما يهدي غيرهم، أو يوم يجمع الله الرسل يكون كذا و كذا، أو نصب بـ «ٱذْكُرْ»، «مَاذَآ أُجِبْتُمْ» أي: أيّ إجابة أُجبتم؟ و هذا السؤال توبيخ لقومهم، و لذلك «قَالُواْ لَاعِلْمَ لَنَآ» و كلوا الأمر إلى علمه بسوء إجابتهم و لجؤوا إليه في الانتقام منهم، و قيل: معناه: أنت أعلم بحالهم منّا فعلمنا مغمور بعلمك و ساقط معه، لأنّك «عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ»، و قيل: معناه لاعلم لنا بما كان منهم بعدنا، إلى أن قال: «تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ» طفلا «وَكَهْلًا»، و «فِى ٱلْمَهْدِ» في موضع الحال و المعنى: تكلّمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك حين الطفولة و حين الكهولة الذي هو وقت بلوغ الأشدّ و الحدّ الذي يستنبأ فيه الأنبياء، «وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ» أي: الكتابة، «وَٱلْحِكْمَةَ» الكلام المحكم، و قيل: المراد بهما جنس الكتاب و الحكمة، و خصّ «ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ» ممّا تناولاه، «وَإِذْ تَخْلُقُ» أي: تصوّر و تقدّر «مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ» أي: هيئة مثل هيئة الطير الذي تريد «بِإِذْنِى» بأمري و تسهيلي، انتهى.

و لايخفى عليك أنّ تقدّم تذكار النعم المعنوية من التأييد بروح القدس و تعليم الكتب و الحكمة و التوراة و الإنجيل على المعجزات التي تدلّ على مقام الإثبات لأهميّة النعم المعنوية، و الله هو العالم.

ثمّ إنّ تكرار إذني لتذكار نفي الاستقلال في الأمور المذكورة، و مع نفي الاستقلال، لامجال لتوهّم الشرك كما تخيّله الوهابيون.

و في الميزان: و قوله: «وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ»، من الممكن أن يستفاد منه أنّه عليه السلام إنّما تلقّى علم ذلك كلّه بتلقّ واحد عن أمر إلهي واحد من غير تدريج و تعدّد، كما أنّه أيضا ظاهر جمع الجميع و تصديرها بإذ من غير تكرار لها.

و كذلك قوله: «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى»، ظاهر السياق من جهة عدم تكرار لفظة «إذ» أنّ خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص كانا متقارنين زمانا، و أنّ تذييل خلق الطير بذكر الإذن من غير أن يكتفي بالإذن المذكور في آخر الجملة إنّما هو لعظمة أمر الخلق بإفاضة الحياة، فتعلّقت العناية به، فاختصّ بذكر الإذن بعده من غير أن ينتظر فيه آخر الكلام، صونا لقلوب السامعين من أن يخطر فيها أنّ غيره تعالى يستقلّ دونه بإفاضة الحياة، أو تلبث فيها هذه الخطرة و لو لحظات يسيرة، و الله أعلم، انتهى.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـنَ»، أي: ألهمتهم، و قيل: ألقيت إليهم بالآيات التي أريتهم إيّاها، و قيل: أمرتهم على ألسنة الرسل، «مُسْلِمُونَ» أي: مخلصون، من «أسلم وجهه لله»، «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ»، معناه هل يفعل ذلك ربّك بمسألتك إيّاه ليكون علما على صدقك.

و قيل: معناه هل يقدر ربّك. و إنّما قالوه قبل أن تستحكم معرفتهم بالله و صفاته، و لذلك قال عيسى عليه السلام لهم: «ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ» و لاتشكوا في اقتداره و استطاعته و لاتقترحوا عليه ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـنَ»، الآية منطبقة على آيات سورة آل عمران بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

و من هنا يظهر أنّ هذا الإيمان الذي ذكره في الآية بقوله: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا»، الآية غير إيمانهم الأوّل به عليه السلام، فإنّ ظاهر قوله في آية آل عمران: «فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ» أنّه كان في أواخر أيّام دعوته، و قد كان الحواريّون و هم السابقون الأوّلون في الإيمان به ملازمين له.

---

١. آل عمران: ٥٢.

على أنّه ظاهر قوله في آية آل عمران: «قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» أنّ الدعوة إنّما سيقت لأخذ الميثاق على نصرة دين الله، لا أصل الإيمان بالله، و لذلك ختم الآية بقولهم: «وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»، و هو التسليم لأمر الله بإقامة دعوته و تحمّل الأذى في جنبه، و كلّ ذلك بعد أصل الإيمان بالله طبعا.

فتبيّن أنّ المراد بقوله: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ»، إلخ، قصة أخذ الميثاق من الحواريين، إلى أن قال: قوله تعالى: «إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ»، و أوجه ما يمكن أن يقال: هو أنّ الاستطاعة في الآية كناية عن اقتضاء المصلحة و وقوع الإذن كما أنّ الإمكان و القدرة و القوّة يكنّى بها عن ذلك، كما يقال: «لايقدر الملك أن يصغي إلى كلّ ذي حاجة»، بمعنى أنّ مصلحة الملك تمنعه من ذلك، و إلا فمطلق الإصغاء مقدور له. و يقال: «لايستطيع الغني أن يعطي كلّ سائل»، أي: مصلحة حفظ المال لاتقتضيه، و يقال: «لايمكن للعالم أن يبثّ كلّ ما يعلمه»، أي: يمنعه عن ذلك مصلحة الدين أو مصلحة الناس و النظام الدائر بينهم، و يقول أحدنا لصاحبه: «هل تستطيع أن تروح معنى إلى فلان»؟ و إنّما السؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة و المصلحة، لابحسب أصل القدرة على الذهاب، هذا، إلى أن قال: قوله تعالى: «قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» توبيخ منه عليه السلام لهم لما يشتمل ظاهر كلامهم من الاستفهام عن استطاعة ربّه على إنزال المائدة، فإنّ كلامهم مريب على أيّ حال. و أمّا على ما قدّمناه من أنّ الأصل في مؤاخذتهم الذي يترتّب عليه الوعيد الشديد في آخر الآيات، هو أنّهم سألوا آية حيث لاحاجة إليها

و اقترحوا بما في معنى العبث بآيات الله سبحانه، ثمّ تعبيرهم بما يتبادر من ظاهره كونهم كأنّهم لم يعتقدوا قلوبهم على القدرة الربوبية، فوجه توبيخه عليه السلام لهم بقوله: «ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» أظهر، قوله تعالى: «قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ» السياق ظاهر في أنّ قولهم: هذا عذر اعتذروا به للتخلّص من توبيخه عليه السلام و ما ذكروه ظاهر التعلق باقتراحهم الآية بنزول المائدة، إلى أن قال: فقد تحصّل أنّهم ـ فيما اعتذروا به ـ ضمّوا اُمورا جميلة مرضيّة إلى غرضهم الآخر الذي هو الأكل من المائدة السماوية ليحسموا به مادة الحزازة عن اقتراحهم الآية بعد مشاهدة الآيات الكافية، فأجابهم عيسى عليه السلام إلى مسألتهم بعد الإصرار، انتهى.

قال في خلاصة منهج الصادقين في قوله تعالى: «إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ»، قال المفسرون: إنّهم قالوا: هذا الكلام بعد استحكام المعرفة، و عليه، فمراد الحواريون من الاستطاعة هي الاستطاعة على الحكمة و الإرادة الإلهية، انتهى.

قال في تفسير الكرمي: ليس المراد بالوحي «إِلَى ٱلْحَوَارِيُّونَ» هو الوحي المعروف، بل ما هو من معناه و هو إقامة البرهان لهم بما يتّضح لديهم حقيّة الصانع للعالم و صدق رسله فيما ادّعوه و جاؤا به.

و حواريّ الإنسان ملازمه و الخصيص به، و من لازم حواريي الأنبياء أن لايتريّثوا «و لايبطئوا» في الاعتقاد بأنّ الله قادر على كلّ مقدور و من جملة ذلك إنزال مائدة من السماء عليهم، إلى أن قال: فقال لهم عيسى: خافوا الله و تأدّبوا أمامه من أمثال هذه الطلبات التي لايسألها إلّا اشباه الجهال «إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ»

بالله كما تدّعون فإنّ الإيمان به يستدعي منكم أمرين: الأوّل: الإذعان التامّ بقادريته على كلّ شيء، سواء فعل ذلك المقدور أم لم يفعله. الثاني: مزيد التأدّب أمامه و إيكال الأُمور إليه.

فقال الحواريون في جواب عيسى: إنّما طلبنا ما طلبنا لنأكل من هذه المائدة تبرّكا، «وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا» بسببها أزيد ممّا عليه نحن الآن، و نعلم قاطعين أن قد صدّقتنا فيما ادّعيت و دعوتنا إليه، و نكون على نزول هذه المائدة من السماء شاهدين على من لم يرها، انتهى.

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

و في جوامع الجامع: ثمّ سأل عيسى عليه السلام و أُجيب إلى ذلك ليلزموا الحجّة و يرسل عليهم العذاب إذا خالفوا، «ٱللَّهُمَّ» أصله يا الله، «رَبَّنَآ» نداء ثان، «تَكُونُ لَنَا عِيدًا» أي: يكون يوم نزولها عيدا و هو يوم الأحد، و من ثمّ اتّخذه النصارى عيدا، و قيل: العيد: السرور العائد و لذلك يقال: يوم عيد، أي: تكون لنا سرورا و فرحاً، «لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا » بدل من «لَنَا» بتكرير العامل، أي: لمن في زماننا من أهل ديننا و لمن يأتي بعدنا، إلى أن قال: «وَءَايَةً مِّنكَ» أي: و دلالة منك عظيمة الشأن

تدلّ على توحيدك و صحة نبوّة نبيّك، «فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ» أي: بعد إنزالها عليكم، «فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا» أي: تعذيبا.

«لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ» الضمير للمصدر، و لو اُريد ما يعذّب به لم يكن بدّ من الباء، و روي أنّ عيسى عليه السلام لبس صوفا و قال: «ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً» فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين و هم ينظرون إليها فبكى عيسى - عليه السلام - و قال: «اللّهمّ أجعلني من الشاكرين» و كشف المنديل و قال: «باسم الله خير الرازقين»، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس و لاشوك و عند رأسها ملح و عند ذنبها خلّ و حولها من ألوان البقول ما عدا الكراث «نوع من سير»، انتهى.

و في الميزان: « قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ».

خلط عليه السلام نفسه بهم في سؤال المائدة، و بدأ بنداء ربّه بلفظ عامّ فقال: «ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ» و قد كانوا قالوا له: «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» ليوافق النداء الدعاء، إلى أن قال: ثمّ ذكر عليه السلام عنوانا لهذه المائدة النازلة هو الغرض له لأصحابه من سؤال نزولها و هو أن تنزل فتكون عيدا له و لجميع اُمّته، ولم يكن الحواريون ذكروا فيما اقترحوه أنّهم يريدون عيدا يخصّون به لكنّه عليه السلام عنون ما سأله بعنوان عام و قلبه في قالب حسن ليخرج عن كون سؤالا للآية مع وجود آيات كبرى إلهية بين أيديهم و تحت مشاهدتهم، و يكون سؤالاً مرضيا عند الله غير مصادم لمقام العزّة و الكبرياء، فإنّ العيد من شأنه أن يجمع الكلمة، و يجدّد حياة الملّة، و ينشط نفوس العائدين، و يعلن كلّما عاد عظمة الدين. و لذلك قال: «عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا» أي: أوّل جماعتنا من الاُمّة و آخر من يلحق بهم - على ما يدلّ عليه

السياق ـ فإنّ العيد من العود و لايكون عيدا إلّا إذا عاد حينا بعد حين، و في الخلف بعد السلف من غير تحديد. و هذا العيد ممّا اختصّ به قوم عيسى عليه السلام كما اختصّوا بنوع هذه الآية النازلة على ما تقدّم بيانه، إلى أن قال: فانظر إلى أدبه عليه السلام البارع الجميل مع ربّه، و قس كلامه إلى كلامهم ـ و كلا الكلامين يؤمان نزول المائدة ـ تر عجبا فقد أخذ عليه السلام لفظ سؤالهم فأضاف و حذف، و قدّم و أخّر، و بدّل و حفظ حتّى عاد الكلام الذي ما كان ينبغي أن يوجّه به إلى حضرة العزّة و ساحة العظمة أجمل كلام يشتمل على أدب العبودية، فتدبّر في قيود كلامه عليه السلام تر عجبا،انتهى.

و في تفسير الكرمي في ذيل قوله تعالى: « قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ» و نزولا على رغبة الحواريّين « قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ»، و كلمة ربّنا تأكيد لكلمة «اللهم أَنزِلْ عَلَيْنَا»، كما طلبوا «مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا» مادّة فرح و اُنس فعلا و مستقبلا و علامة إعجاز و رزقا نسعد به «وَأَنتَ خَيْرُ» من يسعد أوليائه، فاستجاب لعيسى ربّه، قال: إلخ، انتهى.

و في كنز الدقائق: «قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ»: إجابة إلى سؤالكم، إلى أن قال: «فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا»: أي: تعذيبا و يجوز أن يجعل مفعولا به على السعة. «لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ»: الضمير للمصدر، أو «للعذاب» إن اُريد به ما يعذّب به، على حذف حرف الجرّ. «أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ»: أي: من عالمي زمانهم.

قيل: أو العالمين مطلقا فإنّهم مسخوا قردة و خنازير و لم يعذّب بمثل ذلك غيرهم، انتهى.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: المعنى «إِذْ» يقول «ٱللَّهُ» يوم القيامة: «يَٰعِيسَى» و هو استفهام يراد به التقريع لمن ادّعى ذلك عليه من النصارى و استعظام لذلك القول، «قَالَ سُبْحَٰنَكَ» من أن يكون لك شريك «مَا يَكُونُ لِىٓ» ما ينبغي لي «أَنْ أَقُولَ» قولا لايحقّ لي أن أقوله و أنا عبد مثلهم، و إنّما تحقّ العبادة لك وحدك، «تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى» أي: في قلبي، و المعنى تعلم معلومي و لا أعلم معلومك، و إنّما قال: «فِى نَفْسِكَ» سلوكا بالكلام طريق المشاكلة، «إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ» تقرير للجملتين معا، لأنّ ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب، و لاينتهي علم أحد إلى ما يعلمه سبحانه.

«أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ» هي أن المفسّرة، و معناه: ما أمرتهم إلّا بما أمرتني به، «وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» أي: رقيبا كالشاهد على المشهود عليه، أمنعهم من أن يقولوا ذلك و يعتقدوه.

«فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلّة و أرسلت إليهم من الرسل، «إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ» الذين عرفتهم عاصين مكذّبين لرسلك منكرين بيّناتك، «إِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ» القادر على العقاب و الثواب، «ٱلْحَكِيمُ» الذي لايفعلهما إلّا عن حكمة و صواب.

و المعنى: إن غفرت لهم مع كفرهم، فالمغفرة حسنة في العقل لكلّ مجرم، و كلّما كان الجرم أعظم فالعفو عنه أحسن، انتهى.

و في الميزان: «وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ». (الآية) مشافعة الله رسوله عيسى بن مريم في أمر ما قالته النصارى في حقّه، و كان الغرض من سرد الآيات ذكر ما اعترف به عليه السلام و حكاه عن نفسه في حياته الدنيا: أنّه لم يكن من حقّه أن يدّعي لنفسه ما ليس فقد كان بعين الله التي لاتنام و لاتزيغ و أنّه لم يتعدّ ما حدّه الله سبحانه له فلم يقل إلّا ما أمر أن يقول ذلك، و اشتغل بالعمل بما كلّفه الله أن يشتغل به و هو أمر الشهادة، و قد صدقه الله تعالى فيما ذكره من حقّ الربوبية و العبودية.

و بهذا تنطبق الآيات على الغرض النازل لأجله السورة، و هو بيان الحقّ المجعول لله على عباده أن يفوا بالعهد الذي عقدوه و أن لاينقضوا الميثاق، فليس لهم أن يسترسلوا كيفما أرادوا و أن يرتعوا رغداً حيث شاؤوا، فلم يملكوا هذا النوع من الحقّ من قبل ربّهم، و لا أنّهم قادرون على ذلك من حيال أنفسهم، و لله

ملك السماوات و الأرض و ما فيهن و هو على كلّ شيء قدير، و بذلك تختتم السورة. قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ، ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ» «إِذْ» ظرف متعلق بمحذوف يدل عليه المقام. و المراد به يوم القيامة لقوله تعالى فيها: «قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ» و قول عيسى عليه السلام فيها: «وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ»، إلى أن قال: و قد استعمل لفظ «مِن دُونِ ٱللَّهِ» كثيراً في القرآن في معنى الإشراك دون الاستقلال، بمعنى أنّ المراد من اتّخاذ إله أو إلهين و آلهة من دون الله هو أن يتّخذ غير الله شريكا لله سبحانه في الُوهيته لا أن يتّخذ غير الله إلها و تنفي الُوهية الله سبحانه، فإنّ ذلك من لغو القول الذي لايرجع إلى محصّل فإنّ الذي أثبته حينئذٍ يكون هو الإله سبحانه و ينفي غيره، و يعود النزاع إلى بعض الأوصاف التي أثبتها فمثلا: لو قال قائل: «إنّ الإله هو المسيح و نفى إله المسيح، عاد مفاد كلامه إلى إثبات الإله تعالى و توصيفه بصفات المسيح البشرية، و لو قال قائل: إن الأصنام أو أرباب الأصنام آلهة و نفى الله تعالى و تقدّس، فإنّه يقول: بأنّ للعالم إلها، فقد أثبت الله سبحانه، لكنّه نعته بنعت الكثرة و التعدّد فقد جعل للّه شركاء، أو يقول كما يقوله النصارى: إنّ الله ثالث ثلاثة، أي: و احد هو ثلاث و ثلاث هو واحد.

و من قال: إنّ مبدأ العالم هو الدهر أو الطبيعة و نفى أن يكون للعالم إله تعالى عن ذلك فقد أثبت للعالم صانعا و هو الله عزّ اسمه لكنّه نعته بنعوت القصور و النقص و الإمكان.

و من نفى أن يكون لهذا النظام العجيب مبدأ أصلا و نفى العليّة و التأثير على الرغم من صريح ما تقضي به فطرته، فقد أثبت عالما موجودا ثابتا لايقبل النفي و الانعدام من رأس، أي: هو واجب الثبوت و حافظ ثبوته و وجوده إما نفسه و ليس لطروّ الزوال و التغير إلى أجزائه، و إما غيره فهو الله تبارك و تعالى، و له نعوت كماله. فتبيّن أنّ الله سبحانه لايقبل النفي أصلا إلّا بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى معقول.

و الملاك في ذلك كلّه أنّ الإنسان إنّما يثبت الإله تعالى من جهة الحاجة العامّة في العالم إلى من يقيم أود وجوده و يدبّر أمر نظامه ثمّ يثبت خصوصيات وجوده فما أثبته من شيء لسدّ هذه الخلة و رفع تلك الحاجة فهو الله سبحانه، ثمّ إذا أثبت إلها غيره أو أثبت كثرة فإمّا أن يكون قد أخطأ في تشخيص صفاته و ألحد في أسمائه، أو يثبت له شريكا أو شركاء تعالى عن ذلك، و أمّا نفيه و إثبات غيره فلامعنى له. فظهر أنّ معنى قوله: «إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ» شريكين لله هما من غيره، إلى أن قال في ذيل قوله: «قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» إلى آخر الآية، إلى أن قال: فبدأ بتسبيحه تعالى لمّا فاجأه أن سمع ذكر ما لايليق نسبته إلى ساحة الجلال و العظمة و هو اتّخاذ الناس إلهين من دون الله شريكين له سبحانه فمن أدب العبودية أن يسبّح العبد ربّه إذا سمع ما لاينبغي أن يسمع فيه تعالى أو ما يخطر بالبال تصوّر ذلك، و عليه جرى التأديب الإلهي في كلامه كقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾[1]، إلى أن قال: ثمّ عاد إلى نفي ما استفهم عن انتسابه إليه، و هو أن يكون قد قال الناس: اتّخذوني و أمّي إلهين من

---

١. الأنبياء: ٢٦.

دون الله، و لم ينفه بنفسه، بل بنفي سببه مبالغة في التنزيه، فلو قال: «لم أقل ذلك أو لم أفعل» لكان فيه إيماء إلى إمكان وقوعه منه، لكنّه لم يفعل، لكن إذا نفاه بنفي سببه فقال: «مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» كان ذلك نفيا لما يتوقّف عليه ذلك القول، و هو أن يكون له أن يقول ذلك حقّا، فنفي هذا الحقّ نفي ما يتفرّع عليه بنحو أبلغ، نظير ما إذا قال المولى لعبده: لم فعلت ما لم آمرك أن تفعله؟ فإن أجاب العبد بقوله: «لم أفعل» كان نفيا لما هو في مظنّة الوقوع، و إن قال: «أنا أعجز من ذلك» كان نفيا بنفي السبب و هو القدرة، و إنكاراً لأصل إمكانه فضلا عن الوقوع، إلى أن قال: و قوله عليه السلام: «إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ» نفي آخر للقول المستفهم عنه، لانفيا لنفسه بنفسه، بل بنفي لازمه، فإنّ لازم وقوع هذا القول أن يعلم به الله لأنّه الذي لايخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء و هو القائم على كلّ نفس بما كسبت، و المحيط بكلّ شيء، إلى أن قال: ثمّ أشار بقوله: «تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ» ليكون تنزيها لعلمه تعالى عن مخالطة الجهل إيّاه و هو و إن كان ثناء أيضا في نفسه لكنّه غير مقصود، لأنّ المقام ليس بمقام الثناء، بل مقام التبرّي عن انتساب ما نسب إليه.

فقوله عليه السلام: «تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي» توضيح لنفوذ العلم الذي ذكره في قوله: «إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ»، و بيان أنّ علمه تعالى بأعمالنا و هو الملك الحقّ يومئذ ليس من قبيل علم الملوك منّا بأحوال رعيته بارتفاع أخبار المملكة إليه ليعلم بشيء و يجهل بشيء، و يستحضر حال بعض و يغفل عن حال بعض، بل هو سبحانه لطيف خبير بكلّ شيء، و منها نفس عيسى بن مريم بخصوصه.

و مع ذلك لم يستوف حقّ البيان في وصف علمه تعالى، فإنّه سبحانه يعلم كلّ شيء، لاكعلم أحدنا بحال الآخر و علم الآخر بحاله، بل يعلم ما يعلم بالإحاطة به من غير أن يحيط به شيء و لايحيطون به علما، فهو تعالى إله غير محدود و كلّ من سواه محدود مقدّر لايتعدّى طور نفسه المحدود، و لذلك ضمّ عليه السلام إلى الجملة جملة اُخرى فقال: «تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ»، إلى أن قال: في ذيله قوله تعالى: «إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ» لما اتّضح بما أقام عليه السلام من الحجّة أن لم يكن له من الوظيفة بالنسبة إلى الناس إلّا أداء الرسالة و القيام بأمر الشهادة، و أنّه لم يشتغل فيهم إلّا بذلك و لم يتعدّه إلى ما ليس له بحقّ فهو غير مسؤول عما تفوهوا به من كلمة الكفر، بان أنّه عليه السلام بمعزل عن الحكم الإلهي المتعلق بهم فيما بينهم و بين ربّهم، انتهى.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: قرئ: «هَٰذَا يَوْمُ» بالرفع الإضافة، و بالنصب: إمّا على أنّه ظرف لـ «قَالَ»، و إمّا على أنّ «هَٰذَا» مبتدأ و الظرف خبر، و المعنى: هذا أي: الذي ذكرناه من كلام عيسى واقع يوم «يَنفَعُ»، و لايجوز أن يكون فتحا كقوله تعالى: «يَوْمَ لَاتَمْلِكُ» لأنّه مضاف إلى متمكن، و المعنى: «يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ» ما صدقوا فيه في دار التكليف، انتهى.

و في الميزان: تقرير لصدق عيسى بن مريم عليه السلام على طريق التكنية، فإنّه لم يصرّح بشخصه و إنّما المقام هو الذي يفيد ذلك. إلى أن قال: فقوله: «رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ» يدلّ على أنّ الله يرضى عن أنفسهم، و من المعلوم: أنّ الرضا لايتعلّق بأنفسهم ما لم يحصل غرضه جلّ ذكره من خلقهم، و قد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فالعبودية هو الغرض الإلهي من خلق الإنسان، فالله سبحانه إنّما يرضى عن نفس عبده إذا كان مثالا للعبودية، أي: أن يكون نفسه نفس عبدالله الذي هو ربّ كلّ شيء، فلايرى نفسه و لاشيئا غيره إلّا مملوكا لله خاضعا لربوبيّته لايئوب إلّا إلى ربّه و لايرجع إلّا إليه، كما قال تعالى في سليمان و أيّوب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ و هذا هو الرضا عنه.

و هذا من مقدمات العبودية، و لازمه طهارة النفس عن الكفر بمراتبه و عن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[2]، و قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[3]. و من آثار هذا المقام أنّ العبودية إذا تمكنت من نفس العبد و رأى ما يقع عليه بصره و تبلغه بصيرته مملوكا لله خاضعا لأمره فإنّه يرضى عن الله، فإنّه يجد أنّ كلّ ما آتاه الله فإنّما آتاه من فضله من غير أن يتحتّم عليه فهو جود و نعمة، و أنّ ما منعه فإنّما منعه عن حكمة على أنّ الله سبحانه يذكر عنهم و هم في الجنّة بقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾[4]، و من

---

١. الذاريات: ٥٦.

٢. الزمر: ٧.

٣. التوبة: ٩٦.

٤. النحل: ٣١.

٥. الفرقان: ١٦.

المعلوم: أنّ الإنسان إذا وجد كلّ ما يشاؤه لم يكن له إلّا أن يرضى. و هذا غاية السعادة الإنسانية بما هو عبد، و لذلك ختم الكلام بقوله: «ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ»، إلى أن قال قوله تعالى: «لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ»، ـ الملك ـ بالكسر ـ سلطة خاصّة على رقبة الأشياء و أثره نفوذ الإرادة فيما يقدر عليه المالك من التصرّف فيها، و الملك ـ بالضمّ ـ سلطة خاصّة على النظام الموجود بين الأشياء و أثره نفوذ الإرادة فيما يقدر عليه، و بعبارة ساذجة: الملك ـ بالكسر ـ متعلّق بالفرد، و الملك ـ بالضم ـ متعلّق بالجماعة.

و حيث كان الملك في نفوذ الإرادة بالفعل مقيّداً أو متقوّما بالقدرة فإذا تمّت القدرة و أطلقت كان الملك ملكا مطلقا غير مقيّد بشيء دون شيء و حال دون حال، و لبيان هذه النكتة عقّب تعالى قوله: «لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ» بقوله: «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

و اختتمت السورة بهذه الآية الدالة على الملك المطلق، و المناسبة ظاهرة، فإنّ غرض السورة هو حثّ العباد و ترغيبهم على الوفاء بالعهود و المواثيق المأخوذة عليهم من جانب ربّهم، و هو الملك على الإطلاق فلايبقى لهم إلّا أنّهم عباد مملوكون على الإطلاق ليس لهم فيما يأمرهم و ينهاهم عنه إلا السمع و الطاعة، و لافيما يأخذ منهم من العهود و المواثيق إلّا الوفاء بها من غير نقض، انتهى.

سورة

الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

الحمد ضد اللوم و هو لايكون إلا على الفعل الاختياري الحسن سواء كان إحسانا للحامد أم لم يكن.

و الشكر مقابل الكفران و هو لايكون إلا الإنعام و الإحسان، و المدح يقابل الذم و لايعتبر أن يكون على الفعل الاختياري فضلا عن كونه إحسانا. و الألف و اللام في كلمة الحمد للجنس إذ لاعهد، و اللام في «لِلَّهِ» يفيد الاختصاص، و كلمة الله علم للذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال. و كيف كان، جنس الحمد يشمل جميع أنواع الحمد.

و في تفسير البرهان: و قد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: فقد أبي بغلة له، فقال: إن ردّها الله عليّ لأحمدنه بمحامد يرضاها، فما لبث أن أُتي بها بسرجها و لجامها، فلما استوى [عليها] و ضمّ إليه ثيابه، رفع رأسه إلى السماء و قال: الحمدلله، و لم يزد، ثمّ قال: ما تركت و لاأبقيت شيئا جعلت جميع أنواع المحامد لله عزّوجلّ، فما من حمد إلا و هو داخل فيما قلت. انتهى.

و في دعاء الافتتاح: الحمدلله بجميع محامده كلّها على جميع نعمه كلّها.

ثمّ إن الكمال الأول لكلّ ممكن إنّما هو وجوده و هو فعل الله و هو مبدعه و موجده، و أمّا الكمال الثاني هي الأُمور التي توجب الفضل و الميز فما كان منه خارجا عن اختيار المخلوق فهو أيضا من أفعال الله تعالى بلاريب كما في نحو النباتات.

و قدرة الإنسان على بيان مقاصده و ما كان منه صادرا من المخلوقين باختيارهم فهي و إن كانت اختيارية إلّا أنها منتهية إلى الله سبحانه فإنه الموفق للصواب و الهادي إلى الرشاد. و قد ورد: أن الله أولى بحسنات العبد منه.

وفي جوامع الجامع: «وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ» أي: أنشأهما و أحدثهما، و الفرق بين الخلق و الجعل أن الخلق فيه معنى التقدير و الجعل فيه معنى التصيير كإنشاء شيء من شيء أو تصيير شيء شيئاً أو نقله من مكان إلى مكان، و من ذلك: «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» و «وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ» و «وَجَعَلْنَٰكُم أَزْوَٰجًا» و المعنى أنه «خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ» و ما اشتملا عليه من أجناس المخلوقات و أنشأ الليل و النهار و ما لايقدر عليه سواه، «ثُمَّ» إنّهم «يَعْدِلُونَ» به ما لايقدر على

شيء منه، و هذا استبعاد لفعلهم، و كذلك «ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ» استبعاد لأن يمتروا فيه بعد أن ثبت أنه محييهم و مميتهم و باعثهم، و قوله: «ثمّ قَضَىٰ أَجَلًا» معناه كتب و قدر أجلا يعني أجل الموت، «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ» أجل القيامة، و قيل: الأجل الأول ما بين أن يُخلق إلى أن يموت و الثاني ما بين الموت و البعث، انتهى.

و في كنز الدقائق: قوله: «ثمّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» عطف على قوله: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد «ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» فيكفرون نعمته، و يكون «بِرَبِّهِمْ» للتنبيه على أنه خلق هذه الأشياء أسبابا لتكونهم و تربّيهم، فمن حقه أن يحمد عليها و لايكفر، أو على قوله: «خَلَقَ» على معنى: أنه خلق ما لايقدر عليه أحد سواه متعلّقه يعدلون ثمّ هم يعدلون به ما لايقدر على شيء منه، و معنى «ثُمَّ» استبعاد عدولهم بعد هذا البيان، و الباء على الأول متعلق بـ «كَفَرُواْ» و صلة «يَعْدِلُونَ» محذوفة، أي: يعدلون عنه، ليقع الإنكار على نفس الفعل، و على الثاني متعلقة بـ «يَعْدِلُونَ» و المعنى: أن الكفّار يعدلون بربهم الأوثان أي: يسوّونها به، إلى أن قال: بعد نقل بعض الروايات من الكتب المعتبرة: و في كتاب التوحيد خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها :فمن ساوى ربنا بشيء فقد عدل به، و العادل به الكافر بما تنزلت به محكمات آياته و نطقت به شواهد حجج بيناته لأنه الله الذي لم يتناه في العقول فيكون في مهبّ فكرها مكيفا و في حواصل رويّات همم النفوس محدودا مصرفا المنشئ أصناف الأشياء بلارويّة احتاج إليها و لاقريحة غريزة أضمر عليها و لاتجربة أفادها من مرّ حوادث الدهور و لاشريك أعانه على ابتداع عجائب

الأُمور، و فيها «أي: و في الخطبة المذكورة» أيضا: كذب العادلون بالله إذ شبهوه بمثل أصنامهم و حلّوه حلية المخلوقين بأوهامهم، الحديث.

إلى أن قال: «ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا»: كتب غير مسمّى، يمحوه و يثبت غيره للصدقة و الدعاء و صلة الرحم و غيرها و فيه البداء. «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ»: لايتقدم و لايتأخر، و هو المحتوم، و الأول يسمى موقوفا و قد أُطلق في بعض الأخبار المسمى في مقابل المحتوم عليه، و سيأتي، إلى أن قال: «ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ»: استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم و خالق أُصولهم و محييهم «مجيئهم» إلى آجالهم فإنّ مَن قدر على خلق المواد و جمعها و إبداع الحياة فيها و إبقائها ما شاء، كان أقدر على جمع تلك المواد و إحيائها ثانيا، فالآية الأُولى دليل التوحيد، و الثانية دليل البعث، و الامتراء: الشك،و أصله، المري و هو استخراج اللبن من الضرع، إلى أن قال :قوله «وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ»، انتهى.

كأنه قيل: و هو المعبود فيهما أو المتوحد بالإلهية فيهما، و على هذا فقوله: «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ» تقرير له لأن من استوى في علمه السر و العلانية هو الله وحده.

و في الميزان: قوله تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ» افتتح بالثناء على الله و هو كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد، و ذلك بتضمين الثناء ما هو محصل غرض السورة ليتوسل بذلك إلى الاحتجاج عليه تفصيلا، و تضمينه العجب منهم و لومهم على أن عدلوا به غيره و

الامتراء في وحدته ليكون كالتمهيد على ما سيورد من جمل الوعظ و الإنذار و التخويف.

و قد أشار في هذا الثناء الموضوع في الآيات الثلاث إلى جمل ما تعتمد عليه الدعوة الدينية في المعارف الحقيقية التي هي بمنزلة المادة للشريعة، و تنحل إلى نظامات ثلاث:

نظام الكون العام و هو الذي تشير إليه الآية الأُولى، و نظام الإنسان بحسب وجوده، و هو الذي تشتمل عليه الآية الثانية، و نظام العمل الإنساني و هو الذي تؤمئ إليه الآية الثالثة.

فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث: هو الثناء عليه تعالى بما خلق العالم الكبير الذي يعيش فيه الإنسان، و بما خلق عالماً صغيرا هو وجود الإنسان المحدود من حيث ابتدائه بالطين و من حيث انتهائه بالأجل المقضيّ، و بما علم سرّ الإنسان و جهره و ما تكسبه نفسه. و ما في الآية الثالثة: «وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ» بمنزلة الإيضاح لمضمون الآيتين السابقتين، و التمهيد لبيان علمه بسرّ الإنسان و جهره و ما تكسبه نفسه. فقوله: «خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ» إشارة إلى نظام الكون العام الذي عليه تدبّر الأشياء على كثرتها و تفرقها فما عالمنا في نظامه الجاري المحكم إلا عالم الأرض الذي يحيط به عالم السماوات على سعتها ثمّ يتصرف بها بالنور و الظلمات الذين عليهما يدور رحى العالم المشهود في تحوله و تكامله فلايزال يتولد شيء من شيء، و يتقلب شيء إلى شيء، و يظهر واحد و يخفى آخر، و يتكون جديد و يفسد قديم، و

ينتظم من تلاقي هذه الحركات المتنوعة على شتاتها الحركة العالمية الكبرى التي تحمل أثقال الأشياء، و تسير بها إلى مستقرها.

و الجعل في قوله: «وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ»، إلخ، بمعنى الخلق غير أن الخلق لما كان مأخوذاً في الأصل من خلق الثوب كان التركيب من أجزاء شتى مأخوذاً في معناه بخلاف الجعل، و لعلّ هذا هو السبب في تخصيص الخلق بالسماوات و الأرض لما فيها من التركيب بخلاف الظلمة و النور، و لذا خصّا باستعمال الجعل. و الله أعلم.

و قد أتى بالظلمات بصيغة الجمع دون النور، و لعلّه لكون الظلمة متحققة بالقياس إلى النور فإنها عدم النور فيما من شأنه أن يتنور فتتكثر بحسب مراتب قربه من النور و بعده، بخلاف النور فإنه أمر وجودي لايتحقق بمقايسته إلى الظلمة التي هي عدمية، و تكثيره تصورا بحسب قياسه التصوري إلى الظلمة لايوجب تعدده و تكثره حقيقة.

إلى أن قال: قوله تعالى: «هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثمّ قَضَىٰٓ أَجَلًا» يشير إلى خلقة العالم الإنساني الصغير بعد الإشارة إلى خلق العالم الكبير فيبيّن أن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان و دبّر أمره بضرب الأجل لبقائه الدنيوي ظاهرا فهو محدود الوجود بين الطين الذي بدأ منه خلق نوعه و إن كان بقاء نسله جاريا على سنة الازدواج و الوقاع كما قال الله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[1].

---

١. السجدة: ٨.

و بين الأجل المقضي الذي يقارن الموت كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثمّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[١].

و من الممكن أن يراد بالأجل ما يقارن الرجوع إلى الله سبحانه بالبعث فإن القرآن الكريم كأنه يعدّ الحياة البرزخية من الدنيا كما يفيده ظاهر قوله تعالى:﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢]، إلى أن قال: و قد أبهم أمر الأجل بإتيانه منكرا في قوله: «ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا» للدلالة على كونه مجهولا للإنسان لاسبيل له إلى المعرفة به بالتوسل إلى العلوم العادية.

قوله تعالى: «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ» تسمية الأجل تعيينه فإن العادة جرت في العهود و الديون و نحو ذلك بذكر الأجل و هو المدة المضروبة أو آخر المدة باسمه، و هو الأجل المسمى، قال الله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾[٣]. إلى أن قال: قال الله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾[٤] و هو الأجل بمعنى تمام المدة المضروبة.

و الظاهر أن الأجل بمعنى آخر المدة فرع الأجل بمعنى تمام المدة استعمالا أي: إنه استعمل كثيرا «الأجل المقضي» ثمّ حذف الوصف و اكتفي بالموصوف فأفاد الأجل معنى الأجل المقتضي، إلى أن قال: و كيف كان فظاهر كلامه تعالى

---

١. العنكبوت: ٥٧

٢. المؤمنون: ١١٤ ـ ١١٢.

٣. البقرة: ٢٨٢.

٤. القصص: ٢٨.

أن المراد بالأجل و الأجل المسمّى هو آخر مدة الحياة لاتمام المدة كما يفيده قوله: «فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ» الآية. فتبين بذلك أن الأجل أجلان: الأجل على إبهامه، و الأجل المسمى عند الله تعالى. و هذا هو الذي لايقع فيه تغيّر لمكان تقييده بقوله: «عِندَهُۥ» و قد قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[1] و هو الأجل المحتوم الذي لايتغير و لايتبدل قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]، إلى أن قال: و التدبر في الآيات السابقة منضمة إلى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[3] (و عن أبي جعفر عليه السلام: صلة الأرحام تزكّي الأعمال و تنمي الأموال و تدفع البلوى و تيّسر الحساب و تنسئ في الأجل)[4]. ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[5]. يفيد أن الأجل المسمى هوالذي وضع في اُم الكتاب، و غير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسميه بلوح المحو و الإثبات، و سيأتي إن شاء الله تعالى أن اُم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابتة في العين أي: الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب العامة التي لاتتخلف عن تأثيرها، و لوح المحو و الإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب الناقصة التي ربما نسميها بالمقتضيات التي يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ» الآيتان السابقتان تذكران الخلق و التدبير في العوالم عامة و في الإنسان خاصة، و

---

١. النحل: ٩٦.

٢. يونس: ٤٩.

٣. الرعد: ٣٨.

٤. الكافي ٢: ١٥٠.

٥. الرعد: ٣٩.

يكفي ذلك في التنبّه على أن الله سبحانه هو الإله الواحد الذي لاشريك له في خلقه و تدبيره.

لكنهم مع ذلك أثبتوا آلهة أُخرى و شفعاء مختلفة لوجوه التدبير المختلفة كإله الحياة و إله الرزق و إله البرّ و إله البحر و غير ذلك، و كذا للأنواع و الأقوام و الاُمم المتشتة كإله السماء و إله هذه الطائفة و إله تلك الطائفة فنفى ذلك بقوله: «وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ فِي ٱلْأَرْضِ»، إلى أن قال: قوله: «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ» السر و الجهر متقابلان و هما وصفان للأعمال، فسرّهم ما عملوه سرّا و جهرهم ما عملوه جهراً من غير ستر.

و أما ما يكسبون فهو الحال النفساني الذي يكسبه الإنسان بعمله السري و الجهري من حسنة أو سيئة فالسر و الجهر المذكوران ـ كما عرفت ـ وصفان صوريان لمتون الأعمال الخارجية، و ما يكسبونه حال روحي معنوي قائم بالنفوس فهما مختلفان بالصورية و المعنوية، إلى أن قال: و الآية كالتمهيد لما ستتعرض له من أمر الرسالة و المعاد، انتهى.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

في جوامع الجامع: «مِّنْ» في قوله: «مِّنْ ءَايَةٍ» للاستغراق و في «مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ» للتبعيض أي: و ما يظهر لهم دليل من الدلائل التي يجب فيها النظر و بها

يحصل الاعتبار «إِلَّا كَانُواْ» عنه «مُعْرِضِينَ» لايلتفتون إليه و لايستدلون به، «فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ» الذي أتاهم به محمد ﷺ و هو القرآن الذي تُحدّوا به فعجزوا عنه «فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ» أخبار الشيء الذي استهزءوا به و هو القرآن، أي: سيعلمون بأيّ شيء استهزءوا في الآخرة أو في الدنيا، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ» إشارة إلى أن سجيّة الاستكبار رسخت في نفوسهم فانتجت فيهم الإعراض عن الآيات الدالة على الحق فلايلتفتون إلى آية من الآيات من غير تفاوت بين آية و آية لأنهم كذبوا بالأصل المقصود الذي هو الحق، و هو قوله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ».

قوله تعالى:«فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ». تخويف و إنذار فإن الذي يستهزءون به حق، و الحق يأبى إلا أن يظهر يوما و يخرج من حدّ النبأ إلى حدّ العيان، قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾[1] و قال:﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2]، إلى أن قال: و من المعلوم أن الحق إذا ظهر لم يستوفى مساسه المؤمن و الكافر، و الخاضع و السمتهزئ،قال تعالى:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ

---

١. الشورى: ٢٤.

٢. الصف: ٩.

يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[1] ، انتهى.

و في تفسير كاشف: مراد از آية «وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ» در اينجا حجت قاطع بر اثبات وجود خدا و يگانگى او و نيز بر اثبات معاد و نبوت است. معناى آيه اين است كه كافران، دليل حق را قبول نمى‌كنند و بدون آنكه بدان بنگرند از آن روى برمى‌تابند. اگر آنها طالب حق مى‌بودند، به دليل آن مى‌نگريستند، با دقّت درباره آن مى‌انديشيدند و به نتيجه آن عمل مى‌كردند.

اما انكار كردن و روى بر تافتن پيش از نگرش و تحقيق، يك نوع دشمنى و زورگويى است... اين آيات و امثال آنها نشان مى‌دهند كه خداوند بر دعوت به حق دلايل و برهان‌ها اقامه مى‌كند و از مردم مى‌خواهد كه درباره آنها بينديشند و اگر كسى نخواهد جز بخواسته خود ايمان بياورد، تنها خود مسئول كفر و انكارش خواهد بود، انتهى.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾

---

١. الصافات: ١٧٧ ـ ١٧١.

في جوامع الجامع: مكن له في الأرض: جعل له مكانا، و مكنه في الأرض: أثبته فيها، و منه قوله تعالى: «وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ».

... و المعنى «أَلَمْ يَرَ» كفار قريش «كَمْ أَهْلَكْنَا مِن» أُمة و كلّ أُمة مقترنة في وقت قرن، أعطيناهم من البسطة في الأجسام و السعة في الأموال ما لم نعطكم عدل عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، «وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ» يعني: المطر هنا «عَلَيْهِم مِّدْرَارًا» مغزارا، و المراد بالغيث و البركة، «وَأَنشَأْنَا» و خلقنا من بعد هلاكهم أُمة أُخرى، و فيه دلالة على أنه ـ سبحانه ـ لايتعاظمه أن يفنى عالماً و ينشئ عالما آخر كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [1]، انتهى.

و في كنز الدقائق: «أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ»: أي: من أهل زمان، انتهى.

و في الميزان :و في قوله تعالى: «مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ» التفات من الغيبة إلى الحضور، و الوجه فيه ظاهراً رفع اللبس من جهة مرجع الضمير، إلى أن قال: و في قوله: «فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ» دلالة على أن للسيئات و الذنوب دخلا في البلايا و المحن العامة، و في هذا المعنى و كذا في معنى دخل الحسنات و الطاعات في إفاضات النعم و نزول البركات آيات كثيرة، انتهى.

مدرارا أي كثيرا، و يناسبه قوله تعالى ـ بعد توصيف المطر بالمدرار ـ : «وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ» إذ جريان الأنهار لايكون إلا بكثرة المطر ولكن الكثرة لاتكون بمقدار يوجب السيل المخرب.

---

١. الشمس: ١٥.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾

و في جوامع الجامع: «كِتَٰبًا» أي: مكتوباً «فِى قِرْطَاسٍ» في صحيفة، «فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ» و لم يقتصر بهم على الرؤية و المعاينة لئلا يقولوا: «سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا»، لقالوا: «إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ» لعظم عنادهم و قسوة قلوبهم، « لَوْلَآ أُنزِلَ» أي: هلا أُنزل على محمد ﷺ «مَلَكٌ» نشاهده فنصدقه، «وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا» على ما اقترحوا «لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ» أي: لقضي أمر هلاكهم «ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ» بعد نزوله طرفة عين لأنهم لايؤمنون عند مشاهدة تلك الآية التي لاشيء أبين منها فتقتضي الحكمة استيصالهم، «وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا» أي: و لو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوه «لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا» لأرسلناه في صورة رجل كما كان ينزل جبرئيل على رسول الله ﷺ في أعم الأحوال في صورة دحية الكلبي، «وَلَلَبَسْنَا» و لخلطنا «عَلَيْهِم مَّا» يخلطون على أنفسهم حينئذٍ فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة رجل: هذا إنسان و ليس بملك و كذبوه كما كذبوا محمداً ﷺ فإذا فعلوا ذلك خُذلوا كما أنهم مخذولون اليوم، فهذا لبس الله عليهم، «وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ» تسلية

للنبي ﷺ عما كان يلقاه من قومه، «فَحَاقَ بِهِم» فأحاط بهم الشيء الذي «...كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ» به و هو الحق حيث اُهلكوا من أجل الاستهزاء به، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ»: مكتوبا في ورق. «فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ»: فمسّوه، و تخصيص اللمس، لأن التزوير لايقع فيه فلايمكنهم أن يقولوا: إنّما سكرت أبصارنا و لأنه يتقدمه الإبصار حيث لامانع، و تقييده بالأيدي لرفع التجوّز فإنّه قد تجوز به للفحص، لقوله: «وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ».

«لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ»: تعنتاً و عناداً.

«وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ»: يكلّمنا أنه نبي.

«وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ»: جواب «أول» لقولهم و بيان لما هو المانع ممّا اقترحوه، يعني: أن الملك لو اُنزل بحيث عاينوه، كما اقترحوا، لحقّ إهلاكهم فإنّ سنة الله جرت في ذلك فيمن قبلهم.

«ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ»: بعد نزوله طرفة عين.

«وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا»: جواب ثان، إن جعل الهاء للمطلوب، و إن جعل للرسول، فإنه جواب اقتراح ثان، فإنهم تارة ينتحلون «لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» و تارة يقولون: «لو شاء ربنا لأنزل ملائكة»، يعني: و لو جعل قرينا لك ملكا يعاينوه أو الرسول ملكا لمثلناه رجلا، كما مثلنا جبرئيل في صورة دحية الكلبي فإن القوة البشرية لاتقوى على رؤية الملك في صورته. «وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ»، إلى أن قال: في كتاب الاحتجاج: عن أبي محمد العسكري عليه السلام ...إن رسول الله ﷺ كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة إذ ابتدأ عبدالله بن أبي اُمية المخزومي فقال: يا محمد، لقد ادعيت دعوى (عظيمة) و قلت مقالا هائلا،

زعمت أنك رسول رب العالمين، «وما ينبغي لرب العالمين» و خالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله و لو كنت نبيّاً لكان معك ملك يصدقك و نشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبيّاً لكان إنّما يبعث إلينا ملكا لابشراً مثلنا، ما أنت يا محمد، إلا (رجلا) مسحوراً و لست بنبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ... و أمّا قولك لي: (و لو كنت نبيا لكان معك ملك يصدقك و نشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبيا لكان إنّما يبعث إلينا ملكا لابشراً مثلنا)، فالملك لاتشاهده حواسكم لأنه من جنس هذا الهواء لاعيان منه و لو شاء بأن يزاد في قوى أبصاركم، لقلتم ليس هذا ملكا، بل هذا بشر لأنّه إنّما كان يظهرلكم بصورة البشر الذي ألفتموه، لتفهموا عنه مقالته و تعرفوا خطابه و مراده فكيف كنتم تعلمون صدق الملك؟ و أن ما يقوله حق؟ بل إنّما بعث الله بشراً و أظهر على يده المعجزات التي ليست في طبائع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم، فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنه معجزة، و إن ذلك شهادة من الله بالصدق له، و لو ظهرلكم ملك و ظهر على يده ما يعجز عنه البشر، لم يكن في ذلك ما يدلكم أن ذلك ليس في طبائع سائر أجناسه من الملائكة حتّى يصير ذلك معجزا ألا ترون أن الطيور التي تطير ليس ذلك منها بمعجز، لأن لها أجناسا يقع منها مثل طيرانها و لو أن آدميا طار كطيرانها، كان ذلك معجزاً فالله عزّوجلّ سهل عليكم الأمر و جعل مثلكم، بحيث يقوم عليكم حجة و أنتم تقترحون عمل الصعب الذي لاحجة فيه، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ».

... فسؤالهم إنزال الملك إنّما كان لأحد أمرين على ما يحكيه الله عنهم في كلامه: أحدهما: أن يأتيهم بما يعدهم النبي من العذاب كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1]، إلى أن قال: و لما كان نزول الملك انقلابا للغيب إلى الشهادة، و لامرمى بعده استعقب إن لم يؤمنوا ـ و لن يؤمنوا بما استحكم فيهم من قريحة الاستكبار ـ القضاء بينهم بالقسط، و لامحيص حينئذٍ عن إهلاكهم كما قال تعالى: « وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثمّ لَا يُنظَرُونَ».

على أن نفوس الناس المتوغلين في عالم المادة القاطنين في دار الطبيعة لاتطيق مشاهدة الملائكة لو نزلوا عليهم و اختلطوا بهم لكون ظرفهم غير ظرفهم فلو وقع الناس في ظرفهم لم يكن ذلك إلا انتقالاً منهم من حضيض المادة إلى ذروة ما وراها و هو الموت، إلى أن قال: و بالجملة فقوله تعالى: «وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ»، إلخ، جواب عن اقتراحهم نزول الملك ليعذبهم، و على هذا ينبغي أن يضم إليه ما وعده الله هذه الأُمة أن يؤخر عنهم العذاب كما تشير إليه الآيات من سورة يونس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾[2]، إلى أن قال : فالمتحصل من الآية أنهم يسألون نزول الملك، و لانجيبهم إلى ما سألوه لأنه لو نزل الملك لقضي بينهم و لم

---

١. الفصلت: ١٣.

٢. يونس: ٤٩ ـ ٤٧.

ينظروا و قد شاء الله أن ينظرهم إلى حين فليخوضوا فيما يخوضون حتّى يلاقوا يومهم، و سيوافيهم ما سألوه فيقضي الله بينهم، إلى أن قال: و ثانيهما: أن ينزل عليهم الملك ليكون حاملا لأعباء الرسالة داعيا إلى الله مكان النبي صلى الله عليه وآله أو يكون معه رسولا مثله مصدقا لدعوته شاهدا على صدقه، إلى أن قال الله تعالى (في جوابه:) «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ» إلى أن قال: أن قوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا» (الآية)، الجواب عن مسألتهم نزول الملك ليكون نذيرا فيؤمنوا به. و محصله: أن الدار دار الاختيار لا تتم فيها للإنسان سعادته الحقيقية إلا بسلوكه مسلك اختيار، و اكتسابه لنفسه أو على نفسه ما ينفعه في سعادته أو يضرّه، و سلوك أي الطريقين رضي لنفسه أمضى الله سبحانه له ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

فإنّما هي هداية و إراءة للطريق ليختار ما يختاره لنفسه من التطرق و التمرد من غير أن يضطر إلى شيء من الطريقين و يلجأ إلى سلوكه، بل يحرث لنفسه ثمّ يحصد ما حرث، إلى أن قال: و بالجملة هذه الدعوة الإلهية لايستقيم أمرها إلا أن توضع على الاختيار الإنساني من غير اضطرار و إلجاء، فلامحيص عن أن يكون الرسول الحامل لرسالات الله أحدا من الناس يكلّمهم بلسانهم فيختاروا لأنفسهم السعادة بالطاعة أو الشقاء بالمخالفة و المعصية من غير أن يضطرهم الله إلى قبول الدعوة بآية سماوية يلجئهم إليه و إن قدر على ذلك كما قال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ

---

١. الإنسان: ٣.

أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[1] فلو أنزل الله إليهم ملكا رسولا لكان من واجب الحكمة أن يجعله رجلا مثلهم فيربح الرابحون باكتسابهم و يخسر الخاسرون فيلبسوا الحق بالباطل على أنفسهم و على أتباعهم كما يلبسون مع الرسول البشري فيمضي الله ذلك و يلبس عليهم كما لبسوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2].

فإنزال الملك رسولا لايترتب عليه من النفع و الأثر أكثرمما يترتب على إرسال الرسول البشري، و يكون حينئذٍ لغوا فقول الذين كفروا: «لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» ليس إلا سؤالاً لأمر لغو لايترتب عليه بخصوصه أثر خاص جديد كما رجوا، فهذا معنى قوله: «وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ».

فظهر مما تقدم من التوجيه أولا: أن الملازمة بين جعل الرسول ملكا و جعله رجلا إنّما هي من جهة إيجاب الحكمة حفظ الاختيار الإنساني في الدعوة الدينية الإلهية إذ لو أنزل الملك على صورته السماوية و بدل الغيب شهادة كان من الإلجاء الذي لاتستقيم معه الدعوة الاختيارية.

و ثانياً: أن الذي تدل عليه الآية هو صيرورة الملك رجلا مع السكوت عن كون ذلك هو بقلب الماهية الملكية إلى الماهية الإنسانية «الذي ربما يحيله عدة من الباحثين» أو بتمثيله مثالا إنسانيا كتمثل الروح لمريم بشرا سوّيا، و تمثل الملائكة الكرام لإبراهيم و لوط عليهم السلام في صورة الضيفين من الآدميين.

---

١. الشعراء: ٣ ـ ٢.

٢. الصف: ٥.

و جلّ الآيات الواردة في مورد الملائكة و إن كان يؤيد الثاني من الوجهين لكن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[1] لايخلو عن دلالة ما على الوجه الأول، و للبحث ذيل ينبغي أن يطلب من محل آخرتعالى إلى أن قال: و خامسا: أن محصل الآية احتجاج عليهم بأنه لو اُنزل عليهم ملك بالرسالة لم ينفعهم ذلك في رفع حيرتهم فإن الله جاعل الملك عندئذ رجلا يماثل الرسول البشري و هم لابسون على أنفسهم معه متشككون فإنهم لايريدون بهذه المسألة إلا أن يتخلصوا من الرسول البشري الذي هو في صورة رجل ليبدلوا بذلك شكهم يقينا و إذا صار الملك على هذا النعت. ـ ولامحالة ـ فهم لاينتفعون بذلك شيئا، إلى أن قال: و غالب المفسرين وجهوا الآية بأن المراد: أنهم لما كانوا لايطيقون رؤية الملك في صورته الأصلية لتوغلهم في عالم المادة فلواُرسل إليهم ملك لم يكن بدّ من تمثله لهم بشرا سويا، و حينئذٍ كان يبدو لهم من اللبس و الشبهة ما يبدو مع الرسول من البشر و لم ينتفعوا به شيئا.

و هذا التوجيه لايفي باستقامة الجواب، و إن سلمنا أن الإنسان العادي لاتسعه مشاهدة الملائكة في صورهم الأصلية بالاستناد إلى أمثال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[2] و ذلك أن شهود الملك في صورته الأصلية لو كان محالا على الإنسان لم يختلف فيه حال الأفراد الإنسانية بالجواز و الامتناع، و قد ورد في روايات الفريقين أن النبي صلى الله عليه وآله رأى جبرئيل في صورته الأصلية

---

١. الزخرف: ٦٠.

٢. الفرقان: ٢٢.

مرتين، و من المقدور لله أن يقوي سائر الناس على ما قوّى عليه نبيه فيعاينوهم و يؤمنوا بهم، و لامحذور فيه بحسب الحكمة إلا محذور الإلجاء فهو المحذور الذي يجب أن يدفع بالآية كما تقدم، انتهى.

و لايخفى عليك ما فيه، فإن إمكان شهود الملائكة في صورتها الأصلية للأنبياء لايوجب إمكانه للناس المتوغلين في عالم المادة مع حفظ توغلهم فيه.

هذا مضافا إلى أن جعل السؤال الأول هو السؤال عن مجيء ملك العذاب يخالف ظاهر الآية و بعض الروايات و قد تقدم ما في كتاب الاحتجاج.

فتحصل: أن السؤال هو طلب الملك للرسالة أو الشهادة التصديقية للنبي. و اُجيب عنه: أولا: بعدم إمكان رؤية الملك للعموم، و ثانيا: بأنّ التشكيك باقٍ مع نزول الملك و معه يكون نزول الملك لغوا، فتدبر جيدا.

قال الفاضل الشعراني: الملك كان ينزل على رسول‌الله ﷺ و لايرونه فطلبوا نزوله بحيث يرونه و هذا طلب باطل من وجهين: الأول: أن الكافر القاسي القلب لايمكن أن يرى شيئا من الروحانيات إلّا بعد إزعاج شديد يصرفه عن الجسمانيات و هو العذاب كما قال الله تعالى: «لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ» و الثاني: أنهم لو رأوا جسما قالوا هذا أيضا مثلنا لانؤمن به، انتهى.

و لعلّ مراد صاحب الميزان هو ذلك، ولكنه محل تأمل و نظر لأن الإزعاج المذكور لايوجب أن يكون الطلب لملك العذاب، كما لايخفى.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

و في جوامع الجامع: «سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ» سافروا فيها «ثُمَّ ٱنظُرُواْ» بأبصاركم و تفكروا بقلوبكم «كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ» المستهزءين بالرسل من الأُمم السالفة، انتهى.

و الأسف هو ما في عصرنا الحاضر من الاكتفاء بالمسافرة نحو آثار المتقدمين من الأُمم السابقة من دون النظر إليها بالعبرة، بل يقصد أولياء الأُمور حجر و الأُمور الاقتصادية، فلاتغفل.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: قوله: «لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» سؤال تبكيت، (و توبيخ) و «قُل لِّلَّهِ» تقرير لهم أي: هو لله لاخلاف بيني و بينكم في ذلك و لاتقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره، «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ» أي: أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته و نصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم تعترفون به من خلق السموات و الأرض، إلى أن قال: ثمّ فسرّ الرحمة بقوله: «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ» على ما ذكرنا أن المراد به إمهال العاصي ليتوب أو تأخير عذابهم، إلى أن قال: و معناه ليجمعن آخركم إلى أولكم قرنا بعد قرن«إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ» فيجازيكم على شرككم.

«ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ» قيل: هو بدل من الكاف و الميم في «لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ» و على هذا فلايجوز الوقف على «رَيۡبَ فِيهِ» و الصواب الوقف و الابتداء بـ «ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ» و خبره «فَهُمۡ لَايُؤۡمِنُونَ» و المعنى الذين خسروا أنفسهم لاختيارهم الكفر فهم لايصدقون بالحق، «وَلَهُۥ» عطف على «لِلَّهِ» «مَا سَكَنَ» و تمكن «فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ» ذكر في الأول السماوات و الأرض و ذكر هنا الليل و النهار فالأول يجمع المكان و الثاني يجمع الزمان و هما ظرفان لجميع الموجودات من الأجسام و الأعراض، و المراد بالسكون هنا الحلول و السكنى، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُل لِّلَّهِ» شروع في البرهنة على المعاد، و محصله: أن الله تعالى مالك ما في السماوات و الأرض جميعا له أن يتصرف فيها كيف شاء و أراد، و قد اتصف سبحانه بصفة الرحمة و هي رفع حاجة كلّ محتاج و إيصال كلّ شيء إلى ما يستحقه و إفاضته عليه و عدة من عباده و منهم الإنسان صالحون لحياة خالدة مستعدون لأن يسعدوا فيها فهو بمقتضى ملكه و رحمته سيتصرف فيهم بحشرهم و إعطائهم ما يستحقونه البتة.

فقوله تعالى: «قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ»، إلخ، يتضمن إحدى مقدمات الحجة و قوله: «كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ» يتضمن مقدمة اُخرى، و قوله: «وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ»، إلخ، مقدمة اُخرى ثالثة بمنزلة الجزء من الحجة.

فقوله تعالى: «قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ»، إلخ، يأمر النبي ﷺ أن يسألهم عمن يملك السماوات و الأرض و له التصرف فيها بما شاء من غير مانع يمنعه، و هو الله سبحانه من غير شك لأن غيره حتّى الأصنام و أرباب الأصنام التي

يدعوها المشركون هي كسائر الخلقة ينتهي خلقها و أمرها إليه تعالى فهو المالك لما في السماوات و الأرض جميعا. و لكون المسؤول عنه معلوما بيناً عند السائل و المسؤول جميعا و الخصم معترف به لم يحتج إلى صدور الجواب عن الخصم و اعترافه به بلسانه، و اُمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر هو الجواب و يتكفل ذلك لتتم الحجة من غير انتظار ما لجوابهم.

و السؤال عن الخصم، و مباشرة السائل بنفسه الجواب كلاهما من السلائق البديعة الدائرة في سرد الحجج، يقول المنعم لمن أنعم عليه فكفر بنعمته: من الذي أطعمك و سقاك و كساك؟

أنا الذي فعل ذلك بك و منّ بها عليك و أنت تجازيني بالكفر.

و بالجملة ثبت بهذا السؤال و الجواب أن الله سبحانه هو المالك على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء و رزق و إماتة و بعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلك مانع كدقة في العمل و موت و غيبة و اختلال و غير ذلك.

و بهذا تمت إحدى مقدمات الحجة فألحقها المقدمة الاُخرى و هي قوله: «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ».

قوله تعالى: «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ» الكتابة هو الإثبات و القضاء الحتم، و إذ كانت الرحمة «و هي إفاضة النعمة على مستحقها و إيصال الشيء إلى سعادته التي تليق به» من صفاته تعالى الفعلية صح أن ينسب إلى كتابته تعالى، و المعنى: أوجب على نفسه الرحمة و إفاضة النعم و إنزال الخير لمن يستحقه، إلى أن قال:

أما صفات الذات كالحياة و العلم و القدرة فلاتصح نسبتها إلى الكتابة و نحوها البتة لايقال: كتب على نفسه الحياة و العلم و القدرة.

و لازم كتابة الرحمة على نفسه ـ كما تقدم ـ أن يتم نعمته عليهم بجمعهم ليوم القيامة ليجزيهم بأقوالهم و أعمالهم فيفوز به المؤمنون و يخسر غيرهم.

... ثم أشار إلى أن الربح في هذا اليوم للمؤمنين و الخسران على غيرهم فقال: «ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ»، إلى أن قال : قوله تعالى: «وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ»... و الآية أعني قوله: «وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ» (الآية) كإحدى مقدمات الحجة المبينة بالآية السابقة فإن الحجة على المعاد و إن تمت بقوله: «قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ» لكن النظر الابتدائي الساذج ربما غفل عن كون ملكه تعالى للأشياء مستلزماً لعلمه بها و سمعه بما يسمع منها كالأصوات و الأقوال.

و لذلك نبّه عليه بتكرار ملك السماوات و الأرض، و تفريع السمع و العلم عليه فقال: «وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ» و هو في معنى قوله: «وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ» فكانت هذه الآية لذلك بمنزلة مقدمة متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة.

و الآية ـ على أنا لم نستوف حقها و لن يستوفي ـ من أرق الآيات القرآنية معنى و أدقها إشارة و حجة، و أبلغها منطقا، انتهى.

و في كنز الدقائق: «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ»: التزمها تفضلا و إحسانا، و المراد بالرحمة، ما يعم الدارين، و من ذلك الهداية إلى معرفته، و العلم بتوحيده بنصب الأدلة، و إنزال الكتب، و الإمهال على الكفر و الذنوب لتدارك ما فرط.

و في روضة الكافي: في رسالة أبي جعفر عليه السلام إلى سعد الخير: فـ«كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ»، فسبقت قبل الغضب فتمت صدقا و عدلا فليس يبتدئ العباد بالغضب قبل أن يغضبوه، و ذلك من علم اليقين و علم التقوى، انتهى.

فتحصل: أن الله سبحانه و تعالى كمال مطلق و مقتضاه هو صدور الرحمة منه تعالى إلى خلقه سواء كانت رحمة عامة أو رحمة خاصة و سواء كانت راجعة إلى دار الدنيا أو دار الآخرة، و هذه هي التي عبّر عنها بكتابة الرحمة و حتمية صدورها إذ لو لم يرحم بتلك الرحمة كان خلفا لإطلاق كماله و الخلف لايصدر عنه. ثمّ إن قوله تعالى: «كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ» علة لأمرين، أحدهما: خلقة ما في السماوات و الأرض و ما سكن في الليل و النهار المعطوف على من في السماوات و الأرض، و ثانيهما: تجميع الناس من الأول إلى يوم القيامة في يوم القيامة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

في جوامع الجامع: الإنكار في اتخاذ غير الله وليا لافي اتخاذ الوليّ فلذلك أولاه همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو «أَتَّخِذُ»، و نحوه ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[1].

«فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أي: منشأهما و خالقهما من غير احتذاء على مثال، «وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ» أي: و هو يرزق و لايرزق، و المعنى: أن المنافع كلّها من عنده و لايجوز عليه الانتفاع.

«قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ» أي: أمرني ربي « أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» لأن النبي سابق أُمّته في الإسلام كقوله: «وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ».

«وَلَا تَكُونَنَّ» أي: و قيل لي: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ» أي: أُمرت بالإسلام و نهيت عن الشرك، «مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ» العذاب «يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ» الله الرحمة العظمى و هي النجاة كما تقول: من أطعمته من جوع فقد أحسنت إليه تريد فقد أتممت الإحسان إليه، أو فقد أثابه و أدخله الجنة لأن من لم يعذّب فلابد أن يثاب، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ» شروع في الاحتجاج على وحدانيته تعالى و أن لاشريك له.

و الذي يتحصل من تأريخ الوثنية و اتخاذ الأصنام و الآلهة أنهم كانوا إنّما دانوا بذلك و خضعوا للآلهة لأحد أمرين:

---

١. الزمر: ٦٤.

إمّا أنهم وجدوا أنفسهم في حاجة إلى أسباب كثيرة في إبقاء الحياة كالتغذي بالطعام و اللباس و المسكن و الأزواج و الأولاد و العشيرة و نحو ذلك، و عمدتها الطعام الذي حاجة الإنسان إليه أشدّ من حاجته إلى غيره بحسب النظر الساذج، و قد اعتقدوا أن لكلّ صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقا بسبب هو الذي يجود لهم بالتمتع من وسيلة رفع تلك الحاجة كالسبب الذي يمطر السماء فينبت المرعى و الكلاء لدوابّهم و يمنع بالخصب لأنفسهم، و السبب الذي يدبر أمر السهل و الجبل أو يلقي بالمحبة و الأُلفة أو إليه أمر البحر و السفائن الجارية فيها.

ثم وجدوا أن قوتهم لاتفي بالتسلط على تلك الحاجة أو الحوائج الضرورية فاضطروا إلى الخضوع إلى السبب المربوط بحاجتهم و اتخاذه إلها ثمّ عبادته.

و إمّا لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضا لسهام الحوادث محصوراً بمكاره و شرور عامة عظيمة لايقاومها كالسيل و الزلزلة و الطوفان و القحط و الوباء، و ببلايا و محن أُخرى جزئية لايحصيها كالأمراض و الأوجاع و السقوط و الفقر و العقم و العدوّ و الحاسد و الشانئ و غير ذلك، ثم وضعوا لها أسبابا قاهرة هي المرسلة لها إليهم، و القاصمة بها ظهورهم، و المكدرة لصفوة عيشهم، و هي مخلوقات علوية كأرباب الأنواع و أرواح الكواكب و الأجرام العلوية فاتخذوها آلهة خوفاً من سخطهم و عذابهم، و عبدوها ليستميلوها بالعبادة و يرضوها بالخضوع و الاستكانة فيخلصوا بذلك عن المكاره و الرزايا و يأمنوا شرورها و المضار النازلة منها إليهم.

و الآية أعني قوله: «قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا»، إلخ، و الآيات التالية تحتج على المشركين بقلب حجتيهم بعينهما إليهم أي: تسلّم أصل الحجة و تعدها حقة لكن تبين أن لازمها أن يعبد الله سبحانه وحده، و ينفى عنه كلّ شريك موضوع. فقوله تعالى: «قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ» إشارة إلى الحجة من المسلك الأول، و هو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكرا لإنعامه سببا لمزيده.

أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يبين لهم في صورة الاستفهام و السؤال أن الله سبحانه وحده هو الولي للنعمة التي يتنعم بها الإنسان و غيره لأنه هو الرزاق الذي لايحتاج إلى أن يرزقه غيره يطعم و لايطعم، و الدليل عليه أنه تعالى هو الذي فطر السماوات و الأرض، و أخرجها من ظلمة العدم إلى نور الوجود، و أنعم عليها بنعمة التحقق و الثبوت، ثمّ أفاض عليها بنعم لايحصيها إلا هو لإبقاء وجودها، و منها الإطعام للإنسان و غيره فإن جميع هذه النعم المعدة لبقاء وجود الإنسان و غيره، و الأسباب التي تسوق تلك النعم إلى محال الاستحقاق كلّ ذلك ينتهي إلى فطره و إيجاده الأشياء و الأسباب و مسبباتها جميعا من صنعه.

فإليه سبحانه يرجع الرزق الذي هو من أهم مظاهره عند الإنسان الإطعام فيجب أن يعبد الله وحده لأنه هو الذي يطعمنا من غير حاجة إلى إطعام من غيره. فظهربما بيناه أولا: أن التعبير عن العبودية و التألّه باتخاذ الولي في قوله: «أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا» إنّما هو لكون الحجة مسوقة من جهة إنعامه تعالى بالإطعام. و ثانياً: أن التعلق بقوله: «فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» إنّما هو لبيان سبب انحصار

الإطعام به تعالى، إلى أن قال: و من الممكن أن يستفاد من ذكره في الحجة أنه إشارة إلى مسلك آخر في إقامة الحجة على توحيده تعالى هو أشرف من المسلكين جميعا، و محصله: أن الله سبحانه هو الموجد لهذا العالم، و إلى فطره ينتهي كلّ شيء فيجب الخضوع له. و وجه كون هذا المسلك أشرف: هو أن المسلكين الآخرين و إن كانا أنتجا توحيد الإله من جهة أنه معبود لكنهما لايخلوان مع ذلك من شيء، و هو أنهما ينتجان وجوب عبادته طمعا في النعمة أو خوفا من النقمة فالمطلوب بالذات هو جلب النعمة أو الأمن من النقمة دونه تعالى و تقدس، و أما هذا المسلك فإنه ينتج وجوب عبادة الله لأنه الله سبحانه، انتهى.

و في كنز الدقائق في مجمع البيان في ذيل قوله تعالى: «مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ» روي أن النبي ﷺ قال: و الذي نفسي بيده، ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله. قالوا: و لا أنت، يا رسول الله ﷺ ؟ قال: و لا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه و فضل، انتهى.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ» من مرض أو فقر أو مكروه «فَلَا» قادر على كشفه «إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ» ... «فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» يقدر على إدامته و إزالته «وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ».

هذا تصوير للقهر و العلو بالغلبة و القدرة كقوله: «وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ» يريد أنهم تحت تسخيره و تذليله.

«وَ ٱلْخَبِيرُ» العالم بكلّ ما يصح أن يخبر به، و الشيء أعمّ العام لوقوعه على كلّ ما يصح أن يعلم و يخبر عنه.

«قُلْ أَىُّ شَيْءٍ» أعظم «شَهَٰدَةً» و أصدق، «قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ» يشهد لي بالنبوة و تبليغ الرسالة إليكم و تكذبيكم إياي، «وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ» حجة و دلالة على صدقي «لِأُنذِرَكُم بِهِۦ» لأخوفكم به من عذاب الله «وَمَن بَلَغَ» أي: و لأُنذر به من بلغه إلى يوم القيامة، إلى أن قال: «أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ» استفهام إنكاري أي: كيف تشهدون «أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ» بعد قيام الحجة بوحدانية الله تعالى «قُل لَّآ أَشْهَدُ» بإثبات الشريك له «قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ» به من الأوثان و غيرها و هذه شهادة بالوحدانية و براءة من كلّ دين يؤدي إلى الشرك، انتهى.

و في الميزان: و لما أمكن أن يتوهم أن كونه تعالى يمسّ الإنسان بضرّ أو بخير إنّما يقتضي أن يتخذ معبودا، و الخصم لاينكر ذلك. و أما قصر الألوهية و المعبودية فيه تعالى فلا لأن ما اتخذوه من الآلهة هي أسباب متوسطة و شفعاء أقوياء لها تأثيرات في الكون من شرٍ أو خيرٍ يوجب على الإنسان أن يتقرب إليها خوفا من شرها أو رجاء لخيرها.

دفعه بأن الله سبحانه هو القاهر فوق عباده لايفوقه منهم أحد و لايعادله فهم أنفسهم تحت قهره، و كذا أفعالهم و آثارهم لايعملون عملا من خير أو شرّ إلا بإذنه و مشيته غير مستقلين بأمر البتة و لايملكون لأنفسهم ضرا و لانفعا و لاغير ذلك، فما يطلع من اُفق ذواتهم من أثر خيرا أو شراً ينتهي إلى أمره و مشيته و إذنه يستند إليه على ما يليق بساحة قدسه و عزته من الاستناد.

فالآيتان جميعا تتممان معنى واحدا، و هو أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فمن الله ما يليق بساحته من الانتساب، فالله سبحانه هو المتوحد بالاُلوهيّة، و المتفرد بالمعبودية لا إله غيره، و لامعبود سواه، إلى أن قال: فالقاهر من الأسماء التي تصدق عليه تعالى كما تصدق على غيره، غير أن بين قهره تعالى و قهر غيره فرقا، و هو أن غيره تعالى من الأشياء إنّما يقهر بعضها بعضا و هما مجتمعان من جهة مرتبة وجودهما و درجة كونهما بمعنى أن النار تقهر الحطب على الاحتراق و الاشتعال، و هما معا موجودان طبيعيان يقتضي أحدهما بالطبع خلاف ما يقتضيه الآخر لكن النار أقوى في تحميل أثرها على الحطب منه على النار فهي تظهر عليه في تأثيرها بأثرها فيه.

و الله سبحانه قاهر لاكقهر النار الحطب، بل هو قاهر بالتفوق و الإحاطة على الإطلاق بمعنى أنا إذا نسبنا إحراق جسم و إشعاله كالحطب مثلا إلى الله سبحانه فهو سبحانه قاهر عليه بالوجود المحدود الذي أوجده به، قاهر عليه بالخواص و الكيفيات التي أعطاها له و عبّأه بها بيده، قاهر عليه بالنار التي أوقدها لإحراقه و إشعاله، و هو المالك لجميع ما للنار من ذات و أثر، قاهر عليه بقطع عطية

المقاومة للحطب، و وضع الاحتراق و الاشتعال موضعه فلامقاومة و لاتعصي و لاجموح و لاشبه ذلك قبال إرادته و مشيته لكونها من اُفق أعلى، إلى أن قال: قوله تعالى: «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» أمر نبيّه أن يسألهم عن أكبر الأشياء من حيث الشهادة، و الشهادة هي تحمل الخبر عن نوع من العيان كالإبصار ونحوه، و أداء ما تحمل كذلك بالإخبار و الإبناء، و إذ كان التحمل و الأداء ـ و خاصة التحمل ـ مما يختلف بحسب إدراك المتحملين و بحسب وضوح الخبر الذي تحمله المتحمل، و بحسب قوة المؤدي بيانا و ضعفه اختلافا فاحشا.

فليس المحتمل الذي يغلب على مزاجه السهو و النسيان أو الغفلة كالذي يحفظ ما يعيه سمعه و يقع عليه بصره، و ليس الصاحي كالسكران و لا الخبير الأخصّائي بأمر كالأجنبي الأعزل.

و إذ كان الأمر على ذلك فلايقع ريب في أن الله سبحانه هو أكبر من كلّ شيء شهادة فإنه هو الذي أوجد كلّ ما دق و جلّ من الأشياء، و إليه ينتهي كلّ أمر و خلق، و هو المحيط بكلّ شيء و مع كلّ شيء لايعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات و الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر لايضل و لاينسى، إلى أن قال: و قوله تعالى: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَن بَلَغَ» من مقول القول و هو معطوف على قوله: «ٱللَّهُ شَهِيدُ»، إلخ، و جعل الإنذار غاية لنزول القرآن الكريم أخذ بمسلك الخوف في الدعوة النبوية، و هو الأوقع في أفهام عامة الناس فإن مسلك الرجاء و الوعد و إن كان أحد الطريقين في الدعوة، و قد استعمله الكتاب

العزيز في الجملة لكن رجاء الخير لايبعث إلى طلبه بعثا إلزاميا و إنّما يورث شوقا و رغبة بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلا.

و لأن دعوة الإسلام إنّما هي إلى دين الفطرة، و هو مخزون مكنوز في فطرة الناس و إنّما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشرك و المعصية مما يوجب عليهم غلبة الشقوة و نزول السخط الإلهي فالأقرب إلى الحكمة و الحزم في دعوتهم أن تبدأ بالإنذار، و لهذا كلّه ربما حصر شأن النبي ﷺ في الإنذار كما في قوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[1] و قوله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2].

هذا في عامة الناس و أما الخاصة من عباد الله، و هم الذين يعبدونه حبّا له لاخوفا من نار و لاطمعا في جنة فإنهم يتلقون من الدعوة بالخوف و الرجاء أمرا آخر فإنّهم يتلقون من النار أنها دار بعد و سخط فيخافونها لذلك، و من الجنة أنها ساحة قرب و رضوان فيشتاقون إليها لذلك، إلى أن قال: فقوله: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَن بَلَغَ» يدلّ على عموم رسالته ﷺ بالقرآن لكلّ من سمعه منه أو سمعه من غيره إلى يوم القيامة.

إلى أن قال: قوله تعالى: «ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ» و هذا إخبار عما شهد به الله سبحانه في الكتب المنزلة على أهل الكتاب، و علمه علماء أهل الكتاب مما عندهم من كتب الأنبياء من البشارة بعد البشارة بالنبي ﷺ و وصفه بما لايعتريه شك و لايطرأ عليه ريب.

---

١. الفاطر: ٢٣.

٢. العنكبوت: ٥٠.

فهم بما استحضروا من نعته ﷺ يعرفونه بعينه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1].

و قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾[2]، انتهى.

و بالجملة: أن الله الواحد القاهر هو الله تعالى لأنه خالق و غيره مخلوق و مقهور له، و الشاهد على ذلك هو انحصار ذلك فيه تعالى، إذ القاهر المطلق ليس إلا هو كما أشار إليه في دعاء عرفة، حيث قال الإمام الحسين بن على عليهما السلام : و للجبابرة قامع، فلا إله غيره، و لا شيء يعدله. فوجوده على ما هو عليه من نهاية الكمال و القهارية دليل وحدانيته، كما قال في دعاء أبي حمزة الثمالي: بك عرفتك و أنت دللتني عليك و دعوتني إليك، و لو لا أنت. لم أدر ما أنت. فأيّ شيء أكبر شهادة منه تعالى. ثمّ نزول القرآن المعجز شاهد صدق على نبوة نبينا ﷺ و هكذا بشارات الكتب السماوية بمجيء نبي الإسلام مع الخصوصيات الكاملة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ

---

١. الأعراف: ١٥٧

٢. الفتح: ٢٩.

كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

و في جوامع الجامع: «أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ» أنها تنفعكم و اُضيف الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها لأنفسهم «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ» أي: كفرهم أي: لم تكن عاقبة كفرهم و شركهم إلا جحوده و التبرؤ منه و الحلف على الانتفاء منه، إلى أن قال: «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ» أي: يفترون إلهيته و شفاعته، و إنّما يصح وقوع الكذب منهم مع اطلاعهم على حقائق الاُمور و معارفهم الضرورية لما يلحقهم من الدهش و الحيرة من أهوال ذلك اليوم و شدائده و المبتلى قد ينطق بما لاينفعه من غير روية و فكر في عاقبته، انتهى.

و في الميزان: الظلم من أشنع الذنوب، بل التحليل الدقيق يقضي أن سائر الذنوب إنّما هي شنيعة مذمومة بمقدار ما فيها من معنى الظلم، و هو الانحراف و الخروج عن وسط العدل. و الظلم كما يكبر و يصغر من جهة خصوصيات من صدر عنه الظلم كذلك يختلف حاله بالكبر و الصغر من جهة من وقع عليه الظلم أو اُريد إيقاعه عليه فكلّما جلّ موقعه و عظم شأنه كان الظلم أكبر و أعظم، و لا أعزّ قدراً و أكرم ساحة من الله سبحانه و لا من آياته الدالة عليه، فلا أظلم ممن ظلم هذه الساحة المنزهة أو ما ينتسب إليها بوجه، و لايظلم إلا نفسه. و قد صدق الله سبحانه هذه النظرة العقلية بقوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ».

أما افتراء الكذب عليه تعالى فبإثبات الشريك له، و لاشريك له، أو دعوى النبوة أو نسبة حكم إليه كذبا و ابتداعا، و أما تكذيب آياته الدالة عليه فكتكذيب النبي الصادق في دعواه المقارنة للآيات الإلهية أو إنكار الدين الحق، و منه إنكار الصانع أصلاً.

و الآية تنطبق على المشركين، و هم أهل الأوثان الذين إليهم وجه الاحتجاج من جهة أنهم أثبتوا لله سبحانه شركاء بعنوان أنهم شفعاء مصادر اُمور في الكون، و إليهم ينتهي تدبير شؤون العالم مستقلين بذلك، و من جهة أنهم أنكروا آياته تعالى الدالة على النبوة و المعاد. و ربما ألحق بعضهم بذلك القائلين بجواز شفاعة النبي ﷺ أو الطاهرين من ذريته أو الأولياء الكرام من اُمته فقضى بكون الاستشفاع بهم في شيء من حوائج الدنيا أو الآخرة شركا تشمله الآية و ما يناظرها من الآيات الشريفة.

وكأنّه خفي عليهم أنه تعالى أثبت الشفاعة إذا قارنت الإذن في كلامه من غير أن يقيده بدنيا أو آخرة، فقال عزّ من قائل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1] على أنه تعالى قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2] فأثبت الشفاعة حقاً للعلماء الشهداء بالحق، و القدر المتيقن منهم الأنبياء و منهم النبي ﷺ ، و قد أثبت الله سبحانه شهادته بقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[3].

---

١. البقرة: ٢٥٥.

٢. الزخرف: ٨٦.

٣. النساء: ٤٠.

و نصّ على علمه حيث قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[١] و قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٢].

و هل يعقل نزول الكتاب الذي هو تبيان كلّ شيء على قلب من غير علم به، أو بعثه تعالى إياه شهيداً و ليس بشهيد بالحق؟ و قال الله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٣].

قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[٤] و قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[٥] فأثبت في هذه الأُمة شهداء علماء و لايثبت إلّا الحق. و قال تعالى في أهل بيته عليهم السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٦] فبيّن أنهم مطهرون بتطهيره، ثمّ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[٧] فعدهم العلماء بالقرآن الذي هو تبيان كلّ شيء و المطهرون هم القدر المتيقن من هذه الأُمة في الشهادة بالحق التي لاسبيل للغو و التأثيم إليها، و قد أشبعنا الكلام في معنى الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب فليراجع، إلى أن قال: و قوله: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ»، إلخ، قيل: المراد

---

١. النحل: ٨٩.

٢. الشعراء: ١٩٤.

٣. البقرة: ١٤٣.

٤. آل عمران: ١٤٠.

٥. العنكبوت: ٤٣.

٦. الأحزاب: ٣٣.

٧. الواقعة: ٧٩ ـ ٧٦.

بالفتنة الجواب أي: لم يكن جوابهم إلا أن أقسموا بالله على أنهم ما كانوا مشركين، و قيل: الكلام على تقدير مضاف و المراد: لم تكن عاقبة افتتانهم بالأوثان إلا أن قالوا، إلخ، و قيل: المراد بالفتنة المعذرة، و لكلّ من الوجوه وجه، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» كقولهم: الملائكة بنات الله و هؤلاء شفعاؤنا عندالله. «أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ»، كأن كذبوا بالقرآن و المعجزات، و سمّوها سحراً. و إنّما ذكر «أَوْ» و هم قد جمعوا بين الأمرين، تنبيهاً على أن كلّا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس، إلى أن قال: «ثمّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ»: قيل: أي: كفرهم، و المراد عاقبته. و قيل: جوابهم و إنّما سمّاها «فِتْنَة» لأنّه كذب. أو لأنهم قصدوا به الخلاص.

و في مجمع البيان: المروي عن الصادق عليه السلام: أن المراد لم يكن معذرتهم «إِلَّآ أَن قَالُواْ» و على هذا سماه «فِتْنَة» لأنّهم يتوهمون أنه بها يتخلصون من العذاب من فتنت الذهب: إذا خلصته، إلى أن قال: «وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ»: يكذبون و يحلفون عليه، مع علمهم بأنه من فرط الحسرة و الدهشة، كما يقولون: «رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا» و قد أيقنوا بالخلود، انتهى.

و بالجملة كون المفتري و المكذّب أظلم واضح لأنهما يخالفان الله تعالى مع أن ساحته أعظم ساحة، هذا مضافا إلى أن الافتراء و التكذيب مما يوجب الضلالة للناس، فلاتغفل.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: و الأكنّة على القلوب و الوقر في الآذان مثل في نبوّ قلوبهم و أسماعهم عن قبوله و أسند الفعل إلى نفسه في قوله: «وَجَعَلْنَا» ليدلّ على أنه أمر ثابت مستقر فيهم كأنهم مجبولون عليه، أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم: «وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ»[1] و «يُجَٰدِلُونَكَ» في موضع الحال و «يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟» تفسير لجدالهم و المعنى أنه بلغ تكذيبهم بالآيات إلى أنهم يجادلونك و يناكرونك و يجعلون كلام الله الذي هو أصدق الحديث أكاذيب و خرافات، و هي الغاية في التكذيب «وَهُمْ يَنْهَوْنَ» الناس على القرآن و عن الرسول و اتباعه و يثبطونهم عن التصديق به «وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ» بأنفسهم فيضلون و يضلون «وَ» ما «يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ» و لايتعدى ضررهم إلى غيرهم و إن ظنّوا أنهم يضرون رسول الله ﷺ ، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ»: حين تتلوا القرآن. قيل: المراد أبوسفيان و الوليد و النضر و عتبة وشيبة و أبوجهل و أضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ. فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: و الذي جعلها بيته، ما أدري ما يقول، إنه يحرّك لسانه و يقول اساطير الأولين، مثل ما حدثتكم.

---

١. فصلت: ٥.

«وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّة»: أي: أغطية، جمع كنان و هو ما يستر الشيء. «أَن يَفْقَهُوهُ»: كراهة أن يفقهوه. «وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا»: يمنع من استماعه. كناية عن نبوّ قلوبهم و أسماعهم عن القبول. «وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا»: لفرط عنادهم و استحكام التقليد فيهم، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» إلى آخر الآية، الأكنة جمع كنّ بكسر الكاف و هو الغطاء الذي يكن فيه الشيء و يغطى، و الوقرهو الثقل في السمع، و الأساطير جمع اُسطورة بمعنى الكذب و المين على ما نقل عن المبرد، و كأنّ أصله السطر و هو الصف من الكتابة أو الشجر أو الناس غلب استعماله فيما جمع و نظم و رتّب من الأخبار الكاذبة. و كان ظاهر السياق أن يقال: يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، و لعلّ الإظهار للإشعار بالسبب في هذا الرمي و هو الكفر.

قوله تعالى: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» ينهون عنه أي: عن اتباعه و النأى الابتعاد، و القصر في قوله: «وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ» من قصر القلب فإنهم كانوا يحسبون أن النهي عنه و النأي عنه إهلاك له و إبطال للدعوة الإلهية، و يأبى الله إلا أن يتم نوره فهم هم الهالكون من حيث لايشعرون، انتهى.

و في تفسير الكرمي: جاء في مفاد هذه الآية أن النبي ﷺ كان يصلي بالليل و يقرأ القرآن في الصلاة جهرا رجاء أن يستمع إلى قراءته إنسان فيتدبر معانيه و يؤمن به فكان المشركون إذا سمعوه آذوه ومنعوه عن الجهر بالقراءة فكان تعالى يلقى عليهم النوم ليخلوا الجوّ لغيرهم في إمكان استفادته من النبي، و هذا المفاد

يساعد على أن في الآية اختصاراً بهذا الترتيب ومن المشركين اُناس يستمعون إلى قراءتك لأجل أن يتسببّوا من طريق ذلك إلى الوقيعة بك فمنعناهم عنك و جعلنا بوسيلة النوم «أَكِنَّة» على قلوبهم لئلا يفقهوا ما تقول.

فيحملهم ذلك على اذيتك كما جعلنا من الطريق المذكور في آذانهم وقرا وهم من عنادهم و تمردهم و حبّهم للبغي «وَإِن يَرَوْاْ» آية و أيّة كانت «لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا» عملا و إن آمنت بها قلوبهم علما حتّى إذا جاؤك يجادلونك لعلهم يقفون منك على نقطة ضعف فلايجدون من ذلك ما ينجع غلتهم تراهم يلتجئون إلى الأسفاف في حقك فيقولون ما هذا الذي تتلوه عليهم «إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ» و ما هو أشبه بالأقاصيص التي يتداولها البطّالون لإلهاء غيرهم و تقضية أوقات أنفسهم «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» هذا المفاد تابع لما قبله و مقرر له أي: إن الذين كفروا «يَنْهَوْنَ» عن اتباع الرسول و يبعدون عنه بأنفسهم قلوبا و أجساما ليورثوه وحشة و انفرادا بالحقيقة ليس صدور هذه الأعمال عنهم إلا تسببا لإهلاك أنفسهم ببقائهم على الجهل و محاربتهم للفضل ولكنّهم لايشعرون بما يجرّون لأنفسهم لأن غطاء التعصب قد سدّ عليهم كلّ منافذ وجودهم، انتهى.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: جواب «لَوْ تَرَىٰ» محذوف و التقدير لرأيت أمرا فظيعا، و المعنى و لو ترى إذ أطلعوا على النار حتّى يعاينوها أو أُدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، من قولك: «وقفته على كذا»: إذا عرفته و فهّمته «فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ» تمّ هنا تمنّيهم، ثمّ ابتدؤوا «وَلَا نُكَذِّبَ» أي: و نحن لانكذب «بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا» و نؤمن و يجوز أن يكون معطوفا على «نُرَدُّ» أو حالا على معنى يا ليتنا نرد غير مكذبين و كائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمنّي، إلى أن قال: و معناه إن رددنا لم نكذب و نكن من المؤمنين «بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ» من الناس من قبائحهم و فضائحهم في صحفهم و بشهادة جوارحهم عليهم فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً لا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا «وَلَوۡ رُدُّواْ» إلى الدنيا «لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ» من الكفر «وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ» فيما وعدوا من أنفسهم لايفون به، انتهى.

و في الميزان: و قوله: «يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا»، إلخ، على قراءة النصب في «نُكَذِّبَ» و «نَكُونَ» تمنّ منهم للرجوع إلى الدنيا و الانسلاك في سلك المؤمنين ليخلصوا به من عذاب النار يوم القيامة، و هذا القول منهم نظير إنكارهم الشرك بالله و حلفهم بالله على ذلك كذبا من باب ظهور ملكاتهم النفسانية يوم القيامة فإنهم قد اعتادوا التمني فيما لاسبيل لهم إلى حيازته من الخيرات و المنافع الفائتة عنهم، و خاصة إذا كان فوتها مستندا إلى سوء اختيارهم و قصور تدبيرهم في العمل، و نظيره أيضا ما سيجيء من تحسرهم على ما فرّطوا في أمر الساعة، إلى أن قال: و قوله: «بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ»، إلخ، ظاهر الكلام أن مرجع الضمائر أعني ضمائر «لَهُم» و «كَانُواْ» و «يُخۡفُونَ»

واحد و هو المشركون السابق ذكرهم، و أن المراد بالقبل هو الدنيا فالمعنى أنه ظهر لهؤلاء المشركين حين وقفوا على النار ما كانوا هم أنفهسم يخفونه في الدنيا فبعثهم ظهور ذلك على أن تمنّوا الرد إلى الدنيا، و الإيمان بآيات الله، و الدخول في جماعة المؤمنين، إلى أن قال: و قوله: «وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ» تذكير لفعل ما تقرر في نفوسهم من الملكات الرذيلة في نشأة الدنيا فإن الذي بعثهم إلى تمني الرجوع إلى الدنيا و الإيمان فيها بآيات الله و الدخول في جماعة المؤمنين إنّما هو ظهور الحق المتروك بجميع ما يستتبعه من العذاب يوم القيامة، و هو من مقتضيات نشأة الآخرة المستلزمة لظهور الحقائق الغيبية ظهور عيان.

و لو عادوا إلى الدنيا لزمهم حكم النشأة، و اُسدلت عليهم حجب الغيب، و رجعوا إلى اختيارهم، و معه هوى نفس و وسوسة الشيطان و قرائح العباد و الاستكبار و الطغيان فعادوا إلى سابق شركهم و عنادهم مع الحق فإن الذي دعاهم و هم في الدنيا إلى مخالفة الحق و التكذيب بآيات الله تعالى هو على حاله مع فرض ردهم إلى الدنيا بعد البعث. فحكمه حكمه من غير فرق.

و قوله: «وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ» أي: في قولهم: «يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا»، إلخ، و التمني و إن كان إنشاء لايقع فيه الصدق و الكذب إلا أنهم لما قالوا: «نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ» أي: ردّنا الله إلى الدنيا و لو ردنا لم نكذب، و لم يقولوا: نعود و لانكذب، كان كلامهم مضمنا للمسألة و الوعد أعني: مسألة الرد و وعد الإيمان و العمل الصالح، انتهى.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾

و في جوامع الجامع: «وَقَالُوٓاْ» عطف على قوله: «لَعَادُواْ» أي: و لو ردّوا لكفروا و قالوا ما «هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا» كما كانوا يقولونه قبل معاينة القيامة.

أو عطف على قوله: «وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ» أي: و هم كاذبون في كلّ شيء و هم الذين قالوا ذلك «وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ» للتوبيخ و السؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي مولاه.

و قيل: وقفوا على جزاء ربهم، و قيل: عرّفوه حق التعريف كما يقال: وقفته على كلام فلان أي: عرفته إياه.

«قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّ» هذا تعيير من الله لهم على تكذيبهم بالبعث «بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ» أي: بكفركم، انتهى.

و في الميزان: «وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا» إلى آخر الآيتين. ذكر لإنكارهم الصريح للحشر و ما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد و أخذ الاعتراف بما أنكروه، و الوثنية كانت تنكر المعاد... و قولهم بشفاعة الشركاء إنّما كان في الأُمور الدنيوية من جلب المنافع إليهم و دفع المضار و المخاوف عنهم.

فقوله: «وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ»، إلخ، حكاية لإنكارهم أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لاحياة بعدها، و ما نحن بمبعوثين بعد الممات، وقوله: «وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ»

كالجواب و هو بيان ما يستتبعه قولهم: «إِنْ هِيَ إِلَّا»، إلخ، للنبي ﷺ في صورة التمني لمكان قوله: «وَلَوْ تَرَىٰ» و هو أنهم سيصدقون بما جحدوه، و يعترفون بما أنكروه بقولهم: «وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» إذ يوقفون على ربهم فيشاهدون عيانا هذا الموقف الذي اُخبروا به في الدنيا، و هو أنهم مبعوثون بعد الموت فيعترفون بذلك بعد ما أنكروه في الدنيا، إلى أن قال: و قوله:«أَلَيْسَ هَٰذَا» أي: أليس البعث الذي أنكرتموه في الدنيا، و هو لقاء الله « بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» به و تسترونه، انتهى.

و في كنز الدقائق: قوله: «وَقَالُوٓا»: عطف على «عَادُوا»، أو على «إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ»، أو على «نُهُوا». أو استئناف بذكر ما قالوه في الدنيا، انتهى.

وفي تفسير كاشف:«وَلَوْ تَرَىٰ»، جواب «لَوْ» محذوف و تقدير آن: «لشاهدت أمرا عظيما» است.

و في تفسير الكرمي: قائل القول الذي أصحر به تعالى هم الكفّار بالمبدأ الذين يحسّون بوجودهم ولكنّهم ينكرون معطيه و مفيضه و واهبه و لذلك قصروا وجودهم إحياء على فترة الحياة المحسوسة لهم بالفعل التي لايعللونها بعلة و لذلك قالوا «وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» لأن البعث تجديد حياة يحتاج إلى عامل حكيم مقتدر على المثوبة و العقوبة كذلك «وَلَوْ تَرَىٰ» يا مدرك ذلك اليوم حين يقفون بين يدي ربهم للحساب فيقول لهم: ها أنتم قد بعثتم و تحقق في الخارج ما أنكرتموه أفليس ما طرق أسماعكم بكثرة و هو ما تحسونه بالفعل حقا فبلا ريب يقولون بلى مقسمين به تعالى فيقول لهم حينئذٍ لو لم تتم عليكم حجتي لما

أخذتكم ولكن الحجة متواترة بتواتر الرسل عليكم قد تمت موفرة فذوقوا العذاب الموعود بسبب كفركم بما دعيتم إلى الإيمان به، انتهى.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٣٢﴾

و في جوامع الجامع: «كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ» ببلوغ الآخرة و ما يتصل بها من الجزاء و «حَتَّىٰٓ» غاية لـ «كَذَّبُواْ» أي: دام تكذيبهم إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة «بَغْتَةً» أي: فجأة و انتصابها على الحال بمعنى باغتة و على المصدر بمعنى بَغتتهم بغتة «فَرَّطْنَا فِيهَا» الضمير للحياة الدنيا و إن لم يجر لها ذكر للعلم بها، أو للساعة على معنى قصرنا في شأنها نحو قوله: «فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ». «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ» هو مثل قوله: «فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» لأن الأثقال تحمل على الظهور في العادة كما أن الكسب يكون بالأيدي «سَآءَ مَا يَزِرُونَ» أي: بئس شيئا يزرون وزرهم حذف المخصوص بالذم و جعل ـ سبحانه ـ أعمال الدنيا لعبا و لهوا لأنها لاتجدي و لاتعقب نفعا كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة، إلى أن قال: و قوله: «لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ» دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لعب و لهو، انتهى.

و في الميزان: و الآية تبين تبعة أُخرى من تبعات إنكارهم البعث و هو أن الساعة سيفاجئهم فينادون بالحسرة على تفريطهم فيها و يتمثل لهم أوزارهم و ذنوبهم و هم يحملونها على ظهورهم و هو أشق أحوال الإنسان و أردؤها ألا ساء ما يزرون و يحملونه من الثقل أو من الذنب أو من وبال الذنب.

و الآية أعني قوله: «قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ» بمنزلة النتيجة المأخوذة من قوله: «وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا» إلى آخر الآيتين، و هي أنهم بتعويضهم راحة الآخرة و روح لقاء الله من إنكار البعث و ما يستتبعه من أليم العذاب خسروا صفقة.

قوله تعالى: «وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ»، إلخ، تتمة للكلام فيه بيان حال الحياتين: الدنيا و الآخرة و المقايسة بينهما فالحياة الدنيا لعب و لهو ليس إلا فإنها تدور مدار سلسلة من العقائد الاعتبارية و المقاصد الوهمية كما يدور عليه اللعب فهي لعب، ثمّ هي شاغلة للإنسان عما يهمّه من الحياة الأُخرى الحقيقية الدائمة فهي لهو، و الحياة الآخرة لكونها حقيقية ثابتة فهي خير و لاينالها إلا المتقون فهي خيرلهم، انتهى.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: «قَدْ» هاهنا بمنزلة «رُبَمَا» الذي يجيء لزيادة الفعل و كثرته، و الهاء في «إِنَّهُ» ضمير الشأن، و «لَيَحْزُنُكَ» قرئ بفتح الياء و ضمّ الزاء، و بضمّ الياء و كسر الزاء، و «ٱلَّذِى يَقُولُونَ» هو قولهم:«شاعر مجنون» و «ساحر» و «كذاب» «فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ» قرئ بالتشديد و التخفيف من كذبّه: إذا جعله كاذبا، و أكذبه: إذا وجده كاذبا، و المعنى أنهم لايكذبونك في الحقيقة و إنّما يكذبون الله لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فتكذيبك راجع إليه و إلى جحود آياته، و هذا تسلية له عليه السلام، إلى أن قال: «وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ» أقام الظاهر مقام الضمير ليدل على أنهم ظلموا في جحودهم بآيات الله.

و عن عليّ عليه السلام أنه قرئ عنده: «لَا يُكَذِّبُونَكَ» فقال: بلى و الله فقد كذبوه ولكن لايكذبونك: لايأتون بحق أحق من حقك.

«وَلَقَدْ كُذِّبَتْ» تسلية أيضا «فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ» أي: على تكذيبهم و إيذائهم «حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا» إياهم على المكذبين «وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ» أي: لمواعيده من قوله:«وَ لَقَدْسَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ»[1]، انتهى.

و في الميزان: في ذيل الآيات المبحوث عنها تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هفوات المشركين في أمر دعوته، و تطييب لنفسه بوعد النصر الحتمي، و بيان أن الدعوة الدينية إنّما ظرفها الاختيار الإنساني فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر فالقدرة و المشية الإلهية الحاتمتان لاتداخلان ذلك حتّى تجبراهم على القبول، و لو شاء الله

---

١. الصافات: ١٧٢ ـ ١٧١.

لجمعهم على الهدى، إلى أن قال: و كأنّ المعنى قد نعلم إن قولهم ليحزنك لكن لاينبغي أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم إليك لأنك لاتدعو إلا إلينا، و ليس لك فيه إلا الرسالة، بل هم يظلمون بذلك آياتنا يجحدونها، إلى أن قال: «وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ» كان ظاهر السياق أن يقال: ولكنّهم، فالعدول إلى الظاهر للدلالة على أن الجحد منهم إنّما هو عن ظلم منهم لا عن قصور و جهل و غير ذلك فليس إلا عتوا و بغيا و طغيانا و سيبعثهم الله ثمّ إليه يرجعون. و لذلك وقع الالتفات في الكلام من التكلّم إلى الغيبة فقيل: «بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ» و لم يقل: بآياتنا، للدلالة على أن ذلك منهم معارضة مع مقام الألوهية و استعلاء عليه و هو المقام الذي لايقوم له شيء.

إلى أن قال: قوله تعالى: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ» إلى آخر الآية، هداية له صلى الله عليه وآله وسلم إلى سبيل من تقدمه من الأنبياء و هو سبيل الصبر في ذات الله، و قد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1].

و قوله: «حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا» بيان غاية حسنة لصبرهم، و إشارة إلى الوعد الإلهي بالنصر، و في قوله: «وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ» تأكيد لما يشير إليه الكلام السابق من الوعد و حتم له، و إشارة إلى ما ذكره بقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[2].

إلى أن قال: و قوله في ذيل الآية: «وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ» تثبيت و استشهاد لقوله: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ»، انتهى.

---

١. الأنعام: ٩٠.

٢. المجادلة: ٢١.

في كنز الدقائق: و في أمالي الصدوق، عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال لعلقمة: إنّ رضى الناس لايُملك، و ألسنتهم لاتضبط. و كيف يسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله و رسله و حجج الله عليهم السلام. ألم ينسبوه إلى الكذب في قوله: إنّه رسول من الله إليهم، حتّى أنزل الله عزّوجلّ عليه «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا»، انتهى.

و في تفسير كاشف: «قَدْ نَعْلَمُ» مضارعى است به معناى ماضى، يعنى «قَدْ عَلِمْنَا». «حَتَّىٰٓ» به معناى «إِلَى»، انتهى.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: كان يعظم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إعراض قومه عن الإيمان و قبول دينه فنزلت، و نحوه ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾[1] «فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ» أي: إن قدرت و تهيأ لك «أن» تطلب «نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ» أي: سربا و منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحتها حتّى تطلع لهم آية يؤمنون عندها «أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم»منها «بِـَٔايَةٍ» فافعل أي: إنك لاتستطيع ذلك، و حذف جواب إن، قيل: فتأتيهم بآية أفضل مما آتيناهم به يريد أنه لا آية أفضل منه، «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ» بأن يأتيهم

---

١. المجادلة: ٢١.

بآية ملجئة ولكنه لايفعل لخروجه عن الحكمة «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ» الذين يجهلون ذلك و يرومون ما هو خلافه، انتهى.

و في الميزان: و جواب الشرط في الآية محذوف للعلم به، و التقدير كما قيل: و إن استطعت أن تبتغي كذا و كذا فافعل.

و المراد بالآية في قوله تعالى: «فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ» الآية التي تضطرهم إلى الإيمان فإن الخطاب أعني قوله: «وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ»، إلخ، إنّما أُلقي إلى النبي ﷺ من طريق القرآن الذي هو أفضل آية إلهية تدل على حقية دعوته، و يقرب إعجازه من فهمهم و هم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لاينبغي أن يكبر و يشق عليك إعراضهم فإن الدار دار الاختيار، و الدعوة إلى الحق و قبولها جاريان على مجرى الاختيار، و إنك لاتقدر على الحصول على آية توجب عليهم الإيمان و تلزمهم على ذلك فإن الله سبحانه لم يرد منهم الإيمان إلّا على اختيار منهم فلم يخلق آية تجبر الناس على الإيمان و الطاعة، و لوشاء الله لآمن الناس جميعا فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلاتبتئس و لاتجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الإلهية.

و أما ما احتمله بعضهم: أن المراد: فتأتيهم بآية هي أفضل من الآية التي أرسلناك بها أي: القرآن فلا تلائمه سياق الآية و خاصة قوله: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ» فإنه ظاهر في الاضطرار.

ومن هنا يظهر: أن المراد بالمشية أن يشاء الله منهم الاهتداء إلى الإيمان فيضطروا إلى القبول فيبطل بذلك اختيارهم. هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآية الشريفة.

لكنه سبحانه فيما يشابه الآية من كلامه لم يبن عدم مشيته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]، إلى أن قال: و بالجملة فالدعوة الدينية لاتسلك إلا سبيل الاختيار، و الآيات الإلهية لاتنزل إلا مع مراعاة الاختيار و لايهدي الله سبحانه إليه إلا من تعرض لرحمته و استعدّ لهدايته من طريق الاختيار، انتهى.

و في كنز الدقائق:«فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ»: منفذا تنفذ فيه إلى الأرض فتطلع لهم آية، أو مصعدا تصعد به إلى السماء فتنزل منها آية. و «فِي ٱلْأَرْضِ» صفة لـ«نَفَقًا» و «فِي ٱلسَّمَآءِ» صفة لـ«سُلَّمًا». و يجوز أن يكونا متعلقين «بِتَبْتَغِيَ»، أو حالين من المستكن. و جواب الشرط الثاني محذوف، أي: فافعل. و الجملة جواب الأول. و المقصود بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، و أنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها، رجاء إيمانهم.

«وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ» أي: لو شاء الله جمعهم على الهدى لجمعهم، بأن يأتيهم آية يخضعوا لها ولكن لايفعل لخروجه عن الحكمة، إلى أن قال: «فَلَا

---

١. السجدة: ١٣.

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ»: بالحرص على ما لايكون و الجزع في مواطن الصبر. فإن ذلك من دأب الجهلة، انتهى.

فالمطلوب هو الاهتداء مع الاختيار لامع الإلجاء، لأن التكامل الاختياري الذي يكون من أفضل أنواع التكامل مبني على الاختيار لاالإلجاء، و هذا الاهتداء أوجبه الحكمة العليا للإنسان و تحقق بإعجاز القرآن و سائر المعجزات.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ» و الذين تحرص على إيمانهم بمنزلة «ٱلْمَوْتَىٰ»، «ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ» ثمّ وصف «ٱلْمَوْتَىٰ» بأنه «يَبْعَثُهُمُ» و يحكم فيهم «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» فحينئذٍ يسمعون و أما قبل ذلك فلاسبيل إلى إسماعهم «وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ».

تركوا الاعتداد بما نزّل عليه من آيات الله و المعجزات مع كثرتها كأنه لم ينزل عليه شيء و من الآيات عنادا منهم، «قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً» تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل على بني إسرائيل و نحوه أو آيةً إن جحدوها جاءهم العذاب، «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ» أنه ـ سبحانه ـ يقدر عليه و أن صارفاً من الحكمة يصرف عنه، انتهى.

و في الميزان: فإن ملخصه أنك لاتستطيع صرفهم عن هذا الإعراض، و الحصول على آية تسوقهم إلى الإيمان، فبين في هذه الآية أنهم بمنزلة الموتى لاشعور لهم و لاسمع حتّى يشعروا بمعنى الدعوة الدينية و يسمعوا دعوة الداعي و هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فهذه الهياكل المتراءات من الناس صنفان: صنف منهم أحياء يسمعون، «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ»، و صنف منهم أموات لايسمعون و إن كانوا ظاهرا في صور الأحياء و هؤلاء يتوقف سمعهم الكلام على أن يبعثهم الله، و سوف يبعثهم فيسمعون ما لم يستطيعوا سمعه في الدنيا، إلى أن قال: فالكلام مسوق سوق الكناية، و المراد بالذين يسمعون المؤمنون و بالموتى المعرضون عن استجابة الدعوة من المشركين و غيرهم، و قد تكرر في كلامه تعالى وصف المؤمنين بالحياة و السمع، و وصف الكفّار بالموت و الصمم، إلى أن قال: و قد تكرر في بعض الأبحاث السابقة معنى آخر لهذه الأوصاف التي حملها الجمهور من المفسرين على الكناية و التشبيه، و أن لها معنى من الحقيقة. و في الآية دلالة على أن الكفّار و المشركين سيفهمهم الله الحق و يسمعهم دعوته في الآخرة كما فهم المؤمنين و أسمعهم في الدنيا، فالإنسان مؤمناً كان أو كافرا لامناص له عن فهم الحق عاجلاً أو آجلاً، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ» إلى آخر الآية، تحضيض منهم على تنزيل الآية بداعي تعجيز النبي صلى الله عليه وآله وسلم و لما صدر هذا القول منهم و بين أيديهم أفضل الآيات أعني: القرآن الكريم الذي كان ينزل عليهم سورة سورة و آية آية، و يتلى عليهم حيناً بعد حين

تعيّن أن الآية التي كانوا يقترحونها بقولهم: «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ» هي آية غير القرآن، و أنهم كانوا لايعدونه آية تقنعهم و ترتضيه نفوسهم بما لها من المجازفات و التهوسات.

و قد حملهم التعصب لآلهتهم أن ينقطعوا عن الله سبحانه كأنه ليس بربهم، فقالوا: «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ» و لم يقولوا: من ربنا أو من الله و نحوهما إزراءً بأمره و تأكيدا في تعجيزه أي: لو كان ما يدعيه و يدعوا إليه حقا فليغر له ربه الذي يدعوا إليه و لينصره و لينزل عليه آية تدل على حقية دعواه.

و الذي بعثهم إلى هذا الاقتراح جهلهم بأمرين: أحدهما: أن الوثنية يرون لآلهتهم استقلالا في الأُمور المرجوعة إليهم في الكون مع ما يدعون لهم من مقام الشفاعة فإله الحرب أو السلم له ما يدبره من الأمر من غير أن يختل تدبيره من ناحية غيره، و كذلك إله البرّ و إله البحر و إله الحب و إله البغض و سائر الآلهة، فلايبقى لله سبحانه شأن يتصرف فيه فقد قسّم الأمر بين أعضاده و إن كان هؤلاء شفعاءه و هو رب الأرباب، فليس يسعه تعالى أن يبطل أمر آلهتهم بإنزال آية تدل على نفي أُلوهيتها. و كان يحضّهم على هذه المزعمة و يؤيد هذا الاعتقاد في قلوبهم ما كانوا يتلقونه من يهود الحجاز أن يدالله مغلولة لاسبيل له إلى تغيير شيء من النظام الجاري، و خرق العادة المألوفة في عالم الأسباب.

و ثانيهما: أن الآيات النازلة من عند الله سبحانه إذا كانت مما خصّ الله به رسولا من رسله من غير أن يقترحه الناس فإنّما هي بينات تدل على صحة دعوى الرسول من

غير أن يستتبع محذورا للناس المدعوين كالعصا و اليد البيضاء لموسى و إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير لعيسى، و القرآن الكريم لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم .

لكن الآية لو كانت مما اقترحها الناس فإن سنة الله جرت على القضاء بينهم بنزولها فإن آمنوا بها و إلا نزل عليهم العذاب و لم ينظروا بعد ذلك كآيات نوح و هود و صالح و غير ذلك، انتهى.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: جمع بهذين القولين جميع الحيوانات لأنها لاتخلو من أن تكون ممّا يدبّ على الأرض أو مما يطير، «إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» مكتوبة أرزاقها و آجالها و أعمالها كما كتبت أرزاقكم و آجالكم و أعمالكم، و قيل: أشباهكم في أنّ الله أبدعها، و في دلالتها على وحدانيته و في أنهم يموتون و يحشرون، «مَّا فَرَّطْنَا» ما تركنا «فِي ٱلْكِتَٰبِ» أي: في اللوح المحفوظ «مِن شَيْءٍ» من ذلك لم نكتبه و لم نثبت ما وجب إثباته مما يختص به، و قيل: المراد بالكتاب القرآن لأنه ـ تعالى ـ ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه من اُمور الدين و الدنيا إما مجملا و إما مفصّلا، «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» يعني: الاُمم كلّها فيعوضها و ينتصف لبعضها من بعض، و فيه دلالة على عظم قدرته و لطف تدبيره في الخلائق المختلفة الأجناس

و حفظه لمالها و عليها و أن المكلّفين لم يختصوا بذلك دون من سواهم، و لمّا ذكر من خلائقه ما يشهد لربوبيته قال: «وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ» أي: صمّ لايسمعون كلام المنبّه «بُكۡمٌ» لاينطقون بالحق، خابطون في ظلمات الكفر فهم غافلون عن تأمّل ذلك.

«مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ» أي: يخذله و لايلطف به لأنه ليس من أهله «وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ» أي: يلطف به لأنه ليس من أهله، انتهى.

و في الميزان: و الخطاب في الآية للناس، و قد ذكر فيها أن الحيوانات أرضية كانت أو هوائية هي اُمم أمثال الناس، و ليس المراد بذلك كونها جماعات ذوات كثرة و عدد فإن الاُمة لاتطلق على مجرد العدد الكثير، بل إذا جمع ذلك الكثير جامع واحد من مقصد اضطراري أو اختياري يقصده أفراده، و لا أن المراد مجرد كونها أنواعا شتى كلّ نوع منها يشترك أفراده في نوع خاص من الحياة و الرزق و السفاد و النسل و المأوى و سائر الشؤون الحيوية فإن هذا المقدار من الاشتراك و إن صحح الحكم بمماثلتها الإنسان لكن قوله في ذيل الآية: «ثمّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ» يدلّ على أن المراد بالمماثلة ليس مجرد التشابه في الغذاء و السفاد و الإواء، بل هناك جهة اشتراك اُخرى تجعلها كالإنسان في ملاك الحشر إلى الله، و ليس ملاك الحشر إلى الله في الإنسان إلا نوعا من الحياة الشعورية التي تخدّ للإنسان خدا إلى سعادته و شقائه، فإن الفرد من الإنسان يمكن أن ينال في الدنيا ألذّ الغذاء و أوفق النكاح و أنضر المسكن و لايكون مع ذلك سعيدا في حياته لما ينكب عليه من الظلم و الفجور أو أن يحيط به جماع المحن و الشدائد و البلايا و هو سعيد في حياته مبتهج بكمال الإنسانية و نور العبودية.

بل حياة الإنسان الشعورية و إن شئت فقل: الفطرة الإنسانية و ما يؤيدها من دعوة النبوة تسنّ للإنسان سنة مشروعة من الاعتقاد و العمل إن أخذ بها و جرى عليها و وافقه المجتمع عليه سعد في الحياتين: الدنيا و الآخرة، و إن استن بها وحده سعد بها في الآخرة أو في الدنيا و الآخرة معا، و إن لم يعمل بها و تخلف عن الأخذ ببعضها أو كلّها كان في ذلك شقاؤه في الدنيا و الآخرة.

و هذه السنة المكتوبة له تجمعها كلمتان: البعث إلى الخير و الطاعة، و الزجر عن الشر و المعصية، و إن شئت قلت: الدعوة إلى العدل و الاستقامة، و النهي عن الظلم و الانحراف عن الحق فإن الإنسان بفطرته السليمة يستحسن اُمورا هي العدل في نفسه أو غيره، و يستقبح اُمورا هي الظلم على نفسه أو غيره ثمّ الدين الإلهي يؤيدها و يشرح له تفاصيلها.

و هذا محصل ما تبين لنا في كثير من الأبحاث السابقة، و كثير من الآيات القرآنية تفيد ذلك و تؤيده كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، إلى أن قال: و الإمعان في التفكر في أطوار الحيوانات العجم التي تزامل الإنسان في كثير من شؤون الحياة، و أحوال نوع منها في مسير حياتها و تعيشها يدلنا على أن لها كالإنسان عقائد و آراء فردية و اجتماعية تبني عليها حركاتها و سكناتها في ابتغاء البقاء نظيره ما يبني الإنسان تقلباته في أطوار الحياة الدنيا على سلسلة من العقائد و الآراء، انتهى.

---

١. الشمس: آيات ١٠ ـ ٧.

بقي شيء: و هو أن ذكر قوله عزّوجلّ: «إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» ترغيب نوع الإنسان نحو العدل و الابتعاد عن الظلم و الجور بملاحظة أن نوع الحيوان سلكوا هذا المسلك فالنوع الإنساني أولى بهذا السلوك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أَرَءَيْتَكُمْ» معناه أخبروني، و «كُمْ» لامحل له من الإعراب لأنك تقول: «أرايتك زيدا ما شأنه» فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول: أرايت نفسك زيدا ما شأنه و ذلك فاسد، و المعنى: أخبروني «إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ» في الدنيا «أَوْ أَتَتْكُمُ» القيامة من تدعون؟ ثمّ بكّتهم بقوله: «أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ» أي أتخصّون آلهتكم بالدعوة كما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ أم تخصون الله دونها؟ «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ» بل تخصون الله بالدعاء دون الآلهة «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ» إلى كشفه إن شاء أن يتفضل عليكم بكشفه «وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ» أي: و تتركون آلهتكم و لاتذكرونها في ذلك الوقت، انتهى.

و في الميزان: لفظ «أَرَءَيْتَكُمْ» بهمزة الاستفهام و صيغة المفرد المذكر الماضي من الرؤية و ضمير الجمع المخاطب، أخذه أهل الأدب بمعنى أخبرني، قال الراغب في المفردات: و يجري «أَرَءَيْتَ» مجرى أخبرني فيدخل عليه الكاف و يترك التاء على حالته في التثنية و الجمع و التأنيث، و يسلط التغيير على الكاف

دون التاء، إلى أن قال: و في الآية تجديد احتجاج على المشركين، و إقامة حجة على بطلان شركهم من وجه، و هو أنها تفرض عذابا آتيا من جانب الله أو إتيان الساعة إليهم، ثمّ تفرض أنهم يدعون في ذلك من يكشف العذاب عنهم على ما هو المغروز في فطرة الإنسان أنّه يتوجه بالمسألة إذا بلغت به الشدة نحو يقدر أن يكشفها عنه. ثمّ تسألهم أنه من الذي تدعونه و تتوجهون إليه بالمسألة «إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ».

أغير الله تدعون من أصنامكم و أوثانكم التي سميتموها من عند أنفسكم آلهة أم إياه تدعون؟ و هيهات أن تدعوا غيره و أنتم تشاهدون حينئذٍ أنها محكومة بالأحكام الكونية مثلكم لاينفعكم دعاؤها شيئا.

بل تنسون هؤلاء الشركاء المسمين آلهة لأن الإنسان إذا أحاطت به البلية و هزهزته الهزاهز ينسى كلّ شيء دون نفسه إلا أن في نفسه رجاء أن ترتفع عنه البلية، و الرافع الذي يرجو رفعها منه هو ربه، فتنسون شركاءكم و تدعون من يرفعها من دونهم و هو الله عز اسمه فيكشف الله سبحانه ما تدعون كشفه إن شاء أن يكشفه، و ليس هو تعالى بمحكوم على الاستجابة و لامضطراً إلى الكشف إذا دعي، بل هو القادر على كلّ شيء في كلّ حال. فإذا كان الله سبحانه هو الرب القدير الذي لاينساه الإنسان و إن نسي كلّ شيء إلا نفسه و يضطر إلى التوجه إليه ببعث من نفسه عند الشدائد القاصمة الحاطمة دون غيره من الشركاء المسمين آلهة فهو سبحانه هو رب الناس دونها.

فمعنى الآية «قُلْ» يا محمد «أَرَءَيْتَكُمْ» أخبروني «إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ» فرض إتيان عذاب من الله و لاينكرونه، و فرض إتيان الساعة و لم يعبأ بإنكارهم لظهوره «أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ» لكشفه، و قد حكى الله في كلامه عنهم سؤال كشف العذاب في الدنيا و يوم القيامة جميعا لما أن ذلك من فطريات الإنسان «إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ» و جئتم بالنصفة «بَلْ إِيَّاهُ» الله سبحانه دون غيره من أصنامكم «تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ» من العذاب «إِن شَآءَ» أن يكشفه كما كشف لقوم يونس، و ليس بمجبر و لامضطراً إلى القبول لقدرته الذاتية «وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ» من الأصنام و الأوثان على ما في غريزة الإنسان أن يشتغل عند إحاطة البلية به عن كلّ شيء بنفسه، و لايهمّ إلا بنفسه لضيق المجال به أن يتلهى بما لاينفعه، فاشتغاله و الحال هذه بدعاء الله سبحانه و نسيانه الأصنام أصرح حجة أنه تعالى هو الله لا إله غيره و لا معبود سواه، انتهى.

و في كنز الدقائق: «قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ»: استفهام تعجيب. و (الكاف) حرف خطاب، أكد به الضمير للتأكيد، لامحل له من الإعراب لأنك تقول: أرءيتك زيدا ما شأنه. فلو جعلت الكاف مفعولا، كما قاله الكوفيون، لعدّيت الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، و للزم في الآية أن يقال: أرأيتموكم، بل الفعل معلق، أو المفعول محذوف تقديره: أرأيتكم (أي أخبروني) آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها، إلى أن قال: «إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ»: في الدنيا كما أتى من قبلكم. «أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ» القيامة و هولها. «أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ»: هو تبكيت لهم. «إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ»: أن الأصنام آلهة. و جوابه محذوف، أي: فادعوه. «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ»: بل تخصونه

بالدعاء، كما حكي عنهم في مواضع. و تقديم المفعول، لإفادة التخصيص.

«فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ»: كشفه. «إِن شَآءَ»: إن شاء أن يتفضل عليكم بكشفه.

«وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ»: و تنسون آلهتكم في ذلك الوقت، لما ركز في العقول أنه القادر على كشف الضرّ دون غيره. أو تنسونه من شدة الأمر و هوله، إلى أن قال: عن عليّ أميرالمؤمنين عليه السلام: أنه قال له رجل: فما تفسير قوله: «الله» فقال: هو الذي يتألّه إليه عند الحوائج و الشدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من هو دونه، و تقطع الأسباب من كلّ من سواه، الحديث، انتهى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: «ٱلْبَأْسَآءِ» من البأس أو البؤس و «ٱلضَّرَّآءِ» من الضر و قيل: البأساء: القحط و الجوع و الضراء: المرض و نقصان الأنفس و الأموال، و المعنى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ» إليهم الرسل فكذبوهم « فَأَخَذْنَٰهُم» بالبليات في أنفسهم و أموالهم لكي يتضرّعوا و يخضعوا و يتذللوا و يتوبوا عن ذنوبهم.

«فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ» معناه نفي التضرع كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا ولكنه جاء بـ«لَوْلَآ» ليدل على أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلاعنادهم و قسوة قلوبهم.

«فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ» من البأساء و الضرّاء أي: تركوا الاتعاظ به «فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ» من الصحة و التوسعة في الرزق و أصناف النعم كما يفعل الوالد البار بولده العاق يخاشنه تارة و يلاطفه اُخرى طلبا لصلاحه «حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ» من الخير و النعم و لم يزيدوا إلا على البطر و الأشر و ما تصدوا لتوبة و لا اعتذار «أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً» أي: مفاجأة من حيث لايشعرون «فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ» آيسون من النجاة و الرحمة، و قيل: متحيرون منقطعو الحجة « فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ» أي: آخرهم لم يترك أحد و استؤصلت شأفتهم بالعذاب فلم يبق لهم عقب و لانسل «وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» على إهلاك أعدائه و إعلاء كلمته و هذا إيذان بوجوب الحمدلله عند هلاك الظلمة و أنه من أجلّ النعم، انتهى.

و في الميزان: البأساء و البأس و البؤس هو الشدة و المكروه إلا أن البؤس يكثر استعماله في الحرب و نحوه و البأس و البأساء في غيره كالفقر و الجدب و القحط و نحوها، و الضر و الضراء سوء الحال فيما يرجع إلى النفس كغم و جهل أو ما يرجع إلى البدن كمرض و نقص بدني أو ما يرجع إلى غيرهما كسقوط جاه أو ذهاب مال، و لعلّ المقصود من الجمع بين البأساء و الضراء الدلالة على تحقق الشدائد في الخارج كالجدب و السيل و الزلزلة و ما يعود إلى الناس من قبلها من سوء الحال كالخوف و الفقر و رثاثة الحال. و الضراعة هي المذلة و التضرع

التذلل و المراد به التذلل إلى الله سبحانه لكشف ما نزل عليهم من نوازل الشدة و الرزية.

و الله سبحانه يذكر لنبيه ﷺ في هذه الآية و ما يتلوها إلى تمام أربع آيات سنته في الأُمم التي من قبله إذ جاءتهم رسلهم بالبينات: أنه كان يرسل إليهم الرسل فيذكرونهم بتوحيد الله سبحانه و التضرع و إخلاص الإنابة إليه ثمّ يبتليهم بأنواع الشدة و المحن و يأخذهم بالبأساء و الضراء ولكن بمقدار لايلجئهم إلى التضرع و لايضطرهم إلى الابتهال و الاستكانة لعلهم يتضرعون إليه بحسن اختيارهم، و يلين قلوبهم فيعرضوا عن التزيينات الشيطانية و عن الإخلاد إلى الأسباب الظاهرية لكنهم لم يتضرعوا إليه، بل أقسى الاشتغال بأعراض الدنيا قلوبهم و زين لهم الشيطان أعمالهم، و أنساهم ذلك ذكر الله.

فلما نسوا ذكر الله سبحانه فتح الله عليهم أبواب كلّ شيء و صبّ علهيم نعمه المتنوعة صبّا حتّى إذا فرحوا بما عندهم من النعم و اغتروا و استقلوا بأنفسهم من دون الله أخذهم الله بغتة و من حيث لايشعرون به فإذا هم آيسون من النجاة شاهدون سقوط ما عندهم من الأسباب فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالمين. و هذه السنة سنة الاستدراج و المكر الذي لخصها الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[1]، إلى أن قال: إن الآية لاتريد من البأساء و الضراء إلا ما لايبلغ من الشدة و المهابة مبلغا يذهلون به عن كلّ سبب و ينسون به كلّ وسيلة عادية، و من الدليل على ذلك قوله في الآية: «لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ» إذ «لَعَلَّ» كلمة رجاء و لا رجاء مع

---

١. الأعراف: ١٨٣ ـ ١٨٢.

الإلجاء و الاضطرار، و كذا قوله تعالى: «وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» فإن ظاهره أنهم اغتروا بذلك و توسلوا في رفع البأساء و الضراء إلى أعمالهم التي عملوها بأيديهم و دبروها بتدابيرهم للغلبة على موانع الحياة و أضداد العيش فاشتغلوا بالأسباب الطبيعية الملهية إياهم عن التضرع إلى الله سبحانه و الاعتصام به، إلى أن قال: فقوله: « فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ» أي: إن الهلاك استوعبهم فلم يبق منهم عينا و لا أثرا أو أبادهم جميعا فلم يخلص منهم أحد كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[1]، انتهى.

و لقد أفاد و أجاد في أن فتح أبواب كلّ شيء في مثل الكفّار و المخالفين في المقام يكون من باب سنة الاستدراج و إن كان ذلك أحيانا من باب جزاء التقوى كما صرح به قوله عزّوجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[2].

ولكن قرائن المقام تدل على أنه في المقام من باب سنة الاستدراج.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

---

١. الحاقة: ٨.

٢. المائدة: ٦٦.

وفي جوامع الجامع: «إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ» بأن يصمكم و يعميكم، «وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم» بأن يغطى عليها ما يذهب عقلكم و يسلب تمييزكم «مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم» بما أخذ منكم و ختم عليه، إلى أن قال: و إنّما قابل البغتة بالجهرة لما في البغتة من معنى الخفية و هو وقوع الأمر من غير أن يشعر به و تظهر أماراته، إلى أن قال: «إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ» الذين ظلموا بكفرهم و فسادهم «إِلَّا مُبَشِّرِينَ» من آمن بهم و بما جاءوا به «وَمُنذِرِينَ» من عصاهم و كذبّهم «يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ» جعل العذاب ماسّاً كأنه حيّ يفعل بهم ما يريد من الآلام و نحوه ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[1]، انتهى.

و في الميزان: و الختم على القلوب إغلاق بابها إغلاقا لايدخلها معه شيء من خارج حتّى تتفكر في أمرها، و تميز الواجب من الأعمال من غير: و الخير النافع منها من الشر الضار مع حفظ أصل الخاصية و هو صلاحية التعقل و إلّا كان جنونا و خبلا، إلى أن قال: الظهور التام الذي لايقبل الارتياب و لذا قابلت البغتة التي هي إتيان الشيء فجأة لايظهر على من أتاه إلا بعد إتيانه و غشيانه فلايترك له مجال التحذر. و هذه حجة بين فيها على وجه العموم أن الظالمين على خطر من عذاب الله عذابا لايتخطّاهم، و لايغلط في إصابتهم بإصابة من سواهم، ثمّ بيّن أنهم هم الظالمون لفسقهم عن الدعوة الإلهية و تكذبيهم بآيات الله تعالى. و ذلك أن معنى العذاب ليس إلا إصابة المجرم بما يسوؤه و يدمره من جزاء إجرامه و لا إجرام إلا مع ظلم، فلو أتاهم من قبل الله سبحانه عذاب لم يهلك به إلا الظالمون، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» إلى

---

١. الفرقان: ١٢.

آخر الآيتين، يبين بالآيتين أنهم هم الظالمون، و لايهلك بعذاب الله إن أتاهم إلا هم لظلمهم، إلى أن قال: فكان ملخص المضمون أمره تعالى نبيّه ﷺ أن يقيم عليهم الحجة أن لو أتاهم عذاب الله لم يهلك إلا الظالمين منهم، ثمّ يقول تعالى لرسوله: إنا نحن الملقين إليك الحجة الآتين بالعذاب نخبرك أنّ إرسالنا الرسل إنّما هو للتبشير و الإنذار فمن آمن و أصلح فلا عليه، و من كذب بآياتنا فهو الذي يمسّه عذابنا لفسقه و خروجه عن طور العبودية فلينظروا في أمر أنفسهم من أي الفريقين هم؟، انتهى.

و في تفسير الكرمي: ثمّ إنه سبحانه أبان للناس أن إرساله للرسل إنّما هو بعنوان توجيه و إرشاد و اراءة طريق لا بعنوان أنهم قادة عسكريون مشفوعون بالقوى المدمرة لمن عارضهم و عاندهم «فَمَنْ ءَامَنَ» بالمبادئ الحقة و «أَصْلَحَ» نفسه و مجتمعه أن قدر على ذلك «فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ» من الله «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» من ناحيته و أما «وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا» الدالة على صدق رسلنا و تعاليمنا فإنهم «يَمَسُّهُمُ» عذاب الآخرة بسبب فسقهم و انحرافهم عن المبدأ القويم النظام السليم، انتهى.

بقي شيء: و هو أن الإنذار و التبشير مما يتوجه الإنسان في حياته حتّى يبعد مما ينذر به و يتوجه إلى ما يبشّر به و يقرب إلى ما يبشّر به و هذان الأمران مما يتوجه إليه الإنسان بطبع فطرته و التنبيه عليهما يوجب القبول له بأزيد من غيرهما.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: «لا» أدّعي ملك «خَزَآئِنُ» رحمة «ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ» الذي يختص الله تعالى بعلمه و إنّما أعلم منه ما يعلمني الله و يخصني به، «وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ» لأني إنسان تعرفون نسبي لا أقدر على ما يقدر عليه الملك «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ» أي: ما اُنبئكم بما كان فيما مضى و ما يكون فيما يستقبل إلا بالوحي «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ» أي: الضال و المهتدي، «أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» فلاتكونوا ضالين أشباه العميان و تنصفوا من أنفسكم، انتهى.

و في الميزان: و لعلّ المراد بخزائن الله ما ذكره بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾[1].

و خزائن الرحمة هذه هي ما يكشف عن أثره، قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[2]، و هي فائضة الوجود التي تفيض من عنده تعالى على الأشياء من وجودها، و آثار وجودها و قد بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] أن مصدر هذا الأثر الفائض هو قوله، و هو كلمة «كُن» الصادر عن مقام العظمة و الكبرياء، إلى أن قال: فالمراد بخزائن الله هو المقام الذي يعطي بالصدور عنه ما اُريد من شيء من غير أن ينفد بإعطاء وجود أو يعجزه بذل و سماحة، و هذا مما يختص بالله سبحانه، و أما غيره كائنا ما كان و من كان فهو محدود و ماعنده مقدّر إذا بذل منه شيئا نقص بمقدار ما بذل، و ما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أي فقير، و إرضاء أي طالب، و إجابة أي سؤال.

---

١. الاسراء: ١٠٠.

٢. فاطر: ٢.

٣. يس: ٨٢.

و أما قوله: «وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ» فإنّما اُريد بالعلم الاستقلال به من غير تعليم بوحي، و ذلك أنه تعالى يثبت الوحي في ذيل الآية بقوله: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ» و قد بين في مواضع كلامه أن بعض ما يوحيه لرسله من الغيب، كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ...﴾[1]، إلى أن قال: فالمراد بنفي علم الغيب نفي أن يكون مجهّزا في وجوده بحسب الطبع بما لايخفى عليه معه ما لاسبيل للإنسان بحسب العادة إلى العلم به من خفيات الاُمور كائنة ما كانت.

و أما قوله: «وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ» فهو كناية عن نفي الآثار الملكية من أنهم منزهون عن حوائج الحياة المادية من أكل و شرب و نكاح و ما يلحق بذلك، إلى أن قال: فمعنى قوله: «قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ»، إلخ، قل: لم أدع فيما أدعوكم إليه و أبلغكموه أمرا وراء ما أنا عليه من متعارف حال الإنسان حتّى تبكتوني بإلزامي بما تقترحونه مني فلم أدع أني أملك خزائن الاُلوهية حتّى تقترحوا أن أفجر أنهارا أو أخلق جنة أو بيتاً من زخرف، و لا ادعيت أني أعلم الغيب حتّى اُجيبكم عن كلّ ما هو مستور تحت أستار الغيوب كقيام الساعة و لا ادعيت أني ملك حتّى تعيبوني و تبطلوا قولي بأكل الطعام و المشي في الأسواق للكسب.

قوله تعالى: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ» بيان لما يدعيه حقيقة بعد ردّ ما اتهموه به من الدعوى من جهة دعواه الرسالة من الله إليهم أي: ليس معنى قولي: إني رسول الله إليكم أن عندي خزائن الله و لا أني أعلم الغيب و لا أني ملك، بل إن الله يوحي إلي بما يوحي.

---

١. الجنّ: ٢٦.

و لم يثبته في صورة الدعوى، بل قال: «إِنْ أَتَّبِعُ»، إلخ، ليدل على كونه مأمورا بتبليغ ما يوحى إليه ليس له إلا اتباع ذلك فكأنه لما قال: لا أقول لكم كذا و لاكذا و لا كذا قيل له: فإذا كان كذلك و كنت بشرا مثلنا و عاجزا كأحدنا لم تكن لك مزية علينا فما ذا تريد منا؟ فقال: إن أتبع إلا ما يوحى إلي أن أُبشركم و أُنذركم فادعوكم إلى دين التوحيد.

و الدليل على هذا المعنى قوله بعد ذلك: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» فإن مدلوله بحسب ما يعطيه السياق: أني و إن ساويتكم في البشرية و العجز لكن ذلك لايمنعني عن دعوتكم إلى اتباعي فإن ربي جعلني على بصيرة بما أوحى إلي دونكم فأنا و أنتم كالبصير و الأعمى لايستويان في الحكم و إن كانا متساويين في الإنسانية فإن التفكر في أمرهما يهدي الإنسان إلى القضاء بأن البصير يجب أن يتبعه الأعمى، و العالم يجب أن يتبعه الجاهل، انتهى.

وفي كنز الدقائق: في كتاب التوحيد و المعاني و الأمالي: عن أبي عبدالله عليه السلام: أنه لما صعد موسى إلى الطور فنادى ربه ـ عزّوجلّ ـ قال: يا رب أرني خزائنك. فقال: يا موسى، إنّما خزائني إذا أردت شيئا أن أقول له: كن، فيكون.

«وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ»: ما لم يوح إلي. و هو من جملة المقول. «وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ» من جنس الملائكة. أو أقدر على ما يقدرون عليه. «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ» لا اتبع شيئا آخر غير الوحي، انتهى.

و في پژوهش‌هاى قرآنى لعلامة الشعراني: علم الغيب الذي كان يتوهم الكفّار وجوده في من يدعي النبوة صادقا هو أن يكون جميع الأُمور المستقبلة و

الحاضرة غير المشاهدة معلومة له بنفسه و هذا مختص به تعالى لايشركه فيه غيره.

و أما الاطلاع على الغيب في بعض الأُمور بتعليم الله على حسب ما تقتضيه المصالح، فلم ينف عنه و لا عن غيره و لكلّ نبيّ و ولي، بل لغيرهما، بل للاشقياء أيضا نصيب من الغيب، كما رأى فرعون في منامه سنين القحط و بخت نصر تداول الدول بعده إلا أنه فيهم مبهم مختلط و في الأولياء واضح و في الأنبياء أكثر وضوحا ما يدلّ على صدقهم و في القرآن منه كثير، انتهى.

أفاد الله تعالى الفرق بين أنبيائه و بين نفسه في أن الأنبياء أخذوا مراتب العلوم و القدرة من الله تعالى و الله تعالى لم يأخذ شيئا من غيره. ثمّ إن البصير و الأعمى ليسا متساويين بل على الأعمى أن يستفيد من البصير و هذا مما حكم به العقل و ينتهي العقل إليه بالتفكر.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَأَنذِرْ بِهِ» الضمير يرجع إلى «مَا يُوحَىٰ» «ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ» الذين يعترفون بالبعث و الحشر.

الصادق عليه السلام : أنذر بالقرآن الذين يرجون الوصول إلى ربهم ترغّبهم فيما عنده فإن القرآن شافع مشفع «لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ» أي: من دون الله «وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ» فإن شفاعة الشافعين من الأنبياء و المؤمنين تكون بإذن الله ـ تعالى ـ فهي راجعة إليه سبحانه على أن هذه الجملة في موضع الحال من «يُحْشَرُوٓاْ» و المعنى: يخافون أن يحشروا غير منصورين و لامشفوعا لهم، و لابد من هذه الحال لأنّ كلّ الناس محشور فالمخوف إنّما هو الحشر على هذه الحال، ثمّ ذكر ـ سبحانه ـ المتقين و أمر بتقديمهم و تقريبهم فقال: «وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم» يعبدونه «بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ» يطلبون ثوابه و يبتغون مرضاته، و الوجه يعبّر به عن ذات الشيء و حقيقته.

روي: أن رؤساء قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ لو طردت هؤلاء الأعبد ـ يعنون فقراء المؤمنين ـ جلسنا إليك، فقال عليه السلام : «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فأقمهم عنّا إذا جئنا، قال: «نعم» طمعا في إيمانهم.

«مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ» كقوله: «إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى» و ذلك أنهم طعنوا في دينهم و إخلاصهم، و المعنى: و لو كان الأمر كما يقولون عند الله فما عليك إلا اعتبار الظاهر و إن كان باطنهم غير مرضي فحسابهم عليهم لايتعداهم إليك كما أن حسابك لايتعداك إليهم كقوله: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ».

وقيل: إن الضمير للمشركين و المعنى: لايؤاخذون بحسابك و لا أنت تؤاخذ بحاسبهم حتّى يهمّك إيمانهم و يجرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين و قوله: «فَتَطْرُدَهُمْ» جواب النفي و «فَتَكُونَ» جواب النهي و يجوز أن يكون عطفا على «فَتَطْرُدَهُمْ» على وجه التسبيب لأن كونه ظالما مسبّب عن طردهم، انتهى.

و في الميزان: ظاهر السياق في قوله تعالى: «وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ» إلى آخر الآية، أن المشركين من قومه صلى الله عليه وآله وسلم اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به فنهاه الله تعالى في هذه الآية عن ذلك.

و ذلك منهم نظير ما اقترحه المستكبرون من سائر الأُمم من رسلهم أن يطردوا عن أنفسهم الضعفاء و الفقراء من المؤمنين استكبارا و تعزّزا، و قد حكى الله تعالى ذلك عن قوم نوح فيما حكاه عن محاجته عليه السلام حجاجاً يشبه ما في هذه الآيات من الحجاج قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[1]، إلى أن قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[2] إلى أن قال: و التطبيق بين هذه الآيات و الآيات التي نحن فيها يقضي أن يكون المراد بالذين يدعون ربهم بالغداة و العشي و يريدون وجهه هو المؤمنين، و إنّما ذكر دعاءهم بالغداة و العشي و هوصلاتهم أو مطلق دعائهم ربهم للدلالة على ارتباطهم بربهم بما لايداخله غيره تعالى، إلى أن قال: و قوله: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ» الحساب هو استعمال العدد بالجمع و الطرح و نحو ذلك، و لما كان تمحيص الأعمال و تقديرها لتوفية الأجر أو أخذ النتيجة و نحوهما لايخلو بحسب العادة من استعمال العدد بجمع أو

---

١. هود: ٢٧.

٢. هود: ٢٩.

طرح سمّي ذلك حسابا للأعمال، إلى أن قال: و على هذا فالمراد من نفي كون حسابهم عليه أو حسابه عليهم نفي أن يكون هو الذي يحاسب أعمالهم ليجازيهم حتّى إذا لم يرتض أمرهم و كره مجاورتهم طردهم عن نفسه أو يكونوا هم الذين يحاسبون أعماله حتّى إذا خاف مناقشتهم أو سوء مجازاتهم أو كرههم استكبارا و استعلاء عليهم طردهم، و على هذا فكلّ من الجملتين: «مَا عَلَيْكَ»، إلخ... مقصودة في الكلام مستقلة.

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ» نفي أن يحمل عليه حسابهم أي: أعمالهم المحاسبة حتّى يستثقله و ذلك بإيهام أن للعمل ثقلا على عامله أو من يحمل عليه، فالمعنى: ليس شيء من ثقل أعمالهم عليك، و على هذا فاستتباعه بقوله: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ» و لاحاجة إليه لتمام الكلام بدونه، إلى أن قال: و من الممكن أيضا أن يقال: إن مجموع الجملتين أعني قوله: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ» كناية عن نفي الارتباط بين النبي ﷺ وبينهم من حيث الحساب، إلى أن قال: و قوله: «فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ» الدخول في جماعة الظالمين متفرع على طردهم أي: طرد الذين يدعون ربهم فنظم الكلام بحسب طبعه يقتضي أن يفرع قوله: «فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ»، على قوله في أول الآية: «وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ»، إلخ، إلّا أنّ الكلام لما طال بتخلل جمل بين المتفرع و المتفرع عليه أُعيد لفظ الطرد ثانيا في صورة الفرع ليتفرع عليه قوله: «فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ» بنحو الاتصال و يرتفع اللبس، انتهى.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: و مثل ذلك الفتنِ العظيم «فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ» أي: ابتليناهم بهم و ذلك أن المشركين قالوا: «أَهَٰٓؤُلَآءِ» يعنون المسلمين «مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ» أي: أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق من دوننا و نحن الرؤساء و الأشراف و هم العبيد و الأنذال إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق و نحوه ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[1] و معنى «فَتَنَّاهُم» خذلناهم فافتتنوا حتّى كان افتتانهم سببا لهذا القول لأنه لايقول مثل هذا القول إلا مفتون مخذول «أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ» أي: الله أعلم بمن يقع منه الإيمان و الشكر فيوفقه للإيمان و من صمّم على كفره يخذله و يمنعه التوفيق.

«فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم» هو أمر بتبليغ سلام الله ـ تعالى ـ إليهم، أو أمر بأن يبدأهم بالسلام تبجيلا لهم، و كذلك قوله: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ» من جملة ما يقول لهم ليسروا، و قرئ: «إنّه» (مكان أنّه) فإنه بالكسر على الاستئناف كأنه تفسير للرحمة، و بالفتح على الإبدال من الرحمة.

---

١. الأحقاف: ١١.

«بِجَهَٰلَةٍ» في موضع الحال أي: عمله و هو جاهل بمعنى: أنه عمل عمل الجاهلين لأن من عمل ما يستوبل[1] عاقبته عالما بذلك فهو من أهل الجهل و يجوز أن يراد عمله جاهلا بما يتبعه من الضرر و المكروه و من كان حكيما لم يقدم على فعل شيء حتّى يعلم حاله و قرئ: «لِتَسْتَبِينَ» بالتاء و الياء مع رفع «سَبِيلُ» لأنها تذكر و تؤنث و بالتاء على خطاب النبي ﷺ و نصب السبيل، يقال: «استبان الأمر» و «تبين» «و استبنته»و «تبينته» و المعنى: و مثل «ذَٰلِكَ» التفصيل البين «نُفَصِّلُ» آيات القرآن في صفة أحوال من لايرجى إسلامه و من يرى فيه أمارات القبول و تباشير الإيمان، و لتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل، انتهى.

و في الميزان: «وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ» إلى آخر الآية، الفتنة هي الامتحان، و السياق يدلّ على أن الاستفهام في قوله: «أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ» للتهكم و الاستهزاء، و معلوم أنهم لايسخرون إلا ممن يستحقرون أمره و يستهينون موقعه من المجتمع، و لم يكن ذلك إلا لفقرهم و مسكنتهم و انحطاط قدرهم عند الأقوياء و الكبراء منهم. فالله سبحانه يخبر نبيه أن هذا التفاوت و الاختلاف إنّما هو محنة إلهية يمتحن بها الناس ليميز به الكافرين من الشاكرين، فيقول أهل الكفران و الاستكبار في الفقراء المؤمنين: «أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ» فإن السنن الاجتماعية عند الناس توصف بما عند المستن بها من الشرافة و الخسة، و كذا العمل يوزن بما لعامله من الوزن الاجتماعي فالطريقة المسلوكة عند الفقراء و الأذلّاء و العبيد يستذلّها الأغنياء و الأعزة، و العمل الذي أتى به

---

١. أي يستوخمه من الوخامة.

مسكين أو الكلام الذي تكلّم به عبد أو أسير مستذلاً لايعتني به اُولوا الطول و القوة.

فانتحال الفقراء و الأجراء و العبيد بالدين، و اعتناء النبي ﷺ بهم و تقريبه إياهم من نفسه كالدليل عند الطغاة المستكبرين من أهل الاجتماع على هو أن أمر الدين و أنه دون أن يلتفت إليه من يعتني بأمره من الشرفاء و الأعزة. و قوله تعالى: «أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ» جواب عن استهزائهم المبني على الاستبعاد، بقولهم: «أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ».

و محصله: أن هؤلاء شاكرون لله دونهم و لذلك قدم هؤلاء لمنّه و أخرهم فكنّى سبحانه عن ذلك بأن الله أعلم بالشاكرين لنعمته أي: إنهم شاكرون، و من المسلّم أن المنعم إنّما يمنّ و ينعم على من يشكر نعمته، إلى أن قال: فالآية تبين أنهم بجهالتهم يبنون الكرامة و العزة على التقدم في زخارف الدنيا من مال و بنين و جاه، و لاقدر لها عند الله و لاكرامة، و إنّما الأمر يدور مدار صفة الشكر و النعمة بالحقيقة هي الولاية الإلهية.

قوله تعالى: «وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ»، إلى آخر الآية، قد تقدم معنى السلام، و المراد بكتابته الرحمة على نفسه إيجابها على نفسه أي: استحالة انفكاك فعله عن كونه معنونا بعنوان الرحمة، و الإصلاح هو التلبس بالصلاح فهو لازم و إن كان بحسب الحقيقة متعديا و أصله إصلاح النفس أو إصلاح العمل، إلى أن قال: أن المراد بالجهالة ما يقابل الجحود و العناد اللذين هما من التعمد المقابل للجهالة فإن من يدعو ربه بالغداة و العشي يريد وجهه و هو مؤمن بآيات الله لايعصيه تعالى استكبارا و استعلاءً عليه، بل لجهالة غشيته

باتباع هوى في شهوة أو غضب، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ» تفصيل الآيات بقرينة المقام شرح المعارف الإلهية و تخليصها من الإبهام و الاندماج، وقوله: «وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ» اللام فيه للغاية، و هو معطوف على مقدّر طوي عن ذكره تعظيما و تفخيما لأمره و هو شائع في كلامه تعالى، كقوله: ... ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[1].

فالمعنى: و كذلك نشرح و نميّز المعارف الإلهية بعضها من بعض و نزيل ما يطرأ عليها من الإبهام لأغراض هامة منها أن تستبين سبيل المجرمين فيتجنبها الذين يؤمنون بآياتنا، و على هذا فالمراد بسبيل المجرمين السبيل التي يسلكها المجرمون قبال الآيات الناطقة بتوحيد الله سبحانه و المعارف الحقة التي تتعلق به و هي سبيل الجحود و العناد و الإعراض عن الآيات و كفران النعمة، انتهى.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

---

١. الأنعام: ٧٥.

و في جوامع الجامع: «نُهِيتُ» عن عبادة ما تعبدون «مِن دُونِ ٱللَّهِ» «قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ» أي: لا أجرى على طريقتكم التي سلكتموها من اتباع الهوى دون اتباع الدليل «قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا» أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال «وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ» السالكين طريق الهدى، يعني: أنكم كذلك، «قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى» أي: إني من معرفة ربي و أنه لامعبود سواه على حجة واضحة «وَكَذَّبْتُم بِهِۦ» أنتم حيث أشركتم به غيره و إذا كان الشيء ثابتا عندك ببرهان قاطع قلت: أنا على يقين منه و على بينّة منه، إلى أن قال: «مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ» يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

«إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» في تأخير عذابكم يقضي الحق أي: القضاء الحق في كلّ ما يقضي من التأخير و التعجيل، «وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ» أي: القاضين و قرئ: «يَقُصُّ ٱلْحَقَّ» أي: يتبع الحق و الحكمة فيما يحكم به و يقدّره من قولهم: قصّ أثره «قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى» أي: في قدرتي «مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ» من العذاب «لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ» لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ» إلى آخر الآية، أمر بأن خبرهم بورود النهي عليه عن عبادة شركائهم هو نهي عن عبادتهم بنوع من الكناية، ثمّ أشار إلى ملاك النهي عنها بقوله: «قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ» و هو أن عبادتهم اتباع للهوى و قد نهي عنه ثمّ أشار بقوله: «قَدْ ضَلَلْتُ

---

١. الأنفال: ٣٢.

إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ» إلى سبب الاستنكاف عن اتباع الهوى و هو الضلال و الخروج عن جماعة المهتدين و هم الذين اتصفوا بصفة قبول هداية الله سبحانه، و عرفوا بذلك، فاتباع الهوى ينافي استقرار صفة الاهتداء في نفس الإنسان، و يمانع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقاً ثابتاً ينتفع به. و قد تلخص بذلك كلّه بيان تام معلل للنهي أو الانتهاء عن عبادة أصنامهم، و هو أن في عبادتها اتباعا للهوى، و في اتباع الهوى الضلال و الخروج عن صف المهتدين بالهداية الإلهية.

قوله تعالى: «قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ» إلى آخر الآية... .

فإن المحصل من الكلام مع انضمام هذا الذيل: أن الذي أيدالله به رسالتي من البينات و هو القرآن تكذبون به، و الذي تقترحونه عليّ و تستعجلون به من الآيات ليس في اختياري و لا مفوضا أمره إليّ فليس بيننا ما نتوافق فيه لما أنّي اُوتيت ما لاتريدون أنتم و تريدون ما لم اُوت، إلى أن قال: فقوله تعالى: «إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» اُريد بالحكم فيه القضاء التكويني، و الجملة تعليل للنفي في قوله تعالى: «مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ» و المعنى ـ على ما يعطيه السياق ـ أن الحكم لله وحده و ليس إليّ أن أقضي بيني و بينكم، و هو الذي تستعجلون به باستعجالكم بما تقترحون عليّ من الآية.

و على هذا فقوله: «مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ» مستعمل استعمال الكناية كأنهم باقتراحهم إتيان آية اُخرى غير القرآن كانوا يقترحون عليه ﷺ أن يقضي بينه و بينهم و لعلّ هذا هو السرّ في تكرار لفظ الموصول و الصلة في الآية التالية حيث يقول تعالى: «قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ» و كان مقتضى ظاهر

السياق أن يقال: لو أن عندي ذلك، و ذلك أنه اُريد بقوله: «مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ» في الآية الاُولى لازم الآية و هو القضاء بينه و بينهم على ما جرت به السنة الإلهية، و في الآية الثانية نفس الآية، إلى أن قال: و قوله: «يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ». و قرأ عاصم و نافع و ابن كثير من السبعة بالقاف و الصاد المهملة من القص و هو قطع شيء و فصله من شيء و منه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾[1].

و قرأ الباقون بالقاف و الضاد المعجمة من القضاء، و قد حذف الياء من الرسم على حد قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[2].

و لكلّ من القراءتين وجه، و مآلهما من حيث المعنى واحد فإن قص الحق و فصله من الباطل لازم القضاء و الحكم بالحق و إن كان قوله: «وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ» أنسب مع القص بمعنى الفصل.

و أما أخذ قوله: «يَقُصُّ ٱلْحَقَّ» من القص بمعنى الإخبار عن الشيء أو بمعنى تتبع الأثر على ما احتمله بعض المفسرين فمما لايلائم المورد:

أما الأول: فلأن الله سبحانه و إن قص في كلامه كثيراً قصص الأنبياء و اُممهم غير أن المقام خال عن ذلك فلاموجب لذكر هذا النعت له و توصيفه تعالى به.

و أما الثاني: فلأن محصل معناه أن سنته تعالى أن يتبع الحق و يقتفي أثره في تدبير مملكته و تنظيم اُمور خليقته، و الله سبحانه و إن كان لايحكم إلا الحق و لايقضي إلا الحق إلا أن أدب القرآن الحكيم يأبى عن نسبة الاتباع و الاقتفاء إليه

---

١. القصص: ١١.

٢. القمر: ٥.

تعالى، و قد قال تعالى: فيما قال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[١] و لم يقل: الحق مع ربك، لما في التعبير بالمعية من شائبة الاعتضاد و التأيد و الإيهام إلى الضعف.

تنبيه: قال في الميزان: مادة الحكم تدل على نوع من الإتقان يتلاءم به أجزاء (الشيء) و ينسد به خلله و فرجه فلايتجزى إلى الأجزاء و لايتلاشى إلى الأبعاض حتّى يضعف أثره و ينكسر سورته، و إلى ذلك يرجع المعنى الجامع بين تفاريق مشتقاته كالإحكام و التحكيم و الحكمة و الحكومة و غير ذلك، إلى أن قال: و نظرية التوحيد التي يبني عليها القرآن الشريف بنيان معارفه لما كانت تثبت حقيقة التأثير في الوجود لله سبحانه وحده لاشريك له، و إن كان الانتساب مختلفا باختلاف الأشياء غير جار على و تيرة واحدة كما ترى أنه تعالى ينسب الخلق إلى نفسه ثمّ ينسبه في موارد مختلفة إلى أشياء مختلفة بنسب مختلفة، و كذلك العلم و القدرة و الحياة و المشية و الرزق و الحسن إلى غير ذلك، و بالجملة لما كان التأثير له تعالى كان الحكم الذي هو نوع من التأثير و الجعل له تعالى سواء في ذلك الحكم في الحقائق التكوينية أو في الشرائع الوضعية الاعتبارية، إلى أن قال: و يدلّ على اختصاص خصوص الحكم التشريعي به تعالى قوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أمر أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٢].

فالحكم لله سبحانه لايشاركه فيه غيره على ظاهر ما يدلّ عليه ما مرّ من الآيات غير أنه تعالى ربما ينسب الحكم و خاصة التشريعي منه في كلامه إلى

---

١. آل عمران: ٦٠.

٢. يوسف: ٤٠.

غيره كقوله تعالى: ... ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[١] ... إلى غير ذلك من الآيات وضمّها إلى القبيل الأول يفيد أن الحكم الحق لله سبحانه بالأصالة و أولا لايستقل به أحد غيره، و يوجد لغيره بإذنه و ثانياً، و لذلك عد تعالى نفسه ﴿أَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[٢]، إلى أن قال: و الآيات المشتملة على نسبة الحكم إلى غيره تعالى بإذن و نحوه ـ كما ترى ـ تختص بالحكم الوضعي الاعتباري، و أما الحكم التكويني فلايوجد فيها ـ على ما أذكر ـ ما يدلّ على نسبته إلى غيره و إن كانت معاني عامة الصفات و الأفعال المنسوبة إليه تعالى لاتأبى عن الانتساب إلى غيره نوعا من الانتساب بإذنه و نحوه كالعلم و القدرة و الحياة و الخلق و الرزق و الإحياء و المشية و غير ذلك في آيات كثيرة لاحاجة إلى إيرادها. و لعلّ ذلك مراعاة لحرمة جانبه تعالى لإشعار الصفة بنوع من الاستقلال الذي لامسوغ لنسبته إلى هذه الأسباب المتوسطة كما أن القضاء و الأمر التكوينيين كذلك، انتهى.

و بالجملة أن الله تعالى مستقل في الخلق و التدبير و الحكم و التأثير و نحوها و له أن يأذن لغيره في تلك الأُمور فيكون لغيره هذه الأُمور و نحوها بإذن منه تعالى حتّى في الخلق و إن تمت الأدلة في مقام الإثبات كقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى﴾[٣].

---

١. ص: ٢٦.

٢. التين: ٨.

٣. المائدة: ١١٠.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: المفاتح جمع مِفتَح و هو المفتاح، و جعل ـ سبحانه ـ للغيب مفاتح على طريق الاستعارة لأن بالمفاتح يتوصل إلى ما في المخازن المغلقة، أراد أنه هو المتوصل إلى جميع المغيبات بذاته وحده لايتوصل إليها سواه كما يتوصل إلى ما في المخازن من عنده مفاتح أقفاله.

«وَلَاحَبَّةٍ» «وَلَارَطْبٍ وَلَايَابِسٍ» عطف على ورقة و داخل في حكمها أي: «وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ» و لاشيء من هذه الأشياء إلا يعلمه، و قوله: «إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ» كالتكرير لقوله: «إِلَّا يَعْلَمُهَآ» لأن معنى «إِلَّا يَعْلَمُهَا» و «إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ» واحد، و الكتاب المبين علم الله أو اللوح المحفوظ أو القرآن، «وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ» أي: يقبض أرواحكم عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت.

«وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم» أي: كسبتم من الأعمال «بِٱلنَّهَارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ» من القبور «فِيهِ» أي: في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل و كسب الأعمال بالنهار و من أجله، «لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى» و هو الأجل الذي سمّاه و ضربه لبعث الموتى و جزائهم على أعمالهم «ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ» و هو المرجع إلى موقف الحساب، «ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» في ليلكم و نهاركم و قيل: ثم

يبعثكم من نومكم أي: ينبهكم في النهار لتستوفوا آجالكم، جعل ـ سبحانه انتباههم من النوم بعثا[١]، انتهى.

و في الميزان: فقوله: «وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ» مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى إما لأن خزائن الغيب لايعلمها إلا الله، و إما لأن مفاتيح الغيب لايعلمها غيره تعالى فلاسبيل لغيره إلى تلك الخزائن إذ لا علم له بمفاتيحها التي يتوصل بها إلى فتحها و التصرف فيها. و صدر الآية و إن أنبأ عن انحصار علم الغيب فيه تعالى لكن ذيلها لايختص بعلم الغيب بل ينبىء عن شمول علمه تعالى بكلّ شيء أعم من أن يكون غيباً أو شهادة فإنّ كلّ رطب و يابس لايختص بما يكون غيبا و هو ظاهر فالآية بمجموعها يبين شمول علمه تعالى لكلّ غيب و شهادة، غير أن صدرها يختص ببيان علمه بالغيوب، و ذيلها ينبىء عن علمه بكلّ شيء أعم من الغيب و الشهادة.

و من جهة اُخرى صدر الآية يتعرض للغيوب التي هي واقعة في خزائن الغيب تحت أستار الخفاء و أقفال الإبهام، و قد ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢] أن التي في خزائن الغيب عنده من الأشياء اُمور لايحيط بها الحدود المشهودة في الأشياء، و لايحصرها الأقدار المعهودة، و لاشك أنّها إنّما صارت غيوبا مخزونة لما فيها من صفة الخروج عن حكم الحد و القدر فإنا لانحيط علما إلّا بما هو محدود و مقدر، و أما التي في خزائن الغيب من الأشياء فهي قبل النزول في منزل الشهود و الهبوط إلى مهبط

---

١. جوامع الجامع ١: ص ٣٨٤ ـ ٣٨٣.

٢. الحجر: ٢١.

الحد و القدر، و بالجملة قبل أن يوجد بوجوده المقدر له غير محدودة مقدرة مع كونها ثابتة نوعا من الثبوت عنده تعالى على ما تنطق به الآية.

فالأُمور الواقعة في هذا الكون المشهود المسجونة في سجن الزمان هي قبل وقوعها و حدوثها موجودة عندالله ثابتة في خزائنه نوعا من الثبوت مبهما غير مقدر و إن لم نستطع أن نحيط بكيفية ثبوتها فمن الواقع في مفاتح الغيب و خزائنه الأشياء قبل حدوثها و استقرارها في منزلها المقدر لها من منازل الزمان، و لعلّ هناك أشياء أُخر مذخورة مخزونة لاتسانخ ما عندنا من الأُمور الزمانية المشهودة المعهودة، و لنسم هذا النوع من الغيب غير الخارج إلى عرصة الشهود بالغيب المطلق.

و أما الأشياء بعد تلبسها بلباس التحقق و الوجود و نزولها في منزلها بالحد و القدر فالذي في داخل حدودها و أقدارها يرجع بالحقيقة إلى ما في خزائن الغيب و يرجع إلى الغيب المطلق، و أما هي مع مالها من الحد و القدر فهي التي من شأنها أن يقع عليها شهودنا و يتعلق بها علمنا فعند ما نعلم بها تصير من الشهادة و عند ما نجهل بها تصيرغيباً، و من الحري أن نسميها عند ما تصير مجهولة لنا غيبا نسبيا، لأن هذا الوصف الذي يطرؤها عندئذ وصف نسبي يختلف بالنسب و الإضافات كما أن ما في الدار مثلا من الشهادة بالنسبة إلى من فيها، و من قبيل الغيب بالنسبة إلى من هو في خارجها، و كذا الأضواء و الألوان المحسوسة بحاسة البصر من الشهادة بالنسبة إلى البصر، و من الغيب بالنسبة إلى حاسة السمع، و المسموعات التي ينالها السمع شهادة بالنسبة إليه و غيب بالنسبة إلى

البصر، و محسوساتهما جميعا من الشهادة بالنسبة إلى الإنسان الذي يملكهما في بدنه و من الغيب بالنسبة إلى غيره من الأُناسي.

و التي عدّها تعالى في الآية بقوله: «وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ» من هذا الغيب النسبي فإنها جميعا اُمور محدودة مقدرة لاتأبى بحسب طبعها أن يتعلق بها علمنا و لا أن يكون مشهودة لنا فهي من الغيب النسبي.

و قد دلت الآية على أن هذه الاُمور في كتاب مبين فما هو الذي منها في كتاب مبين؟ أهو هذه الأشياء من جهة شهادتها و غيبها جميعا أم هي من جهة غيبها فقط؟ و بعبارة اُخرى: الكتاب المبين أهو هذا الكون المشتمل على أعيان هذه الأشياء لايغيب عنه شيء منها و إن غاب بعضها عن بعض أم هو أمر وراء هذا الكون مكتوبة فيه هذه الأشياء نوعا من الكتابة مخزونة فيه نوعا من الخزن غائبة من شهادة الشهداء من أهل العالم فيكون ما في الكتاب من الغيب المطلق. و بلفظ آخر الأشياء الواقعة في الكون المعدودة بنحو العموم في الآية أهي واقعة بنفسها في الكتاب المبين كما تقع الخطوط بأنفسها في الكتب التي عندنا أم هي واقعة بمعانيها فيه كما تقع المطالب الخارجية بمعانيها بنوع من الوقوع في ما نكتبه من الصحائف و الرسائل ثمّ تطابق الخارج مطابقة العلم العين؟

لكن قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[1] يدلّ على أن نسبة هذا الكتاب إلى الحوادث الخارجية نسبة

الكتاب الذي يكتب فيه برنامج العمل إلى العمل الخارجي، إلى أن قال: فالكتاب المبين أياً ما كان هو شيء غير هذه الخارجيات من الأشياء بنحو من المغايرة، و هو يتقدمها ثمّ يبقى بعد فنائها و انقضائها كالبرنامجات المكتوبة للأعمال التي تشتمل على مشخصات الأعمال قبل وقوعها ثمّ تحفظ المشخصات المذكورة الوقوع.

على أن هذا الموجودات و الحوادث التي في عالمنا متغيرة متبدلة تحت قوانين الحركة العامة و الآيات تدل على عدم جواز التغير و الفساد فيما يشتمل عليه هذا الكتاب كقوله تعالى: ﴿... وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1] وقوله: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[2] وقوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾[3].

فالآيات ـ كما ترى ـ تدل على أن هذا الكتاب في عين أنه يشتمل على جميع مشخصات الحوادث و خصوصيات الأشخاص المتغيرة المتبدلة لايتبدل هو في نفسه و لايتسرب إليه أي تغير و فساد.

و من هنا يظهر: أن هذا الكتاب بوجه غير مفاتح الغيب و خزائن الأشياء التي عند الله سبحانه فإن الله تعالى وصف هذه المفاتح و الخزائن بأنها غير مقدرة و لامحدودة، و أنّ القدر إنّما يلحق الأشياء عند نزولها من خزائن الغيب إلى هذا العالم الذي هو مستوى الشهادة، و وصف هذا الكتاب بأنه يشتمل على دقائق حدود الأشياء و حدود الحوادث، فيكون الكتاب المبين من هذه الجهة غير

---

١. الرعد: ٣٩.

٢. البروج: ٢٢.

٣. ق: ٤.

خزائن الغيب التي عندالله سبحانه، و إنّما هو شيء مصنوع لله سبحانه يضبط سائر الأشياء و يحفظها بعد نزولها من الخزائن و قبل بلوغها منزل التحقق و بعد التحقق و الانقضاء، إلى أن قال: فقوله تعالى: «وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ» راجع إلى الغيب المطلق الذي لاسبيل لغيره تعالى إليه، و قوله: «لَا يَعْلَمُهَآ»، إلخ، حال و هو يدلّ على أن مفاتح الغيب من قبيل العلم غير أن هذا العلم من غير سنخ العلم الذي نتعارفه فإن الذي يتبادر إلى أذهاننا من معنى العلم هو الصورة المأخوذة من الأشياء بعد وجودها و تقدرها بأقدارها و مفاتح الغيب ـ كما تبين ـ علم بالأشياء و هي غير موجودة و لامقدرة بأقدارها الكونية أي: علم غير متناه من غير انفعال من معلوم، انتهى.

تنبيه: أولا: أن التعبير بالمفاتح كناية عن كون العلم بمعناه الجامع عنده تعالى.

و ثانياً: أن الحصر مورد التأكيد إما بقوله: «وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ» و إما بقوله: «لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ».

و ثالثاً: أن ما وقع في الخارج مخلوق موجود بذاته تعالى و ليس عين ذاته بل هو موجود بوجود ذاته كوجود المعاليل بوجود عللها. ألا ترى نفس الإنسان موجود و علة لكلّ تصور ذهني مع شهود المغايرة بين التصورات و بين موجدها و هو النفس.

و رابعاً: أن كون علمه تعالى بكلّ غيب و شهود يناسب تشريع قراءة الآية في صلاة الغفيلة، إذ علمه تعالى بكلّ غيب و شهود يدلّ على أن الله تعالى علم حاجاتنا و قادر على إنجازها فينبغي أن يسأل عنه الحوائج و يتوسل إليه.

و خامساً: أن علمه تعالى عين ذاته و علمه بذاته علمه بجميع معلولاته لأن الذات واجد لجميع مراتب الوجود بأشدّ الوجود و أعلاه.

و في الميزان: «وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ»، إلخ، معطوفات على قوله: «مِن وَرَقَةٍ» على ظاهر السياق، و المراد بظلمات الأرض بطونها المظلمة التي تستقر فيها الحبات فينمو منها ما ينمو و يفسد ما يفسد، فالمعنى: و لاتسقط من حبة في بطون الأرض المظلمة ولايسقط من رطب و لايابس أياً ما كان إلا يعلمها، و على هذا فقوله: «إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ» بدل من قوله: «إِلَّا يَعْلَمُهَا» سدّ مسدّه، و تقديره إلّا هو واقع مكتوب في كتاب مبين... .

قوله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ» التوفي أخذ الشيء بتمامه، و يستعمله الله سبحانه في كلامه بمعنى أخذ الروح الحية كما في حال الموت كما في قوله في الآية التالية: «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا».

و قد عدّ الإنامة توفيا كما عدّ الإماتة توفيا على حدّ قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾[1].

لاشتراكهما في انقطاع تصرف النفس في البدن كما أن البعث بمعنى الإيقاظ بعد النوم يشارك البعث بمعنى الإحياء بعد الموت في عود النفس إلى تصرفها في البدن بعد الانقطاع، إلى أن قال: و في قوله تعالى: «يَتَوَفَّىٰكُم» دلالة على أن الروح تمام حقيقة الإنسان الذي يعبر عنه بأنا لاكما ربما يتخيل لنا أن الروح أحد

---

١. الزمر: ٤٢.

جزئي الإنسان لإتمامه أو أنها هيأة أو صفة عارضة له، و أوضح منه دلالة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1].

فإن استبعاد الكفّار مبني على أن حقيقة الإنسان هو البدن الذي يتلاشى و يفسد بانحلال التركيب بالموت فيضل في الأرض، و الجواب مبني على كون حقيقته هو الروح النفس و إذ كان ملك الموت يتوفاه و يقبضه فلايفوت منه شيء، انتهى.

و بالجملة أن التوفي هو الأخذ التام للروح و هو يشير إلى أن الأرواح غير البدن و يؤيده بل يشهد عليه تواتر تسخير الأرواح أو إرسال الأرواح أو تجريد النفس و غير ذلك من الاُمور المرتبطة بالروح.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾

في جوامع الجامع: أي: «وَهُوَ» المقتدر المستعلي على عباده، «وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ» ملائكة «حَفَظَةً» يحفظون أعمالكم و هم الكرام الكاتبون، و الفائدة في ذلك أن العباد إذاعلموا أن الملائكة يحفظون أعمالهم في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد يوم القيامة كان ذلك أزجَر لهم عن القبيح، «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا»

---

١. السجدة: ١١ ـ ١٠.

استوفت روحه، و هم ملك الموت و أعوانه و «حَتَّىٰٓ» هذه هي التي للاستئناف و ما بعدها جملة، و قرئ، توفاه بالإمالة و يجوز أن يكون ماضيا و أن يكون مضارعا بمعنى تتوفاه، «وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ» أي: لايتوانون و لاينقصون ممّا اُمروا به و لايزيدون فيه، و التفريط: التقصير و التأخير عن الحدّ. و الإفراط: مجاوزة الحدّ، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً»، إلخ، إطلاق إرسال الحفظة من غيرتقييد لا في الإرسال و لا في الحفظة ثمّ جعله مغيّا بمجيء الموت لايخلو عن دلالة على أن هؤلاء الحفظة المرسلين شأنهم حفظ الإنسان من كلّ بلية تتوجه إليه و مصيبة تتوخاه، و آفة تقصده فإن النشأة التي نحن فيها نشأة التفاعل و التزاحم، ما فيه من شيء إلا و هو مبتلى بمزاحمة غيره من شيء من جميع الجهات لأنّ كلّا من أجزاء هذا العالم الطبيعي بصدد الاستكمال و استزادة سهمه من الوجود، و لايزيد في شيء إلا و ينقص بنسبته من غيره فالأشياء دائما في حال التنازع و التغلب، و من أجزائه الإنسان الذي تركيب وجوده ألطف التراكيب الموجودة فيه و أدّقها فيما نعلم فرقباؤه في الوجود أكثر و أعداؤه في الحياة أخطر فأرسل الله إليه من الملائكة حفظة تحفظه من طوارق الحدثان و عوادي البلايا و المصائب و يزالون يحفظونه من الهلاك حتّى إذا جاء أجله خلوا بينه و بين البلية فأهلكته على ما في الروايات.

و أما ما ذكره في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1] فإنّما يريد به الحفظة على الأعمال غير أن بعضهم أخذ الآيات مفسرة

---

١. الانفطار: ١٢ ـ ١٠.

لهذه الآية، و الآية و إن لم تأب هذا المعنى كلّ الإباء لكن قوله: «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ» إلى آخر الآية، كما تقدم يؤيد المعنى الأول.

و قوله: «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ» الظاهر أن المراد من التفريط هو التساهل و التسامح في إنقاذ الأمر الإلهي بالتوفي فإن الله سبحانه وصف ملائكته بأنهم يفعلون ما يؤمرون، إلى أن قال: و هل هذه الرسل هم الرسل المذكورون أوّلا حتّى تكون الحفظة هم الموكلّين على التوفي؟ الآية ساكتة عن ذلك إلا ما فيها من إشعار ضعيف بالوحدة غير أن هؤلاء الرسل المأمورين بالتوفي كائنين من كانوا هم من أعوان ملك الموت لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1].

و نسبة التوفي إلى هؤلاء الرسل، ثمّ إلى ملك الموت في الآية المحكية آنفا، ثمّ إلى الله سبحانه في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾[2] من قبيل التفنن في مراتب النسب فالله سبحانه ينتهي إليه كلّ أمر و هو المالك المتصرف على الإطلاق، و لملك الموت التوسل إلى ما يفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذين هم أسباب الفعل و وسائله و أدواته كالخط الذي يخط القلم و ورائه اليد و وراءهما الإنسان الكاتب، انتهى.

و عن الشعراني: لايبعد أن يكون المراد من قوله: «وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ» الآية حفظة يحفظونكم من الآفات إلى أن يأتيكم الموت، انتهى.

---

١. السجدة: ١١.

٢. الزمر: ٤٢.

و في تفسير الكرمي: «ٱلْقَاهِرُ» هو الذي له حاكمية قوية نافذة و كلمة «فَوْقَ» مما تشدد و تؤكد معنى القاهرية «وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ» أي: يوكل بكم «حَفَظَةً» يصونوكم من تموّج الحوادث بكم تموجا عارما «حَتَّىٰٓ إِذَا» انتهى أجلكم المسمّى و «جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ»، انتهى.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

في جوامع الجامع: «ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ» أي: إلى حكمه و جزائه، «مَوْلَىٰهُمُ» أي: مالكهم الذي يلي عليهم اُمورهم «ٱلْحَقِّ» العدل الذي لايحكم إلا بالحق « أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ» يومئذ لاحكم فيه لغيره «وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ» لايشغله حساب عن حساب، «قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ» مجاز عن مخاوفهما و أهوالهما، يقال لليوم الشديد: «يوم مظلم ذو كواكب» أي: اشتدت ظلمته حتّى صار كالليل، «تَدْعُونَهُۥ» متضرعين بألسنتكم و مسرّين في أنفسكم «لَّئِنْ أَنجَىٰنَا» على إرادة القول أي: قائلين: لئن أنجيتنا من هذه الظلمة و الشدة، إلى أن قال: و «وَخُفْيَةً» بالضم و الكسر «قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم» يخلصكم من هذه الشدة «وَمِن كُلِّ» غمّ «ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ» بالله بعد قيام الحجة عليكم، انتهى.

و في كنز الدقائق: «مَوْلَىٰهُمُ»: الذي يتولى أمرهم. «ٱلْحَقِّ»: العدل الذي لايحكم إلا بالحق، إلى أن قال: «وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ» روي: أنه ـ سبحانه ـ يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة.

و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه سئل، كيف يحاسب الله سبحانه و الخلق و لايرونه؟ قال: كما يرزقهم و لايرونه، انتهى.

و في الميزان: «ثمّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ» إشارة إلى رجوعهم إلى الله سبحانه بالبعث بعد الموت، و توصيفه تعالى بأنه مولاهم الحق للدلالة على علة جميع ما تقدم من تصرفاته تعالى بالإنامة و الإيقاظ و التدبير و الإماتة و البعث، و فيه تحليل لمعنى المولى ثمّ إثبات حق المولوية له تعالى، فالمولى هو الذي يملك الرقبة فيكون من حقه جواز التصرف فيها كيفما شاء، و إذ كان له تعالى حقيقة الملك، و كان هو المتصرف بالإيجاد و التدبير و الإرجاع فهو المولى الحق الذي يثبت له معنى المولوية ثبوتا لازوال له بوجه البتة.

و الحق من أسماء الله الحسنى لثبوته تعالى بذاته و صفاته ثبوتاً لايقبل الزوال و يمتنع عن التغير و الانتقال و الضمير في «رُدُّوٓاْ» راجع إلى الآحاد الذي يومئ إليه سابق الكلام من قوله: «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ» فإنّ حكم الموت يعم كلّ واحد و يجتمع به آحادهم نفس الجماعة، إلى أن قال: قوله تعالى: «أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ»، إلخ، لما بين تعالى اختصاصه بمفاتح الغيب و علمه بالكتاب المبين الذي فيه كلّ شيء، و تدبيره لأمر خلقه من لدن وجدوا إلى أن يرجعوا إليه تبيّن أن الحكم إليه لا إلى غيره، و هو الذي ذكره فيما مرّ من قوله: «إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» أعلن نتيجة بيانه فقال: «أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ» ليكون منبها لهم مما غفلوا عنه.

و كذلك قوله: «وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ» نتيجة اُخرى لسابق البيان فإنه تبيّن به أنه تعالى لايؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له، و إنّما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذي أجلّ له، إلى أن قال: و التضرع إظهار الضراعة و هو الذل و الخضوع، إلى أن قال: فملخص المراد بالآية أعني قوله تعالى: «قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثمّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ» أنكم في الشدائد النازلة بكم في ظلمات البر و البحر و غيرها إذا انقطعتم عن الأسباب الظاهرة و أعيت بكم الحيل تشاهدون بالرجوع إلى فطرتكم الإنسانية أن الله سبحانه هو ربكم لارب سواه و تجزمون أن عبادتكم لغيره ظلم و إثم و الشاهد على ذلك أنكم تدعونه حينئذ تضرعا و خفية، و تعدونه أن تشكروه بعد ذلك و لاتكفروا به إن أنجاكم لكنكم بعد الإنجاء تنقضون ميثاقكم الذي واثقتموه به و تستمرون على سابق كفركم، انتهى.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: «هُوَ ٱلْقَادِرُ» على أن يرسل «عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ» كما أمطر على قوم لوط و على أصحاب الفيل الحجارة و على قوم نوحٍ الطوفان «أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» كما أغرق فرعون و خسف بقارون، إلى أن قال:

«أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا» أي: يخلطكم فرقا مختلفي الأهواء كلّ فرقة منكم مشايعة لإمام و معنى خلطهم أن يختلطوا و يشتبكوا في ملاحم القتال، «وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ» أي: يقتل بعضكم بعضا و نحوه قوله: «وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا»، قال الصادق عليه السلام: هو سوء الجوار، و المعنى: في الآية الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ» ظاهره أنه اُريد به التحزّبات التي نشأت بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأدّى ذلك إلى حدوث مذاهب متنوعة ألبست لباس العصبية و الحمية الجاهلية و استتبعت حروبا و مقاتل يستبيح كلّ فريق من غيره كلّ حرمة و يطرده بمزعمته من حرمة الدين و بيضة الإسلام، إلى أن قال: فبالجملة معنى الآية: قل يا رسول الله مخاطبا لهم منذرا لهم عاقبة استنكافهم عن الاجتماع تحت لواء التوحيد و استماع دعوة الحق إن لشأنكم هذا عاقبة سيئة في قدرة الله سبحانه أن يأخذكم بها و هو أن يبعث عليكم عذابا لامفر لكم منه و لاملاذ تلوذون به و هو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو أن يضرب بعضكم ببعض فتكونوا شيعاً و فرقا مختلفين متنازعين و متحاربين فيذيق بعضكم بأس بعض، ثمّ تمم البيان بقوله خطاباً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : «ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ»، انتهى.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ

يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩

و في جوامع الجامع: «وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ» الضمير للعذاب «وَهُوَ ٱلْحَقُّ» أي: لابد أن ينزل بهم.

«قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ» بحفيظ وكلّ إلي أمركم أمنعكم من التكذيب إجبارا «إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ» «لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسْتَقَرٌّ» أي: لكلّ شيء ينبّأ به و يخبر وقت استقرار و حصول لابد منه، و قيل: الضمير في «بِهِۦ» للقرآن «وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ» في الإستهزاء بآياتنا و الطعن فيها «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» فلاتجالسهم و قم عنهم «حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ» فلابأس أن تجالسهم حينئذٍ.

«وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ» النهي عن مجالستهم «فَلَا تَقْعُدْ» معهم «بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ» و يجوز أن يراد و إن أنساك الشيطان قبل النهي قبح مجالستهم فلاتقعد معهم بعد أن ذكرناك قبحها و نبهناك عليه، «وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ» أي: و ما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم، «وَلَٰكِن» عليهم أن يذكروهم «ذِكْرَىٰ» إذا سمعوهم يخوضون فيها بأن يقوموا عنهم و يظهروا الكراهية لهم «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» يجتنبون الخوض كراهية لمساءتهم أو حياء و يجوز أن يكون «ذِكْرَىٰ» رفعا على ولكن عليهم ذكرى، انتهى.

و لايخفى عليك أن قوله تعالى: «وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ» من آيات وجوب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فلاتغفل.

و في الميزان: و المستفاد من فحوى بعض كلامه تعالى في موارد اُخر أن المراد بقومه صلى الله عليه وآله وسلم هم العرب، إلى أن قال: و كيف كان فقوله: «وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ» بمنزلة التمهيد لتحقيق النبإ الذي يتضمنه الإنذار السابق كأنه قيل: يا أيتها الاُمة اجتمعوا في توحيد ربكم و اتفقوا في اتباع كلمة الحق و إلا فلا مؤمن يؤمنكم عذابا يأتيكم من فوق أو من تحت أو من اختلاف و تحزب يستتبع سيفاً و سوطا من بعضكم على بعض، ثمّ خوطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقيل: إن قومك كذبوا بذلك فليستعدوا لعذاب بئيس أو بأس شديد يذوقونه.

و من هنا يظهر أولا: أن الضمير في قوله: «وَكَذَّبَ بِهِۦ» راجع إلى العذاب، إلى أن قال: و ثانيا: أن هذا الخبر أعني قوله: «وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ» بحسب ما يعطيه المقام في معنى ذكر أول خبر يمهد الطريق لنبإ موعود كأنه قيل: يجب على اُمتك أن يجتمعوا على الإيمان بالله و آياته و يكونوا على تحرز و تحذر من أن يتسرب إليهم الكفر بالله و آياته و يدب فيهم اختلاف حتّى لاينزل عليهم عذاب الله سبحانه.

ثم قيل: إن قومك من بين جميع اُمتك و من عاصرك أو جاء من بعدك من أهل الدنيا بادروا إلى نقض ما كان يجب عليهم أن يبرموه و كذبوا النبأ فانثلم بذلك الأمر فسوف يعلمون ذلك أن المكذبين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو للقرآن أو لهذا العذاب ليسوا هم الأعراب خاصة و هم قومه صلى الله عليه وآله وسلم بل كذبته اليهود و اُمم من غيرهم في

زمانه و بعده و كان تكذيبهم و اختلافهم جميعا ذا أثر مثبت في ما هدّدوا به من العذاب فتخصيص تكذيب قومه بالذكر و الحال هذه يفيد ما ذكرناه.

و البحث التحليلي على نفسية المجتمع الإسلامي يؤيد هذا الذي استفدناه من الآية فإن ما ابتليت به الأُمة الإسلامية اليوم من الانحطاط في نفسيتهم و الوهن في قوتهم و التشتت في كلمتهم ينتهي بحسب التحليل إلى ما نشأت من الاختلافات و المشاجرات في الصدر الأول بعد رحلة النبي ﷺ ثمّ يصعد ذلك إلى حوادث أول الهجرة و قبل الهجرة مما لقيه النبي ﷺ من قومه، و ما جبّهوه به من التكذيب و تسفيه الرأي. و هؤلاء و إن تجمعوا حول راية الدعوة الإسلامية و استظلوا بظلها بعد ما ظهرت كلمة الحق و أنارت مشعلته لكن المجتمع الطيب الديني لم يضف من خبث النفاق، و قد نطقت آيات جمة من القرآن الكريم بذلك، و كان أهل النفاق لايستهان بعددهم و من المحال أن يسلم بنية المجتمع من سيء أثرهم في نفسية أجزائه و لم يقدر على هضمهم هضما تاما يحيلهم إلى أعضاء صالحة في المجتمع مدى حياة النبي ﷺ ، و لم يمكث وقودهم دون أن اشتعل ثمّ زاد اشتعالا و لم يزل، و الجميع يرجع إلى ما بدأ منه، و كلّ الصيد في جوف الفراء.

و ثالثاً: أن قوله تعالى: «قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ» مسوق سوق الكناية أي: أعرض عنهم و قل: إن أمركم غير مفوض إليّ و لامحمول عليّ حتّى أمنعكم من هذا التكذيب نصيحة لكم، و إنّما الذي إليّ بحسب مقامي أن أنذركم عذابا شديدا هو كمين لكم.

و من هنا يظهر أيضا: أن قوله: «لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» من مقول القول و تتمة قول النبي ﷺ لقومه كما يؤيده الخطاب في قوله: « وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» فإنّ القوم إنّما هم في موقف الخطاب بالنسبة إلى النبي ﷺ لابالنسبة إليه تعالى. و قوله: «لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تصريح بالتهديد و إنباء عن الوقوع الحتمي، و قد ظهر مما تقدم وجه صحة خطاب المشركين بما سيبتلى به الأُمة الإسلامية من تفرق الكلمة و نزول الشدة فإن الأعراق تنتهي إليهم و ليس الناس إلا أُمة واحدة يؤخذ آخرهم بما اكتسبه أولهم و يعود إلى أولهم ما يظهر في آخرهم علموا ذلك أو جهلوا، أبصروا من أنفسهم ذلك أو عموا، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ»، إلى أن قال: و المعنى ـ و الله أعلم ـ و إذا رأيت أهل الخوض و الاستهزاء بآيات الله يجرون على خوضهم و استهزاءهم بالآيات الإلهية فأعرض عنهم و لاتدخل في حلقهم حتّى يخوضوا في حديث غيره فإذا دخلوا في حديث غيره فلامانع يمنعك من مجالستهم، و الكلام و إن وقع في سياق الاحتجاج على المشركين لكن ما أُشير إليه من الملاك يعمّمه فيشمل غيرهم كما يشملهم، ... فالخوض في آيات الله ظلم، إلى أن قال: فقد تبين: أن الآية لاتأمر بالإعراض عن الخائضين في آيات الله تعالى، بل إنّما تأمر بالإعراض عنهم إذا كانوا يخوضون في آيات الله ماداموا مشتغلين به.

قوله تعالى: «وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ»، إلى أن قال: و الكلام في مقام التأكيد و التشديد للنهي أي: حتّى لو غفلت عن

نهينا بما أنساكه الشيطان ثمّ ذكرت فلا تهاون في القيام عنهم و لاتلبث دون أن تقوم عنهم فإن الذين يتقون ليس لهم أيّ مشاركة للخائضين اللاعبين بآيات الله المستهزءين بها.

و الخطاب في الآية للنبي ﷺ و المقصود غيره من الأُمة فقد تقدم في البحث عن عصمة الأنبياء عليهم السلام: ما ينفي وقوع هذا النوع من النسيان ـ و هو نسيان حكم إلهي و مخالفته عملا بحيث يمكن الاحتجاج بفعله على غيره و التمسك به نفسه ـ عنهم عليهم السلام، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ» إلى آخر الآية، إلى أن قال: يريد أن الذي يكتسبه هؤلاء الخائضون من الإثم لايحمل إلا على أنفسهم ولايتعداهم إلى غيرهم إلا أن يماثلوهم و يشاركوهم في العمل أو يرضوا بعملهم فلايحاسب بعمل إلا عامله ولكن نذكرهم ذكرى لعلهم يتقون، فإن الإنسان إذا حضر مجلسهم و إن أمكنه أن لايجاريهم فيما يخوضون و لايرضى بقلبه بعملهم و أمكن أن لايعد حضوره عندهم إعانة لهم على ظلمهم تأييداً لهم في قولهم لكن مشاهدة الخلاف و معاينة المعصية تهون أمر المعصية عند النفس و تصغر الخطيئة في عين المشاهد المعاين، و إذا هان أمرها أوشك أن يقع الإنسان فيها فإن للنفس في كلّ معصية هوى و من الواجب على المتقي بما عنده من التقوى و الورع عن محارم الله أن يجتنب مخالطة أهل الهتك و الاجتراء على الله كما يجب على المبتلين بذلك الخائضين في آيات الله لئلا تهون عليه الجرأة على الله و آياته فتقرّبه ذلك من المعصية فيشرف على الهلكة، و من يحم حول الحمى أوشك أن يقع فيه، انتهى.

و في كنز الدقائق عن مجمع البيان: «وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ» ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى، و يمنعوهم عن الخوض في القبائح، و يظهروا كراهتها. إلى أن قال:عن أبي جعفر عليه السلام: فلما نزل «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ» قال المسلمون: كيف نصنع إن كان كلّما استهزء المشركون بالقرآن قمنا و تركناهم، فلاندخل إذن المسجد الحرام و لانطوف بالبيت الحرام. فأنزل الله ـ تعالى ـ : «وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ» أمرهم بتذكيرهم و تبصيرهم ما استطاعوا، و هو يحتمل النصب على المصدر، و الرفع على «وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ»، انتهى.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

في جوامع الجامع: «ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ» الذي كلّفوه و دعوا إليه هو دين الإسلام «لَعِبًا وَلَهْوًا» حيث سخروا به و استهزءوا منه و معنى ذرهم أعرض عنهم و لاتبال بتكذيبهم و استهزائهم، «وَذَكِّرْ بِهِۦٓ» أي: بالقرآن «أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ» أي: مخافة أن تسلم نفس إلى الهلاك و العذاب و ترتهن بسوء كسبها، «وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ» أي: و إن تفد كلّ فداء «لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ» «أُوْلَٰٓئِكَ» إشارة إلى الذين اتخذوا

دينهم لعبا «ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ» أي: أسلموا إلى الهلاك «بِمَا كَسَبُواْ» بكسبهم و عملهم، انتهى.

و في الميزان: قال الراغب: البسل ضمّ الشيء و منعه و لتضمنه لمعنى الضم استعير لتقطيب الوجه فقيل: هو باسل و مبتسل الوجه، و لتضمنه لمعنى المنع قيل للمحرم و المرتهن بسل، و قوله تعالى: «وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ» أي: تحرم الثواب، و الفرق بين الحرام و البسل، أن الحرام عام فيما كان ممنوعا منه بالحكم و القهر، و البسل هو الممنوع منه بالقهر، إلى أن قال: و المعنى: و اترك «ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا» عدّ تدينهم بما يدعوهم إليه هوى أنفسهم لعبا و تلهيا بدينهم، و فيه فرض دين حق لهم و هو الذي دعتهم إليه فطرتهم فكان يجب عليهم أن يأخذوا به أخذ جد و يتحرزوا به عن الخلط و التحريف ولكنّهم اتخذوه لعبا و لهوا يقلبونه كيف شاءوا من حال إلى حال و يحولونه حسب ما يأمرهم به هوى أنفسهم من صورة إلى صورة.

ثم عطف على اتخاذهم الذين لعبا و لهوا قوله: «وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا» لما بينهما من الملازمة لأن الاسترسال في التمتع من لذائذ الحياة المادية و الجد في اقتنائها يوجب الإعراض عن الجد في الدين الحق و الهزل و اللعب به.

ثم قال: «وَذَكِّرْ بِهِۦٓ» أي: بالقرآن حذرا من أن تبسل أي: تمنع نفس بسبب ما كسبت من السيئات أو تسلم نفس مع ما كسبت للمؤاخذة و العقاب، و تلك نفس ليس لها من دون الله ولي و لاشفيع و إن تعدل كلّ عدل و تفد كلّ فدية لايؤخذ منها لأن اليوم يوم الجزاء بالأعمال لايوم البيع و الشرى أُولئك الذين

ابسلوا و منعوا من ثواب الله أو أسلموا لعقابه لهم شراب من حميم و عذاب أليم بما كانوا يكفرون، انتهى.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: «أ» نعبد «مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَايَنفَعُنَا» إن عبدناه «وَلَا يَضُرُّنَا» إن تركنا عبادته «وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا» راجعين عن ديننا الذي هو خير الأديان «بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ» له «كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ» كالذي ذهبت به مردة الجن و الغيلان في المهامة و الاستهواء استفعال من «هوى في الأرض»: إذا ذهب كأن المعنى طلبت هويّه و موضع الكاف نصب على الحال من الضمير في «نُرَدُّ» أي: أننكص مشبهين من «ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ»، «حَيْرَانَ» لايهتدي إلى طريق تائهاً ضالاً «لَهُۥٓ» أي: لهذا المستهوى «أَصْحَٰبٌ» رفقة «يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى» أي: إلى الطريق المستوي أو إلى أن يهدوه الطريق المستقيم، يقولون له: «ٱئْتِنَا» و قد اعتسف التيه تابعا للجن لايجيبهم و لايأتيهم، و هذا مبني على ما تزعمه العرب أن الجن تستهوي الإنسان و الغيلان كذلك فشبه به الضال عن الإسلام الذي لايلتفت إلى دعاء المسلمين إياه، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا» احتجاج على المشركين بنحو الاستفهام الإنكارى، إلى أن قال: و إذ كانت الشركاء لاتنفع و لاتضر فلاموجب لدعائها و عبادتها و التقرب منها. قوله تعالى: «وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ»، إلى قوله: «ٱئْتِنَا» الاستهواء طلب الهوى و السقوط، و الرد على الأعقاب كناية على الضلال و ترك الهدى فإن لازم الهداية الحقّة الوقوع في مستقيم الصراط و الشروع في السير فيه فالارتداد على الأعقاب ترك السير في الصراط و العود إلى ما خلف من المسير و هو الضلال، و لذا قال: «وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ» فقيّد الرد بكونه بعد الهداية الإلهية، إلى أن قال: و قوله: «كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ»، إلخ، تمثيل مثل به حال الإنسان المتحير الذي لم يؤت بصيرة في أمره و عزيمة راسخة على سعادته فترك أحسن طريق و أقومه إلى مقصده، و قد ركبه قبله أصحاب له مهتدون به و بقي متحيرا بين شياطين يدعونه إلى الردى و الهلاك، و أصحاب له مهتدين قد نزلوا في منازلهم أو أشرفوا على الوصول يدعونه إلى الهدى أن ائتنا فلايدري ما يفعل و هو بين مهبط و مستوى؟

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ» إلى آخر الآية. أي: إن كان الأمر دائراً بين دعوة الله سبحانه و هي التي توافق الفطرة و تسمية الفطرة هدى الله، و بين دعوة الشياطين و هي التي فيها الهوى و اتخاذ الدين لعبا و لهوا فهدى الله هو الهدى الحقيقي دون غيره.

أمّا أنّ ما يوافق دعوة الفطرة هو هدى الله فلاشك يعتريه لأن حق الهداية هو الذي ينطق به الصنع و الإيجاد الذي ليس إلا لله و لانروم شيئا من دين أو اعتقاد

إلا لابتغاء مطابقة الواقع و الواقع لله فلايعدوه هداه، و أمّا أن هدى الله هو الهدى الحقيقي الذي يجب أن يؤخذ به دون الدعوة الشيطانية فظاهر أيضا لأن الله سبحانه هو الذي إليه أمرنا كلّه من جهة مبدئنا و منتهانا و ما نحتاج إليه في دنيا أو آخرة.

و قوله: «وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» قال في المجمع: تقول العرب: أمرتك لتفعل و أمرتك أن تفعل و أمرتك بأن تفعل فمن قال: أمرتك بأن تفعل فالباء للإلصاق و المعنى وقع الأمر بهذا الفعل، و من قال: أمرتك أن تفعل حذف الجار، و من قال: أمرتك لتفعل فالمعنى أمرتك للفعل، و قال الزجاج: التقدير أمرنا كي نسلم. و الجملة أعني قوله: «وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ»، إلخ، عطف تفسير لقوله: «إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ» فالأمر بالإسلام هو مصداق لهدى الله، و المعنى: «أمرنا الله لنسلم له» و إنّما أبهم فاعل الفعل ليكون تمهيداً لوضع قوله: «لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» موضع الضمير فيدل به على علة الأمر فالمعنى أمرنا من ناحية الغيب أن نسلم لله لأنه رب العالمين جميعا ليس لها جميعا أو لكلّ بعض منها ـ كما تزعمه الوثنية ـ رب آخر و لاأرباب اُخر.

و ظاهر الآية أن المراد بالإسلام هو تسليم عامة الاُمور إليه تعالى لامجرد التشهد بالشهادتين، و هو ظاهر قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1]، انتهى[2].

و في كنز الدقائق: «قُلْ أَنَدْعُواْ»: أنعبد. «مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا» : ما لايقدر على نفعنا و ضرنا. «وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا»: و نرجع إلى الشرك. «بَعْدَ إِذْ

---

١. آل عمران: ١٩.

٢. الميزان ٧: ٧٣.

هَدَىٰنَا ٱللَّهُ»: فأنقذنا منه و رزقنا الإسلام. «كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ»: كالذي ذهب به مردة الجنّ في المهامة. استفعال من هوى يهوي هويا: إذا ذهب، إلى أن قال: و محل (الكاف) النصب على الحال من مرفوع «وَنُرَدُّ» أي: مشبهين الذي استهوته. أو على المصدر أي: ردّا، مثل ردّ الذي استهوته، إلى أن قال: «قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ»: الذي هو الإسلام. «هُوَ ٱلْهُدَىٰ»: وحده؟ و ما عداه ضلال. «وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ»: من جملة المقول، عطف على «إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ». و «اللام» لتعليل الأمر أي: أُمرنا بذلك لنسلم، إلى أن قال: «وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ»: عطف على «نُسْلِمَ» أي: للإسلام و لإقامة الصلاة أو على «لِنُسْلِمَ» بزيادة اللام، كأنه قيل: و أُمرنا أن نسلم، و أن أقيموا، انتهى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: «قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ» مبتدأ و «وَيَوْمَ يَقُولُ» خبره مقدما عليه كما تقول: «يوم الجمعة القتال» و اليوم بمعنى الحين، أو يكون « قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ» مبتدأً و خبراً «وَيَوْمَ يَقُولُ» ظرفا، و المعنى و هو الذي خلق السماوات و الأرض قائما بالحق و الحكمة، و حين يقول لشيء من الأشياء: «كُن فَيَكُونُ» ذلك الشيء «قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ» و الحكمة، أي: لايكون شيئا من «السماوات» و الأرض و سائر

المكونات إلا عن حكمة و صواب، و «يَوْمَ يُنفَخُ» ظرف لقوله: «وَلَهُ ٱلْمُلْكُ» كقوله: «لمن الملك اليوم» و يجوز أن يكون «قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ» فاعل «يكون» على معنى و حين يقول لقوله الحق أي: لقضائه الحق: «كُن فَيَكُونُ» قوله الحق، و ينتصب «يَوْمَ يَقُولُ» بمحذوف دلّ عليه قوله: «بِٱلْحَقُّ» كأنه قيل: و يوم يكوّن و يجدد الخلق يقوم بالحق، و وجب «لَهُ ٱلْمُلْكُ» في اليوم الذي فيه «يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ» لايبقى لأحد فيه ملك، و يجوز أن يكون «يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ» بدلا من «يَوْمَ يَقُولُ» و الصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل نفختين فيفنى الخلق بالنفخة الأُولى و يحيون بالثانية، انتهى.

و في الميزان: «وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ» إلى آخر الآية. بضعة أسماء و أوصاف له سبحانه مذكورة أُريد بذكرها بيان ما تقدم من القول و تعليله فإنه تعالى ذكر أن الهدى هداه ثمّ فسره نوع تفسير بالإسلام له و الصلاة و التقوى و هو تمام الدين ثمّ بيّن السبب في كون هداه هو الهدى الذي لايجوز التجافي عنه و هو أن حشر الجميع إليه ثمّ بيّنه أتم البيان بقوله: «وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ»، إلخ، فهذه أسماء و نعوت له تعالى لو انتفى واحد منها لم يتم البيان. فقوله: «هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ»، إلخ، يريد به أن الخلقة جميعا فعله و إنّما أتى به بالحق لابالباطل، و الفعل إذا لم يكن باطلا لم يكن مندوحة من ثبوت الغاية له فللخلقة غاية و هو الرجوع إليه تعالى و هذا هو إحدى الحجتين اللتين ذكرهما في قوله عز من قائل ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ﴾[١] إلى آخر الآيتين فخلقة السماوات و الأرض بخلقة حقه تؤدي إلى أن الخلق يحشرون إليه.

و قوله: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ» السياق يدلّ على أن المراد بالمقول له هو يوم الحشر و إن كان كلّ موجود مخلوق على هذه الصفة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢] و يوم ظرف متعلق بالقول و المعنى: يوم يقول ليوم القيامة: «كن فيكون» و ربما قيل: إن المقول له هو الشيء و التقدير: يوم يقول لشيء كن فيكون، و ما ذكرناه أوفق للسياق.

و قوله: «قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ» تعليل عللت به الجملة التي قبله، و الدليل عليه فصل الجملة، و الحق هو الثابت بحقيقة معنى الثبوت و هو الوجود الخارجي و الكون العيني و إذ كان قوله هو فعله و إيجاده كما يدلّ عليه قوله: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ» فقوله تعالى هو نفس الحق فلامردّ له و لامبدل لكلماته قال تعالى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾[٣]، إلى أن قال: فهذه الأسماء و النعوت تبين بأتم البيان أن الجميع محشورون إليه و أن هداه هو الهدى و دين الفطرة الذي أمر به هو الدين الحق فإنه تعالى خلق العالم لغاية مطلوبة أرادها منه و هو الرجوع إليه، و إذ كان يريدها فسيقول لها كن فيكون لأن قوله حق لامرد له، و يظهر اليوم أن الملك له لاسلطنة لشيء غيره على شيء، و عند ذلك يتميز بتمييزه من أطاعه ممن عصاه لأنه يعلم كلّ غيب و شهادة عن حكمة و خبرة، انتهى.

---

١. ص: ٢٧.

٢. يس: ٨٢.

٣. يس: ٨٢.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: قال أصحابنا: إن آزر كان اسم جدّ إبراهيم لأُمّه و روي - أيضا - : أنه كان عمّه.

و قالوا: إن آباء نبينا ﷺ إلى آدم كانوا موحدين و رووا عنه عليه السلام أنّه قال: لم يزل ينقلني الله تعالى من صلب الطاهرين إلى أرحام المطهرات لم يُدنّسني بدنس الجاهلية، و قد قيل: إن آزر اسم صنم فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته، و الهمزة في «أَتَتَّخِذُ» للإنكار و قوله: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ» من بعد عطف على «قَالَ إِبْرَٰهِيمُ».

و قوله: «وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ» جملة اعتراضية بين المعطوف و المعطوف عليه، و المعنى: و مثل ذلك التعريف نعرّف إبراهيم «مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» يعني الربوبية و الإلهية و نوفقه لمعرفتها و نهديه لطريق النظر و الاستدلال، «وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ» فعلنا ذلك، و «نُرِيٓ» حكاية حالٍ ماضية، انتهى.

و في كنز الدقائق: قوله: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ»: عطف بيان «لِأَبِيهِ» في كتب التواريخ: أن اسم أبيه تارخ. فقيل: هما علمان له، كإسرائيل و يعقوب. و قيل: العلم تارخ، و آزر وصف، و معناه: الشيخ [أو] المعوج. و الصحيح: أن تارخ أبوه، و آزر عمه أو جدّه لأُمّه. و العرب تسمي الجد و العم: أباً لإجماع الطائفة على أن آباء النبي ﷺ إلى آدم عليه السلام كانوا كلّهم موحدين، و روايتهم عن النبي ﷺ أنه قال: لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطاهرين إلى أرحام

المطهرات حتّى أخرجني في عالمكم هذا، لم يدنسني بدنس الجاهلية. و لو كان في آبائه كافر، لم يصف جميعهم بالطهارة مع قوله: «إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ»، إلى أن قال: و في الخرائج و الجرائح: عن أحمد و عبدالله ابني محمد بن عيسى، عن أبيه، عن عبدالله بن المغيرة، عن عبدالله بن مسكان قال: قال أبوعبدالله عليه السلام في قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» قال: كشط الله لإبراهيم السماوات حتّى نظر إلى ما فوق العرش، و كشطت له الأرض حتّى رأى ما تحت تخومها و ما فوق الهواء. و فعل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم مثل ذلك، و إني لأرى صاحبكم. و الأئمة من بعده فعل بهم مثل ذلك، انتهى.

و في الميزان: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ» قال الراغب في المفردات، الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به إلى الله تعالى و جمعه أصنام، إلى أن قال: و كيف كان، فقد كانت الأصنام ربما يمثل بها موضوع اعتقادي غير محسوس كإله السماء و الأرض و إله العدل، و ربما يمثل بها موضوع محسوس كصنم الشمس و صنم القمر، و قد كانت من النوعين جميعا أصنام لقوم إبراهيم عليه السلام على ما تؤيده الآثار المكشوفة منهم في خرائب بابل و قد كانوا يعبدونها تقربا بها إلى أربابها، و بأربابها إلى الله سبحانه، و هذا أنموذج بارز من سفه أحلام البشر أن يخضع أعلى حد الخضوع - و هو خضوع العبد للرب - لمثال مثل به موضوعاً يستعظم أمره و يعظمه، و حقيقته منتهى درجة خضوع المصنوع المربوب لصانعه من صانع لمصنوع نفسه كان الواحد منهم يأخذ خشبة فينحت بيده منه صنماً ثم ينصبه فيعبده و يتذلّل له

و يخضع و لذلك جيء بلفظة الأصنام في قوله المحكي: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً» نكرة ليدل على هوان أمرها و حقارته من جهة أنها مصنوعة لهم مخلوقة بأيديهم كما يشير إليه قوله عليه السلام لقومه فيما حكى الله ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[1].

و من جهة أنها فاقدة لأظهر صفات الربوبية و هو العلم و القدرة كما في قوله لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[2].

فقوله: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا»، إلخ، معناه: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا» لاخطر في أمرها آلهة و الإله هو الذي في أمره خطر عظيم إني أراك و قومك في ضلال مبين، و كيف لايظهر هذا الضلال و هو عبادة و تذلل عبودي من صانع فيه آثار العلم و القدرة لمصنوعه الذي يفقد العلم و القدرة، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»، إلخ، ظاهر السياق أن تكون الإشارة بقوله: «كَذَلِكَ» إلى ما تضمنته الآية السابقة: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ»، إلخ، أنه عليه السلام أُرِي الحق في ذلك، فالمعنى: على هذا المثال من الإراءة نري إبراهيم ملك السماوات و الأرض. و بمعونة هذه الإشارة و دلالة قوله في الآية التالية: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ» الدالة على ارتباط ما بعده بما قبله يظهر أن قوله: «نُرِيٓ» لحكاية الحال الماضية، إلى أن قال: فالمعنى: أنا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض فبعثه ذلك أن حاجّ أباه و قومه في أمر الأصنام و كشف له ضلالهم، إلى أن قال: و أما ملكوت السماوات و الأرض فالملكوت هو

---

١. الصافات: ٩٥.

٢. مريم: ٤٢.

الملك مصدر كالطاغوت و الجبروت و إن كان آكد من حيث المعنى بالنسبة إلى الملك كالطاغوت و الجبروت بالنسبة إلى الطغيان و الجبر أو الجبران. و المعنى الذي يستعمله فيه القرآن هو المعنى اللغوي بعينه من غير تفاوت كسائر الألفاظ المتسعملة في كلامه تعالى، إلى أن قال: قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[١] و قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]. و قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[٣]، إلى أن قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[٤] و الآيات ـ كما ترى ـ تعلل الملك بالخلق فكون وجود الأشياء منه و انتساب الأشياء بوجودها و واقعيتها إليه تعالى هو الملاك في تحقق ملكه و هو بمعنى ملكه الذي لايشاركه فيه غيره و لايزول عنه إلى غيره و لايقبل نقلا و لاتفويضا يغني عنه تعالى و ينصب غيره مقامه.

و هذا هو الذي يفسر به معنى الملكوت في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٥]، فالآية الثانية تبين أن ملكوت كلّ شيء هو كلمة كن الذي يقوله الحق سبحانه له، و قوله فعله، و هو إيجاده له.

---

١. آل عمران: ٢٦.

٢. المائدة: ١٢٠.

٣. الملك: ٢ ـ ١.

٤. الملك: ٣.

٥. يس: ٨٣ ـ ٨٢.

فقد تبين أن الملكوت هو وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه و قيامها به، و هذا أمر لايقبل الشركة و يختص به سبحانه وحده[١]، فالربوبية التي هي الملك و التدبير لاتقبل تفويضا و لاتمليكا انتقاليا.

و لذلك كان النظر في ملكوت الأشياء يهدي الإنسان إلى التوحيد هداية قطعية كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[٢]. و الآية ـ كما ترى ـ تحاذي أول سورة الملك المنقول آنفا.

فقد بان أن المراد بإراءة إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض على ما يعطيه التدبر في سائر الآيات المربوطة بها هو توجيهه تعالى نفسه الشريفة إلى مشاهدة الأشياء من جهة استناد وجودها إليه، و إذ كان استناداً لايقبل الشركة لم يلبث دون أن حكم عليها أن ليس لشيء و منها أن يربّ غيره و يتولى تدبير النظام و إدارة الأُمور فالأصنام تماثيل عملها الإنسان و سماها أسماءً و لم ينزل الله عليها من سلطان، و ما هذا شأنه لايربّ الإنسان و لايملكه و قد عملته يد الإنسان، و الأجرام العلوية كالكوكب و القمر و الشمس تتحول عليها الحال فتغيب عن الإنسان بعد حضورها، و ما هذا شأنه لايكون له الملك و تولّي التدبير تكوينا كما سيجيء بيانه. قوله تعالى: «وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ» اللام للتعليل، و الجملة معطوفة على أُخرى محذوفة و التقدير: ليكون كذا و كذا «و ليكون من الموقنين».

---

١. لانه غيره فانه للوجود و لذا لم ينسب الخلق إلى غيره.

٢. الأعراف: ١٨٥.

و اليقين هو العلم الذي لايشوبه شك بوجه من الوجوه، و لعلّ المراد به أن يكون على يقين بآيات الله على حدّ ما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] و ينتج ذلك اليقين بأسماء الله الحسنى و صفاته العليا.

و في معنى ذلك ما أنزله في خصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾[2]، انتهى.

و لايخفى عليك أن ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي أحسن ما قيل حول ملكوت السماوات و الأرض فإنه أمر يعرفه كلّ إنسان بالفطرة و وجدان العقل و هو أمر شائع بالنسبة إلى جميع المخلوقات سواء كانت من المرئيات أم غيرها و يؤيد ذلك أن جملة «كَذَلِكَ نُرِيَ»، إلخ، حينئذٍ تكون أمراً يرتبط بما قبله و لايكون قولا معترضا، و قد تقدم عبارة الميزان حيث قال: فقد تبين أن الملكوت هو وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه و قيامها به و هذا أمر لايقبل الشركة و يختص به سبحانه وحده، فالربوبية التي هي الملك و التدبير لاتقبل تفويضا و لاتمليكا انتقاليا. و لذلك كان النظر في ملكوت الأشياء يهدي الإنسان إلى التوحيد هداية قطعية، إلخ، انتهى.

---

١. السجدة: ٢٤.

٢. الاسراء: ١.

و إراءة سلسلة الموجودات السماوية و الأرضية من حيث الاستناد توافق إراءة معلوليتها لله سبحانه و تعالى و هو أمر لايشركه فيه شيء لفقدان الغير للوجود فإراءتها إراءة حقيقتها و هي عين التوحيد.

و هكذا لو أُريد من الملكوت حقيقة الموجودات فاستنادها عين حقيقتها و يهدي الإنسان إلى التوحيد به هداية قطعية، كما عرفت.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: كان القوم يعبدون الأصنام و الشمس و القمر و الكواكب فأراد أن ينبههم على خطائهم و يرشدهم و يبصرهم طريق النظر و الاستدلال ليعرفوا أن شيئا منها لايصح أن يكون إلها لوضوح دلالة الحدوث فيها، «قَالَ هَٰذَا رَبِّى» قول من ينصف خصمه مع علمه بأنّه مبطل فيحكى ـ قوله ـ كما هو ـ غير متعصب لمذهبه ليكون ذلك أدعى إلى الحق و أرفع للشغب، ثمّ يبطله بعد بالحجة في قوله: «لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ» أي: لااُحب عبادة الأرباب المحتجبين بحجاب المتغيرين من حال إلى الحال المنتقلين من مكان إلى مكان فإن ذلك من صفات الأجسام و دلائل الحدوث، و قوله: «لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى»تنبيه لقومه

على أن من اتخذ القمر إلهاً و هو آفل مثل الكواكب يكون ضالاً و أن الهداية إلى الحق تكون بتوفيق الله تعالى و لطفه، و قوله: «هَٰذَآ أَكۡبَرُ» ـ أيضا ـ من باب الاستعمال الإنصاف مع الخصوم، ثم قال: «إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ» من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها، و أما وجه التذكير في قوله: «هَٰذَا رَبِّي» مع أن الإشارة للشمس فهو أنه جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم: «من كانت أُمك»، و ليصون الرب عن شبهة التأنيث، ألاتراهم لم يقولوا: «الله ـ سبحانه ـ علامة» و إن كان العلامة أبلغ من علّام لهذا المعنى، «إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ» أي: للذي دلت هذه المحدثات على أنّه صانعها ومبدعها الذي دبر أحوالها: مسيرها و انتقالها وطلوعها و أُفولها، و قيل: إن هذا كان استدلاله في نفسه في زمان مهلة النظر و خطور الخاطر الموجب عليه الفكر فحكاه الله سبحانه، و الأول أظهر لقوله: «لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي» و قوله «يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ»، انتهى.

و في الميزان: و قوله تعالى: «قَالَ هَٰذَا رَبِّي» المراد بالرب هو مالك الأشياء المربوبين، المدبر لأمرهم لا الذي فطر السماوات و الأرض و أوجد كلّ شيء بعد ما لم يكن موجوداً فإنه الله سبحانه الذي ليس بجسم و لاجسماني و لايحويه مكان و لايقع عليه إشارة، و الذي يظهر مما حكي من كلام إبراهيم مع قومه في أمر الأصنام ظهورا لاشك فيه أنه كان على بينة من ربه و له من العلم بالله و آياته ما لايخفى عليه معه أن الله سبحانه أنزه ساحة من التجسم و التمثل و المحدودية، قال تعالى حكاية عنه في محاورة له مع أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ

يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا»[١] ... على أن الوثنيين و الصابئين لايثبتون لله سبحانه شريكا في الإيجاد يكافئ بوجوده وجوده تعالى، بل إنّما يثبتون الشريك بمعنى بعض من هو مخلوق لله مصنوع له و لا أقل مفتقر الوجود إليه فوض إليه بعد تدبير الخليقة كإله الحسن و إله العدل و إله الخصب أو تدبير بعض الخليقة كإله الإنسان أو إله القبيلة أو إله يخصّ بعض الملوك و الأشراف و قد دلت على ذلك آثارهم المستخرجة و أخبارهم المروية، و الموجودون منهم اليوم على هذه الطريقة فقوله عليه السلام: بالإشارة إلى الكواكب: «هَٰذَا رَبِّي» أراد به إثبات أنه رب يدبر الأمر لا إله فاطر مبدع. و عليه، يدلّ ما حكي عنه في آخر الآيات المبحوث عنها: «قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ». فإن ظاهره أنه ينصرف عن فرض الشريك إلى إثبات أن لاشريك له لا أنه يثبت وجوده تعالى.

فالذي يعطيه ظاهر الآيات أنه عليه السلام سلم أن لجميع الأشياء إلهاً فاطرا واحدا لاشريك له في الفطر و الإيجاد و هو الله تعالى، و أن للإنسان ربا يدبر أمره لامحالة، و إنّما يبحث عن أن هذا الرب المدبر للأمر، أهو الله سبحانه و إليه يرجع التدبير كما إليه يرجع الإيجاد أم أنه بعض خلقه أخذه شريكا لنفسه و فوض إليه أمر التدبير.

و في إثر ذلك ما كان منه عليه السلام من افتراض الكوكب الذي كانوا يعبدونه ثمّ القمر ثمّ الشمس و النظر في أمر كلّ منها هل يصلح لأن يتولى أمر التدبير و إدارة شؤون الناس؟

---

١. مريم: ٤٣.

و هذا الافتراض و النظر و إن كان بحسب طبعه قبل العلم اليقيني بالنتيجة فإن النتيجة فرع يتأخر طبعا عن الحجة النظرية لكنه لايضر به عليه السلام فإن الآيات كما استفدناه فيما تقدم تقص أول أمر إبراهيم و الإنسان في أول زمان يأخذ بالتمييز و يصلح لتعلق التكليف الإلهي بالنظر في أمر التوحيد و سائر المعارف الأصلية كاللوح الخالي عن النقش و الكتابة غير مشغول بنقش مخالف فإذا أخذ في الطلب و شرع يثبت شيئا و ينفي شيئا لغاية الحصول على الاعتقاد الحق و الإيمان الصحيح فهو بعد في سبيل الحق لابأس عليه في زمن يمرّ عليه بين الانتزاع من قصور التمييز و بين الاعتصام بالمعرفة الكاملة و العلم التام بالحق.

و من ضروريات حياة الإنسان أن يمرّ عليه لحظة هي أول لحظة ينتقل فيها من قصور الجهل بواجب الاعتقاد إلى بلوغ العلم بحيث يتعلق به التكليف العقلي بالانتهاض إلى الطلب و النظر، و هذه سنة عامة في الحياة الإنسانية المتدرجة من النقص إلى الكمال لايختلف فيها إنسان و إنسان، و إن أمكن أن يظهر من بعض الأفراد بعض ما يخالف ذلك من أمارات الفهم و العلم قبل المتعارف من سن التمييز و البلوغ كما يحكيه القرآن عن المسيح و يحيى عليهما السلام فإنّما ذلك من خوارق العادة الجارية و ما كلّ إنسان على هذا النعت و لا كلّ نبي فعل به ذلك. و بالجملة ليس الإنسان من أول ما ينفخ فيه الروح الإنساني واجدا لشرائط التكليف بالاعتقاد الحق أو العمل الصالح، و إنّما يستعد لذلك على سبيل التدريج حتى يستتم الشرائط فيكلّف بالطلب و النظر فزمن حياته منقسم لامحالة إلى قسمين هما قبل التمييز و البلوغ و بعد التمييز و البلوغ و هو الزمان الذي يصلح لأن يشغله الاعتقاد كما أن ما يقابله يقابله فيه، و بين الزمانين الصالح لإشغاله

بالاعتقاد و غير الصالح له لامحالة زمان متخلل يتوجه إليه فيه التكليف بالطلب و النظر، و هو الفصل الذي يبحث فيه عن واجب الاعتقاد بما تهدي إليه فطرته من طريق الاستدلال فيفرض نفسه أو العالم مثلا بلاصانع مرة و مع الصانع اُخرى، و يفرض الصانع وحده مرة و مع الشريك اُخرى و هكذا ثمّ ينظر ما ذا تؤيده الآثار المشهودة في العالم من كلّ فرض فرضه أو لاتؤيده فيأخذ بذاك و يترك هذا. فهو ما لم يتم له الاستدلال غير قاطع بشيء و لابانٍ على شيء و إنّما هو مفترض و مقدر لما افترضه و قدّره، إلى أن قال : ولكن الذي يتأيد بما حكاه الله عنه في سورة مريم محاجّته أباه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[1].

أنه عليه السلام كان على علم بحقيقة الأمر و أن الذي يتولى تدبير أمره و يحفي عليه و يبالغ في إكرامه هو الله سبحانه دون غيره.

و على هذا فقوله: «هَـٰذَا رَبِّى» جار مجرى التسليم و المجاراة بعد نفسه كأحدهم و مجاراتهم و تسليم ما سلموه ثمّ بيان ما يظهر به فساد رأيهم و بطلان قولهم، و هذا الطريق من الاحتجاج أجلب لإنصاف الخصم، و أمنع لثوران عصبيته و حميّته، و أصلح لإسماع الحجة.

---

١. مريم: ٤٧ ـ ٤٣.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ الأُفول الغروب و فيه إبطال ربوبية الكوكب بعروض صفة الأُفول له فإن الكوكب الغارب ينقطع بغروبه ممن طلع عليه و لايستقيم تدبير كوني مع الانقطاع.

على أن الربوبية و المربوبية بارتباط حقيقي بين الرب و المربوب و هو يؤدي إلى حب المربوب لربه لانجذابه التكويني إليه و تبعيته له، و لامعنى لحب ما يفنى و يتغير عن جماله الذي كان الحب لأجله، و ما يشاهد من أن الإنسان يجب كثيرا الجمال المعجّل و الزينة الداثرة فإنّما هو لاستغراقه فيه من غير أن يلتفت إلى فنائه و زواله فمن الواجب أن يكون الرب ثابت الوجود غير متغير الأحوال كهذه الزخارف المزوقة التي تحيا و تموت و تثبت و تزول و تطلع و تغرب و تظهر و تخفى و تشب و تشيب و تنضر و تشين، و هذا وجه برهاني، إلى أن قال: و على أي حال فهو عليه السلام أبطل ربوبية الكوكب بعروض الأُفول له إما بالتكنية على البطلان بأنه لايحبّه لأُفوله لأن المربوبية و العبودية متقومة بالحب فليس يسع من لايحب شيئا أن يعبده و قد ورد في المروي عن الصادق عليه السلام: هل الدين إلّا الحب؟، إلى أن قال: فيتحصل من الآيات أن إبراهيم عليه السلام حاج قومه في أمر الأصنام يوم حاجّهم و اشتغل بهم يومه ذلك حتّى جنّ عليه الليل فلما جن عليه الليل رأى الزهرة و قوم يعبدونها فجاراهم في ربوبيتها و أخذ ينتظر ما يحل بها من حال حتّى أفلت بعد سويعات فحاجهم به و تبرأ من ربوبيتها، ثمّ رأى القمر بازغا و هناك قوم يعبدونه فجاراهم في ربوبيته بقوله: «هَٰذَا رَبِّي» و أخذ يراقب ما يحدث به حتّى أفل، إلى أن قال: فتبين من جميع ما تقدم: أولاً: أن قوله عليه السلام «لَآ

أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ» حجة برهانية يقينية بني الكلام فيه على عدم حبه للآفلين، و منافاة الأُفول للربوبية، و يظهر من كلام بعضهم أنه يأخذه حجة عامية غير برهانية، إلى أن قال: و قد خفي عليه أولا: أن وضع قوله: «وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ» بين الآيات المتضمنة لحججه عليه السلام أدل دليل على كون حججه مأخوذة من مشهوداته الملكوتية التي هي ملاك يقينه بالله و آياته وكيف يتصور مع ذلك كونها حجة عامية غير برهانية، إلى أن قال: إن البناء على الأُفول أيضا لايخرجها عن كونها برهانية فهو عليه السلام إنّما ذكر سبب براءته من ربوبيتها أنه وجدها آفلة غاربة و هو لايحب الآفلين فلايعبدها، و من المعلوم: أن عبادة الإنسان لربه إنما هي لأنه رب أي: لأنه يدبر أمر الإنسان فيفيض عليه الحياة و الرزق و الصحة و الخصب و الأمن و القدرة و العلم إلى غير ذلك مما يحتاج إليه في بقائه فهو متعلق الوجود بربه من كلّ جهة، و من فطريات الإنسان أن يحب ما يسعده مما يحتاج إليه و أن يحب من يسعده بذلك لايرتاب فيه ذو ريب البتة فإنّما يعبد الرب لأن الإنسان يحبه لجلبه المنافع إليه أو لدفعه المضار عنه أو لهما جميعا. و من فطريات الإنسان أيضا أنه لاتتعلق نفسه بما لابقاء له إلا أن يحول حرص أو شبق أو نحوهما نظره إلى جهة اللذة و يصرفه عن التأمل و الإمعان في جهة فنائه و زواله، إلى أن قال: فهو عليه السلام يفيد بقوله: «قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ» أن الذي من شأنه أن يفقده الإنسان و يغيب عنه و لايبقى و لايثبت له لايستحق أن يحبه الإنسان و تتعلق به نفسه، و الرب الذي يعبدوه الإنسان يجب

أن يحبه فيجب أن لايكون من شأنه أن يأفل عنه و يفقد فهذه الأجرام الآفلة لاتستحق اسم الربوبية، و هذه ـ كما ترى ـ حجة يعرفها العامة و الخاصة، انتهى.

و بالجملة: يستفاد من الآيات الكريمة بعض البراهين التي تدل على التوحيد، و هي اُمور: منها: برهان الحدوث. و منها: برهان الاُفول و المحدودية و المحجوبية. و منها: المحجوبية المطلقة، و لكلّ واحد منها تقريب خاص مقرر في محله، و اُشير إلى بعضها في المقام.

قال العلامة الشعراني: قال المتكلمون: إن الحركة و السكون كليهما يدلان على الحدوث، و لاريب أن دلالة الحركة أظهر، و إن قيل: إنّ إبراهيم عليه السلام استدل بنفس الاُفول على عدم كون النجوم آلهة من غير توسيط إثبات الحدوث كان وجها، لأن الجسم الغائب لايؤثر فيما هو غائب عنه و الواجب شاهد حاضر مؤثر دائما، انتهى.

و قال الشعراني أيضا: إن المحققين من أهل الكلام كالمحقق الطوسي و العلامة الحلّي منّا و كثير من أهل السنة أثبتوا حدوث الأجسام زمانا، لكنهم لايقولون بتوقف إثبات الصانع على حدوثها، بل الإمكان كاف في ذلك، إلى أن قال: لأن الجسم مركب من المادة و الصورة المحتاج كلّ منهما في الوجود إلى الآخر، انتهى.

فتحصل: أن بعد التوحيد الذاتي يجب القول بالتوحيد الأفعالي و التوحيد الصفاتي و انحصار الربوبية في الله سبحانه و تعالى و مع كون الله تعالى خالقا وحده و ربّا وحده اختصت العبودية به أيضا.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: كان القوم حاجّوه و خاصموه في الدين و في التوحيد (حاجه أي: نازعه و خاصمه) و ترك عبادة آلهتهم منكرين لذلك فـ «قَالَ» لهم: «أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ» إلى التوحيد، «وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ» لأنهم قد خوّفوه أن آلهتهم تصيبه بمكروه «إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا» إلا وقت مشية ربي شيئا يخاف فحذف الوقت أي: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط لأنها لاتقدر على نفع و ضرّ إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها مثل أن يرجمني بكوكب أو يشاء الإضرار بي ابتداءً.

«وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا» فلايستبعد أن يكون في علمه إنزال مخوف بي «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» فتميزوا بين القادر و العاجز.

«وَكَيْفَ أَخَافُ» لتخويفكم شيئا لايتعلق به ضرر «وَ» أنتم «لَا تَخَافُونَ» ما يتعلق به كلّ خوف و هو إشراككم بالله «مَا لَمْ يُنَزِّلْ» بإشراكه «سُلْطَٰنًا» أي: حجة إذ لايصح أن يكون عليه حجة فكأنه قال: و مالكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن و لاتنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف!

«فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ» يعني: فريق المشركين و فريق الموحدين «أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ» ثمّ استأنف الجواب عن السؤال بقوله: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ» أي: بمعصية، و عن ابن عباس هو الشرك لقوله: «إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» « أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ» من الله «وَهُم» محكوم لهم بالاهتداء. . . .

«وَتِلْكَ» إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ» إلى قوله: «وَهُم مُّهْتَدُونَ»، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ»، إلى أن قال: «وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ» فهو الاحتجاج لوجوب عبادة آلهتهم من جهة الخوف و قد تقدم و سيجيء أن الذي بعثهم إلى اتخاذ الآلهة و عبادتها أحد أمرين: الخوف من سخطها و قهرها بما لها من السلطة على حوادث العالم الأرضي، أو رجاء البركة و السعادة منها، و أشد الأمرين تأثيراً في نفوسهم هو الأمر الأول أعني: الخوف، إلى أن قال: فطريق الرجاء قليل التأثير في وجوب العبودية، إلى أن قال: و قوله: «إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا» كالكلام في الحجة على تقدير التسليم أي: تحتجون على وجوب عبادتها بالخوف و لاخوف في نفسي، ولو فرض خوف لكان دليلا على ربوبية ربي لا على ربوبية شركائكم فإنه عن مشية من ربّي، و قوله: «وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا» بيان و تعليل لكون الخوف المفروض مستندا إلى مشية ربه فإن فاطر السماوات و الأرض لايجهل ما يقع في ملكه فلايقع إلا بإذن منه فهو الذي يدبر أمره و يقوم بربوبيته، انتهى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

و المستفاد من الآيات المذكورة أن الأنبياء كلّهم من الصالحين و من أفضل العالمين و طريقهم صراط مستقيم و مبرؤون عن الانحراف و الاعوجاج.

و في جوامع الجامع:: «وَوَهَبْنَا» لإبراهيم «إِسْحَٰقَ» ابنه «وَيَعْقُوبَ» ابن إسحاق «كُلًّا هَدَيْنَا» إلى النبوة و نيل الكرامات.

«وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ» الضمير لنوح أو لإبراهيم «دَاوُۥدَ» أي: و هدينا داود «وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ» في موضع النصب عطفاً على «كُلًّا» بمعنى: فضّلنا بعض آبائهم «وَذُرِّيَّتِهِمْ» «وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ» اصطفيناهم، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا» إسحاق هو ابن إبراهيم و يعقوب هو ابن إسحاق عليهم السلام، و قوله: «كُلًّا هَدَيْنَا» قدم فيه كلّا للدلالة على أن الهداية الإلهية تعلقت بكلّ واحد من المعدودين استقلالا لا أنها تعلقت ببعضهم استقلالا كإبراهيم و بغيره بتبعه، فهو بمنزلة أن يقال: هدينا إبراهيم و هدينا إسحاق و هدينا يعقوب. كما قيل: قوله تعالى: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ» فيه إشعار بأن سلسلة الهداية غير منقطعة و لامبتدئة من إبراهيم عليه السلام بل

كانت الرحمة قبله شاملة لنوح عليه السلام . قوله تعالى: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ» إلى قوله: «وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ» الضمير في «ذُرِّيَّتِهِۦ» راجع إلى نوح ظاهرا لأنه المرجع القريب لفظا، و لأن في المعدودين من ليس هو من ذرية إبراهيم مثل لوط و إلياس على ما قيل، إلى أن قال:

قوله تعالى: «وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ»... و في ذكر عيسى بين المذكورين من ذرية نوح عليه السلام و هو إنّما يتصل به من جهة أُمّه مريم دلالة واضحة على أن القرآن الكريم يعتبر أولاد البنات و ذريتهن أولاداً و ذرية حقيقة، و قد تقدم استفادة نظير ذلك من آية الإرث و آية محرمات النكاح... .

قوله تعالى: «وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ» الظاهر أن المراد بإسماعيل هو ابن إبراهيم أخو إسحاق عليهما السلام و قوله: «وَٱلْيَسَعَ» بفتحتين كأسد و قرئ «الليسع» كالضيغم أحد أنبياء بني إسرائيل ذكر الله اسمه مع إسماعيل عليه السلام كما في قوله: «وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ» و لم يذكر شيئا من قصته في كلامه.

و أما قوله: «وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ» فالعالم هو الجماعة من الناس كعالم العرب و عالم العجم و عالم الروم، و معنى تفضيلهم على العالمين تقديمهم بحسب المنزلة على عالمي زمانهم لما أن الهداية الخاصة الإلهية أخذتهم بلاواسطة، و أما غيرهم فإنما تشملهم رحمة الهداية بواسطتهم، إلى أن قال: و أعلم أن الذي وقع في الآيات الثلاث من ذكر من عدده الله تعالى من الأنبياء بأسمائهم ـ و هم سبعة عشر نبياً ـ لم يراع فيه الترتيب الذي بينهم لابحسب

الزمان و هو ظاهر، و لابحسب الرتبة و الفضيلة فإن فيهم نوحا و موسى و عيسى عليهم السلام، و هم أفضل من باقي المذكورين بنص الكتاب ... و قد قدم عليهم غيرهم في الذكر، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ» هذا التعبير يؤيد ما قدمناه أن المراد بيان اتصال سلسلة الهداية حيث أضاف الباقين إلى المذكورين بأنهم متصلون بهم بأُبوة أو بنوة أو اُخوة، انتهى.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

في جوامع الجامع: «ذٰلِكَ» إشارة إلى ما تقدم من التفضيل و الاجتباء «هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ» ممن لم يسمهم في هذه الآيات.

«وَلَوْ أَشْرَكُوا۟» مع فضلهم و تقدمهم وما رفع لهم من الدرجات لحبطت أعمالهم و كانوا كغيرهم في ذلك، و نحوه ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] «أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ» أعطيناهم «ٱلْكِتَٰبَ» يريد الجنس «وَٱلْحُكْمَ» بين الناس، و قيل: الحكمة، «فَإِن يَكْفُرْ بِهَا» بالكتاب و الحكم و النبوة أو بالنبوة «هَٰٓؤُلَآءِ» يعني: أهل مكة.

---

١. الزمر: ٦٥.

«فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا» و هم الأنبياء الذين جرى ذكرهم و من تابعهم آمنوا بما أتى به نبينا عليه السلام قبل وقت مبعثه، و قيل: هم كلّ من آمن بالنبي عليه السلام و قيل: هم الأنصار و معنى توكيلهم بها أنهم وفقوا للإيمان بها كما يؤكل الرجل بالشيء ليقوم به و يتعهده و الباء في «بِهَا» صلةُ «يَكْفُرْ» و في «بِكَٰفِرِينَ» لتأكيد النفي، «فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ» أي: فاختص هداهم بالاقتداء و لاتقتد إلا بهم، ففي تقديم المفعول هذا المعنى، و يريد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله و توحيده و عدله، و في أُصول الدين دون الشرائع فإنها يتطرق إليها النسخ فهي هدى ما لم تنسخ، و الهاء في «ٱقْتَدِهْ» للوقف «قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» أي: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلا كما لم تسأله الأنبياء قبلي فإنه ينفر عن القبول، «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ» فيه دليل على أن نبينا عليه السلام مبعوث إلى كافة العالمين و أن النبوة مختومة به، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ» إلى آخر الآية يبين تعالى أن الذي ذكره من صفة الهداية التي هدى بها المذكورين من أنبيائه هو المعرف لهداه الخاص به الذي يهدي به من يشاء من عباده.

فالهدى إنّما يكون هدى ـ حق الهدى ـ إذا كان من الله سبحانه، و الهدى إنّما يكون هدى إذا أورد المتلبس به صراطاً مستقيماً اتفق على الورود فيه أصحاب الهدى و هم الأنبياء المكرمون عليهم السلام، و اتفق أجزاء ذلك الصراط في الدعوة إلى كلمة التوحيد و إقامة دعوة الحق و الاتسام بسمة العبودية و التقوى. أما الطريق الذي يفرق فيه بين رسل الله فيؤمن فيه ببعض و يكفر ببعض أو يفرق فيه بين أحكام الله و شرائعه فيؤخذ فيه ببعض و يترك بعض، و الطرق التي لاتضمن سعادة

حياة المجتمع الإنساني أو يسوق إلى بعض ما ليس فيه السعادة الإنسانية فتلك هي الطرق التي لامرضاة فيها لله سبحانه و قد انحرفت فيها عن شريعة الفطرة إلى مهابط الضلال و مزالق الأهواء، و الاهتداء إليها ليس اهتداء بهدى الله سبحانه، إلى أن قال: و بالجملة هدى الله سبحانه من خاصته أنه لايشتمل على ضلال و لايجامع ضلالا بالتأدية إليه، و إنّما هو الهدى محضة تتلوه السعادة محضة عطاء غير مجذوذ لكن لاعلى حد العطايا المعمولة فيما بيننا التي ينقطع معها ملك المعطي «بالكسر» عن عطيته و ينتقل إلى المعطى «بالفتح» فيحوزه على أي حال سواء شكر أو كفر. بل هذه العطية الإلهية إنّما تقوم على شريطة التوحيد و العبودية فلاكرامة لأحد عليه تعالى و لا أمن له منه إلا بالعبودية محضا، و لذلك ذيل الكلام بقوله: «وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» و إنّما ذكر الإشراك لأن محطّ البيان إنّما هو التوحيد.

قوله تعالى: «أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ» الإشارة باللفظ المفيد للبعد للدلالة على علو شأنهم و رفعة مقامهم، و المراد بإتيائهم الكتاب و غيره إيتاء جمعهم ذلك بوصف المجموع و إن كان بعضهم لم يؤتوا بعض المذكورات، إلى أن قال: و الظاهر من الحكم في الآية بقرينة ذكر الكتاب معه أن يكون المراد به معنى القضاء فيكون المراد من إيتاء الكتاب و الحكم إعطاء شرائع الدين و القضاء بحسبها بين الناس كما هو ظاهر عدة من الآيات، إلى أن قال: و عدّ هذه الكرامات الثلاث التي أكرم الله سبحانه بها سلسلة الأنبياء أعني: الكتاب و الحكم و النبوة في سياق الآيات الواصفة لهداه تعالى يدلّ على أنها من آثار هداية الله و بها يتم العلم بالله تعالى و آياته فكأنه قيل: تلك الهداية التي جمعنا

عليها الأنبياء و فضلناهم بها على العالمين هي التي توردهم صراطا مستقيما و تعلمهم الكتاب المشتمل على شرائعه، و تسددهم و تنصبهم للحكم بين الناس، و تنبئهم أنباء الغيب، إلى أن قال: قوله تعالى: «فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ» الضميران في قوله: «يَكْفُرْ بِهَا» و قوله: «وَكَّلْنَا بِهَا» راجعان إلى الهدى و يجوز فيه التذكير و التأنيث من جهة أنه هداية، أو راجعان إلى الكتاب و الحكم و النبوة التي هي من آثار الهداية الإلهية، و لايخلو أول الوجهين عن بعد، و المشار إليه بقوله: «هَٰٓؤُلَآءِ» الكافرون بالدعوة من قوم النبي ﷺ و المتيقن منهم بحسب مورد الآية كفار مكة الذين أشار الله سبحانه إليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

و المعنى على الوجه الأول: فإن يكفر مشركو قومك بهدايتنا و هي طريقتنا فقد وكلنا بها من عبادنا من ليس يكفر بها، و الكفر و الإيمان يتعلقان بالهداية و خاصة إذا كانت بمعنى الطريقة كما ينسبان إلى الله سبحانه و آياته قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[2] و قال: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

و على الوجه الثاني: فإن يكفر بالكتاب و الحكم و النبوة و هي التي تشتمل على الطريقة الإلهية و الدعوة الدينية ـ مشركو مكة فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين، إلى أن قال: و ختم سبحانه كلامه في وصف التوحيد الفطري و الهداية

---

١. البقرة: ٦.

٢. الجن: ١٣.

٣. البقرة: ٣٨.

الإلهية إليه بقوله خطابا لنبيّه: «قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ» كأنه قيل: اهتد بالهدى الإلهي الذي اهتدى به الأنبياء قبلك، و ذكر به العالمين من غير أن تسألهم أجرا على ذلك، و قل لهم ذلك لتطيب به نفوسهم، و يكون أنجح للدعوة و أبعد من التهمة، و قد حكى الله سبحانه هذه الكلمة عن نوح و من بعده من الأنبياء عليهم السلام : في دعواتهم، انتهى.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١ ﴾

في جوامع الجامع: أي: ما عرفوه حق معرفته و ما عظّموه حق عظمته و ما وصفوه بما يجب أن يوصف به من الرحمة على عباده و اللطف بهم حين « قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ» فأنكروا بعثة الرسل و الوحي إليهم و ذلك من أعظم رحمته و أجلّ ألطافه، و إنّما قاله اليهود مبالغة في إنكار نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فألزموا ما لابد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى، و أُدرج تحت الإلزام توبيخهم و ذمّهم بتحريفهم للتوراة و إبداء بعضها و إخفاء بعض فقيل: «جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا» يستضاء به في الدين «وَهُدٗى لِّلنَّاسِ» يهتدون به «تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ» ورقات متفرقة ليتمكنوا مما حاولوه من الإبداء و الإخفاء.

و قرئ «تَجْعَلُونَهُ» بالتاء و الياء، و كذلك «تُبْدُونَهَا» و «تُخْفُونَ» و «عُلِّمْتُم» خطاب لليهود أي: علمتم على لسان محمد ﷺ مما أُوحي إليه «مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ» مع أنكم حملة التوراة «وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ» أي: و لم يعلمه آباؤكم الذين كانوا قبلكم و هم أعلم منكم و نحوه ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

«قُلِ ٱللَّهُ» أنزله «ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ» أي: في باطلهم الذي يخوضون فيه و «يَلْعَبُونَ» حال من «ذَرْهُمْ» أو من «خَوْضِهِمْ» و يجوز أن يكون «فِى خَوْضِهِمْ» حالا من «يَلْعَبُونَ» أي: خائضين في الباطل، و يجوز أن يكون صلة لـ «يَلْعَبُونَ» أو لـ «ذَرْهُمْ»، انتهى.

و في الميزان: « وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ» ... و قدره بالتحريك كميّته من عظم أو صغر و نحوهما، إلى أن قال: و إذ كان تقدير الشيء و تحديده بحدود لاينفك غالبا عن وصفه بأوصافه المبينة لحاله المستتبعة لعرفانه أطلق القدر و التقدير على الوصف و على المعرفة بحال الشيء ـ على نحو الاستعارة ـ فيقال قدر الشيء و قدره أي: وصفه، و يقال: قدر الشيء و قدره أي: عرفه، ... و لما كان الله سبحانه لايحبط بذاته المتعالية حسّ و لاوهم و لاعقل و إنّما يعرف معرفة ما بما يليق بساحة قدسه من الأوصاف و ينال من عظمته ما دلت عليه آياته و أفعاله صح استعمال القدر فيه تعالى بكلّ من المعاني

---

١. عنكبوت: ٧٦.

السابقة فيقال: «وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ» أي: ما عظموه بما يليق بساحته من العظمة أو ما وصفوه حق وصفه أو ما عرفوه حق معرفته.

فالآية بحسب نفسها تحتمل كلا من المعاني الثلاثة أو جميعها بطريق الالتزام لكن الأنسب بالنظر إلى الآيات السابقة الواصفة لهدايته تعالى أنبيائه المستعقبة لإيتائهم الكتاب و الحكم و النبوة، و عنايته الكاملة بحفظ كلمة الحق و نعمة الهداية بين الناس زمانا بعد زمان و جيلا بعد جيل أن تحمل على المعنى الأول فإن في إنكار إنزال الوحي حطّاً لقدره تعالى و إخراجا له من منزلة الربوبية المعتنية بشؤون عباده و هدايتهم إلى هدفهم من السعادة و الفلاح، إلى أن قال: و لما قيد قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ» بالظرف الذي في قوله: «إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ» أفاد ذلك أن اجتراءهم على الله سبحانه و عدم تقديرهم حق قدره إنّما هو من حيث إنهم نفوا إنزال الوحي و الكتاب منه تعالى على بشر فدل ذلك على أن من لوازم الألوهية و خصائص الربوبية أن ينزل الوحي و الكتاب لغرض هداية الناس إلى مستقيم الصراط و الفوز بسعادة الدنيا و الآخرة فهي الدعوى. إلى أن قال: و بالجملة فالآية أعني قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ» تدل بما لها من الضمائم على أن من لوازم الألوهية أن تهدي الإنسان إلى مستقيم الصراط و منزل السعادة بإنزال الكتاب و الوحي على بعض أفراده، و تستدل على ذلك بوجود بعض الكتب المنزلة من الله في طريق الهداية أولاً، و بوجود ما يدلّ على تعاليم إلهية بينهم لاينالها الإنسان بما عنده من العقل الاجتماعي ثانيا.

قوله تعالى: «قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا» القراءة الدائرة تجعلونه بصيغة الخطاب و المخاطبون به اليهود لامحالة، و قرئ «يَجْعَلُونَهُ» بصيغة الغيبة، و المخاطب المسؤول عنه بقوله: «مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ»، إلخ، حينئذ اليهود أو مشركو العرب على ما قيل، و المراد يجعل الكتاب قراطيس و هي جمع قرطاس إمّا جعله في قراطيس بالكتابة فيها، و إما جعله نفس القراطيس بما فيها من الكتابة فالصحائف و القراطيس تسمى كتابا كما تسمى الألفاظ المدلول عليها بالكتابة كتابا.

وقوله: «قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ»، إلخ. جواب عن قولهم المحكي بقوله تعالى: «إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ» و الآية و إن لم تعين القائلين بهذا القول من هم؟ إلا أن الجواب بما فيه من الخصوصية لايدع ريباً في أن المخاطبين بهذا الجواب هم اليهود فالقائلون: «مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ» هم اليهود أيضا، و ذلك أن الآية تحتج على هؤلاء القائلين بكتاب موسى عليه السلام و المشركون لايعترفون به و لايقولون بنزوله من عندالله، و إنّما القائلون به أهل الكتاب، و أيضا الآية تذمّهم بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها و يخفون كثيرا، و هذا أيضا من خصائص اليهود على ما نسبه القرآن إليهم دون المشركين.

على أن قوله بعد ذلك: «وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ» على ظاهر معناه الساذج لايصلح أن يخاطب به غير اليهود من المشركين أو المسلمين كما تقدم و سيجيء إن شاء الله تعالى، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ» المراد بهذا العلم الذي علموه و لم يكونوا يعلمونه هم و لا

آباؤهم ليس هو العلم العادي بالنافع و الضار في الحياة ممّا جهز الإنسان بالوسائل المؤدية إليه من حس و خيال و عقل فإن الكلام واقع في سياق الاحتجاج مربوط به و لارابطة بين حصول العلوم العادية للإنسان من الطرق المودعة فيه و بين المدعى و هو أن من لوازم الأُلوهية أن تهدي الإنسان إلى سعادته و تنزل على بعض أفراده الوحي و الكتاب.

و ليس المراد بها أن الله أفاض عليكم العلم بأشياء ما كان لكم من أنفسكم أن تعلموا كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[1].

و قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] فإن السياق كما عرفت ينافي ذلك. فالمراد بالآية تعليم ما ليس في وسع الإنسان بحسب الطرق المألوفة عنده التي جهز بها أن ينال علمه، و ليس إلا ما أوحاه الله سبحانه إلى أنبيائه و حملة وحيه بكتاب أو بغير كتاب من المعارف الإلهية و الأحكام و الشرائع فإنها هي التي لاتسع الوسائل العادية التي عند عامة الإنسان أن تنالها.

و من هنا يظهر أنّ المخاطبين بهذا الكلام أعني قوله: «وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ»، إلخ، ليسوا هم المشركين إذا لم يكن عندهم من معارف النبوة و الشرائع الإلهية شيء بين يعرفونه و يعترفون به، إلى أن قال: فالخطاب متوجه إلى غير المشركين، و ليس بموجه إلى المسلمين.

---

١. النحل: ٧٨.

٢. العلق: ٥ ـ ٤.

أما أولاً: فلأن السياق سياق الاحتجاج، و لو كان الخطاب متوجها إليهم لكان اعتراضا في سياق الاحتجاج من غير نكتة ظاهرة.

و أما ثانياً: فلما فيه من تغيير مورد الخطاب، و العدول من خطاب المخاطبين بقوله: «مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ»، إلخ، إلى خطاب غيرهم بقوله: «عُلِّمْتُم»، إلخ، من غير قرينة ظاهرة مع وقوع اللبس فالخطاب لغير المشركين و المسلمين و هم اليهود المخاطبون بصدر الآية.

فقد احتج الله سبحانه على اليهود القائلين: «مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ» عناداً و ابتغاءً للفتنة من طريقين:

أحدهما: طريق المناقضة و هو أنهم مؤمنون بالتوراة و أنها كتاب جاء به موسى عليه السلام نورا و هدى للناس و يناقضه قولهم: «مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ» ثمّ ذمّهم على تقطيعها بقطعات يظهرون بعضها و يخفون كثيرا.

و ثانيهما: أنكم علمتم ما لم يكن في وسعكم أن تعلموه أنتم من عند أنفسكم بالاكتساب و لا في وسع آبائكم أن يعلموه فيورثوكم علمه و ذلك كالمعارف الإلهية و الأخلاق الفاضلة و الشرائع و القوانين الناظمة للاجتماع المعدلة له أحسن نظم و تعديل الحاسمة لأعراق الاختلافات البشرية الاجتماعية فإنها و خاصة المواد التشريعية من بينها ليست مما ينال بالاكتساب، إلى أن قال: فليست إلا آثارا و بقايا من الدعوة الدينية المنتهية إلى نهضات الأنبياء و مجاهداتهم، انتهى.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: يعني: القرآن «مُبَارَكٌ» كثير المنافع و الفوائد قراءته خير و العمل به خير و فيه علم الأولين و الآخرين و فيه الحلال و الحرام و هو باق إلى آخر التكليف لايرد عليه نسخ، «مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ» من التوراة و الإنجيل و غيرهما، «وَلِتُنذِرَ» معطوف على ما دل عليه صفة «كِتَٰبٌ» كأنه قيل: للبركات و لتصديق ما تقدمه من الكتب و للإنذار و قرئ «لِتُنذِرَ» بالتاء و الياء و سميت مكة أُم القرى لأنها مكان ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ و لأنها قبلة لأهل القرى، و محجّهم، و لأنها أعظم القرى شأنا، و لأن الأرض بأسرها دحيت من تحتها فكأنها تولّدت منها.

«وَٱلَّذِينَ» يصدقون «بِٱلْءَاخِرَةِ» و يخافونها «يُؤْمِنُونَ بِهِۦ» أي: بالقرآن، و ذلك أن أصل الدين خوف العاقبة فمن خافها يحمله الخوف على أن يؤمن، و خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر الفرائض لأنها عماد الدين و من حافظ عليها كانت له لطفا في المحافظة على أخواتها، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا».

لما نبّه على أن من لوازم الألُوهية أن ينزل الوحي على جماعة من البشر هم الأنبياء عليهم السلام، و أنّ هناك كتابا حقا كالتوراة التي جاء بها موسى، و اُمورا اُخرى علمها البشر لاتنتهي إلا إلى وحي إلهي و تعليم غيبي، ذكر أن هذا القرآن أيضا

كتاب إلهي منزل من عنده على حدّ ما نزل سائر الكتب السماوية، و من الدليل على ذلك اشتماله على ما هو شأن كتاب سماوي نازل من عندالله سبحانه، إلى أن قال: أن الأوصاف المذكورة للكتاب بقوله: «مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ»، إلخ، بمنزلة الأدلة على كونه نازلا من الله و ليست بأدلة فمن أمارات أنه منزل من عندالله أنه مبارك أودع الله فيه البركة و الخير الكثير يهدي الناس التي هي أقوم، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ينتفع به الناس في دنياهم باجتماع شملهم، و قوة جمعهم، و وحدة كلمتهم، و زوال الشح من نفوسهم، و الضغائن من قلوبهم، و فشوا الأمن و السلام، و رغد عيشهم، و طيب حياتهم و انجلاء الجهل و كلّ رذيلة عن ساحتهم، و استظلالهم بمظلة سعادتهم، و ينتفعون به في اُخراهم بالأجر العظيم و النعيم المقيم، إلى أن قال: و من أمارات أنه حق أنه مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية الحقة النازلة من عندالله.

و من أمارات ذلك أنه يفي بالغرض الإلهي من خلقه و هو أن يهديهم إلى سعادة حياتهم في الدنيا و الآخرة بالإنذار بوسيلة الوحي المنزل من عنده، و هذا هو الذي يدلّ عليه قوله: «وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا» فاُم القرى هي مكة المشرفة، و المراد أهلها بدليل قوله: «وَمَنْ حَوْلَهَا» و المراد بما حولها سائر بلاد الأرض التي يحيط بها أو التي تجاورها كما قيل، و الكلام يدلّ على عناية إلهية باُم القرى و هي الحرم الإلهي منه بدىء بالدعوة و انتشرت الكلمة.

و من هذا البيان يظهر: أن الأنسب بالسياق أن يكون قوله: «وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ» و خاصة على قراءة «لينذر» بصيغة الغيبة معطوفا على قوله: «مُّصَدِّقُ» بما يشتمل عليه من معنى الغاية، و التقدير: ليصدق ما بين يديه و لتنذر اُم القرى على ما ذكره

الزمخشري، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ»، إلخ، كأنه تفريع لما عدّه الله سبحانه من أوصاف هذا الكتاب الذي أنزله أي: لما كان هذا الكتاب الذي أنزلناه مباركا و مصدقا لما بين يديه نازلا لغاية إنذار أهل الأرض فالمؤمنون بالآخرة يؤمنون به لأنه يدعو إلى أمن اُخروي دائم و يحذرهم من عذاب خالد، انتهى.

يمكن أن يقال: إن الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالكتاب الإلهي النازل من عنده لما من الارتباط الوثيق بين العمل بالتكاليف و عالم الآخرة. ثمّ قال في الميزان: ثم عرف تعالى هؤلاء المؤمنين بالآخرة بما هو من أخص صفات المؤمنين و هو أنهم على صلاتهم و هي عبادتهم التي يذكرون فيها ربهم يحافظون، و هذه هي الصفة التي ختم الله به صفات المؤمنين التي وصفهم بها في أول سورة المؤمنين إذ قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

كما بدأ بمعناها في أولها فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[2] و هذا هو الذي يؤيد أن المراد بالمحافظة في هذه الآية هو الخشوع في الصلاة و هو نحو تذلل و تأثر باطني عن العظمة الإلهية عند الانتصاب في مقام العبودية لكن المعروف من تفسيره أن المراد بالمحافظة على الصلاة، المحافظة على وقتها، انتهى.

---

١. المؤمنون: ٩.

٢. المؤمنون: ٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

في جوامع الجامع: «ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» فزعم أن الله بعثه نبيا و هو مسيلمة الكذاب، و روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: رأيت فيما يرى النائم كأنّ في يدي سوارين من ذهب فكبرا عليّ و أهمّاني فأوحى الله إليّ أن أنفخهما، فنفختهما، فطارا عنّي فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما: كذّاب اليمامة: مسيلمة، و كذاب صنعاء: الأسود العنسيّ.

«وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ» هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح و قيل: هو النضر بن الحارث.

و المستهزؤون قالوا: «لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ»، «غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ» شدائده و سكراته و أصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة «بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ» يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم و هذه عبارة عن العنف في السياق و التغليظ و الإرهاق في الإزهاق (الإرهاق أن تحمل الإنسان على مالا يطيقه).

فعل الغريم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق و يقول له: أخرج إلي ما لي عليك، و قيل: معناه «بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ» عليهم بالعذاب.

«أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ» خلصوها من أيدينا أي: لاتقدرون على الخلاص «ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ» يعني: وقت الإماتة أو الوقت الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ و القيامة و «ٱلْهُونِ» الهوان الشديد و إضافة العذاب إليه كقولك: «رجل سوء» يريد التمكن في الهوان و أنه عريق فيه، «وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ» فلاتؤمنون بها، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» إلى قوله ـ «مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ» عدّ الله سبحانه موارد ثلاثة من الظلم هي من أشدّ مراتبه التي لايرتاب العقل العادي في شناعتها و فظاعتها، و لذا أوردها في سياق السؤال. و الغرض من ذلك الدعوة إلى النزول على حكم العقل السليم و الأخذ بالنصفة و خفض الجناح لصريح الحق فكأنه يقول: قل لهم: يجب عليّ و عليكم أن لانستكبر عن الحق و لانستعلي على الله تعالى بارتكاب ما هو من أشد الظلم و أشنعه و هو الظلم في جنب الله فكيف يصح لكم أن تفتروا على الله كذبا و تدعوا له شركاء تتخذونها شفعاء؟ و كيف يسوغ لي أن اُدّعي النبوة و أقول: اُوحي إليّ إن كنت لست بنبي يوحى إليه؟ و كيف يجوز لقائل أن يقول: سأُنزل مثل ما اُنزل الله، فيسخر بحكم الله و يستهزىء بآياته؟

ونتيجة هذه الدعوة أن ينقادوا لحكم النبوة فإنهم إذا اجتنبوا الافتراء على الله بالشرك، و كفّ القائل «سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ» عن مقاله، و النبي ﷺ يصر على الوحي بقيت نبوته بلامعارض، إلى أن قال: و أمّا ما قيل: إن قوله: «أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» نزل في مسيلمة حيث ادعى النبوة فسياق الآيات كما

عرفت لايلائمه بل ظاهره أن المراد به نفسه و إن كان الكلام مع الغض عن ذلك أعم، إلى أن قال: و أمّا قوله: «وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ» فظاهره أنه حكاية قول واقع، و أن هناك من قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله، و أنه إنّما قاله استهزاء بالقرآن الكريم حيث نسبه إلى الله سبحانه بالنزول، إلى أن قال: و بسط اليد معناه واضح غير أن المراد به معنى كنائي، إلى أن قال: فبسط الملائكة أيديهم هو شروعهم بتعذيب الظالمين، و ظاهر السياق أن الذي تفعله الملائكة بهؤلاء الظالمين هو الذي يترجم عنه قوله سبحانه: «أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ»، إلخ، فهذه الجمل محكية عن الملائكة لامن قول الله سبحانه، و التقدير: يقول الملائكة لهم: «أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ»، «إلخ»، فهم يعذبونهم بقبض أرواحهم قبضا يذوقون به أليم العذاب و هذا عذابهم حين الموت و لما ينتقلوا من الدنيا إلى ما وراءها و لهم عذاب بعد ذلك و لما تقم عليهم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى: «وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

كلام في معنى البركة في القرآن

إلى أن قال: فالبركة بالحقيقة هي الخير المستقر في الشيء اللازم له كالبركة في النسل و هي كثرة الأعقاب أو بقاء الذكر بهم خالدا، و البركة في الطعام أن يشبع به خلق كثير مثلا، و البركة في الوقت أن يسع من العمل ما ليس في سعة مثله أن يسعه. غير أن المقاصد و المآرب الدينية لما كانت مقصورة في السعادات المعنوية أو الحسية التي تنتهي إليها بالآخرة كان المراد بالبركة الواقعة في الظواهر التي فيها هو الخير المعنوي أو ينتهي إليه كما أن مباركته تعالى

الواقعة في قول الملائكة النازلين على إبراهيم عليه السلام «**رحمة الله و بركاته عليكم أهل البيت**»، خيرات متنوعة معنوية كالدين و القرب و غيرهما و حسية كالمال و كثرة النسل و بقاء الذكر و غيرها و جميعها مربوطة بخيرات معنوية.

و على هذا فالبركة أعني: كون الشيء مشتملاً على الخير المطلوب كالأمر النسبي يختلف باختلاف الأغراض لأنّ خيرية الشيء إنّما هي بحسب الغرض المتعلق به فالغرض من الطعام ربما كان إشباعه الجائع أو أن لايضر آكله أو أن يؤدي إلى شفاء و استقامة مزاج أو يكون نورا في الباطن يتقوى به الإنسان على عبادة الله و نحو ذلك كانت البركة فيه استقرار شيء من هذه الخيرات فيه بتوفيق الله تعالى بين الأسباب و العوامل المتعلقة به و رفعه الموانع.

و من هنا يظهر أن نزول البركة الإلهية على شيء و استقرار الخير فيه لاينافي عمل سائر العوامل فيه و اجتماع الأسباب عليه فليس معنى إرادة الله صفة أو حالة في شيء أن يبطل سائر الأسباب و العلل المقتضية له و قد مر كراراً في أبحاثنا السابقة فإنّما الإرادة الإلهية سبب في طول الأسباب الآخر لا في عرضها. فإنزاله تعالى بركته على طعام مثلا هو أن يوفق بين الأسباب المختلفة الموجودة في أن لاتقتضي في الإنسان كيفية مزاجية يضره معها في هذا الطعام، و أن لاتقتضي فساده أو ضيعته أو سرقته أو نهبه أو نحو ذلك، و ليس معناه أن يبطل الله سائر الأسباب و يتكفل هو تعالى إيجاد الخير فيها من غير توسيطها فافهم ذلك. و البركة كثيرة الدور في لسان الدين فقد ورد ذلك في الكتاب العزيز ذكرها في آيات كثيرة بألفاظ مختلفة، انتهى.

و في تفسير الشبر: «وَمَنْ» لأحد « أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» بإدعاء النبوة أو الأعم منه « أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» قيل: نزلت في مسيلمة، أو ابن أبي سرح، كان يكتب للنبي فلما نزل: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ»، إلى قوله: «خَلْقًا ءَاخَرَ» قال متعجبا:« فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ»، انتهى.

و لايخفى عليك أن نفي «أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» من جهة فخامة حقوق الله تعالى إذ ليست حقوقه قابلة للإحصاء و لاقابلة لدرك عظمة عمقها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: «فُرَٰدَىٰ» منفردين عن أموالكم و أولادكم و عن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم و شركاء لله «كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» على الهيأة التي ولدتم عليها في الانفراد.

و في الحديث: تحشرون حفاة عراة غرلاً أي: قلفا «وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ» أي: ما ملكناكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة «وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ» لم تحملوا منه شيئا و استمتع به غيركم «أَنَّهُمْ فِيكُمْ» أي: في استعبادكم «شُرَكَٰٓؤُا۟» لأنهم حين دعوهم آلهة و عبدوها فقد جعلوها لله شركاء فيهم و في استعبادهم «لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ» أي: وقع التقطع بينكم كما تقول: جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع

(ظاهر) بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل، و قرئ: «بَيْنَكُمْ» على إسناد الفعل إلى الظرف كما تقول: «قوتل خلفكم»، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» إلى آخر الآية، الفرادى جمع فرد و هو الذي انفصل عن اختلاط غيره نوعا من الاختلاط و يقابله الزوج و هو الذي يختلط بغيره بنحو و يقرب منهما بحسب المعنى الوتر و الشفع، فالوتر ما لم ينضم إلى غيره و الشفع ما انضم إلى غيره، و التخويل إعطاء الخول أي: المال و نحوه الذي يقوم الإنسان به بالتدبير و التصرف. و المراد بالشفعاء الأرباب المعبودون من دون الله ليكونوا شفعاء عندالله فعادوا بذلك شركاء لله سبحانه في خلقه، و الآية تنبىء عن حقيقة الحياة الإنسانية التي ستظهر له حينما يقدم على ربه بالتوفي فيشاهد حقيقة أمر نفسه و أنه مدبر بالتدبير الإلهي لاغير كما كان كذلك في أول مرّة كونته الخلقة، و أن المزاعم التي انضمت إلى حياته من التكثر بالأسباب و الاعتضاد و الانتصار بالأموال و الأولاد و الأزواج و العشائر و الجموع، و كذا الاستشفاع بالأرباب من دون الله المؤدي إلى الإشراك كلّ ذلك مزاعم و أفكار باطلة لاأثر لها في ساحة التكوين أصلا.

فالإنسان جزء من أجزاء الكون واقع تحت التدبير الإلهي متوجه إلى الغاية التي غياها الله سبحانه له كسائر أجزاء الكون، و لاحكومة لشيء من الأشياء في التدبير و التسيير الإلهي إلا أنها أسباب و علل ينتهي تأثيرها إليه تعالى من غير أن تستقل بشيء من التأثير.

غير أن الإنسان إذا ركبته يد الخلقة و أوجدته فوقع نظره إلى زينة الحياة و الأسباب و الشفعاء الظاهرة و جذبته لذائذ الحياة تعلقت نفسه بها و دعته ذلك إلى التمسك بذيل الأسباب و الخضوع لها، و ألهاه ذلك عن توجيه وجهه إلى مسبب الأسباب و فاطرها و الذي إليه الأمر كلّه فأعطاها الاستقلال في السببيّة لاهم له إلا أن ينال لذائذ هذه الحياة المادية بالخضوع للأسباب فصار يلعب طول الحياة الدنيا بهذه المزاعم و الأوهام التي أوقعته فيها نفسه المتلهية بلذائذ الحياة المادية، و استوعب حياته اللعب بالباطل و التلهي به عن الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[1].

فهذا هو الذي يسوق إليه تعليم القرآن حيث يذكر أن الإنسان إذا خرج من زيّ العبودية نسي ربه فأدّاه ذلك إلى نسيان نفسه قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2].

لكن الإنسان إذا فارقت نفسه البدن بحلول الموت بطل ارتباطه بجميع الأسباب و العلل و المعدات المادية التي كانت ترتبط بها من جهة البدن و تتصل بها في هذه النشأة الدنيوية و شاهد عند ذلك بطلان استقلالها و اندكاك عظمتها و تأثيرها فوقعت عين بصيرته على أن أمره أولا و آخرا إلى ربه لاغير و أن لارب له سواه و لامؤثر في شأنه دونه.

فقوله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» إشارة إلى حقيقة الأمر، و قوله: «وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ»، إلخ، بيان لبطلان الأسباب

---

١. العنكبوت: ٦٤.

٢. العنكبوت: ٦٤.

الملهية له عن ربه المتخللة بين أول خلقه و بين يوم يقبض فيه إلى ربه، و قوله: «لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ» بيان لسبب انقطاعه من الأسباب و سقوطها عن الاستقلال و التأثير، و أن السبب في ذلك انكشاف بطلان المزاعم التي كان الإنسان يلعب بها طول حياته الدنيا. فتبين بذلك أن ليس لهذه الأسباب و الضمائم في الإنسان من النصيب إلا أوهام و مزاعم يتلهى و يلعب بها الإنسان، انتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: «فَالِقُ ٱلْحَبِّ» بالنبات «وَٱلنَّوَىٰ» بالشجر، إلى أن قال: «يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ» أي: الحيوان و النامي من النطف و البيض و الحب و النوى «وَمُخْرِجُ» هذه الأشياء الميتة من الحيوان و النامي، «وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ» عطف على «فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ» لا على الفعل، و موقعه موقع الجملة المبينة لأن فلق الحب و النوى بالنبات و الشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت.

«ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ» أي: ذلك المحيي و المميت هو الله الذي تحق له الربوبية «فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ» فكيف تصرفون عنه و عن قوله إلى غيره.

و «ٱلْإِصْبَاحِ» مصدر سمي به الصبح و المعنى فالق ظلمة «ٱلْإِصْبَاحِ» و هي الغبش في آخر الليل، أو «فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ» الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار، لأن الظلمة هي التي تنفلق عن الصبح كما قال: «تفرى ليل عن بياض نهار» و قرئ: «وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ» لأن اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضي و لذلك عطف عليه «وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ» أي: و جعل الشمس و القمر «حُسْبَانًا» و السكن ما يسكن إليه الرجل و يطمئن استرواحا إليه من زوج أو حبيب و منه قيل للمرأة: «سكن» لأنه يستأنس بها، و الليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه، و يمكن أن يراد و جعل الليل مسكونا فيه من قوله: «لِتَسْكُنُواْ فِيهِ» و الحسبان بالضم مصدر حسب و المعنى و جعل الشمس و القمر عَلَمَى حسبان، لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما و مسيرهما، أو محسوبين حسبانا، «ذَٰلِكَ» التسيير بالحساب المعلوم «تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ» الذي قهرهما بتسخيرهما «ٱلْعَلِيمِ» بتدبيرهما و تدويرهما و مسيرهما، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا» إلى آخر الآية. الإصباح بكسر الهمزة هو الصبح و هو في الأصل مصدر، و السكن ما يسكن إليه، و الحسبان جمع حساب، إلى أن قال: و قوله: «وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا» عطف قوله: «فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ» و لاضير في عطف الجملة الفعلية على الاسمية إذا اشتملت على معنى الفعل و قرئ: «و جاعل».

و في فلق الصبح و جعل الليل سكنا يسكن فيه المتحركات عن حركاتها لتجديد القوى و دفع ما عرض لها من التعب و العي و الكلال من جهة حركاتها طول النهار، و جعل الشمس و القمر بما يظهر من الليل و النهار و الشهور و

السنين من حركاتهما في ظاهر الحس حسباناً تقدير عجيب للحركات في هذه النشأة المتغيرة المتحولة ينتظم بذلك نظام المعاش الإنساني و يستقيم به أمر حياته، ولذلك ذيلها بقوله: «ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ» فهو العزيز الذي لايقهره قاهر فيفسد عليه شيئا من تدبيره، و العليم الذي لايجهل بشيء من مصالح مملكته حتّى ينظمه نظما ربما يفسد من نفسه و لايدوم بطبعه، انتهى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

وفي جوامع الجامع: يعني: «فِى ظُلُمَٰتِ»الليل بـ «ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ» و أضاف الظلمات إلى البرّ و البحر لملابستها إياهما أو لتشبيه الطرق المشتبهة بالظلمات، و قرئ «فَمُسْتَقَرٌّ» بفتح القاف و كسرها: فمن فتح كان المستودع اسم مكان مثله، أو مصدرا، و من كسر كان اسم فاعل و المستودع اسم مفعول، و المعنى: (فلكم مستقر في الرحم و مستودع في الصلب أو مستقر فوق الأرض و مستودع تحتها، أو فمنكم مستقر في القبر و منكم مستودع في الدنيا، و عن الحسن: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك و يوشك أن تلحق بصاحبك و أنشد قول لبيد:

و ما المال و الأهلون إلا وديعة و لابد يوما أن ترد الودائع، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا» إلى آخر الآية. المعنى واضح، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ» إلى آخر الآية، قرئ «مُسْتَقَرٌّ» بفتح القاف و كسرها و هو على القراءة الأُولى اسم مكان بمعنى محل الاستقرار فيكون «مُسْتَوْدَعٌ» أيضا اسم مكان بمعنى محل الاستيداع و هو المكان الذي توضع فيه الوديعة. و قد وقع ذكر المستقر و المستودع في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

و في الكلام حذف و إيجاز، و التقدير: فمنكم من هو في مستقر و منكم من هو في مستودع، إلى أن قال: فالمعنى: و هو الذي أوجدكم معشر الأُناسي من نفس واحدة و عمر بكم الأرض إلى حين فهي مشغولة بكم ما لم تنقرضوا فلايزال بعضكم مستقرا فيها و بعضكم مستودع في الأصلاب و الأرحام أو في الأصلاب فقط في طريق الاستقرار فيها.

و قد أورد المفسرون في الآية معاني أُخر... من أقاويلهم التي لاكثير جدوى في التعرض لها، انتهى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

---

١. هود:٦.

و في جوامع الجامع: كلّ ما علاك فأظلّك فهو سماء و هو هنا السحاب، «فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ» بالماء «نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ» نبت كلّ صنف من أصناف الحبوب يعني: أن السبب واحد و هو الماء و المسببات صنوف و هو كقوله: «يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ» «فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ» أي: من النبات «خَضِرًا» شيئا غضا أخضر و هو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة «نُّخْرِجُ مِنْهُ» من الخضر «حَبًّا مُّتَرَاكِبًا» قد تركب بعضه على بعض مثل سنبلة الحنطة و الشعير و غيرهما.

«قِنْوَانٌ» رفع بالابتداء «وَمِنَ ٱلنَّخْلِ» خبره «وَ مِن طَلْعِهَا» بدل منه كأنه قيل: و كائنة من طلع النخل قنوان و يجوز أن يكون الخبر محذوفا له لدلالة «أَخْرَجْنَا» عليه تقديره و مخرجةٌ من طلع النخل قنوان، و القنوان جمع قنو كصنوان وصنو «دَانِيَةٌ» سهلة المجتنى قريبة المتناول، و عن الحسن: قريب بعضها من بعض، «وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ»... أي: من نبات أعناب أو يراد و ثمّ جنات من أعناب أي: من النخل.

«وَٱلزَّيْتُونَ» أي: و أخرجنا به الزيتون «وَٱلرُّمَّانَ»، و الأحسن أن يكون نصبهما على الاختصاص كقوله: «وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ» لفضل هذين الصنفين «مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ» يقال: اشتبه الشيئان و تشابها، و الافتعال و التفاعل يشتركان كثيرا، و تقديره و الزيتون متشابها و غيرمتشابه و الرمان كذلك، و المعنى: متشابها بعضه و غير متشابه بعضه في القدر و اللّون و الطعم «ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ» أي: أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً صغيرا «وَ» انظروا إلى حال «يَنْعِهِۦ» أي: نضجه

كيف يكون جامعا لمنافع و ملاذ نظر اعتبار و استبصار و استدلال على اقتدار مقدّره و تدبير مدبره ينقله من حال إلى حال، يقال: ينعت الثمرةَ ينعا و يُنعا، انتهى.

و في الميزان: و المراد بقوله: «فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ» على ما قيل، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء النبات و النمو الذي في كلّ شيء نام له قوة النبات من الكمون إلى البروز، أي: أنبتنا به كلّ شيء نباتي كالنجم و الشجر و الإنسان و سائر الحيوان.

و الخضر هو الأخضر و كأنه مخفف الخاضر، و تراكب الحب انعقاد بعضه فوق بعض كما في السنبلة، و الطلع أول ما يبدو من ثمر النخل، و القنوان جمع قنو هو العذق بالكسر و هو من التمر كالعنقود من العنب، و الدانية أي: القريبة، و المشتبه و غير المتشابه المشاكل و غير المشاكل في النوع و الشكل و غيرهما.

و ينع الثمر نضجه

و قد ذكر الله سبحانه اُمورا مما خلقه لينظر فيها من له نظر و بصيرة فيهتدي بالنظر فيها إلى توحيده، و هي اُمور أرضية كفلق الحبة و النواة و نحو ذلك، و اُمور سماوية كالليل و الصبح و الشمس و القمر و النجوم، و أمر راجع إلى الإنسان نفسه و هو إنشاء نوعه من نفس واحدة فمستقر و مستودع، و اُمور مؤلفة من الجميع كإنزال المطر من السماء و تهيئة الغذاء من نبات و حبّ و ثمر و إنبات ما فيه قوة النمو كالنبات و الحيوان و الإنسان من ذلك.

و قد عدّ النجوم آية خاصة بقوم يعلمون، و إنشاء النفوس الإنسانية آية خاصة بقوم يفقهون، و تدبير نظام الإنبات آية لقوم يؤمنون و المناسبة ظاهرة فإن النظر في أمر النظام أمر بسيط لايفتقر إلى مؤونة زائدة، بل يناله الفهم العادي بشرط أن يتنور بنصفة الإيمان و لايتلطخ بقذارة العناد و اللجاج، و أما النظر في النجوم و الأوضاع السماوية فمما لايتخطى العلماء بهذا الشأن ممن يعرف النجوم و مواقعها و سائر الأوضاع السماوية إلى حدّ ما لايناله الفهم العام العامي إلا بمؤونة: و أما آية الأنفس فإن الاطلاع عليها و على ما عندها من أسرار الخلقة يحتاج مضافا إلى البحث النظري إلى مراقبة باطنية و تعمق شديد و تثبت بالغ و هو الفقه، انتهى.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ» فهما مفعولا «جَعَل» و «ٱلْجِنَّ» بدل من شركاء، و يجوز أن يكون شركاء الجن مفعولين قدم ثانيهما على الأول أي: جعلوا الجن شركاء لله، و فائدة تقديم «لِلَّهِ شُرَكَآءَ» استعظام أن يتخذ لله شريكا من كان ملكا أو جنيا أو إنسيا و المراد بالجن: الملائكة جعلوهم لله أندادا، و نحوه ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[1] و قيل: هم الذين قالوا: «إنّ الله خالق الخير و

١. الصافات: ١٥٨.

إبليس خالق الشر» و «خَلَقَهُمْ» أي: و خلق الجاعلين لله شركاء، معناه و علموا أن الله خالقهم دون الجن و لم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لايخلق شريكا للخالق.

و قيل: الضمير للجن، «وَخَرَقُواْ لَهُۥ» أي: و اختلفوا لله «بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ»، فإن المشركين قالوا: «و الملائكة بنات الله» و قال أهل الكتابين: «عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ» و «ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ» يقال: خلق الإفك و اختلقه و خرقه و اخترقه بمعنى و قرئ: «وخرّقوا» بالتشديد للتكثير «بِغَيْرِ عِلْمٍ» من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ولكن جهلا منهم بعظمة الله تعالى.

«بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» خبر مبتدأ محذوف أي: هو مبدعهما و منشؤهما ابتداء لا من شيء و لا على مثال سبق، و يجوز أن يكون مبتدأ و خبره «أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ» ... أي: من أن يكون له ولد و لايستقيم أن يوصف بالولادة لأن الولادة من صفات الأجسام و صانع الأجسام ليس بجسم حتّى يكون والدا.

و لأن الولادة لاتكون إلا بين زوجين و لايصح أن يكون له صاحبة تزاوجه! «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» و من كان بهذه الصفة فهو غني عن كلّ شيء، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ» إلى آخر الآية. الجن إما مفعول لجعلوا و مفعوله الآخر شركاء أو بدل من شركاء، و قوله: «وَخَلَقَهُمْ» كأنه حال و إن منعه بعض النحاة و حجتهم غير واضحة. و كيف كان، فالكلمة في مقام ردّهم، و المعنى: و جعلوا له شركاء الجن و هو خلقهم و المخلوق لايجوز أن يشارك خالقه في مقامه.

و المراد بالجن الشياطين كما ينسب إلى المجوس القول: بأهرمن و يزدان و نظيره ما عليه اليزيدية الذين يقولون بالُوهية إبليس الملك طاووس ـ شاه بريان أو الجن المعروف بناءً على ما نسب إلى قريش أنّهم كانوا يقولون: إن الله قد صاهر الجن فحدث بينهما الملائكة، و هذا أنسب بسياق قوله: «وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ». و على هذا فالبنون و البنات هم جميعا من الملائكة خرقوهم أي: اختلقوهم و نسبوهم إليه افتراء عليه سبحانه و تعالى عما يشركون.

و لو كان المراد من هو أعم من الملائكة لم يبعد أن يكون المراد بهم ما يوجد في سائر الملل غير الإسلام فالبرهمنية و البوذية يقولون بنظير ما قالته النصارى من بنوة المسيح... و سائر الوثنيين القدماء كانوا يثبتون لله سبحانه بنين و بنات من الآلهة على ما يدلّ عليه الآثار المكتشفة، و مشركو العرب كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله. قوله تعالى: «بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» إلى آخر الآية. جواب قولهم بالبنين و البنات، و محصله: أن لاسبيل لتحقق الولد إلا اتخاذ الصاحبة و لم يكن له تعالى صاحبة فأنى يكون له ولد؟

و أيضا هو تعالى الخالق لكلّ شيء و فاطره، و الولد هو الجزء من الشيء يربّيه بنوع من اللقاح و جزء الشيء و المماثل له لايكون مخلوقا له البتة، و يجمع الجميع أنه تعالى: «بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» الذي لايماثله شيء من أجزائها بوجه من الوجوه فكيف يكون له صاحبة يتزوج بها أو بنون و بنات يماثلونه في النوع فهذا أمر يخبر به الله الذي لاسبيل للجهل إليه فهو بكلّ شيء عليم، انتهى.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: «ذَٰلِكُمُ» إشارة إلى الموصوف بالصفات المتقدمة و هو مبتدأ و ما بعده أخبار مترادفة له و هي، «ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ» أي: ذلكم الجامع لهذه الصفات، «فَٱعْبُدُوهُ» لأن من استجمعت له هذه الصفات حقت له العبادة «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» أي: حفيظ مدبّر و لكلّ شيء من الأرزاق و الآجال مالك «لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ» البصر: الجوهر اللطيف الذي به تدرك المبصرات، و المعنى: أنه متعال أن يكون مبصرا في ذاته فالأبصار لاتدركه لأنها إنّما تدرك ما كان في جهة أصلاً أو تابعا كالأجسام و الألوان.

«وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ» و هو للطف إداركه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي ركبها الله في حاسة النظر و هي الأبصار و لايدركها مدرك سواه.

«وَهُوَ ٱللَّطِيفُ» يلطف عن أن تدركه الأبصار «ٱلْخَبِيرُ» بكلّ لطيف فهو يدرك الأبصار و لاتلطف عن إدراكه و هذا من باب اللفّ و النشر، و روي عن الرضا عليه السلام أنها الأبصار التي في القلوب أي: لايقع عليه الأوهام و لايدرك كيف هو، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ» إلى آخر الآيتين الجملة الأُولى أعني قوله: «ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ» نتيجة متخذة من البيان المورد في الآيات السابقة، و المعنى: إذا كان الأمر على ما ذكر فالله الذي و صفناه هو ربكم لاغير، و قوله: «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» كالتصريح بالتوحيد الضمني

الذي تشتمل عليه الجملة السابقة، و هو مع ذلك يفيد معنى التعليل أي: هو الرب ليس دونه رب لأنه الله الذي ليس دونه إله و كيف يكون غيره ربا و ليس بإله.

وقوله: «خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ» تعليل لقوله: «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» أي: إنّما انحصرت الألُوهية فيه لأنه خالق كلّ شيء من غير استثناء فلاخالق غيره لشيء من الأشياء حتّى يشاركه في الأُولوهية، و كلّ شيء مخلوق له خاضع له بالعبودية فلايعادله فيها، إلى أن قال: و قوله: «فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ» أي: هو القائم على كلّ شيء المدبر لأمره الناظم نظام وجوده و حياته و إذا كان كذلك كان من الواجب أن يتّقى فلايتخذ له شريك بغير علم فالجملة كالتأكيد لقوله: «فَٱعۡبُدُوهُۚ» أي: لاتستنكفوا عن عبادته لأنه وكيل عليكم غير غافل عن نظام أعمالكم.

و أما قوله: «لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ» فهو لدفع الذي يوهمه قوله: «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ» بحسب ما تتلقاه أفهام المشركين الساذجة و الخطاب معهم، و هو أنه إذا صار وكيلا عليهم كان أمرا جسمانيا كسائر الجسمانيات التي تتصدى الأعمال الجسمانية فدفعه بأنه تعالى: «لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ» لتعاليه عن الجسمية و لوازمها، و قوله: «وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ»دفع لما يسبق إلى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا بالتفكر المادي، و أخلدوا إلى الحس و المحسوس و هو أنه تعالى إذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج عن حيطة الحس و المحسوس و بطل نوع الاتصال الوجودي الذي هو مناط الشعور و العلم، و انقطع عن مخلوقاته فلايعلم بشيء كما لايعلم به شيء..، فأجاب تعالى عنه بقوله: «وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ» ثمّ علل هذه الدعوى بقوله: «وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ» و اللطيف هو الرقيق النافذ في

الشيء، و الخبير من له الخبرة، فإذا كان تعالى محيطا بكلّ شيء بحقيقة معنى الإحاطة كان شاهدا على كلّ شيء لايفقده ظاهر شيء من الأشياء و لاباطنه، و هو مع ذلك ذو علم و خبرة كان عالما لظواهر الأشياء و بواطنها من غير أن يشغله شيء عن شيء أو يحتجب عنه شيء بشيء فهو تعالى: «يدرك البصر و المبصر» معا، و البصر لايدرك إلا المبصر.

و قد نسب إدراكه إلى نفس الأبصار دون اُولي الأبصار لأن الإدراك الموجود فيه تعالى ليس من قبيل إدراكاتنا الحسية حتّى يتعلق بظواهر الأشياء من أعراضها كالبصر مثلا الذي يتعلق بالأضواء و الألوان و يدرك به القرب و البعد و العظم و الصغر و الحركة و السكون بنحو، بل الأغراض و موضوعاتها و ظواهرها و بواطنها حاضرة عنده مكشوفة له غير محجوبة عنه و لاغائبة فهو تعالى يجد الأبصار بحقائقها و ما عندها و ليست تناله. ففي الآيتين من سطوح البيان و سهولة الطريق و إيجاز القول ما يحير اللب و هما مع ذلك تهديان المتدبر فيهما إلى أسرار دونها أستار، انتهى.

ثم لايخفى أن الذي أراده الله تعالى بالأصالة هو النظام الأحسن الذي لايحدث فيه عصيان أو أمر قبيح ولكن حيث إنّ الإنسان مختار يكون و مقتضى اختياره هو أن يكون قادرا على إحداث بعض القبائح و إلا لكان مجبورا و ممنوعا عن التكامل مع أن التكامل الاختياري هو المناسب للإنسان.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: البصيرة: البيّنة و الدلالة التي يستبصر بها الشيء على ما هو به و هي نور القلب كما أن البصر نور العين، أي: «جَآءَكُم» من الوحي و التنبيه على ما يجوز على الله و ما لايجوز ما هو للقلوب كالبصائر: «فَمَنْ أَبْصَرَ» الحق و آمن «فَلِنَفْسِهِۦ» أبصر ولها ـ نظر «وَمَنْ عَمِىَ» عنه فعلى نفسه عمِي و إياها ضرّ، «وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ» أحفظ أعمالكم و اُجازيكم عليها، إنّما أنا منذر و الله هو الحفيظ عليكم، «وَلِيَقُولُواْ» جوابه محذوف تقديره «وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ» نصرفها و معنى «دَرَسْتَ» قرأت و تعلمت ذلك من اليهود، إلى أن قال: «وَلِنُبَيِّنَهُۥ» الفرق بين هذا اللام و اللام في «وَلِيَقُولُواْ» أن هذا حقيقة و ذاك مجاز، و ذلك لأن الآيات صرّفت للتبيين و لم تصرف ليقولوا دارست ولكن لما حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين شبّه به، و الضمير في «لِنُبَيِّنَهُۥ» للآيات لأنها في معنى القرآن، أو يعود إلى القرآن و إن لم يجر له ذكر لكونه معلوما، أو إلى الكتاب المقدر في قوله: «دَرَسْتَ» و دارست، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا»، إلخ، قال في المجمع: البصيرة البيّنة و الدلالة التي يبصر بها الشيء على ما هو به و البصائر جمعها.

و قيل: البصيرة للقلب كالبصر للعين، و الأصل في الباب على أي حال هو الإدراك بحاسة البصر الذي يعدّ أقوى الإدراكات، و نيلا من خارج الشيء المشهود، و الإبصار و العمى في الآية هو العلم و الجهل أو الإيمان و الكفر توسعاً.

و كأنه تعالى يشير بقوله: «قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ» إلى ما ذكره في الآيات السابقة من الحجج الباهرة على وحدانيته و انتفاء الشريك عنه، و المعنى: أن هذه الحجج بصائر قد جائكم من جانب الله بالوحي إليّ، و الخطاب من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ ذكر للمخاطبين و هم المشركون أنهم على خيرة من أمر أنفسهم إن شاؤوا أبصروا بها و إن شاؤوا عموا عنها غير أن الأبصار لأنفسهم و العمى عليها.

و من هنا يظهر: أن المراد بالحفظ عليهم رجوع أمر نفوسهم و تدبير قلوبهم إليه فهو إنّما ينفي كونه حفيظا عليهم تكوينا و إنّما هو ناصح لهم. و الآية كالمعترضة بين الآيات السابقة و الآية اللاحقة، و هو خطاب منه تعالى عن لسان نبيّه كالرسول يأتي بالرسالة إلى قوم فيؤديها إليهم و في خلال ما يؤدّيه يكلّمهم من نفسه بما يهيجهم للسمع و الطاعة و يحثهم على الانقياد بإظهار النصح و نفي الأغراض الفاسدة عن نفسه.

و قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ»، إلخ، و قرئ: دارست بالخطاب و «دَرَسْتَ» بالتأنيث و الغيبة، قيل: إن التصريف هو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ليجتمع فيه وجوه الفائدة، و قوله: «دَرَسْتَ» من الدرس و هو التعلم و التعليم من طريق التلاوة، و على هذا المعنى قراءة دارست غير أن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني و أما قراءة «دَرَسْتَ» بالتأنيث و الغيبة فهو من الدروس بمعنى تعفي الأثر أي: اندرست هذه الأقوال كقولهم: أساطير الأولين.

و المعنى: على هذا المثال نصرف الآيات و نحوّلها بيانا لغايات كثيرة و منها أن يستكمل هؤلاء الأشقياء شقوتهم فيتهموك يا محمد بأنك تعلمتها من بعض

أهل الكتاب أو يقولوا: اندرست هذه الأقاويل و انقرض عهدها و لانفع فيها اليوم، و لنبينه لقوم يعلمون بتطهير قلوبهم و شرح صدورهم به، و هذا كقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1]، انتهى.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: قوله عزّوجلّ: «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» اعتراض أُكد به إيجاب اتباع الوحي، «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ» أي: لاتخالطهم و لاتلاطفهم «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ» لاضطرهم إلى الإيمان قسراً و إجباراً.

«وَلَا تَسُبُّوا۟» آلهة «ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا» أي: ظلما و عدوانا، كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبّهم سببا لسب الله، و فيه دلالة على أن النهي عن المنكر الذي هو من أجلّ الطاعات إذا علم أنه يؤدّي إلى زيادة الشرّ ينقلب معصية فصار النهي عن ذلك النهي من جملة الواجبات.

قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ» أي: على جهالة بالله «كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا» أي: مثل ذلك التزيين زينا «لِكُلِّ أُمَّةٍ» من اُمم الكفّار «عَمَلَهُمْ» أي: خليناهم و ما عملوا و لم نمنعهم

---

١. اسراء: ٨٢.

حتّى حسن عندهم عملهم السيئ «فَيُنَبِّئُهُم» فيوبخهم عليه و يعاتبهم و يعاقبهم، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: « ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ» أمر باتباع ما اُوحي إليه من ربه من أمر التوحيد و اُصول شرائع الدين من غير أن يصده ما يشاهده من استكبار المشركين عن الخضوع لكلمة الحق و الإعراض عن دعوة الدين.

و في قوله: «مِن رَّبِّكَ» المشعر بمزيد الاختصاص تلويح إلى شمول العناية الخاصة الإلهية إلا أن قوله: «مِن رَّبِّكَ» لمّا كان ملحوقا بقوله: «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ» و كان ذلك ربما يوهم أن المراد: اتبع الوحي و اعبد ربك، و أعرض عنهم يعبدوا أربابهم، و لايخلوا ذلك عن إمضاء لطريقتهم و شركهم قدّم على قوله: «وَأَعْرِضْ»، إلخ، قوله: «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» ليندفع به هذا الوهم، و يجلو معنى قوله: «وَأَعْرِضْ»، إلخ، و يأخذ موضعه. فالمعنى: اتبع ما اُوحي إليك من ربك الذي له العناية البالغة بك و الرحمة المشتملة عليك إذ خصّك بوحيه و أيّدك بروح الاتباع، و أعرض عن هؤلاء المشركين لا بأن تدعهم و ما يعبدون و تسكت راضياً بما يشركون فيكون ذلك إمضاء للوثنية فإنّما الإله واحد و هو ربك الذي يوحي إليك لا إله إلا هو، بل إن تعرض عنهم فلاتجهد نفسك في حملهم على التوحيد و لاتتحمل شقا فوق طاقتك فإنّما عليك البلاغ و لست عليهم بحفيظ و لاوكيل، و إنّما الحفيظ الوكيل هو الله و لم يشأ لهم التوحيد و لو شاء ما أشركوا لكنه تركهم و ضلالهم لأنهم أعرضوا عن الحق و استنكفوا عن الخضوع له.

قوله تعالى: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ» تطييب لقلب النبي ﷺ أن لايجد لشركهم و لايحزن لخيبة المسعى في دعوتهم فإنهم غير معجزين لله فيما أشركوا فإنّما المشية لله لو شاء ما أشركوا، بل تلبسوا بالإيمان عن طوع و رغبة كما تلبس من وفق للإيمان، و ذلك أنهم استكبروا في الأرض و استعلوا على الله و مكروا به و قد أهلكوا بذلك أنفسهم فرد الله مكرهم إليهم و حرمهم التوفيق للإيمان و الاهتداء إذ كما أن السنة الجارية في التكوين هي سنة الأسباب و قانون العلية و المعلولية العام، و المشية الإلهية إنّما تتعلق بالأشياء و تقع على الحوادث على وفقها فما تمت فيه العلل بالشرائط و ارتفعت عن وجوده الموانع كان هو الذي تتعلق بتحققه المشية الإلهية و إن كان الله سبحانه له فيه المشية مطلقا إن لم يشأه لم يكن و إن شاء كان، كذلك السنة في نظام التشريع و الهداية هي سنة الأسباب فمن استرحم الله رحمه و من أعرض عن رحمته حرّمه، و الهداية بمعنى إراءة الطريق تعم الجميع فمن تعرض لهذه النفحة الإلهية و لم يقطع طريق وصولها إليه بالفسق و الكفر و العناد شملته و أحيته بأطيب الحياة، و من اتبع هواه و عاند الحق و استعلى على الله، و أخذ يمكر بالله، و يستهزئ بآياته حرّمه الله السعادة و أنزل الله عليه الشقوة و أضلّه على علم و طبع عليه بالكفر فلاينجو أبداً. و لولا جريان المشية الإلهية على هذه السنة بطل نظام الأسباب و قانون العلية و المعلولية و حلّت الإرادة الجزافية محله و لغت المصالح و الحكم و الغايات، و أدّى فساد هذا النظام إلى فساد نظام التكوين لأن التشريع ينتهي بالآخرة إلى التكوين بوجه و دبيب الفساد إليه يؤدي إلى فساد أصله. و هذا كما أن الله سبحانه لو اضطر المشركين على

الإيمان و خرج بذلك النوع الإنساني عن منشعب طريقي الإيمان و الكفر، و سقط الاختيار الموهوب له و لازم بحسب الخلقة الإيمان، و استقر في أول وجوده على أريكة الكمال، و تساوى الجميع في القرب و الكرامة كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوة و لغو التربية و التكميل، و ارتفع الاختلاف بين الدرجات، و أدى ذلك إلى بطلان اختلاف الاستعدادات و الأعمال و الأحوال و الملكات و انقلب بذلك النظام الإنساني و ما يحيط به و يعمل فيه من نظام الوجود و إلى نظام آخر لاخبر فيه عن إنسان أو ما يشعر به فافهم ذلك.

و من هنا يظهر أن لاحاجة إلى حمل قوله: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ» على الإيمان الاضطراري، و أن المراد أن لو شاء الله أن يتركوا الشرك قهرا و إجباراً لاضطرهم إلى ذلك. و ذلك أن الذي تقدم من أن المراد تعلق المشية الإلهية على تركهم الشرك اختياراً كما تعلقت بذلك في المؤمنين سواء هو الأوفق بكمال القدرة، و الأنسب بتسلية النبي ﷺ و تطييب قلبه.

فالمعنى: أعرض عنهم و لايأخذك من جهة شركهم وجد و لاحزن فإن الله قادر أن يشاء منهم الإيمان فيؤمنوا كما شاء ذلك من المؤمنين فآمنوا. على أنك لست بمسؤول عن أمرهم لاتكوينا و لاغيره فلتطب نفسك، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوَا بِغَيْرِ عِلْمٍ» السب معروف، إلى أن قال: و الآية تذكر أدبا دينيا تصان به كرامة مقدمات المجتمع الديني و تتوقى ساحتها أن يتلوث بدرن الإهانة و الإزراء بشنيع القول و السب و الشتم و السخرية و نحوها فإن الإنسان مغروز على الدفاع عن كرامة ما يقدسه، و

المقابلة في التعدي على من يحسبه متعديا إلى نفسه، و ربما حمله الغضب على الهجر السب لما له عنده أعلى منزلة العزة و الكرامة فلو سب المؤمنون آلهة المشركين حملتهم عصبية الجاهلية أن يعارضوا المؤمنين بسب ما له عندهم كرامة الألُوهية و هو الله عز اسمه ففي سب آلهتهم نوع تسبيب إلى ذكره تعالى بما لا يليق بساحة قدسه و كبريائه. و عموم التعليل المفهوم من قوله: «كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ» يفيد عموم النهي لكلّ قول سيئ يؤدي إلى ذكر شيء من المقدسات الدينية بالسوء بأي وجه أدّى.

قوله تعالى: «كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

الزينة أمر جميل محبوب يضم إلى شيء ضما يجلب الرغبة إليه و يحببه عند طالبه فيتحرك نحو الزينة و ينتهي إلى الشيء المتزيّن بها كاللباس المزين بهيأته الحسنة الذي يلبسه الإنسان لزينته فيصان به بدنه عن الحرّ و البرد.

و قد أراد الله سبحانه أن يعيش الإنسان هذه العيشة الدنيوية ذات الشعب و الفروع و يديم حياته الأرضية الخاصة به من طريق إعمال قواه الفعالة فيدرك ما ينفعه و ما يضره بحواسّه الظاهرة ثمّ يتصرف فيها بحواسه و قواه الباطنة ثمّ يتغذى بأكل أشياء و شرب أشياء و يهيج إلى النكاح بأعمال خاصة و يلبس و يأوي و يجلب و يدفع و هكذا.

و له في جميع هذه الأعمال و ما يتعلق بها لذائذ يقارنها و غايات حيوية ينتهي إليها و آخر ما ينتهي إليه الحياة السعيدة الحقيقية التي خلق لها أو الحياة التي يظنها الحياة السعيدة الحقيقية. و هو إنّما يقصد بما يعمله من عمل ما يتصل به

من اللذة المادية كلذة الطعام و الشراب و النكاح و غير ذلك أو اللذة الفكرية كلذة الدواء و لذة التقدم و الأُنس و المدح و الفخر و الذكر الخالد و الانتقام و الثروة و الأمن و غير ذلك مما لايحصى.

و هذه اللذائذ اُمور زينت بها هذه الأعمال و متعلقاتها، و قد سخر الله سبحانه بها الإنسان فهو يوقع الأفعال و يتوخى الأعمال لأجلها، و بتحققها يتحقق الغايات الإلهية و الأغراض التكوينية كبقاء الشخص، و دوام النسل، و لولا ما في الأكل و الشرب و النكاح من اللذة المطلوبة لم يكن الإنسان ليتعب نفسه بهذه الحركات الشاقة المتعبة لجسمه و الثقيلة على روحه فاختل بذلك نظام الحياة، و فنى الشخص، و انقطع النسل فانقرض النوع، و بطلت حكمة التكوين بلا ريب في ذلك. و ما كان من هذه الزينة طبيعية مغروزة في طبايع الأشياء كالطعوم اللذيذة التي في أنواع الأغذية و لذة النكاح فهي مستندة إلى الخلقة منسوبة إلى الله سبحانه واقعة في طريق سوق الأشياء إلى غاياتها التكوينية، و لاسائق لها إليها إلا الله سبحانه فهو الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى.

و ما كان منها لذة فكرية تصلح حياة الإنسان في دنياه و لاتضره في آخرته فهي منسوبة أيضاً إلى الله سبحانه لأنها ناشئة عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها لاتبديل لخلق الله قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1].

و ما كان منها لذة فكرية توافق الهوى و تشقي في الأُخرى و الأُولى بإبطال العبودية و إفساد الحياة الطيبة فهي لذة منحرفة عن طريق الفطرة السليمة فإن

---

١. الحجرات: ٧.

الفطرة هي الخلقة الإلهية التي نظمها الله بحيث تسلك إلى السعادة و الأحكام الناشئة منها و الأفكار المنبعثة منها لاتخالف أصلها الباعث لها فإذا خالفت الفطرة و لم تؤمن السعادة فليست بالمترشحة منها، بل إنّما نشأت من نزعة شيطانية و عثرة نفسانية فهي منسوبة إلى الشيطان كاللذائذ الوهمية الشيطانية التي في الفسوق بأنواعه من حيث إنه فسوق فإنها زينة منسوبة إلى الشيطان غير منسوبة إلى الله سبحانه إلا بالإذن قال تعالى حكاية عن قوله إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] و قال تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[2].

أما أنها لاتنسب إلى الله سبحانه بلاواسطة فإنه تعالى هو الذي نظم نظام التكوين فساق الأشياء فيه إلى غاياتها و هداها إلى سعادتها ثمّ فرّع على فطرة الإنسان الكونية السليمة عقائد و آراءً فكرية يبني عليها أعماله فتسعده و تحفظه عن الشقاء و خيبة المسعى، و جلّت ساحته عزّ اسمه أن يعود فيأمر بالفحشاء و ينهى عن المعروف و يبعث إلى كلّ قبيح شنيع فيأمر الناس جميعا بالحسن و القبيح معاً و ينهى الناس جميعا عن القبيح و الحسن معا فيختل بذلك نظام التكليف و التشريع ثمّ الثواب و العقاب ثمّ يصف الدين الذي هذه صفته بأنه دين قيم فطرة الله التي فطر الناس عليها، و الفطرة بريئة من هذا التناقض و أمثاله متأبية مستنكفة من أن ينسب إليها ما تعده من السفه و العتاهية.

فإن قلت: ما المانع من أن تنسب الدعوة إلى الطاعة و المعصية إليه تعالى بمعنى: أن النفوس التي تزينت بالتقوى و تجهزت بسريرة صالحة يبعثها الله إلى

---

١. الحجر: ٣٩.

٢. النحل: ٦٣.

الطاعة و العمل الصالح، و النفوس التي تلوثت بقذارة الفسوق و اكتست بخباثة الباطن يدعوها الله سبحانه إلى الفجور و الفسق بحسب اختلاف استعداداتها فالداعي إلى الخير و الشر و الباعث إلى الطاعة و المعصية جميعا هو الله سبحانه.

قلت: هذا نظر آخر غير النظر الذي كنا نبحث عنه و هذا هو النظر في الطاعة و المعصية من حيث توسيط أسباب متخللة بينهما و بينه تعالى فلاشك أن الحالات الحسنة أو السيئة النفسانية لها دخل في تحقق ما يناسبها من الطاعات أو المعاصي، و على تقديرها تنسب الطاعة و المعصية إليها بلاواسطة و إلى الله سبحانه بالإذن فالله سبحانه هو الذي أذن لكلّ سبب أن يتسبب إلى مسببه.

و أمّا الذي نحن فيه من النظر فهو النظر في حال الطاعة و المعصية من حيث تشريع الأحكام، و من حيث انبعاث النفوس إليهما مع قطع النظر عن سائر الأسباب الباعثة الداعية إليهما فهل من الممكن أن يقال: إن الله سبحانه يدعوا إلى الإيمان و الكفر جميعا أو يبعث إلى الطاعة و المعصية معا؟ و هو الذي يصف دينه بأنه الدين القيم على المجتمع الإنساني المبني على الفطرة الإلهية و هذه الشرائع الإلهية.

ثم الدواعي النفسانية الموافقة لها كلّها فطرية و الدواعي النفسانية الموافقة لهوى النفس المخالفة لأحكام الشريعة مخالفة للفطرة لاتنسب الدعوة إليها إلى ذي فطرة سليمة فمن المحال أن تنسب إليه تعالى، إلى أن قال: و أما أنها منسوبة إليه تعالى بالإذن فإن الملك عام و السلطنة الإلهية مطلقة و حاشا أن يتأتى لأحد أن يتصرف في شيء من ملكه إلا بإذنه فيما يزيّنه الشيطان في قلوب أوليائه من

الشرك و الفسق و جميع ما ينتهي بوجه من الوجوه إلى سخط الله سبحانه فإنّما ذلك عن إذن إلهي تتم به سنة الامتحان و الاختبار الذي لايتم دونه نظام التشريع و مسلك الدعوة و الهداية، قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[1] و قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

فتبين أن لزينة الأعمال نسبة إليه تعالى أعم مما بواسطة الإذن أو بلاواسطة، و عليه يجري قوله تعالى: «كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ».

و أوضح منه في الانطباق على ما تقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]، انتهى.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: حلفوا «بِٱللَّهِ» مجدين مجتهدين «لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ» من الآيات التي اقترحوها «لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا»، «قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ» و هو قادر عليها ولكنه لاينزلها إلا على مقتضى الحكمة أو «إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ» لا عندي فكيف آتيكم بها، «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» أي: و ما يدريكم «أَنَّ» الآية التي

---

١. يونس: ٣.

٢. آل عمران: ١٤١.

٣. الكهف: ٧.

يقترحونها «إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» بها، يعني: أنا أعلم «أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» أنها إذا جاءت لايومنون بها و أنتم لاتدرون بذلك، و ذلك أن المؤمنين كانوا يطعمون في إيمانهم عند مجيء تلك الآية و يتمنون مجيئها فأخبرهم ـ سبحانه ـ أنهم لايدرون ما سبق علمه به من أنهم لايؤمنون ألا ترى إلى قوله: «كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، و قيل: إن «أَنَّهَآ» بمعنى لعلها،... «إِذَا جَآءَتْهُم لَايُؤْمِنُونَ» و قرئ إنها بالكسر على أن الكلام قد تم قبله و المعنى: و ما يشعركم ما يكون منهم، ثمّ أخبر بعلمه فيهم فقال: «أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ» بها البتة، و منهم من جعل «لَا» مزيدة في قراءة الفتح.

«وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ» عطف على «لَايُؤْمِنُونَ» داخل في حكم و «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» بمعنى و ما يشعركم أنهم لايؤمنون، و ما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم و أبصارهم أي: نطبع على قلوبهم و أبصارهم فلايفقهون و لايبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا أولا لايؤمنون بها لكونهم مطبوعا على قلوبهم، و ما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم أي: نخلّيهم و شأنهم لانكفّهم على الطغيان حتّى يعمهوا فيه، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ» إلى قوله: «عِندَ ٱللَّهِ» الجهد بفتح الجيم الطاقة و الأيمان جمع يمين و هي القسم، و جهد الأيمان أي: ما تبلغه قدرتها و هو الطاقة، و المراد أنهم بالغوا في القسم و أكدوه ما استطاعوا، و المراد بكون الآيات عندالله كونها في ملكه و تحت سلطته لاينالها أحد إلا بإذنه.

فالمعنى: «وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ» و بالغوا فيه لئن جاءتهم آياته تدل على صدق النبي ﷺ فيما يدعو إليه ليؤمنن بتلك الآية ـ و هذا اقتراح منهم للآية كناية ـ قل إنّما الآيات عندالله و هو الذي يملكها و يحيط بها و ليس إليّ من أمرها شيء حتّى اُجيبكم إليها من تلقاء نفسي.

قوله تعالى: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ»، إلى أن قال: و الظاهر أن «مَا» في قوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ» للاستفهام، و المعنى: و ما هو الذي يفيد لكم العلم بواقع الأمر و هو أنهم لايؤمنون إذا جاءتهم الآيات؟

فالكلام في معنى قولنا: هؤلاء يحلفون بالله لئن جاءتكم الآيات ليؤمنن بها فربما آمنتم و صدقتم بحلفهم و ليس لكم علم بأنهم إذا جاءتهم الآيات لايؤمنون بها لأن الله لم يشأ إيمانهم فالكلام من الملاحم، إلى أن قال: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، إلخ، ظاهر السياق أن الجملة عطف على قوله: «لَا يُؤْمِنُونَ» و هي بمنزلة التفسير لعدم إيمانهم، و المراد بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» الدعوة الاُولى قبل نزول الآيات قبال ما يتصور له من المرة الثانية التي هي الدعوة مع نزول الآيات.

و المعنى: أنهم لايؤمنون لو نزلت عليهم الآيات، و ذلك أنا نقلب أفئدتهم فلايعقلون بها كما ينبغي أن يعقلوه، و أبصارهم فلايبصرون فلايؤمنون بها ما من حقهم أن يبصروه فلايؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة من الدعوة قبل نزول هذه الآيات المفروضة و نذرهم في طغيانهم يترددون و يتحيرون، انتهى.

ولايذهب عليك أن قوله تعالى: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَايُؤْمِنُونَ» لايخلو عن لطف بيان و هو أن الله تعالى أخبر بأنّ الكفّار المذكورين لايؤمنون و

المسلمون كانوا يطمعون أن يؤمن الكفّار بنزول الآية الاقتراحية و الله تعالى أكد عدم إيمان الكفّار بالسؤال عن سبب علمهم بأن الكفّار لايؤمنون مع أنهم يطمعون بإيمانهم و هذا يرجع إلى أنهم أيضا يعلمون بأن الكفّار لايؤمنون و لابحث فيه و إنّما الكلام في سبب عدم إيمانهم فلاتغفل.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ» يشهدون لنبينا بالرسالة و أحيينا الموتى حتّى شهدوا له و هذا كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾، «وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ» كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ و معنى قوله: «قُبُلًا» كفلاء بصحة ما بشرنا به و أنذرنا، أو جماعات، أو مقابلة، قرئ: قبلا أي: عيانا، «إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ» مشية إكراه و قسر، «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ» فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لايشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لايؤمنون طوعا و لو اُتوا بكلّ آية، «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا» و كما خلينا بينك و بين أعدائك كذلك فعلنا

بمن قبلك من الأنبياء و أعدائهم لم نمنعهم عن العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات و الصبر و كثرة الثواب و الأجر.

و «شَيَٰطِينَ» بدل من «عَدُوًّا» أو هما مفعولا «جَعَلْنَا»، و «يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ» يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس و بعض الجنّ إلى بعض و بعض الإنس إلى بعض.

«زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ» ما يزينه من القول و الإغراء على المعاصي و يموهه «غُرُورًا» أخذا على غرّة و خدعا، «وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ» أي: ما عادوك أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم عنه اضطراراً.

«وَلِتَصْغَىٰٓ» جوابه محذوف تقديره و ليكون ذلك الإصغاء جعلناه لكلّ نبي عدوا على أن اللام لام الصيرورة، و الضمير في « إِلَيْهِ» و في «فَعَلُوهُ» واحدا أي: و ليميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء و وسوسة الشياطين.

«أَفْـِٔدَةُ» الكفّار «وَلِيَرْضَوْهُ» لأنفسهم «وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ» من الآثام[1]، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ» إلى آخر الآية بيان آخر لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ و أن قولهم: «لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا» دعوى كاذبة أجرأهم عليها جهلهم بمقام ربهم فليس في وسع الآيات التي يظنون أنها أسباب مستقلة في إيجاد الإيمان في قلوبهم و إقدارهم على التلبس به أن تودع في نفوسهم الإيمان إلا بمشية الله.

---

١. جوامع الجامع ١: ٤٠٥ـ٤٠٤.

فهذا السياق يدلّ على أن في الكلام حذفا و إيجازا، و المعنى: «وَلَوْ أَنَّنَا» أجبناهم في مسألتهم و آتيناهم أعاجيب الآيات فنزلنا إليهم الملائكة فعاينوهم، و أحيينا لهم الموتى فواجهوهم و كلّموهم و أخبروهم بصدق ما يدعون إليه، و حشرنا و جمعنا عليهم كلّ شيء قبيلا قبيلا و صنفا صنفا، أو حشرنا عليهم كلّ شيء قبلا و مواجهة فشهدوا لهم بلسان الحال أو القال، ما كانوا ليؤمنوا و لم يؤثر شيء من ذلك في استجابتهم للإيمان إلا أن يشاء الله إيمانهم.

فلايتم لهم الإيمان بشيء من الأسباب و العلل إلّا بمشية الله فإن النظام الكوني على عرضه العريض و إن كان لايجري على طبق حكم السببية و قانون العلية العام غير أن العلل و الأسباب مفتقرة في أنفسها متدلية إلى ربها غير مستقلة في شيء من شؤونها و مقتضياتها فلايظهر لها حكم إلا بمشية الله و لايحيى لها رسم إلا بإذنه. غير أن المشركين أكثرهم ـ و لعلهم غير العلماء الباغين منهم ـ يجهلون مقام ربهم و يتعلقون بالأسباب على أنها مستقلة في نفسها مستغنية عن ربها فيظنون أن لو أتاهم سبب الإيمان ـ و هو الآية المقترحة ـ آمنوا و اتبعوا الحق و قد اختلط عليهم الأمر بجهلهم فأخذوا هذه الأسباب الناقصة المفتقرة إلى مشية الله أسبابا مستقلة تامة مستغنية عنه، انتهى.

و فيه ما لايخفى لأن ما ذكره العلامة الطباطبائي بعيد عن الآيات المذكورة.

قال في الميزان قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ» إلى آخر الآية، الشياطين جمع شيطان و هو في اللغة الشرير غلب استعماله في إبليس الذي يصفه القرآن و ذريته، و الجن من الجن بالفتح و هو الاستتار، و هو في عرف القرآن نوع من الموجودات ذوات الشعور و الإرادة مستور عن حواسنا

بحسب طبعها و هم غير الملائكة. يذكر القرآن أن إبليس الشيطان من سنخهم. و الوحي هو القول الخفي بإشارة و نحوها، و الزخرف الزينة المزوقة أو الشيء المزوق فزخرف القول الكلام المزوق المموه الذي يشبه الحق و ليس به، و غرورا مفعول مطلق لفعل مقدر من جنسه أو مفعول له. و المعنى: و مثل ما جعلنا لك جعلنا لكلّ نبي عدواً هم شياطين الإنس و الجن يشير بعضهم إلى بعض و كأن المراد وحي شياطين الجن بالوسوسة و النزغة إلى شياطين الإنس و وحي بعض شياطين الإنس إلى بعض آخر منهم بإسرار المكر و التسويل بأقوال مزوقة و كلمات مموهة يغرونهم بذلك غرورا أو لغرورهم و إضلالهم بذلك.

و قوله: «وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ» يشير بذلك إلى أن حكم المشية عام جار نافذ فكما أن الآيات لاتؤثر في إيمانهم شيئا إلا بمشية الله كذلك معاداة الشياطين الأنبياء و وحيهم زخرف القول غروراً كلّ ذلك بإذن الله و لو شاء الله ما فعلوه و لم يوحوا ذلك فلم يكونوا عدوا للأنبياء، و بهذا المعنى يتصل هذه الآية بما قبلها لاشتراكهما في بيان توقف الأُمور على المشية.

قوله: «فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ» تفريع على نفوذ المشية أي: إذا كانت هذه المعاداة و الإفساد بالوساوس كلّ ذلك بإذن الله و لم يكونوا بمعجزين لله في مشيته النافذة الغالبة فلايحزنك ما تشاهد من إخلالهم بالأمر و إفسادهم له، بل أتركهم و ما يفترونه على الله من دعوى الشريك ونحوها.... و الكلام في قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ»، إلخ، حيث أسند ... إلى الله سبحانه و هو منزه من كلّ شر و سوء نظير الكلام في إسناده تزيين الأعمال إلى الله سبحانه في قوله: «كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ» و قد تقدم الكلام فيه، إلى أن

قال: و قد عرفت أن الذي يفيده ظاهر الآية الكريمة أنّ كلّ ما يصدق عليه اسم شيء فهو مملوك له تعالى منسوب إليه من غير استثناء لكن الآيات المنزّهة لساحة قدسه تعالى من كلّ سوء و قبح تعطي أن الخيرات و الحسنات جميعا مستندة إلى مشيته منسوبة إليه بلاواسطة أو معها، و الشرور و السيئات مستندة إلى غيره تعالى كالشيطان و النفس بلاواسطة، و إنّما تنتسب إليه تعالى بالإذن فهي مملوكة له تعالى واقعة بإذنه ليستقم أمر الامتحان الإلهي و يتم بذلك أمر الدعوة الإلهية بالأمر و النهي و الثواب و العقاب و لولا ذلك لبطلت و لغت السنة الإلهية في تسيير الإنسان كسائر الأنواع نحو سعادته في هذا العالم الكوني الذي لاسبيل فيه إلى الكمال و السعادة إلا بالسلوك تدريجي.

قوله تعالى: «وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ» إلى آخر الآية. الاقتراف هو الاكتساب، و ضمير المفرد للوحي المذكور في الآية السابقة، و اللازم في قوله: «لِتَصْغَىٰٓ» للغاية و الجملة معطوفة على مقدر، و التقدير: فعلنا ما فعلنا و شئنا ما شئنا و لم نمنع عن وحي بعضهم لبعض زخرف القول غرورا لغايات مستورة و لتصغى و تجيب إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة و ليرضوه و ليكتسبوا ما هم مكتسبون لينالوا بذلك جميعا ما يسألونه بلسان استعدادهم من شقاء الآخرة، فإن الله سبحانه يمدّ كلا من أهل السعادة و أهل الشقاء بما يتم به سيرهم إلى منازلهم و يرزقهم ما يقترحونه بلسان استعدادهم قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1]، انتهى.

---

١. الإسراء: ٢٠.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: أأطلب غير الله حاكما يحكم بيني و بينكم و يميز المحق منا من المبطل «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ» المعجز «مُفَصَّلًا» مبينا فيه الحلال و الحرام و الكفر و الإيمان و الشهادة لي بالصدق و عليكم بالافتراء، «وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ» يعني: التوراة و الإنجيل «يَعْلَمُونَ أَنَّ» القرآن «مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ» هو من باب التهييج و الإلهاب كقوله: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ» أو فلا تشكن في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق و إن جحده أكثرهم، و يجوز أن يكون «فَلَاتَكُونَنَّ» خطابا لكلّ أحد على معنى أنّه إذا تظاهرت الحج على صحته فلاينبغي أن يمتري فيه أحد، «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» أي: حجة ربك و أمره و نهيه و وعده و وعيده «صِدْقًا وَعَدْلًا» و قيل: هي القرآن «لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ» أي: لا أحد يبدل شيئا من ذلك بما هو أصدق و أعدل، «صِدْقًا» و «عَدْلًا» نصب على الحال، و قرئ: كلمات ربك، انتهى.

و في الميزان: قال في المجمع: الحكم و الحاكم بمعنى واحد إلا أن الحكم أمدح لأن معناه: من يستحق أن يتحاكم إليه فهو لايقضي إلا بالحق و قد يحكم الحاكم بغير حق. قال: و معنى التفصيل تبين المعاني بما ينفي التخليط المعمي للمعنى، و ينفي أيضا التداخل الذي يوجب نقصان البيان عن المراد.

و في قوله: «أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا» تفريع على ما تقدم من البصائر التي جاءت من قبله تعالى، و قد ذكر قبل ذلك في القرآن أنه كتاب أنزله مبارك مصدق الذي بين يديه من التوراة و الإنجيل.

و المعنى: «أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ» من سائر من تدعون من الآلهة أو من ينتمي إليهم أطلب حكما يتبع حكمه و هو الذي أنزل عليكم هذا الكتاب و هو القرآن مفصلا متميزا بعض معارفه من بعض غير مختلط بعض أحكامه ببعض، و لايستحق الحكم إلا من هو على هذه الصفة، إلى أن قال: في قوله تعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ» إلى آخر الآية، رجوع إلى خطاب النبي ﷺ بما يتأكد به يقينه و يزيد في ثبوت قدمه فيما ألقاه إلى المشركين من الخطاب المشعر بأن الكتاب النازل إليه منزل من ربه بالحق ففي الكلام التفات، و هو بمنزلة المعترضة ليزيد بذلك رسوخ قدمه و اطمئنان قلبه و ليعلم المشركون أنه على بصيرة من أمره.

قوله: «بِٱلْحَقِّ» متعلق بقوله: «مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ» و كون التنزيل بالحق هو أن لايكون بتنزيل الشياطين بالتسويل أو بطريق الكهانة إلى أن قال: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ».

الكلمة و هي ما دلّ على معنى تام أو غيره ربما استعملت في القرآن في القول الحق الذي قاله الله عز من قائل من القضاء أو الوعد، إلى أن قال: و ربما استعملت الكلمة في العين الخارجي كالإنسان مثلا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

---

١. آل عمران: ٤٥.

و العناية فيه أنه عليه السلام خرق عادة التدريج، إلى أن قال: فظاهر سياق الآيات فيما نحن فيه يعطي أن يكون المراد بقوله: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» كلمة الدعوة الإسلامية و ما يلازمها من نبوة محمّد صلى الله عليه وآله و نزول القرآن المهيمن على ما تقدم عليه من الكتب السماوية المشتمل على جوامع المعارف الإلهية و كليات الشرائع الدينية، إلى أن قال: فالمراد بتمام الكلمة ـ و الله أعلم ـ بلوغ هذه الكلمة أعني: ظهور الدعوة الإسلامية بنبوة محمّد صلى الله عليه وآله و نزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب، مرتبة الثبوت و استقرارها في مستقر التحقق بعد ما كانت تسير دهراً طويلا في مدارج التدريج بنبوة بعد نبوة و شريعة بعد شريعة فإن الآيات الكريمة دالة على أن الشريعة الإسلامية تتضمن جمل ما تقدمت عليه من الشرائع و تزيد عليها بما ليس فيها كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[1].

و بذلك يظهر معنى تمام الكلمة و أن المراد به انتهاء تدرج الشرائع من مراحل النقص إلى مرحلة الكمال، و مصداقه الدين المحمدي، إلى أن قال: و تمام هذه الكلمة الإلهية صدقا هو أن يصدق القول بتحققها في الخارج بالصفة التي بيّن بها، و عدلا أن تتصف بالتقسيط على سواء فلايتخلف بعض أجزائه عن بعض و تزن الأشياء على النحو الذي من شأنها أن توزن به من غير إخسار أو حيف و ظلم، و لذلك بين هذين القيدين أعني: «صِدْقًا وَعَدْلًا» بقوله: «لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ»

---

١. الشورى: ١٣.

فإن الكلمة الإلهية إذا لم تقبل تبديلا من مبدل سواء كان المبدل هو نفسه تعالى كأن ينقض ما قضى بتبدل إرادة أو يخلف ميعاده، أو كان المبدل غيره تعالى، انتهى.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: «إِن تُطِعْ أَكْثَرَ» الناس أضلوك لأن الأكثر في الغالب يتبعون الأهواء. ثم قال: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ» و هو ظنهم أن آباءهم كانوا محقين فهم يقلدونهم، و فيه: أنه لاعبرة في معرفة الحق بالكثرة و إنّما الاعتبار بالحجة، «يَخْرُصُونَ» يقدرون أنهم على شيء أو يكذبون، «مَن يَضِلُّ» يجوز أن يكون استفهاما فيكون تعليقاً، و يجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر يدلّ عليه قوله: «أَعْلَمُ» لأن «أفعل من كذا» لايتعدى إلى المفعول به، و يجوز أن يكون على حذف الباء ليقاتل قوله: «وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ»، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ» إلى آخر الآية. الخرص الكذب و التخمين، و المعنى الثاني هو الأنسب بسياق الآية فإن الجملة أعني: قوله: ... « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ» واقعتان موقع التعليل لقوله: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْض»، إلخ، و اتباع الظن و القول الخرص و

التخمين سببان بالطبع للضلال في الأُمور التي لايسوغ الاعتماد فيها إلاعلى العلم و اليقين كالمعارف الراجعة إليه تعالى و الشرائع المأخوذ من قبله.

و سير الإنسان و سلوكه الحيوي في الدنيا و إن كان لايتم دون الركون إلى الظن و الاستعداد من التخمين حتّى أن الباحث عن علوم الإنسان الاعتبارية و العلل و الأسباب التي تدعوه إلى صوغه لها و تقليبها في قالب الاعتبار، و ارتباطها بشؤونه الحيوية و أعماله و أحواله لايكاد يجد مصداقاً يركن الإنسان فيه إلى العلم الخالص و اليقين المحض اللهم إلّا بعض الكليات النضرية التي ينتهي إليها مما يظهر إلى الإذعان بها و الاعتماد عليها.

إلّا أنّ ذلك كلّه فيما يقبل التقريب و التخمين من جزئيات الأُمور في الحياة، و أما السعادة الإنسانية التي فيه فوز هذا النوع و فلاحه، و الشقاء الذي يرتبط به الهلاك الأبدي و الخسران الدائم، و ما يتوقف عليه التبصر فيهما من النظر في العالم و صانعه و الغرض من إيجاده و ما ينتهي إليه الأمر من البعث و النشور و ما يتعلق به من النبوة و الكتاب و الحكم فإنّ ذلك كلّه مما لايقبل الركون إلى الظن و التخمين و الله سبحانه لايرتضي من عباده في ذلك إلا العلم و اليقين، و الآيات في ذلك كثيرة جدا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1].

و من أوضحها دلالة هذه الآية التي نحن فيها يبيّن فيها أن أكثر أهل الأرض لركونهم العام إلى الظن و التخمين لايجوز طاعتهم فيما يدعون إليه و يأمرون به في سبيل الله و طريق عبوديته لأن الظن ليس مما يكشف به الحق الذي يستراح

---

١. الاسراء: ٣٦.

إليه في أمر الربوبية و العبودية لملازمته الجهل بالواقع و عدم الاطمئنان إليه، و لاعبودية مع الجهل بالرب و ما يريده من عبده.

فهذا هو الذي يقضي به العقل الصريح، و قد أمضاه الله سبحانه كما في قوله في الآية التالية في معنى تعليل النهي عن الطاعة: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ» حيث علل الحكم بعلم الله دون حكم العقل، و قد جمع سبحانه بين الطريقين جميعا في قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1].

و هذا أخذ بحكم العقل ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا* ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[2] في ذيل الآية استنادا إلى علم الله سبحانه و حكمه، انتهى.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

---

١. النجم: ٢٨.

٢. النجم: ٣٠ـ٢٩.

و في جوامع الجامع: «فَكُلُواْ» مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام و يحرمون الحلال و ذلك أنهم قالوا للمسلمين: أتأكلون ما قتلتم أنتم و لاتأكلون ما قتل ربكم!؟ فقيل: «فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره، أو مات حتف أنفه، «مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» هو المذكى ببسم الله. «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ» و أي غرض لكم في أن لا تأكلوا «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ» مما لم يحرم على لسان الرسول! و قرئ: «فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ» على البناء للفاعل و هو الله عزّوجلّ، «إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» مما حرم عليكم فإنه يحل لكم في حال الضرورة «وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ» فيحرمون و يحللون «بِأَهْوَآئِهِم» و شهواتهم، و من قرأ بالضم أراد يضلون أشياعهم «بِغَيْرِ عِلْمٍ» بغير تعلق بشرع «وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥ» أي: ما أعلنتم منه و ما أسررتم، و قيل: ما عملتم بجوارحكم و مانويتم بقلوبكم، و قيل: الظاهر الزنا و الباطن اتخاذ الأخدان، و «يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ» يرتكبون القبيح و الاقتراف: الاكتساب.

«وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ» الضمير يرجع إلى مصدر الفعل أي: و إنّ الأكل منه لفسق، أو إلى «مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» على و إن أكله لفسق، و فيه دلالة على تحريم ذبائح أهل الكتاب ـ أيضا ـ لأنه لايصح منهم القصد إلى ذكر اسم الله تعالى، و أما المسلم فإذا لم يسم الله «تعالى» متعمدا لم تحل ذبيحته و إذا كان ناسيا حلّ أكلها، انتهى.

و في الميزان: «فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ» لما تمهّد ما قدمه من البيان الذي هو حجة على أنّ الله سبحانه هو أحق بأن يطاع من غيره استنتج منه وجوب الأخذ بالحكم الذي شرّعه و هو الذي يدلّ عليه هذه الآية، و

وجوب رفض ما يبيحه غيره بهواه من غير علم و يجادل المؤمنين فيه بوحي الشياطين إليه، و هو الذي يدلّ عليه قوله: «وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» إلى آخر الآية.

و من هنا يظهر أن العناية الأصلية متعلقة بجملتين من بين الجمل المتسقة في الآية إلى تمام أربع آيات، و سائر الجمل مقصودة بتبعها يبين بها ما يتوقف عليه المطلوب بجهاته فأصل الكلام: «فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» و لاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله أي: فرقوا بين المذكى و الميتة فكلوا من هذه و لاتأكلوا من ذاك، و إن كان المشركون يجادلونكم في أمر التفريق.

فقوله: «فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ» تفريع للحكم على البيان السابق، و لذا أردفه بقوله: «إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ» و المراد بما ذكر اسم الله عليه الذبيحة المذكاة.

قوله تعالى: « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» إلى آخر الآية، بيان تفصيلي لإجمال التفريع الذي في الآية السابقة، و المعنى: أنّ الله فصّل لكم ما حرم عليكم و استثنى صورة الاضطرار و ليس فيما فصل لكم ما ذكر اسم الله عليه فلابأس بأكله و إنّ كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين المتجاوزين عن حدوده و هؤلاء هم المشركون القائلون: لافرق بين ما قتلتموه أنتم و ما قتله الله فكلوا الجميع أو دعوا الجميع، إلى أن قال: و يظهر من الآية أن محرمات الأكل نزلت قبل سورة الأنعام. و قد وقعت في سورة النحل من السور المكية فهي نازلة قبل الأنعام و قوله تعالى: «وَذَرُواْ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ» إلى آخر الآية، و إن كانت مطلقة بحسب المضمون تنهى عن عامّة الإثم ظاهره و

باطنه غير أن ارتباطها بالسياق المتصل الذي لسابقتها و لاحقتها يقضي بكونها تمهيدا للنهي الآتي في قوله: «وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ» و لازم ذلك أن يكون الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من مصاديق الإثم حتّى يرتبط بالتمهيد السابق عليه فهو من الإثم الظاهر أو الباطن لكن التأكيد البليغ الذي في قوله: «وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ» يفيد أنه من الإثم الباطن و إلّا لم تكن حاجة إلى تأكيده ذاك التأكيد الأكيد.

و بهذا البيان يظهر أن المراد بظاهر الإثم المعصية التي لاستر على شؤم عاقبته و لاخفاء في شناعة نتيجته كالشرك و الفساد في الأرض و الظلم، و بباطن الإثم ما لايعرف منه ذلك في بادئ النظر كأكل الميتة و الدم و لحم الخنزير و إنّما يتميز هذا النوع بتعريف إلهي و ربما أدركه العقل، هذا هو الذي يعطيه السياق من معنى ظاهر الإثم و باطنه، إلى أن قال: أما قوله: «وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ» فهو تعليل و التقدير: إنه لفسق و كلّ فسق يجب اجتنابه فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه واجب الاجتناب، إلى أن قال: «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» فهو تهديد و تخويف بالخروج من الإيمان، و المعنى: إن أطعتم المشركين في أكل الميتة الذي يدعونكم إليه صرتم مشركين مثلهم إما لأنكم استننتم بسنة المشركين، أو لأنكم بطاعتهم تكونوا أولياء لهم فتكونون منهم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]، انتهى.

---

١. الاسراء: ٣٦.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: ثمّ مثل ـ سبحانه ـ من هداه بعد الضلالة بمن كان ميتا فأحياه و جعل له نورا يستضئ به بين الناس و من بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لايخرج منها، ... بمعنى هو في الظلمات ليس بخارج كقوله: «مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ» أي: صفتها هذه و هي قوله: «فيها أنهار» «كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ»، انتهى.

و في الميزان: «أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا» الآية واضحة المعنى و هي بحسب ما يسبق إلى الفهم البسيط الساذج مثل مضروب لكلّ من المؤمن و الكافر يظهر بالتدبر فيه حقيقة حاله في الهدى و الضلال.

فالإنسان قبل أن يمسّه الهدى الإلهي كالميت المحروم من نعمة الحياة الذي لاحس له و لاحركة فإن آمن بربه إيماناً يرتضيه كان كمن أحياه الله بعد موته، و جعل له نورا يدور معه حيث دار يبصر في شعاعه خيره من شرّه و نفعه من ضره فيأخذ ما ينفعه و يدع ما يضره و هكذا يسير في مسير الحياة.

و أما الكافر فهو كمن وقع في الظلمات لامخرج له منها و لامناص له عنها ظلمة الموت و ما بعد ذلك من ظلمات الجهل في مرحلة تمييز الخير من الشر و النافع من الضار، و نظير هذه الآية في معناها بوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ

﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾[١] و قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[٢]، إلى أن قال: فهؤلاء يرون أن المؤمن و الكافر لايختلفان في هذه الموهبة و هي فيهما شرع سواء فلامحالة عدّ المؤمن حيا بحياة الإيمان ذا نور يمشي به في الناس، وعد الكافر ميتاً بميتة الضلال في ظلمات لامخرج منها ليس إلا مبتنياً على عناية تخييلية و استعارة تمثيلية يمثل بها حقيقة المعنى المقصود.

لكن التدبر في أطراف الكلام و التأمل فيما يعرفه القرآن الكريم يعطي للآية معنى وراء هذا الذي يناله الفهم العامي فإن الله سبحانه ينسب للإنسان الإلهي في كلامه حياة خالدة أبدية لاتنقطع بالموت الدنيوي هو فيها تحت ولاية الله محفوظ بكلاءته مصون بصيانته لايمسه نصب و لالغوب، و لايذله شقاء ولاتعب، مستغرب في حبّ ربه مبتهج ببهجة القرب لايرى إلّا خيرا، و لايواجه إلا سعادة و هو في أمن و سلام و لاخوف معه و لاخطر، و سعادة و بهجة و لذة لانفاد لها و لانهاية لأمدها. و من كان هذا شأنه فإنّه يرى ما لايراه الناس، و يسمع ما لايسمعونه، و يعقل ما لايعقلونه، و يريد ما لايريدونه و إن كانت ظواهر أعماله و صور حركاته و سكناته تحاكي أعمال غيره و حركاتهم و سكناتهم و تشابهها فله شعور و إرادة فوق ما لغيره من الشعور و الإرادة فعنده من الحياة التي

---

١. الأنعام: ٣٦.

٢. النحل: ٩٧.

هي منشأ الشعور و الإرادة ما ليس عند غيره من الناس فللمؤمن مرتبة من الحياة ليست عند غيره، إلى أن قال: فتبين بذلك أن للحياة و كذا للنور حقيقة في المؤمن واقعية و ليس الكلام جاريا على ذاك التجوّز الذي لايتعدى مقام العناية اللفظية فما في خاصة الله من المؤمنين من الصفة الخاصة بهم أحق باسم الحياة مما عند عامة الناس من معنى الحياة كما أن حياة الإنسان كذلك بالنسبة إلى حياة الحيوان، و حياة الحيوان كذلك بالنسبة إلى حياة النبات. فقوله: «أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ» أي: ضالا من حيث نفسه أو ضالا كافرا قبل أن يؤمن بربه و هو نوع من الموت فأحييناه بحياة الإيمان أو الهداية ـ و المآل واحد ـ.

«و جعلنا له نورا» أي: علماً متولدا من إيمانه، إلى أن قال: قوله تعالى: «كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» ظاهر سياق صدر الآية أن يكون التشبيه في قوله: «كَذَٰلِكَ» من قبيل تشبيه الفرع بالأصل بعناية إعطاء القاعدة الكلية كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ و قوله: كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].

أي: اتّخذ ما ذكرناه من المثل أصلا و قس عليه كلّ ما عثرت به من مثل مضروب فمعنى قوله: «كَذَٰلِكَ زُيِّنَ»، إلخ، على هذا المثال المذكور أن الكافر لامخرج له من الظلمات، زين للكافرين أعمالهم فقد زينت لهم أعمالهم زينة تجذبهم إليها و تحبسهم و لاتدعهم يخرجوا منها إلى فضاء السعادة و فسحة النور أبدا و الله لايهدي القوم الظالمين، انتهى.

---

١. الرعد: ١٧.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: المعنى خلّيناهم و شأنهم «لِيَمْكُرُواْ فِيهَا» و لم نكفهم عن المكر، و خصّ الأكابر لأنهم الحاملون على الضلال و الماكرون بالناس و هو كقوله: «أمرنا مترفيها» تقول: هو أكبر قومه و هم أكابر قومهم، «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ» لأن مكرهم يحيق بهم، روي: أن أباجهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتّى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبي يوحى إليه، و الله لانرضى به و لانتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت، و نحوها قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[1] «ٱللَّهُ أَعْلَمُ» كلام مستأنف للإنكار عليهم. أي: إن الله لايصطفى للرسالة إلا من علم أنه يصلح لها و هو أعلم بموضعها، «سَيُصِيبُ» أكابر «ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ» «صَغَارٌ» و قمأة بعد كبرهم و عظمهم «وَعَذَابٌ شَدِيدٌ» في الدارين، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا» إلى آخر الآية، كأن المراد بالآية أنا أحيينا جمعا و جعلنا لهم نورا يمشون به في الناس، و آخرين لم نحيهم فمكثوا في الظلمات فهم غير خارجين منها و لا أن أعمالهم المزينة تنفعهم و تخلصهم منها و كذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها

---

١. المدثّر: ٥٢.

ليمكروا فيها بالدعوة الدينية والنبي و المؤمنين لكنه لاينفعهم فإنهم في ظلمات لايبصرون، بل إنّما يمكرون بأنفسهم و لايشعرون.

و على هذا فقوله: «كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» مسوق لبيان أن أعمالهم المزينة لهم لاتنفعهم في استخلاصهم من الظمات التي هم فيها، و قوله: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ»، إلخ، مسوق لبيان أن أعمالهم و مكرهم لايضر غيرهم إنّما وقع مكرهم على أنفسهم و ما يشعرون لمكان ما غمرهم من الظلمة، إلى أن قال: و الجعل في قوله: «جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا» كالجعل في قوله: «وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا» فالأنسب أنّه بمعنى الخلق، و المعنى: خلقنا في كلّ قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها و كون مكرهم غاية للخلقة و غرضا للجعل نظير كون دخول النار غرضا إلهيا في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[1].

و قد مرّ الكلام في معنى ذلك في مواضع من هذا الكتاب. و إنّما خص بالذكر أكابر مجرميها لأن المطلوب بيان رجوع المكر إلى ما كره، و المكر بالله و آياته إنّما يصدر منهم، و أما أصاغر المجرمين و هم العامة من الناس فإنّما هم أتباع و أذناب.

و أما قوله: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» فذلك أن المكر هو العمل الذي يستبطن شرا و ضرا يعود إلى الممكوربه فيفسد به غرضه المطلوب و يضل به سعيه و يبطل نجاح عمله، و لاغرض لله سبحانه في دعوته الدينية، و لانفع فيها إلا ما يعود إلى نفس المدعوين فلو مكر الإنسان مكرا بالله و آياته ليفسد بذلك

---

١. الأعراف: ١٧٩.

الغرض من الدعوة و يمنع عن نجاح السعي فيها فإنّما مكر بنفسه من حيث لايشعر: و استضر بذلك هو نفسه دون ربه. قوله تعالى: «وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ ..». إلى قوله: «رسالته» قولهم: «لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ»: استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنسب و لابالمال، و إنّما هي بفضائل نفسانية يخص الله بها من يشاء من عباده، فيجتبي لرسالته من علم أنه يصلح لها. و هو «تعالى» أعلم بالمكان الذي فيه يضعها، انتهى.

و في تفسير كاشف:

هدف از این نسبت دادن به خداوند متعال، اشاره بدین نکته است که مشیت الهی حکم می‌کند که سنت‌های اجتماعی بر پایه تضاد میان طرفداران حق و طرفداران باطل و نیز بیان صاحبان قدرت ستمگر و مردم ستم دیده استوار باشد.

و تنها راه فرار از این تضاد و کشمکش، از میان بردن جنایتکاران است و این أمر باید به دست مبلغان صلح و عدالت تحقق یابد، هر چند باطل، قوی و نیرومند باشد. خداوند نیز این موضوع رادر کتاب خود ثبت کرده است، آنجا که می‌گوید: « ... و این نیرنگ‌های بد جز نیرنگ‌بازان را در بر نگیرد آیا جز سنتی که بر گذشتگان رفته است منتظر چیزی دیگری هستند؟ در سنت خدا هیچ تبدیلی نمی‌یابی و در سنت خدا هیچ تغییری نمی‌یابی این تکرار تأکید قاطعی است بر این که سرانجام، پرهیزگاران بر جنایتکاران پیروز خواهند شد، هر چند زمان به درازا بکشد، انتهی.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾

و في جوامع الجامع: «فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ» أي: يلطف به و يوفقه، و لايفعل ذلك إلا بمن يعلم أن له لطفا، «يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ» بأن يثبت عزمه عليه و يقوى دواعيه على التمسك به لطفا له بذلك و منّا عليه حتّى يجب الدخول فيه و تسكن نفسه إليه، «وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ» أي: يخذله و يخلّيه و شأنه و هو الذي لالطف له «يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا» بأن يمنعه ألطافه حتّى يقسو قلبه و ينبو من قبول الحق و ينسد فلايدخله الإيمان، إلى أن قال: «كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ» أي: يتصعد في السماء أي: كأنّما يزاول أمرا غير ممكن لأن صعود السماء مثل فيما يبعد من الاستطاعة و تضيّق عنه المقدرة، إلى أن قال: «كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ» أي: الخذلان و منع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب، أو أراد الفعل الذي يؤدّى إلى الرجس و هو العذاب، انتهى.

و في الميزان: «فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ» الشرح هو البسط و قد ذكر الراغب في مفرداته: أن أصله بسط اللحم و نحوه، و شرح الصدر الذي يعدّ في الكلام وعاء للعلم و العرفان هو التوسعة فيه بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقة و لايدفع كلمة الحق إذا أُلقيت إليه كما يدلّ عليه ما ذكر في وصف الإضلال بالمقابلة و هو قوله: «يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا»، إلخ.

فمن شرح الله صدره للإسلام و هو التسليم لله سبحانه فقد بسط صدره و وسعه لتسليم ما يستقبله من قِبَله تعالى من اعتقاد حق أو عمل ديني صالح فلايلقي إليه قول حق إلا وعاه و لاعمل صالح إلا أن أخذ به و ليس إلا أن لعين بصيرته نورا يقع على الاعتقاد الحق فينوره أو العمل الصالح فيشرقه خلاف من عميت عين قلبه فلايميز حقا من باطل و لاصدقا من كذب قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

و قد بين الله تعالى شرح الصدر بهذا البيان في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2] فوصفه فعرّفه بأن صاحبه راكب نور من الله يشرق قدامه في مسيره، ثمّ عرفه بالمقابلة بلينة في القلب يقبل به ذكر الله و لايدفعه لقسوة ثمّ قال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[3].

فذكر لين القلب إلى ذكر الله و طوعه للحق و أفاد أن ذلك هو الهدى الإلهي الذي يهدي به من يشاء، و عند ذلك يرجع الآيتان أعني: آية الزمر و الآية التي نحن فيها إلى معنى واحد و هو أن الله سبحانه عند هدايته عبدا من عباده يبسط صدره فيسع كلّ اعتقاد حق و عمل صالح و يقبله بلين و لايدفعه بقسوة و هو نوع من النور المعنوي الذي ينور القول الحق و العمل الصالح و ينصر صاحبه فيمسك

---

١. الحج: ٤٦.

٢. الزمر: ٢٢.

٣. الزمر: ٢٣.

بما نوره فهذا معرف يعرف به الهداية الإلهية، إلى أن قال قوله تعالى: «وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا» إلى آخر الآية، الإضلال مقابل الهداية، و لذا كان أثره مقابلا لأثرها و هو التضييق المقابل للشرح و التوسعة و أثره أن لايسع ما يتوجه إليه من الحق و الصدق، و يتحرج عن دخولهما فيه، و لذا أردف كون الصدر ضيقا بكونه حرجا.

و الحرج على ما في المجمع، أضيق الضيق، قال في المفردات: أصل الحرج و الحراج مجتمع الشيء و تصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج و للإثم حرج.

فقوله: «حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ» في محل التفسير لقوله: «ضَيِّقًا» و إشارة إلى أن ذلك نوع من الضيق يناظر بوجه التضيق و التحرج الذي يشاهد من الظروف و الأوعية إذا أُريد إدخال ما هو أعظم منها و وضعه فيها.

و قوله: «كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» إعطاء ضابط كلي في إضلال الذين لايؤمنون أنهم يفقدون حال التسليم لله و الانقياد للحق، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا»: بحيث ينبو عن قبول الحق، فلايدخله الإيمان، إلى أن قال: و في كتاب معاني الأخبار: حدثنا أبي ـ رحمه الله ـ قال: حدثنا سعد بن عبدالله، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن علي بن فضال، عن ثعلبة بن ميمون، عن زرارة، عن عبدالخالق بن عبد ربه، عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: «وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا» فقال: قد يكون ضيقا و له منفذ يسمع منه و يبصر. و الحرج:

هو الملتأم الذي لامنفذ له، يسمع به و لايبصر منه، إلى أن قال: «كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ»: شبهه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لايقدر عليه. فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة. و نبه به على أن الإيمان يمتنع منه، كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء، إلى أن قال: عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال: إن الله تبارك و تعالى إذا أراد بعبد خيرا، نكت في قلبه نكتة من نور و فتح مسامع قلبه و وكل به ملكا يسدده. و إذا أراد بعبد سوء، نكت في قلبه نكتة سوداء و سدّ مسامع قلبه و وكل به شيطانا يضله. ثمّ تلاهذه الآية «فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ»، انتهى.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَهَٰذَا» طريق «رَبِّكَ» و عادته في التوفيق و الخذلان «مُسْتَقِيمًا» عادلا مطردا لا اعوجاج فيه، و انتصب على أنه حال مؤكدة نحو قوله: و «هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا» «لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ» أي: للذين تذكروا و عرفوا الحق دار الله يعني: الجنة، أضافها إلى نفسه تعظيما لها، أو دار السلامة من كلّ آفة و بلية، «عِندَ رَبِّهِمْ» أي: هي مضمونة لهم عند ربهم يوصلهم إليها لامحالة كما تقول: لفلان عندي حق لاينسى، «وَهُوَ وَلِيُّهُم» مواليهم و محبهم «بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» أي: بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا» إلى آخر الآية، الإشارة إلى ما تقدم بيانه في الآية السابقة من صنعه عند الهداية و الإضلال و قد تقدم معنى الصراط و استقامته، و قد بيّن تعالى في الآية أن ما ذكره من شرح الصدر للإسلام إذا أراد الهداية و من جعل الصدر ضيقا حرجا عند إرادة الإضلال هو صراطه المستقيم و سنته الجارية التي لاتختلف و لاتتخلف فما من مؤمن إلا و هو منشرح الصدر للإسلام بالله و غير المؤمن بالعكس من ذلك. فقوله: «وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا» بيان ثان و تأكيد لكون المعرف المذكور في الآية السابقة معرفا جامعا مانعا للهداية و الضلالة.

ثمّ أكد سبحانه البيان بقوله: «قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» أي: إن القول حق بين عند من تذكر و رجع إلى ما أودعه الله في نفسه من المعارف الفطرية و العقائد الأولية التي بتذكرها يهتدي الإنسان إلى معرفة كلّ حق و تمييزه من الباطل، و البيان مع ذلك لله سبحانه فإنه هو الذي يهدي الإنسان إلى النتيجة بعد هدايته إلى الحجة.

قوله تعالى: «لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» المراد بالسلام هو معناه اللغوي - على ما يعطيه ظاهر السياق - و هو التعري من الآفات الظاهرة و الباطنة، و دار السلام هي المحل الذي لا آفة تهدد من حلّ فيه من موت و عاهة و مرض و فقر و أي عدم و فقد آخر و غم و حزن، و هذه هي الجنة الموعودة و لاسيما بالنظر إلى تقييده بقوله: «عِندَ رَبِّهِمْ».

نعم أولياء الله تعالى يجدون في هذه النشأة ما وعدهم الله من إسكانهم دار السلام لأنهم يرون الملك لله فلايملكون شيئا حتّى يخافوا فقده أو يحزنوا لفقده قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

و هم لاشغل لهم إلا بربهم خلوا به في حياتهم فلهم دار السلام عند ربهم - و هم قاطنون في هذه الدنيا - و هو وليهم بما كانوا يعملون و هو سيرهم في الحياة بنور الهداية الإلهية الذي جعله في قلوبهم، و نور به أبصارهم و بصائرهم، انتهى.

ولكن قوله تعالى: «عِندَ رَبِّهِمْ» يدلّ على رجحان إرادة النشأة الآخرة، فلاتغفل.

ثمّ قال العلامة الطباطبائيﷺ: و هدايته تعالى نوعان: أحدهما: الهداية التكوينية و هي التي تتعلق بالأُمور التكوينية كهدايته كلّ نوع من أنواع المصنوعات إلى كماله الذي خلق لأجله و إلى أفعاله التي كتبت له، و هدايته كلّ مشخص من أشخاص الخليقة إلى الأمر المقدر له و الأجل المضروب لوجوده.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2] و قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[3].

الهداية التشريعية

و النوع الثاني: الهداية التشريعية و هي التي تتعلق بالأُمور التشريعية من الاعتقادات الحقة و الأعمال الصالحة التي وضعها الله سبحانه للأمر و النهي و البحث و الزجر و وعد على الأخذ بها ثوابا و أوعد على تركها عقابا.

---

١. يونس: ٦٢.

٢. طه: ٥٠.

٣. الأعلى: ٣ - ٢.

و من هذه الهداية ما هي إرادة الطريق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

ومنها ما هي بمعنى الإيصال إلى المطلوب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[٢] و قد عرف الله سبحانه هذه الهداية تعريفا بقوله: «فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ» فهي انبساط خاص في القلب يعي به القول الحق و العمل الصالح من غير أن يتضيّق به و تهيؤ مخصوص لايأبى به التسليم لأمر الله و لايتحرج عن حكمه.

و إلى هذا المعنى يشير تعالى بقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى أن قال: «ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ»[٣] و قد وصفه في الآية بالنور لأنه ينجلي به للقلب ما يجب عليه أن يعيه من التسليم لحق القول و صدق العمل عما يجب عليه أن لايعيه و لايقبله و هو باطل القول و فاسد العمل.

و قد رسم الله سبحانه لهذه الهداية رسما آخر و هو ما في قوله عقيب ذكره هدايته أنبياءه الكرام و ما خصهم به من النعم العظام: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ... ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[٤].

فقد أوضحنا في تفسير الآية: أن الآية تدل على أن من خاصة الهداية الإلهية أنها تورد المهتدين بها صراطا مستقيما و طريقا سويا لاتخلف فيه و لااختلاف.

---

١. الأنسان: ٣.

٢. الأعراف: ١٧٦.

٣. الزمر: ٢٣.

٤. الأنعام: ٨٨.

فلابعض أجزاء صراطه الذي هو دينه بما فيه من المعارف و الشرائع يناقض البعض الآخر لما أن الجميع يمثل التوحيد الخالص الذي ليس إلا حقيقة ثابتة واحدة، و لما أنّ كلّها مبنية على الفطرة الإلهية التي لاتخطئ في حكمها و لاتتبدل في نفسها و لا في مقتضياتها و لابعض الراكبين عليه السائرين فيه يألفون بعضا آخر فالذي يدعوا إليه ... جميعهم و ... الذي يندب إليه آدمهم و أولهم من غير أيّ فرق إلا من حيث الإجمال و التفصيل، انتهى.

و بالجملة: لايختلف الأنبياء و خلفائهم المعصومون في الأُمور و لذا كان كلّ واحد مصدقا للآخر كما لايخفى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: و يوم يحشرهم منصوب بمحذوف أي: و اذكر يوم نحشرهم أو يوم نحشرهم «جَمِيعًا» قلنا: «يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ» أو يوم نحشرهم و قلنا: «يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ» كان ما لايوصف لفظاعته و الجن هم الشياطين.

«قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ» أضللتم منهم كثيرا كما يقال: استكثر فلان من الأشياع، «وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ» الذين اتبعوهم و أطاعوهم: «رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْض» أي: انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات و ما

يوصل إليها و انتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم، «وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا» يعنون يوم البعث، قال الله ـ تعالى ـ لهم: «ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ» أي: مقامكم «خَٰلِدِينَ فِيهَآ» مؤبدين «إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ» من أوقات حشرهم من قبورهم و مقدار مدتهم في محاسبتهم، و قيل: إن الاستثناء لغير الكفّار من عصاة المسلمين فإنهم في مشية الله إن شاء ـ سبحانه ـ عذبهم و إن شاء عفا عنهم، أو لمن آمن من الكفار، انتهى.

و في الميزان: و استكثار الجن من الإنس ليس من جهة أعيانهم فإن الآتي بأعيانهم في الدنيا و المحضر لهم يوم القيامة هو الله سبحانه، و إنّما للشياطين الاستكثار مما هم مسلطون عليه و هو إغواء الإنس من طريق ولايتهم عليهم و ليست بولاية إجبار و اضطرار، بل من قبيل التعامل من الطرفين يتبع التابع المتبوع ابتغاءً لما يرى في اتباعه من الفائدة، و يتولى المتبوع أمر التابع ابتغاء لما يستدر من النفع في ولايته عليه و إدارة شؤونه، فللجن نوع التذاذ من إغواء الإنس و الولاية عليهم، و للإنس نوع التذاذ من اتباع الوساوس و التسويلات ليستدروا بذلك اللذائذ المادية و التمتعات النفسانية.

و هذا هو الذي يعترف به أولياء الجن من الإنس بقولهم: «رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ» فتمتعنا بوساوسهم و تسويلاتهم من متاع الدنيا و زخارفها، و تمتعوا منا بما كانت تشتهيه أنفسهم حتّى آل أمرنا ما آل إليه.

و من هنا يظهر ـ كما يعطيه السياق ـ أن المراد بالأجل في قولهم: «وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا» الحدّ الذي قدر لوجودهم و الدرجة التي حصلت لهم من أعمالهم دون الوقت الذي ينتهي إليه أعمارهم و بعبارة أُخرى آخر درجة نالوها من فعلية الوجود لا الساعة التي ينتهي إليها حياتهم فيرجع المعنى إلى أن بعضنا

استمتع ببعض بسوء اختياره و سيئ عمله فبلغنا بذلك السير الاختياري ما قدّرت لنا من الأجل، و هو أنا ظالمون كافرون.

فمعنى الآية: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا» ليتم أمر الحجاج عليهم فيقول للجن: يا معشر الجن قد استكثرتم من ولاية الإنس و إغوائهم، و قال أولياؤهم من الإنس في الاعتراف بحقيقة الأمر: «رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ» فاستمتعنا معشر الإنس من الجن بأن تمتعنا بزخارف الدنيا و ما تهواه أنفسنا بتسويلاتهم، و تمتع الجن منا باتباع ما كانوا يلقون إلينا من الوساوس و كنا على ذلك حتّى بلغنا آخر ما بلغنا من فعلية الحياة الشقية و درجة العمل.

فهذا اعتراف منهم بأن الأجل و إن كان بتأجيل الله سبحانه لكنهم إنّما بلغوه بطيّهم طريق تمتع البعض من البعض، و هو طريق سلكوه باختيارهم. و لايبعد أن يستظهر من هنا أن المراد بالجن الشياطين الذين يوسوسون في صدور الناس من الجن.

قوله تعالى: «قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ»، إلخ، هذا جواب منه سبحانه و قضاء عليهم، و متن ما قضى به قوله: «ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ»، إلخ.

و المثوى اسم مكان من قولهم: ثوى يثوي أي: أقام مع استقرار فقوله: «ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ» أي: مقامكم الذي تستقرون فيه من غير خروج و لذا أكده بقوله؟ «خَٰلِدِينَ فِيهَآ».

و قوله: «إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ» استثناء يفيد أن القدرة الإلهية باقية مع ذلك على ما كانت فله مع ذلك أن يخرجكم منها و إن كان لايفعل، انتهى.

و في كنز الدقائق قوله: «إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ» قيل: إلا الأوقات التي ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير. و قيل: إلا ما شاء الله قبل الدخول كأنه قيل: النار مثواكم أبدا إلا ما اُمهلكم، انتهى.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: «وَ» مثل «ذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا» نخلّيهم حتّى يتولى بعضهم بعضا كما فعل الشياطين و غواة الإنس، «بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» أي: بسبب ما كسبوا من الكفر و المعاصي، «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» اختلف في أن الجنّ هل بعث إليهم رسل منهم؟ فقال بعضهم: بعث إليهم رسول من جنسهم و تعلق بظاهر هذه الآية، و قال الآخرون: الرسل من الإنس خاصّة، و إنّما قيل: «رُسُلٌ مِّنكُمْ» لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صح ذلك و إن كان من أحدهما كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1] و إن كان اللؤلؤ يخرج من الملح دون العذب، و عن ابن عباس: إنّما بعث الرسول من الإنس ثمّ كان هو يرسل إلى الجن رسولاً منهم، «يَقُصُّونَ» أي: يتلون «عَلَيْكُمْ» حججي و دلائلي، انتهى.

---

١. الرحمن: ٢٢.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» فيه بيان أن جعله تعالى بعض الظالمين أولياء يجري على الحقيقة المبينة في الآية السابقة، و هو أن التابع يستمتع المتبوع من طريق تسويله و إغوائه فيكسب بذلك الذنوب و الآثام حتّى يجعل الله المتبوع وليا عليه و يدخل التابع في ولايته.

و قوله: «بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» الباء للسببية أو المقابلة، و هو يفيد أن هذه التولية إنّما هي بنحو المجازاة يجازي بها الظالمين في قبال ما اكتسبوه من المظالم لاتولية ابتدائية من غير ذنب سابق، إلى أن قال: قوله تعالى: «يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» إلى آخر الآية في هذا الخطاب دفع دخل يمكن أن يتوجه إلى الحجة السابقة المأخوذة من اعترافهم بأنّهم إنّما وقعوا فيما وقعوا فيه من ولاية الشياطين بسوء اختيارهم. و هو أنهم و إن ابتلوا بذلك من طريق الاختيار لكنهم لم يكونوا يعلمون أن هذه المعاصي و التمتعات سوف توردهم مورد الهلكة و تسجّل عليهم ولاية الظالمين و الشياطين و يخسرهم بالشقاء الذي لاسعادة بعده أبدا فهم كانوا على غفلة من ذلك و إن كانوا على علم في الجملة بمساءة أعمالهم و شناعة أفعالهم و مؤاخذة الغافل ظلم. فدفعه الله سبحانه بهذا الخطاب الذي يسألهم فيه عن إتيان الرسل و ذكرهم آيات الله و إنذارهم بيوم الجمع و الحساب فلما شهدوا على أنفهسم بالكفر بما جاء به الرسل تمت الكلمة و لزمت الحجة.

فمعنى الآية: أنا نخاطبهم جميعا فنقول لهم: «يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» أرسلناهم إليكم يقصون عليكم آياتي التي تدل على الدين الحق، و

«وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» و هو يوم القيامة و أن الله سيوقفكم موقف المسألة فيحاسبكم على أعمالكم ثمّ يجازيكم بما عملتم إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا فإذا سألناهم عن ذلك أجابونا و قالوا: شهدنا على أنفسنا أن الرسل أتونا و قصّوا علينا آياتك، و أنذرونا لقاء يومنا هذا، و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بما جاء به الرسل رادين عليهم عن علم و ما كانوا غافلين.

و بذلك تبين أولا أن قوله: «مِّنكُمْ» لايدل على أزيد من كون الرسل من جنس المخاطبين و هو مجموع الجن و الإنس لا من غيرهم كالملائكة حتّى يتوحشوا منهم و لايستأنسوا بهم و لايفقهوا قولهم، و أما أنّ من كل من طائفتي الجن و الإنس رسلا منهم فلادلالة في الآية على ذلك، انتهى.

و في پژوهش‌هاى قرآنى ٥٢١ عن العلامة الشعراني:

و الحق أن الجن معلوم وجودا بنص القرآن و مجهول ماهية، فكلّ ما يقال فيهم رجما بالغيب أو اعتماداً على الظنون لاعبرة به و لااعتماد و لانعلم على التحقيق و لايجب أن نعلم كون رسلهم من أنفسهم أو من الإنس و لا أن نعلم كيفية أخذهم الأحكام من الأنبياء و هل يجري عليهم جميع الأحكام كالوضوء و الفعل أو بعضها و الحزم إيكال علم ذلك كلّه إلى الله حتّى يثبت بدليل قطعي، انتهى.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ

قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

في جوامع الجامع: « ذَٰلِكَ» إشارة إلى ما تقدم من بعثه الرسل إليهم، و تقديره الأمر ذلك «أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ» تعليل أي: الأمر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك « مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ» أي: بسبب ظلم أقدموا عليه، أو ظالما على معنى أنه لو أهلكهم من غير تنبيه برسول و كتاب لكان ظالما و هو متعال عن الظلم، «وَلِكُلٍّ» من المكلّفين «دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟» أي: مراتب من أعمالهم على حسب ما يستحقونه، إلى أن قال: «وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ» أي: بساهٍ «عَمَّا يَعْمَلُونَ» فلايخفى عليه مقاديره و ما يستحق عليه، «وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ» عن عباده و عن عبادتهم، «ذُو ٱلرَّحْمَةِ» يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع العظيمة التي لايحسن إيصالهم إليها إلا بالاستحقاق لاقترانها بالتعظيم و الإجلال.

«إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ» أيها العصاة «وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ» أي: و ينشئ من بعد إهلاككم و إذهابكم خلقا غيركم يطيعونه يكونون خلفا لكم «كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ» تقدموكم «إِنَّ مَا تُوعَدُونَ» من الحشر و الثواب و العقاب و تفاوت أهل الجنة و النار في الدرجات و الدركات «لَآتٍ» لامحالة «وَمَآ أَنتُم» بخارجين من ملكه، «ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ» المكانة تكون مصدرا لمكن: إذا تمكن أبلغ التمكن، و يكون بمعنى المكان يقال: مكان و مكانة و

مقام و مقامة أي: اعملوا على تمكنكم من أمركم و أقصى استطاعتكم و إمكانكم أو اعملوا على حالكم التي أنتم عليها.

«إِنِّي عَامِلٌ» على مكانتي التي أنا عليها و المعنى: اثبتوا على كفركم و عداوتكم فإني ثابت على الإسلام على مصابرتكم «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» أينا تكون له العاقبة المحمودة، و هذا نحو قوله: «ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ» في أنه على طريق التهديد و التسجيل على المأمور بأنه لايأتي منه إلا الشر فكأنه واجب عليه و هو مأمور به ليس له أن يعمل بخلافه، «مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ» إن كان بمعنى «أي» فمحله الرفع و يكون تعليقا و إن كان بمعنى «ٱلَّذِىٓ» فمحله النصب، و عاقبة الدار: العاقبة الحسنى التي خلق الله هذه الدار لها و هو وعيد، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ» الإشارة بقوله: «ذَٰلِكَ» إلى مضمون ما تقدم من البيان ـ على ما يعطيه السياق ـ و قوله: «أَن لَّمْ يَكُن» بتقدير لام التعليل فالمعنى أن الذي بيناه من إرسال الرسل و التذكير بالآيات و الإنذار بيوم القيامة إنّما هو لأن الله سبحانه ليس من سنته أن يهلك أهل القرى و يوردهم مورد السخط و العذاب و هم غافلون عما يريده منهم من الطاعة و يفعله بهم على تقدير المخالفة، و ذلك ظلم منه تعالى. فهم و إن نزلوا منزل الشقاء بتأجيل الله سبحانه و قضائه و جعله بعضهم أولياء بعض لكنه تعالى لم يسلبهم القدرة على الطاعة و لم يبطل منهم الاختيار فاختاروا الشرك و المعصية.

ثمّ أرسل إليهم رسلا منهم يقصون عليهم آياته و ينذورنهم لقاء يوم الحساب فكفروا بهم و مكثوا على بغيهم و عتوهم فجزاهم بولاية بعضهم بعضا و قضى عليهم بأن النار مثواهم فهم أنفسهم استدعوا الهلاك على علم و إرادة، و لم يهلكهم الله و هم غافلون حتّى يكون يظلمهم فهو الحكم العدل تبارك اسمه.

و قد بان بذلك أولا: أن المراد بقوله: «لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ» نفي أن يكون ذلك من سنته تعالى فإنه تعالى لايفعل شيئا إلا بسنة جارية و صراط مستقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] و في اللفظ دلالة على ذلك.

و ثانياً: أن المراد بإهلاك القرى القضاء بشقائهم في الدنيا و عذابهم في الآخرة على ما يفيده السياق دون الهلاك بإنزال العذاب في الدنيا.

و ثالثاً: أن المراد بالظلم في الآية هو الظلم منه تعالى لو أهلكهم و هم غافلون دون الظلم من أهل القرى، انتهى.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: يعني: كفار مكة و أسلافهم، كانوا يعينون أشياء من الحرث و الأنعام لله و أشياء منهما لآلهتهم: فإذا رأوا ما جعلوه لله ناميا زاكيا

---

١. هود: ٥٦.

رجعوا فجعلوه للآلهة، و إذا زكا ما جعلوه للآلهة تركوه لها، و اعتلّوا لذلك بأن الله غني، و قوله: «مِمَّا ذَرَأَ» فيه أن الله هو الذي ذرأه و زكاه و كان أولى بأن يجعل له الزاكي، و قرئ: «بِزَعْمِهِمْ» بضمّ الزاء و فتحها أي: زعموا أنه لله و الله لم يأمرهم بذلك، و سمّي الأوثان شركائهم لأنهم أشركوهم في أموالهم و في أنعامهم، «سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ» في إيثار آلهتهم على الله ـ سبحانه ـ و عملهم على ما لم يشرع لهم، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا» إلى آخر الآية، الذرء الإيجاد على وجه الاختراع و كأن الأصل في معناه الظهور، و الحرث الزرع، و قوله: «بِزَعْمِهِمْ» في قوله: «فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ» نوع من التنزيه كقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾[1].

و الزعم الاعتقاد و يستعمل غالبا فيما لايطابق الواقع منه. و قوله: «وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا» أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين أثبتوها و اعتقدوا بها نظير أئمة الكفر و أئمتهم و أولياؤهم، و قيل: اُضفت الشركاء إليهم لأنهم كانوا يجعلون بعض أموالهم فيتخذونهم شركاء لأنفسهم.

و كيف كان، فمجموع الجملتين أعني قوله: «فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا» من تفريع التفصيل على الإجمال يفسر به جعلهم لله نصيبا من خلقه، و فيه توطئة و تمهيد لتفريع حكم آخر عليه، و هو الذي يذكره في قوله: «فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ».

---

١. الأنبياء: ٢٦.

و إذ كان هذا الحكم على بطلانه من أصله و كونه افتراء على الله لايخلوا عن إزراء بساحته تعالى بتغليب جانب الأصنام على جانبه قبحه بقوله: «سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ» و معنى الآية ظاهر، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَجَعَلُواْ» أي: مشركو العرب. «لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ»: خلق الله. «مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ»: من غير أن يؤمروا به «وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا»: أصنامهم التي أشركوها في أموالهم. «فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ»، إلى أن قال: «سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ»: حكمهم هذا.

روي: أنهم كانوا يعينون شيئا من حرث و نتاج لله و يصرفونه إلى الضيفان و المساكين، و شيئا منهما لآلهتهم و ينفقونه على سدنتها و يذبحون عندها. ثمّ إن رأوا ما عينوا لله أزكى، بدلوه بما لآلهتهم و إن رأوا ما لآلهتهم أزكى، تركوه لها حبّا لآلهتهم. و اعتلوا لذلك، بأن الله غني.

و في مجمع البيان: عن أئمتنا عليهم السلام: إنه كان إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله، ردّوه. و إذا اختلط ما جعل لله بما جعلوه للأصنام، تركوه و قالوا: الله غني. و إذا انخرق الماء من الذي لله في الذي للأصنام، لم يسدوه. و إذا انخرق من الذي للأصنام في الذي لله، سدّوه و قالوا: الله غني. قيل: و في قوله: «مِمَّا ذَرَأَ» تنبيه على فرط جهالتهم. فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جمادا لايقدر على شيء، ثمّ رجّحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، انتهى.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: و مثل ذلك التزيين الذي هو تزيين الشرك في قسمة القربات بين الله و آلهتهم «زَيَّنَ» لهم «شُرَكَآؤُهُمْ» من الشياطين أو من سدنة الأصنام «قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ» بالوأد خيفة العيلة أو العار، إلى أن قال: «لِيُرْدُوهُمْ» أي: ليهلكوهم بالإغواء «وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ» و ليخلطوه عليهم و يشبهوه، و دينهم هو ما كانوا عليه من دين إسماعيل، و قيل: دينهم الذي كان يجب أن يكونوا عليه.

«وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ» مشية قسر «مَا فَعَلُوهُ» أي: ما فعل المشركون ما زين لهم من القتل «فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ» أي: و افتراءهم أو ما يفترونه من الإفك «حِجْرٌ» فعل بمعنى مفعول كالذبح و الطحن بمعنى المذبوح و المطحون و يستوي فيه الواحد و الجمع و المذكر و المؤنث لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات، و عن ابن مسعود و أُبيّ: «حرج» و هو من التضييق و كانوا إذا عينوا شيئا من حرثهم و أنعامهم لآلهتهم قالوا: «لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ» ... «بِزَعْمِهِمْ» من غير حجة لهم فيه «وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا» هي البحائر و السوائب و الحوامي.

«وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا» في الذبح و النحر و إنّما يذكرون عليها أسماء الأصنام، و قيل: لايحجون عليها و لايلبّون على ظهورها، و المعنى: أنها

قسّموا أنعامهم: فقالوا: هذه أنعام حجر و هذه أنعام محرمة الظهور و هذه أنعام لايذكر عليها اسم الله فجعلوها أجناسا بدعواهم الباطلة و نسبوا ذلك التقسيم إلى الله «ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ» أي: فعلوا ذلك كلّه على جهة الافتراء فهو مفعول له أو حال، انتهى.

و في الميزان: و المعنى أن الأصنام بما لها من الوقع في قلوب المشركين و الحب الوهمي في نفوسهم زينت لكثير من المشركين أن يقتلوا أولادهم و يجعلوهم قرابين يتقربون بذلك إلى الآلهة كما يضبطه تأريخ قدماء الوثنيين و الصابئين، و هذا غير مسألة الوأد الذي كانت بنو تميم من العرب يعملون به فإن المأخوذ في سياق الآية الأولاد دون البنات خاصة.

و قيل: المراد بالشركاء الشياطين، و قيل: خدمة الأصنام و قيل: الغواة من الناس، إلى أن قال: و قوله تعالى: «لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ» الإرداء: الإهلاك، و المراد به إهلاك المشركين بالكفر بنعمة الله و البغي على خلقه، و خلط دينهم عليهم بإظهار الباطل في صورة الحق، فضمير «هم» في المواضع الثلاث جميعا راجع إلى كثير من المشركين.

... قوله تعالى: «وَقَالُواْ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ» إلى آخر الآية. الحجر بكسر الحاء المنع و يفسره قوله بعده: «لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا» ... أو و لهم أنعام حرمت ظهورها، و هي السائبة و البحيرة و الحامي التي نفاها الله تعالى في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1]، إلى أن قال: و قوله: «وَأَنۡعَٰمٌ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا» أي: و لهم أنعام، إلخ، و هي الأنعام التي كانوا يهلون عليها بأصنام لا باسم الله، و قيل: هي التي كانوا لا يركبونها في الحج، و قيل: أنعام كانوا لا يذكرون اسم الله عليها و لا في شأن من شؤونها، و معنى الآية ظاهر، انتهى.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيۡتَةً فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾

و في جوامع الجامع: كانوا يقولون في أجنة البحائر و السوائب: إن ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور و ما ولد منها ميّتا اشترك فيه الذكور و الإناث و أُنث «خَالِصَةٌ» للحمل على المعنى لأن «مَا» في معنى الأجنة، و ذكر «مُحَرَّمٌ» للحمل على اللفظ و يجوز أن يكون التاء للمبالغة كالتاء في راوية الشعر، و أن يكون مصدراً وقع موقع الخالص كالعافية أي: ذو خالصة و يدلّ عليه قراءة من قرأ: «خَالِصَةٌ» بالنصب على أن قوله: «لِّذُكُورِنَا» هو الخبر و خالصة مؤكد، «وَإِن تَكُن مَّيۡتَةً» و إن يكن ما في بطونها ميتة، و قرئ: «وَإِن تَكُن» على و إن تكن

---

١. المائدة: ١٠٣.

الأجنة ميتة، و قرئ: «وَإِن يَكُن» بالتأنيث «مَّيْتَةً» بالرفع على كان التامة، و ذكر الضمير في قوله: «فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ» لأنّ الميتة لكل ميت ذكرا أو انثى فكأنه قيل: و إن يكن ميت فهم فيه شركاء «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ» أي: جزاءً وصفهم الكذب على الله في التحليل و التحريم من قوله: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾[1] «سَفَهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ» أي: جهلا و خفة حلم و ذهابا عن الصواب جهلوا أن الله هو رازق أولادهم لاهم، و قرئ: قتّلوا بالتشديد «وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ» من البحائر و السوائب و غيرهما، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ» يعنون: أجنة البحائر و السوائب.

«خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا»: حلال للذكور خاصة دون الإناث إن ولد حيا، لقوله: «وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ»: فالذكور و الإناث فيه سواء، إلى أن قال: «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ» أي: جزاء وصفهم الكذب على الله ـ تعالى ـ في التحريم و التحليل. و من قوله تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[2].

«إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَا»: يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم، مخافة السبي و الفقر، إلى أن قال: «بِغَيْرِ عِلْمٍ»: لخفة عقلهم، و جهلهم بأن الله رازق أولادهم. و يجوز نصبه على الحال، أو المصدر، انتهى.

---

١. النحل: ١١٦.

٢. النحل: ٦٢.

و في الميزان: قوله تعالى: «قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ»، إلخ، إلى أن قال: و قد وصف قتل الأولاد بأنه سفه بغير علم، و كذلك بدل الأنعام و الحرث من قوله: ما رزقهم الله و وصف تحريمها بأنه افتراء على الله ليكون في ذلك تنبيه كالتعليل على خسرانهم في ذلك كأنه قيل: خسروا في قتلهم أولادهم لأنهم سفهوا به سفهاً بغير علم، و خسروا في تحريمهم أصنافا من الأنعام و الحرث افتراء على الله لأنها من رزق الله و حاشاه تعالى أن يرزقهم شيئا ثمّ يحرمه عليهم، انتهى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

و في جوامع الجامع: ثمّ ذكر ـ سبحانه ـ إنشاءه الأشياء فقال: «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ» من الكروم «مَّعْرُوشَٰتٍ» مسموكات مرفوعات بالدعائم «وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ» متروكات على وجه الأرض لم تعرش، «وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ» أي: و أنشأ النخل و الزرع «مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ» في اللون و الطعم و الحجم و الرائحة و هو ثمره الذي يؤكل، و الضمير للنخل و الزرع داخل في حكمه لكونه معطوفا عليه، «وَمُخْتَلِفًا» حال مقدرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك «وَ»أنشأ «ٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا» في الطعم و اللون و الحجم «وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ» فيها، و إنّما قال: «إِذَآ أَثْمَرَ» ليعلم أن وقت إباحة الأكل «مِن ثَمَرِهِۦٓ» وقت الإطلاع و لايتوهم أنه غير

مباح أكله قبل وقت الإيناع، «وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ» و هو ما تيسّر إعطاؤه المساكين من الضغث بعد الضغث و الحفنة بعد الحفنة و هو ... أول وقت يمكن فيه الإيتاء «وَلَا تُسْرِفُوٓاْ» بأن تتصدقوا بالجميع و لاتبقوا للعيال شيئا، انتهى.

و في الميزان: الشجرة المعروشة هي التي ترفع أغصانها بعضاً على بعض بدعائم كالكرم و أصل العرش الرفع فالجنات المعروشات هي بساتين الكرم و نحوها، و الجنات غير المعروشات ما كانت أشجارها قائمة على اُصولها من غير دعائم.

و قوله: «وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ» أي: ما يؤكل منه من الحبات كالحنطة و الشعير و العدس و الحمص.

و قوله: «وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ» أي: متشابه كل منها و غير متشابه على ما يفيده السياق، و التشابه بين الثمرتين باتحادهما في الطعم أو الشكل أو اللون أو غير ذلك. قوله تعالى: «كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ» إلى آخر الآية، الأمر للإباحة لوروده في رفع الحظر الذي يدلّ عليه إنشاء الجنات و النخل و الزرع و غيرها، و السياق يدل على أن تقدير الكلام: و هو الذي أنشأ جنات و النخل و الزرع، إلخ، و أمركم بأكل ثمر ما ذكر و أمركم بإيتاء حقه يوم حصاده، و نهاكم عن الإسراف. فأي دليل أدل من ذلك على إباحتها؟

و قوله: «وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ» أي: الحق الثابت فيه المتعلق به فالضمير راجع إلى الثمر و اُضيف إليه الحق لتعلقه به كما يضاف الحق أيضا إلى الفقراء لارتباطه بهم و ربما احتمل رجوع الضمير إلى الله كالضمير الذي بعده في قوله: «إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ» و إضافته إليه تعالى لانتسابه إليه بجعله. و هذا إشارة إلى

جعل حق ما للفقراء في الثمر من الحبوب و الفواكه يؤدي إليهم يوم الحصاد يدل عليه العقل و يمضيه الشرع و ليس هو الزكاة المشرعة في الإسلام إذ ليست في بعض ما ذكر في الآية زكاة. على أن الآية مكية و حكم الزكاة مدني.

نعم لايبعد أن يكون أصلا لتشريعها فإن اُصول الشرائع النازلة في السور المدنية نازلة على وجه الإجمال و الإبهام في السور المكية كقوله تعالى: بعد عدة آيات عند تعداد كليات المحرمات: «قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ»، إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1].

و قوله: «وَلَاتُسْرِفُوٓاْ»، إلخ، أي: لاتتجاوزوا الحد الذي يصلح به معاشكم بالتصرف فيه فلايتصرف صاحب المال منكم بالإسراف في أكله أو التبذير في بذله أو وضعه في غير موضعه من معاصي الله و هكذا، و لايسرف الفقير الأخذ بتضييعه و نحو ذلك، ففي الكلام إطلاق، و الخطاب فيه لجميع الناس.

و أما قول بعضهم: إن الخطاب في «لَاتُسْرِفُوٓاْ» مختص بأرباب الأموال، و قول بعض آخر: إنه متوجه إلى الإمام الآخذ للصدقة، و كذا قول بعضهم: إن معناه لاتسرفوا بأكله قبل الحصاد كيلا يؤدي إلى بخس حق الفقراء، و قول بعض آخر: إن المعنى: لاتقصروا بأن تمنعوا بعض الواجب، و قول ثالث: إن المعنى لاتنفقوه في المعصية، كلّ ذلك مدفوع بالإطلاق و السياق، انتهى.

و في كنز الدقائق: «كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ»: من ثمر كلّ واحد من ذلك. «إِذَآ أَثْمَرَ»: و إن لم يدرك و لم يينع بعد، إلى أن قال: «وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ» في تفسير العياشي: عن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السلام، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنه كان

---

١. الأنعام: ١٥١.

يكره أن يصرم النخل بالليل و أن يحصد الزرع بالليل. لأن الله يقول: «وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ».

قيل يا نبي الله، و ما حقه؟ قال: ناول منه المسكين و السائل. و عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله: «وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ» كيف يعطى؟ قال: تقبض بيدك الضغث (قبضة الحشيش المختلط رطبها و يابسها) إلى أن قال: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أبي نصر، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: «وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ» قال: كان أبي عليه السلام يقول: من الإسراف في الحصاد و الجذاذ «الجداد» أن يتصدق الرجل بكفيه جميعا، و كان أبي إذا حضر شيئا من هذا فرأى أحداً من غلمانه يتصدق بكفيه صاح به أعط بيد واحدة القبضة (بعد القبضة)، (ثمّ إن الإسراف هو التجاوز عن الحدّ الذي ينبغي كما أن التبذير هو صرف الشيء فيما لاينبغي) و عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن المثنى قال: سأل رجل أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: «وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ» فقال: كان فلان بن فلان الأنصاري ـ و سماه ـ و كان له حرث، و كان إذا أخذ يتصدق به و يبقى هو و عياله بغير شيء فجعل الله عزّوجلّ ذلك سرفا، انتهى.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ

ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

وفي جوامع الجامع: عطف «حَمُولَةً وَفَرْشًا» على «جَنَّٰتٍ» أي: و أنشأ «مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ» ما تحمل عليه الأثقال و ما يفرش للذبح، أو ينسج من وبره و صوفه و شعره الفرش.

و قيل: الحمولة: الكبار التي تصلح للحمل، و الفرش: الصغار لدنوها من الأرض فهي كالفرش المفروش عليها.

«ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ» بدل من «حَمُولَةً وَفَرْشًا» «ٱثْنَيْنِ» أي: زوجين اثنين يريد الذكر و الأُنثى كالكبش و النعجة و التيس و العنز و الجمل و الناقة و الثور و البقرة فإن الواحد يسمّى فردا إذا كان وحده و إذا كان معه غيره من جنسه فهما زوجان، يدل عليه قوله: ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾[1] و قوله: «ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ... مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ»، «وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ» و الضأن و المعز جمع ضائن و ماعز و الهمزة في «ءَآلذَّكَرَيْنِ» للإنكار، و المراد به الذكرين الذكر من الضأن و من المعز و بـ«ٱلْأُنثَيَيْنِ» الأُنثى من الضأن و من المعز و المعنى: إنكار أن يحرم الله من جنسي الغنم: ضأنها و معزها شيئا من نوعي ذكورها و إناثها و لا مما تحمل إناث الجنسين، ...و ذلك أنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام، تارة و إناثها تارة، و أولادها كيفما كانت ذكرا أو إناثا أو مختلطة تارة، و كانوا يقولون:

---

١. النجم: ٤٥.

قد حرمها الله فأنكر ذلك عليهم، «نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ» أخبروني بأمر معلوم من جهة الله يدلّ على تحريم ما حرمتم «إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ» ...«أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ»، بل أكنتم شهداء حين أمركم ربكم بهذا التحريم!، و معناه أعرفتم توصية الله به مشاهدين!

لأنكم لاتؤمنون بالرسل و تقولون: إن الله حرم هذا الذي تحرمونه؟!

«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» فنسب إليه تحريم ما لم يحرم «لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ» و هو عمرو بن لحي بن قمعة الذي بحر البحائر و سيّب السوائب فقوله: «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ» تمامه عند قوله: «وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا» و قوله: «كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ» إلى قوله: «ٱلْمُسْرِفِينَ» اعتراض، و كذلك قوله: «كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ» «نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ» إلى تمام الآيتين و الاعتراضات لتأكيد التحليل و الاحتجاج على من ذهب إلى التحريم، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ»: ثمره الذي يؤكل في الهيأة و الكيفية. و الضمير للزرع و الباقي مقيس عليه، إذ النخل و الزرع داخل في حكمه لأنه معطوف عليه. أو للجميع، على تقدير أكل ذلك، أو كل واحد منهما.

... وفي تفسير العياشي: عن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السلام، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنه كان يكره أن يصرم النخل بالليل و أن يحصد الزرع بالليل. لأن الله يقول: «وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ»، انتهى.

و في الميزان: و المعنى: أنشأ ثمانية أزواج من الضأن زوجين اثنين هما الذكر و الأنثى و من المعز زوجين اثنين كالضأن قل آلذكرين من الضأن و المعز «حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ» منهما أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن و المعز نبئوني ذلك بعلم «إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ»، إلى أن قال: قوله تعالى: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ

وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا» إلى آخر الآية. هذا شق من ترديد حذف شقه الآخر على ما يدلّ عليه الكلام، و تقديره: أعلمتم ذلك من طريق الفكر كعقل أو سمع أم شاهدتم تحريم الله ذلك و شافهتموه فادعيتم ذلك، انتهى.

قال العلامة الشعراني ـ بعد قوله تعالى: «ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ» ـ : المحلل من حيوان البرّ منحصر في ما ذكر في هذه الآية بهذا المعنى، أعني: الأنعام الثلاثة بأقسامها و الوحشي مما يوجد له وحشي و يلحق بها بأخبارنا الفرس و البغل و الحمار و من حيوان البحر يحلّ السمك فقط، انتهى.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: ثمّ أخذ في بيان المحرمات، و قوله: «فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ» إيذان بأن التحريم إنّما يثبت بوحي من الله لابما تهواه النفوس، «مُحَرَّمًا» أي: طعاما محرما من المطاعم التي حرمتموها، «إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً» أي: إلا أن يكون الشيء المحرم ميتة، «أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا» مصبوبا سائلا كالدم في العروق لاكالكبد أو المختلط باللحم لايمكن تخليصه منه، «أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ» أي: نجس، «أَوْ فِسْقًا» عطف على المنصوب قبله، و صفة له، «فَمَنِ ٱضْطُرَّ» فمن دعته

الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات «غَيْرَ بَاغٍ» على مضطر مثله «وَلَا عَادٍ» أي: متجاوز قدر حاجته من تناوله، انتهى.

ثمّ إنّ الحصر في قوله تعالى: «قُل لَّآ أَجِدُ» الآية، ليس حصراً حقيقياً لوجود غير المذكورات من المحرمات.

قال العلامة الشعراني: و الأظهر أنه حصر إضافي بالنسبة إلى ما توهموا حرمته مما ذكر سابقا و اعتيد أكله في متعارف الناس نظير ما زيد الأشاعر دفعا لتوهم من يدعي أنه كاتب و شاعر و العادة لما كانت جارية بأكل الميتة و لحم الخنزير و الاحتراز من البحيرة و السائبة وردت الآية بتحليل هذا و تحريم ذاك و بالجملة هي ساكتة عن غير المعتاد أو منسوخة أو مخصصة، انتهى.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: ذو الظفر كلّ ماله إصبع من دابة أو طائر، «وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ» هو كقولك: «من زيد أخذت ماله» تريد بالإضافة زيادة الربط، و المعنى: أنه حرّم عليهم لحم كلّ ذي ظفر و شحمه و كلّ شيء منه و لم يحرم عليهم من البقر و الغنم إلّا الشحوم الخاصة و هي الثروب و شحوم

الكلي و قوله: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ» معناه إلا ما اشتمل على الظهور و الجنوب، «أَوِ الْحَوَايَآ» أو ما اشتمل على الأمعاء «أَوِ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» و هو شحم الإلية «ذَٰلِكَ» الجزاء «جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ» بسبب ظلمهم، «وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ» فيما أوعدنا به العصاة و في الإخبار عن بغيهم، «فَإِن كَذَّبُوكَ» فيما تقول «فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ» لايعجل بالعقوبة و لايدفع عذابه إذا جاء وقته، انتهى.

و في كنز الدقائق: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ»: إلا ما علقت بظهورهما. «أَوِ الْحَوَايَآ»: أو ما اشتمل على الأمعاء.

... و في تفسير العياشي: عن [محمّد] الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: حرّم على بني إسرائيل كلّ ذي ظفر و الشحوم إلا ما حملت ظهورهما، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم. و في تفسير على بن إبراهيم، بإسناده إلى أبي عبدالله عليه السلام في قوله ـ عزّوجلّ ـ : «فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا» يعني: لحوم «ٱلْإِبِلِ» و «ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ» الحديث، انتهى.

و في الميزان: و الآية كأنها في مقام الاستدراك و دفع الدخل ببيان أن ما حرّم الله على بني إسرائيل من طيبات ما رزقهم إنّما حرّمه جزاء لبغيهم فلاينافي ذلك كونه حلا بحسب طبعه الاُولى كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾[1].

إلى أن قال: قوله تعالى: «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ» إلى آخر الآية، معنى الآية ظاهر، و فيها أمر بإنذارهم و تهديدهم إن كذبوا بالبأس الإلهي

---

١. آل عمران: ٩٣.

الذي لامرد له لكن لابيان يسلط عليهم اليأس و القنوط، بل بما يشوبه بعض الرجاء، و لذلك قدم عليه قوله: «رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ»، انتهى.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: هذا إخبار بما سوف يقولونه، ثمّ لمّا قالوه قال: «لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم» زعموا أن شركهم و شرك آبائهم و تحريمهم ما حرموه بمشيئة الله ـ تعالى ـ وإرادته و لولا أنه شاء ذلك لم يكن شيء منه و هذا مذهب المجبرة بعينه، «كَذَٰلِكَ» جاء «ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» بالتكذيب المطلق لأن الله ـ سبحانه ـ ركب في العقول ما دل على علمه بالقبائح و بغناه عنها و براءته عن مشيئة القبائح و إرادتها، و أخبر أنبيائه بذلك، فمن علق وجود الكفر بمشيئته فقد كذب التكذيب كلّه و هو تكذيب الله و كتبه و رسوله، و نبذ أدلة العقل و السمع وراء ظهره، «كَذَٰلِكَ» أي: مثل ذلك التكذيب الذي صدر من هؤلاء «كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا» حتّى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم، «قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ» من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم «فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ» و هذا من التهكم و الشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة «إِن تَتَّبِعُونَ» أي: ما تتبعون في قولكم هذا «إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ» تقدرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون.

... «قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ» عليكم على قود مذهبكم فإنه يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم ـ أيضا ـ بمشيئة الله، «فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ» منكم و من مخالفيكم في الدين فينبغي أن توالوهم و لاتعادوهم لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه و ما هم عليه، «هَلُمَّ» يستوي فيه الواحد و الجمع و المذكر و المؤنث، إلى أن قال: و المعنى: هاتوا «شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ» بصحة ما تدعونه من «أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ» أي: لاتسلم لهم ما شهدوا به و لاتصدقهم لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد مثل شهادتهم و كان واحدا منهم، انتهى.

و في الميزان: و بعبارة اُخرى: يتفرّع على حجتكم أن الحجة لله عليكم لأنه لو شاء لأجبر على الإيمان فهداكم أجمعين، و لم يفعل، بل جعلكم مختارين يجوز بذلك دعوتكم إلى ما دعاكم إليه.

و قد بيّن تعالى في طائفة من الآيات السابقة أنه تعالى لم يضطر عباده على الإيمان و لم يشأ منهم ذلك بالمشية التكوينية حتّى يكونوا مجبرين عليه، بل أذن لهم في خلافه و هذا الإذن الذي هو رفع المانع التكويني هو اختيار العباد و قدرتهم على جانبي الفعل و الترك، و هذا الإذن لاينافي الأمر التشريعي بترك الشرك مثلا، بل هو الأساس الذي يبتني عليه الأمر و النهي، انتهى.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

و في جوامع الجامع: «مَا حَرَّمَ» منصوب بـ«أَتْلُ» بمعنى: أتل الذي حرمه ربكم، أو بـ«حَرَّمَ» بمعنى أتل أي شيء حرّم ربكم لأن التلاوة من القول و «أَن» في «أَلَّا تُشْرِكُواْ» مفسرة و «لَا» للنهي و إن جعلت «أَن» الناصبة للفعل كان «أَلَّا تُشْرِكُواْ» بدلا من «مَا حَرَّمَ» إلّا أن القول الأول أوجه ليكون «لاتُشْرِكُواْ» و «وَلَا تَقْرَبُواْ» و «وَلَا تَقْتُلُوٓاْ» و «لَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ» نواهي و تنعطف الأوامر عليها و هي قوله: «وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا»... و «أَوْفُواْ» و «إِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ» و يجوز أن تقف على قوله: «حَرَّمَ رَبُّكُمْ» ثمّ تبتدئ فتقول: «عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ» أي: عليكم ترك الإشراك على أن يكون «أَن» الناصبة للفعل «وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ» أي: من أجل إملاق وخشيته، و هو الفقر و «ٱلْفَوَٰحِشَ» المعاصي و القبائح.

«مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» مثل قوله: «وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ» و عن الباقر عليه السلام «مَا ظَهَرَ» هو الزنا «وَمَا بَطَنَ» هو المخالة، و أعاد ذكر النهي عن القتل و إن كان داخلا في الفواحش تعظيما لأمره، «إِلَّا بِٱلْحَقِّ» كالقصاص و القتل على الردّة و الرجم، و «ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ» هي النفس المسلم و المعاهد، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» أي: أحسنوا بالوالدين إحسانا، و في المجمع: أي: و أوصى بالوالدين إحسانا، و يدلّ على ذلك أن في «حرم كذا» معنى أوصى بتحريمه و أمر بتجنبه. و قد عدّ في مواضع من القرآن الكريم إحسان الوالدين تاليا للتوحيد و نفي الشرك فأمر به بعد الأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك به كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1]، إلى أن قال: و غير ذلك من الآيات. و يدلّ ذلك على أن عقوق الوالدين من أعظم

---

١. الاسراء: ٢٣.

الذنوب أو هو أعظمها بعد الشرك بالله العظيم، و الاعتبار يهدي إلى ذلك فإن المجتمع الإنسانى الذي لايتم للإنسان دونه حياة و لا دين هو أمر وضعي اعتباري لايحفظه في حدوثه و بقائه إلّا حب النسل الذي يتكئ على ربطة الرحمة المتكونة في البيت القائمة بالوالدين من جانب و بالأولاد من جانب آخر، و الأولاد إنّما يحتاجون إلى رحمتهما و إحسانهما في زمان تتوق أنفسهما إلى نحو الأولاد بحسب الطبع، و كفى به داعيا و محرضا لهما إلى الإحسان إليهم بخلاف حاجتهم إلى رأفة الأولاد و رحمتهم فإنها بالطبع يصادف كبرهما و يوم عجزهما عن الاستقلال بالقيام بواجب حياتهما و شباب الأولاد وقوتهم على ما يعنيهم.

و جفاء الأولاد للوالدين و عقوقهم لهما يوم حاجتهما إليهم و رجائهما منهم و انتشار ذلك بين النوع يؤدي بالمقابلة إلى بطلان عاطفة التوليد و التربية، و يدعو ذلك من جهة إلى ترك التناسل و انقطاع النسل، و من جهة إلى كراهية تأسيس البيت و التكاهل في تشكيل المجتمع الصغير، و الاستنكاف عن حفظ سمة الأُبوة و الأُمومة و ينجرّ إلى تكون طبقة من الذرية الإنسانية لاقرابة بينهم و لا أثر من رابطة الرحم فيهم، و يتلاشى عندئذ أجزاء المجتمع، و يتشتت شملهم، و يتفرق جمعهم، و يفسد أمرهم فسادا لايصلحه قانون جار و لاسنة دائرة، و يرتحل عنهم سعادة الدنيا و الآخرة، انتهى.

و لايذهب عليك أن قوله عزّوجلّ: «قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» يشعر أو يدلّ على أن الأحكام الشرعية لزم أن تنتهي إلى الشرع الأنور و لاطريق

إليها إلا المعصومون عليهم السلام فلا اعتبار بما كان المستند فيه هو القياس أو الظن المطلق من دون اعتبار بالعلم.

و في كنز الدقائق: و في أمالي شيخ الطائفة رحمه الله بإسناده إلى مسعدة بن صدقة قال: سمعت جعفر بن محمد عليهما السلام و قد سئل عن قول الله عزّوجلّ: «فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ» فقال: إن الله ـ تعالى ـ يقول للعبد يوم القيامة: عبدي، أكنت عالما؟ فإن قال: نعم. قال له: أفلا عملت بما علمت؟

و إن قال: كنت جاهلا. قال له: أفلا تعلمت حتّى تعمل؟ فيخصمه. فتلك الحجة البالغة.

و في أُصول الكافي: عن هاشم بن الحكم قال: قال لي أبوالحسن موسى بن جعفر عليه السلام يا هشام، إن الله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، و حجة باطنة. فأما الظاهرة، فالرسل و الأنبياء و الأئمة عليهم السلام و أما الباطنة، فالعقول، انتهى.

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

و في جوامع الجامع: المراد بالقرب التصرف فيه، «إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم، و هي حفظه و تثميره، و المعنى:

احفظوه عليه «حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ» و هو بلوغ الحلم و كمال العقل، ثمّ ادفعوه إليه «بِٱلْقِسْطِ» بالتسوية و العدل، «لَانُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» و هو ما يسعها و لاتعجز عنه، و إنّما أتبع الأمر بإيفاء الكيل و الوزن ذلك، لأن مراعاة التعديل فيهما على حدّ الذي لازيادة و لانقصان ممّا يتعذر فأمر ببلوغ الوسع و أن ما ورائه معفو عنه.

«وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟» أي: فقولوا الحق «وَلَوْ كَانَ» المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها «ذَا قُرْبَىٰ» من القائل أي: من أهل قرابته.

«وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا» قرئ بالفتح ... و هذا على قياس قول سيبويه في نحو قوله: «و أن المساجد لله فلاتدعوا».

«لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ»... «فليعبدوا» فيكون على هذا قوله: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا» علة للاتباع و قرئ:«وَ أَنَّ هَٰذَا » بالتخفيف على و أنه هذا صراطي على أن الهاء ضمير الشأن و قرئ: «وَإِنَّ» بالكسر فيكون كأنه قيل: «و اتبعوا صراطي إنه مستقيم» «وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ» الطرق المختلفة في الدين من اليهودية و النصرانية و المجوسية و سائر البدع و الشبهات «فَتَفَرَّقَ بِكُمْ» أصله تتفرق أي: فتفرقكم أيادي سبأ «عَن سَبِيلِهِۦ» عن صراط الله المستقيم و هو دين الإسلام و قرئ: «فَتَّفَرَّقَ» بإدغام التاء في التاء.

و روي أن النبي ﷺ خط خطاً ثمّ قال: «هذا سبيل الرشد» ثمّ خط عن يمينه و عن شماله خطوطا، ثمّ قال: «هذه سبل على كلّ سبيل منها شيطان يدعوا إليه» ثمّ تلاهذه الآية: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا» و عن ابن عباس: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ» النهي عن القرب للدلالة على التعميم فلايحل أكل ماله و لااستعماله و لا أي تصرف فيه إلّا بالطريقة التي هي أحسن الطرق المتصورة لحفظه، و يمتد هذا النهي و تدوم الحرمة إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده لم يكن يتيماً قاصراً عن إدارة ماله و كان هو المتصرف في مال نفسه من غير حاجة بالطبع إلى تدبير الولي لماله. و من هنا يظهر: أن المراد ببلوغه أشده هو البلوغ و الرشد كما يدلّ عليه أيضا قوله: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾[1].

... قوله تعالى: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» ذكر ذي القربى و هو الذي تدعو عاطفة القرابة و الرحم إلى حفظ جانبه و صيانته من وقوع الشرّ و الضرر في نفسه و ماله يدلّ على أن المراد بـ «القول» هو القول الذى يمكن أن يترتب عليه انتفاع الغير أو تضرره، إلى أن قال: فالمعنى: و راقبوا أقوالكم التي فيها نفع أو ضرر للناس و اعدلوا فيها، و لايحملنّكم رحمة أو رأفة أو أيّ عاطفة على أن تراعوا جانب أحد فتحرفوا الكلام و تجاوزوا الحق و فتشهدوا أو تقضوا بما فيه رعاية لجانب من تحبونه و إبطال حق من تكرهونه.

قال في المجمع: و هذا من الأوامر البليغة التي يدخل فيها مع قلة حروفها الأقارير و الشهادات، و الوصايا و الفتاوى، و القضايا، و الأحكام، و المذاهب، و الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر.

---

١. النساء: ٦.

قوله تعالى: «وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ»، إلى أن قال: المراد بقوله: «وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ» التكاليف الدينية الإلهية، إلى أن قال: قوله تعالى: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ» إلى آخر الآية.

قرئ: «وَأَنَّ» بفتح الهمزة و تشديد النون و تخفيفها و كأنّه بالعطف على موضع قوله: «أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا» و قرئ بكسر الهمزة على الاستئناف.

و الذي يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآية أحد الوصايا التي أمر النبي ﷺ أن يتلوها عليهم و يخبرهم بها حيث قيل: «قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ»، و لازم ذلك أن يكون قوله: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ» مسوقا لالتعلق الغرض به بنفسه لأن كليات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه، بل ليكون توطئة و تمهيداً لقوله بعده: «وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ» كما أن هذه الجملة بعينها كالتوطئة لقوله: «فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ»، إلى أن قال: فالمعنى: و مما حرم ربكم عليكم و وصاكم به أن لاتتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لايقبل التخلف و الاختلاف و هي غير سبيل الله فإن اتباع السبل دونه يفرقكم عن سبيله فتختلفون فيه فتخرجون من الصراط المستقيم إذ و الصراط المستقيم لااختلاف بين أجزائه و لابين سالكيه.

و مقتضى ظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: «صِرَٰطِى» صراط النبي ﷺ فإنه هو الذين يخاطب الناس بهذه التكاليف عن أمر من ربّه إذ يقول:«قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ»، إلخ، فهو المتكلّم معهم المخاطب لهم، إلى أن قال: و كيف كان فهو تعالى في الآية يسمي ما ذكره من كليات الدين بأنه صراطه المستقيم الذي

لاتخلف في هداية سالكيه و إيصالهم إلى المقصد و لااختلاف بين أجزائه و لا بين سالكيه ماداموا عليه فلايتفرقون البتة.

... و بالجملة التقوى الديني لايحصل بالتفرق و الاختلاف، و الورود في أي مشرعة شرعت، و السلوك من أي واد لاح لسالكه، بل بالالتزام الصراط المستقيم الذي لاتخلف فيه و لااختلاف فذلك هو الذي يرجى معه التلبس بلباس التقوى، و لذلك عقب الله سبحانه قوله: «وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ» بقوله: «ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»، انتهى.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: عطف «ثمّ ءَاتَيْنَا» على «وَصَّىٰكُم بِهِۦ» و المعنى: «ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ» يا بني آدم قديما و حديثا «ثمّ» إنا «ءَاتَيْنَا» «مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ»، إلى أن قال: «تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ» أي: تماما للكرامة و النعمة على من كان محسنا صالحا يريد به جنس المحسنين، أو أراد به موسى عليه السلام أي: تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ و في كلّ ما اُمر به، أو «تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ» موسى من العلم و الشرائع، من أحسن الشيء: إذا أجاد معرفته أي: زيادة على علمه على وجه التتميم، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ» ... لما كان ما ذكره و وصى به من كليات الشرائع تكاليف مشرعة عامة على لجميع ما أُوتي الأنبياء من الدين، و هي أُمور كلية مجملة صحح ذلك الالتفات إلى بيان أنه تعالى بعد ما شرعها للجميع إجمالا فصلها حيث اقتضت تفصيلها لموسى عليه السلام أولًا فيما أُنزل عليه من الكتاب، و للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثانيا فيما أنزله عليه من كتاب مبارك فقال تعالى: «ثمّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ»، إلخ. فمعنى الآية: أنا بعد ما شرعنا من إجمال الشرائع الدينية آتينا موسى الكتاب تماما تتم به نقيصه من أحسن منهم من حيث الشرع الإجمالي و تفصيلا يفصل به كلّ شيء من فروع هذه الشرائع الإجمالية مما يحتاج إليه بنوإسرائيل و هدى و رحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون.

إلى أن قال: و قد ذكروا في معنى الجملة ... «تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ» وجوها أُخرى، و ضعف الجميع ظاهر. و قوله: «تَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ» أي: مما يحتاج إليه بنو إسرائيل أو ينتفع به غيرهم ممن بعدهم، و هدى يهتدي به و رحمة ينعمون بها. و قوله: «لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ»، فيه إشارة إلى أن بنى إسرائيل كانوا يتثاقلون أو يستنكفون عن الإيمان بلقاء ربهم و اليوم الآخر، انتهى.

و في كنز الدقائق: «بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» أي: بلقاء الجزاء، انتهى.

و يمكن أن يراد من اللقاء هو القرب بحدّ يصدق اللقاء.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أَن تَقُولُوٓاْ» كراهة أن تقولوا: «إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ» يريدون اليهود و النصارى، «وَإِن كُنَّا» هي المخففة من المثقلة و اللام هي الفارقة بينها و بين النافية أي: و إنه كنّا «عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ» و الهاء ضمير الشأن و الدراسة: القراءة، أي: لم نعرف مثل دراستهم، إلى أن قال: «وَصَدَفَ عَنْهَا» الناس فضلّ و أضلّ و أعرض أو صدّ.

«أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ» في المبادرة إلى قبوله التمسك به لجودة أذهاننا و ثقابة أفهامنا، فإنّ العرب كانوا يدلون بحدة الذهن و ذكاء الحدس و حفظ أيامهم وقائعهم و خطبهم و أشعارهم، «فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» تبكيت لهم، و هو على قراءة من قرأ: «يقولوا» بالياء على لفظ الغيبة أحسن لما فيه من الالتفات، و المعنى: إن صدقتم فيما كنتم تعدونه من أنفسكم «فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» فحذف الشرط.

«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ» بعد ما عرف صحتها و صدقها أو تمكن من معرفة ذلك «وَصَدَفَ عَنْهَا» الناس فضل و أضلّ، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَهَٰذَا كِتَٰبٌ» يعني: القرآن. «أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ»: كثير النفع. «فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»: بواسطة اتباعه. و هو العمل بما فيه. «أَن تَقُولُوٓاْ»: كراهة أن تقولوا علة «لأنزلناه»، إلى أن قال: «لَغَٰفِلِينَ»: لاندري ما هي أو لانعرف مثلها، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ» إلى آخر الآية، أي: و هذا كتاب مبارك يشارك كتاب موسى فيما ذكرناه من الخصيصة فاتبعوه، إلى أن قال: «أَوْ تَقُولُواْ» معناه كراهة أن تقولوا، أو لئلا تقولوا، و هو شائع في الكلام، و هو متعلق بقوله: في الآية السابقة: «أَنزَلْنَٰهُ» و قوله: «طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا» يراد به اليهود و النصارى أُنزل عليهما التوراة و الإنجيل، و أما كتب الأنبياء النازلة قبلهما مما يذكره القرآن مثل كتاب نوح و كتاب إبراهيم عليه السلام، فلم يكن فيها تفصيل الشرائع و إن اشتملت على أصلها، و أما سائر ما ينسب إلى الأنبياء عليهم السلام، من الكتب كزبور داود عليه السلام و غيره فلم تكن فيها شرائع و لالهم بها عهد.

و المعنى: أنا أنزلنا القرآن كراهة أن تقولوا: إن الكتاب الإلهي المفصل لشرائعه إنّما أنزل على طائفتين من قبلنا هم اليهود و النصارى و إنا كنا غافلين عن دراستهم و تلاوتهم، و لابأس علينا مع الغفلة.

قوله تعالى: «أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ..». أي: من الذين أُنزل إليهم الكتاب قبلنا، و قوله: «فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» تفريع لقوليه: «أَن تَقُولُواْ» «أَوْ تَقُولُواْ» جميعا، و قد بدل الكتاب من البينة ليدل به على ظهور حجته و وضوح دلالته بحيث لايبقى عذر لمعتذر، انتهى.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: أي: ما ينتظر هؤلاء «إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ» ملائكة الموت أو العذاب، «أَوْ يَأْتِىَ» «رَبُّكَ» أي: كلّ آيات ربك بدلالة قوله: «أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ» يريد آيات القيامة و الهلاك الكلي، و بعض الآيات: أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها و غيرذلك.

«يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ» التي يزول التكليف عندها «لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ» أي: لاينفع الإيمان حينئذٍ نفسا غير مقدمة إيمانها «مِن قَبْلُ» ظهور الآيات، و لاينفع الكسب للخيرات في الإيمان حينئذ نفسا غير كاسبة لها «فِىٓ إِيمَٰنِهَا» من قبل ظهورها، و في هذا دلالة على أن كسب الخير الذي هو عمل الجوارح غير الإيمان الذي هو عمل القلب، ألا ترى أنه عطف هذا على ذاك و الشيء لايعطف على نفسه و إنّما يعطف على غيره، «قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ» وعيد و تهديد، انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: «فَرَّقُواْ دِينَهُمْ» بأن جعلوه أديانا «وَكَانُواْ شِيَعًا» أي: أحزابا و فرقا يكفر بعضهم بعضها كلّ فرقة تشيع إماما لها، و في الحديث: افترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلا واحدة و هي الناجية، و افترقت النصارى على اثنتين و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلا واحدة و هي الناجية، و تفترق اُمتي على ثلاث و سبعين فرقة كلّها في الهاوية إلا واحدة، و قرئ: فارقوا دينهم أي: تركوه، «لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» أي: من السؤال عنهم و عن تفرقهم، و قيل: معناه أنك على المباعدة التامة من الاجتماع معهم في شيء من مذاهبهم الفاسدة «إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ» و الحكم بينهم في اختلافهم «إِلَى ٱللَّهِ» «فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» اُقيمت الصفة مقام الموصوف تقديره عشر حسنات أمثالها و قرئ: عشر أمثالُها برفعهما جميعا على الوصف، و هذا أقل ما وعد من الأضعاف، فقد وعد بالواحد سبعمأة، و وعد أضعافا مضاعفة بغير حساب، و مضاعفة الحسنات فضل و مكافأة السيئات عدل، «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» لاينقص من ثوابهم و لايزاد على عقابهم، انتهى.

و في كنز الدقائق: «لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» قيل: أي: [في شيء] من السؤال عنهم و عن تفرقهم. أو من عقابهم. أو أنت بريء منهم. و قيل: معناه: أنك على المباعدة التامة من الاجتماع معهم في شيء من مذاهبهم الفاسدة. و الحمل على العموم، أولى، إلى أن قال: و في الكافي: عن أبي جعفر عليه السلام قال: من نوى الصوم ثمّ دخل على أخيه، فسأله أن يفطر عنده، فليفطر و ليدخل عليه السرور. فإنه يحسب له بذلك اليوم عشرة أيام و هو قول الله تعالى: «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ

أَمْثَالِهَا»، إلى أن قال: و في كتاب التوحيد، بإسناده إلى زيد بن علي عليه السلام قال: سألت أبي سيّد العابدين عليه السلام فقلت: يا أبة، أخبرني عن جدّنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما عرج به إلى السماء و أمره ربه - عزّوجلّ - بخمسين صلاة، كيف لم يسأله التخفيف عن اُمته حتّى قال له موسى بن عمران: ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف، فإن اُمتك لاتطيق ذلك؟

فقال: يا بني، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [كان] لايقترح على ربه - عزّوجلّ - و لايراجعه في شيء يأمره به. فلما سأله موسى عليه السلام ذلك و صار شفيعا لاُمته إليه، لم يجز له ردّ شفاعة أخيه موسى عليه السلام فرجع إلى ربّه فسأله التخفيف إلى أن ردّها إلى خمس صلوات، الحديث، انتهى.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

وفي جوامع الجامع: «دِينًا» بدل من موضع قوله: «إِلَىٰ صِرَٰطٍ» فإن المعنى هداني صراطا، و القيم فيعل من «قام» كالسيد و الهين، و قرئ: «قِيَمًا» و هو مصدر بمعنى القيام وصف به، «مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ» عطف بيان و «حَنِيفًا» حال من «إِبْرَٰهِيمَ» أي: هداني و عرفني ملة إبراهيم في حال حنيفيته «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي» أي: عبادتي و تقربي كلّه و قيل: و ذبحي فجمع بين الصلاة و الذبح، و نحوه

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[١]، و قيل: و مناسك حجي «وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ» و ما آتيه في حياتي و أموت عليه من الإيمان و العمل الصالح، «لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» خالصة لوجهه، «وَبِذَٰلِكَ» الإخلاص «أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ» لأنّ إسلام كلّ نبي متقدم لإسلام اُمته[٢]، انتهى.

و في كنز الدقائق: و في أمالي شيخ الطائفة بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل. فيه يقول لعلّي عليه السلام: من أحبك لدينك و أخذ بسبيلك، فهو ممن هدي إلى صراط مستقيم، إلى أن قال: و في تفسير العياشي: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل. يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم و قد ذكر إبراهيم عليه السلام: دينه ديني و ديني دينه، و سنته سنتي و سنتي سنته، و فضلي فضله و أنا أفضل منه، انتهى[٣].

و في كنز الدقائق «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي»: عبادتي كلّها، أو قرباني، أو حجي «وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي»: و ما أنا عليه في حياتي و أموت عليه من الإيمان و الطاعة. أو طاعات الحياة و خيرات الممات، كالوصية و التدبير أو الحياة و الممات أنفسهما.

إلى أن قال: «لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ»: خالصة.

... «وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ» قيل: لأنّ إسلام كلّ نبي متقدم على إسلام اُمته. و قيل: بل لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أول من أجاب في الميثاق في عالم الذر، كما ورد عنهم عليهم السلام فإسلامه متقدم على إسلام الخلائق كلّهم، انتهى.

---

١. الكوثر: ٢.

٢. النساء: ٦.

٣. النساء: ٦.

و في الميزان: قوله تعالى: «قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» إلى آخر الآيتين. القيم بالكسر فالفتح مخفف القيام وصف به الدين للمبالغة في قيامه على مصالح العباد.

و قيل: وصف بمعنى القيم على الأمر. يأمر الله سبحانه أن يخبرهم بأن ربه الذي يدعو إليه هداه بهداية إلهية إلى صراط مستقيم و سبيل واضح قيّم على سالكيه لاتخلف فيه و لااختلاف دينا قائما على مصالح الدنيا و الآخرة أحسن القيام لكونه مبنيا على الفطرة ملة إبراهيم حنيفا مائلا عن التطرف بالشرك إلى اعتدال التوحيد و ما كان من المشركين.

... قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ» - إلى قوله - «أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ» النسك مطلق العبادة، و كثر استعماله في الذبح أو الذبيحة تقربا إلى الله سبحانه.

أمره ﷺ ثانيا أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه إليه متلبس به كما أنه مأمور بذلك ليكون أبعد من التهمة عندهم و أقرب إلى تلقيهم بالقبول فإن من أمارة الصدق أن يعمل الإنسان بما يندب إليه، و يطابق فعله قوله. فقال: قل: إنني جعلت صلاتي و مطلق عبادتي و اختصت الصلاة بالذكر استقلالا لمزيد العناية بها منه تعالى و محياي بجميع ماله من الشؤون الراجعة إلي من أعمال و أوصاف و أفعال و تروك، و مماتي بجميع ما يعود إلي من أموره و هي الجهات التي ترجع منه إلى الحياة كما قال: كما تعيشون تموتون جعلتها كلّها لله رب العالمين من غير أن أشرك به فيها أحدا فأنا عبد في جميع شؤوني في حياتي و مماتي لله وحده

وجهت وجهي إليه لاأقصد شيئا و لا أتركه إلا له و لا أسير في مسير حياتي و لا أردمماتي إلا له فإنه رب العالمين، يملك الكلّ و يدبر أمرهم.

و قد أمرت بهذا النحو من العبودية، و أنا أول المسلمين لله فيما أراده من العبودية التامة في كلّ باب وجهة.

و من هنا يظهر: أن المراد بقوله: «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ» إظهار الإخلاص العبودي أو إنشاؤه فيما يرجع إليه من شؤون العبادة و الحياة و الموت دون الإخبار عن الإخلاص في العبادة و الاعتقاد بأن مالك الموت و الحياة هو الله تعالى، و الدليل على ما ذكرنا قوله: «وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ» فالظاهر أنه أمر بجعل الجميع لله سبحانه بمعنى واحد لابجعل الأولين له إخلاصا و تسليما و الاعتقاد بأن الأخيرين له إلّا بتكلّف، انتهى.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: هذا جواب عن دعائهم إياه إلى عبادة آلهتهم، و الهمزة للإنكار أي: منكر أن «أَبْغِي رَبًّا» غيره و هو رب كلّ شيء فكلّ من دونه مربوب

ليس في الوجود من له الربوبية غيره، و نحوه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾[١]، «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا» جواب عن قولهم:﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾[٢]، «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» معناه: لاتؤخذ نفس آثمة بإثم نفس أُخرى.

«جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ» يخلف أهل كلّ عصر أهل العصر الذي قبله، كلّما مضى قرن خلفهم قرن، يجري ذلك عن انتظام و اتساق إلى يوم القيامة.

... «وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» في الشرف و الرزق، و قيل: في الصورة و العقل و المال و العمر، «لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ» كيف تشكرون نعمه؟ و كيف يصنع الشريف بالوضيع و الغني بالفقير؟

«إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ» بمن كفر نعمته، «وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » لمن قام بشكرها، و وصف العقاب بالسرعة لأنّ كلّ ما هو آت قريب، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ»، إلخ، هذه الآية و التي بعدها تشتملان على حجج ثلاث هي جوامع الحجج المذكورة في السورة للتوحيد، و هي الحجة من طريق بدء الخلقة، و الحجة من طريق عودها، و الحجة من حال الإنسان و هو بينهما و بعبارة أُخرى: الحجة من نشأة الحياة الدنيا و النشأة التي قبلها و التي بعدها.

---

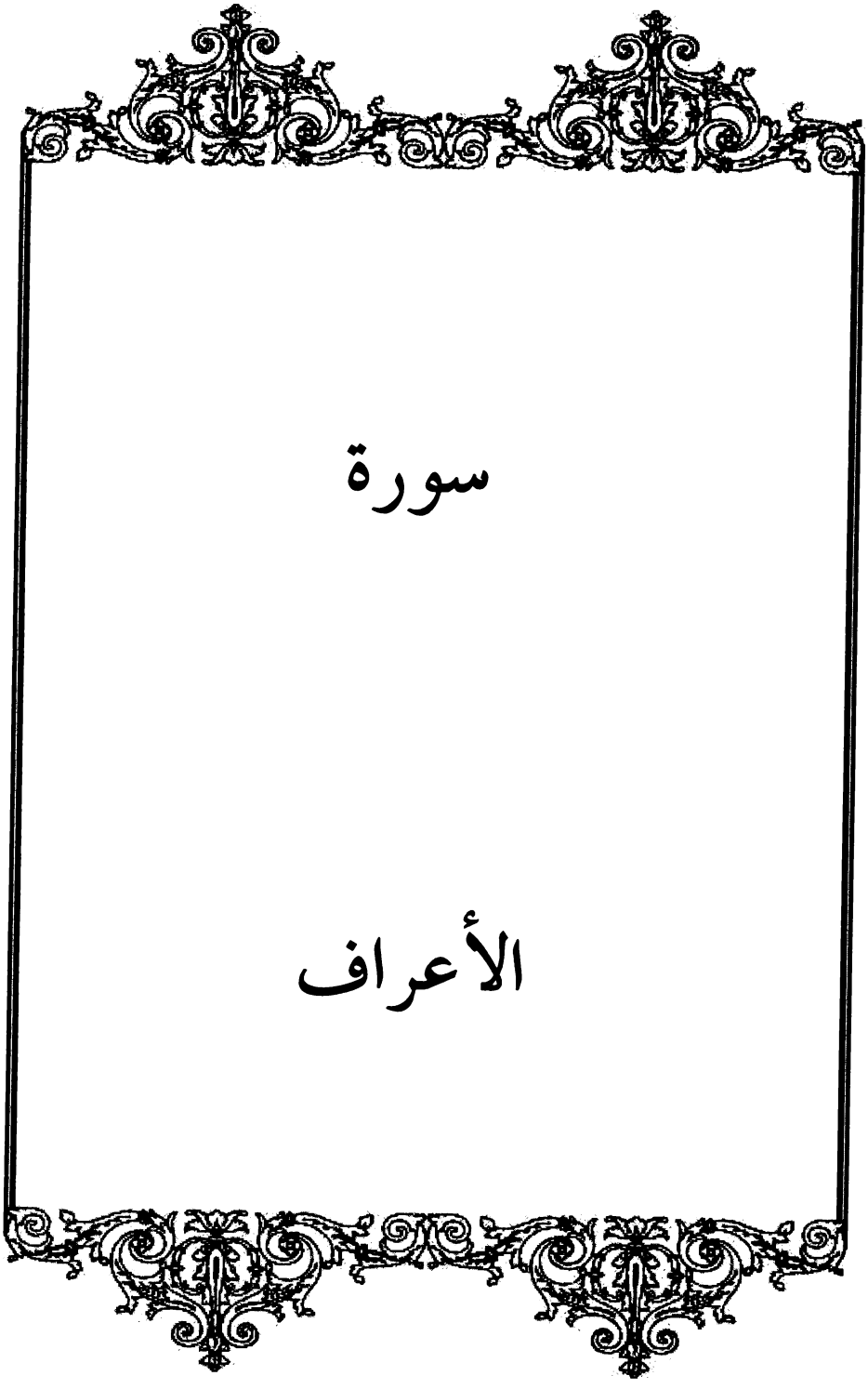
١. الزمر: ٦٤.

٢. العنكبوت: ١٢.

فالحجة من طريق البدء ما في قوله: «أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ» و من المعلوم: أنّه إذا كان رب كلّ شيء كان كلّ شيء مربوبا له فلارب غيره على الإطلاق يصلح أن يعبد.

و الحجة من طريق العود ما يشتمل عليه قوله: «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا» إلى آخر الآية، أي: أنّ كلّ نفس لاتعمل عملا و لاتكسب شيئا إلا حمل عليها «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ»حتى يحمل ما اكتسبته نفس على غيرها ثمّ المرجع إلى الله و إليه الجزاء بالكشف عن حقائق أعمال العباد، و إذا كان لامحيص عن الجزاء و هو المالك ليوم الدين فهو الذي تتعين عبادته لاغيره ممن لايملك شيئا.

و الحجة من طريق النشأة الدنيا ما في قوله: «وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ»، إلخ، و محصله: أن هذا النظام العجيب الذي يحكم في معاشكم في الحياة الدنيا و هو مبني على خلافتكم في الأرض و اختلاف شؤونكم بالكبر و الصغر و القوة و الضعف و الذكورية و الأُنوثية و الغني و الفقر و الرئاسة و المرءوسية و العلم و الجهل و غيرها و إن كان نظاما اعتباريا لكنه ناش من عمل التكوين منته إليه فالله سبحانه هو ناظمه، و إنّما فعل ذلك لامتحانكم و ابتلائكم فهو الرب الذي يدبر أمر سعادتكم، و يوصل من أطاعه إلى سعادته المقدرة له و يذر الظالمين فيها جثياً، فهو الذي يحق عبادته، انتهى.



سورة

الأعراف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

في جوامع الجامع: «أي: هو «كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ» بأمر الله «فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ» أي: من تبليغه؛ و الحرج: الضيق، لأنّه عليه السلام كان يخاف تكذيب قومه له و إعراضهم عن قبول قوله: و أذاهم له، فكان يضيق صدره من الأذاء و لا ينبسط له، فأمّنه الله و أمره بترك المبالاة بهم؛ «لِتُنذِرَ بِهِۦ» تعلّق بـ «أُنزِلَ إِلَيۡكَ» أي: اُنزل إليك لإنذارك به؛ «وَذِكۡرَىٰ» يحتمل النصب على معنى لتنذر به و تذكّر تذكيراً فإنّ الذكرى في معنى التذكير؛ و الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو عطف على «كِتَٰبٌ»؛ و الجرّ للعطف على محلّ «لِتُنذِرَ» أي: للإنذار و الذكرى؛ «ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم» من القرآن و الوحي، «وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ» الضمير لما اُنزل أي: و لا تتّبعوا من دون دين الله دين «أَوۡلِيَآءَ»، أو «لِرَبِّكُمۡ» أي: و لا تتّبعوا من دون الله أولياء، أي: و لا تتولّوا من دونه من شياطين الإنس و الجنّ فيحملوكم على الأهواء و البدع و يضلّوكم عن دين الله و عمّا أمركم باتّباعه.

إلى أن قال: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» أي: تتذكّرون فأدغم؛ و قرئ: «تَذَكَّرُونَ» خفيفة الذال بحذف التاء، انتهى.

و في كنز الدقائق: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ»، أي: تذكّراً قليلاً. أو زماناً قليلاً تذكّرون، حيث تتركون دين الله و تتّبعون غيره. و «مَّا» مزيدة لتأكيد القلّة، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «الٓمٓصٓ* كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ» و قوله: «لِتُنذِرَ بِهِۦ» غاية للإنزال متعلقة به كقوله: «وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ» و تخصيص الذكرى بالمؤمنين دليل على أنّ الإنذار يعمهم و غيرهم، فالمعنى: اُنزل إليك الكتاب لتنذر به الناس و هو ذكرى للمؤمنين خاصة لأنّهم يتذكرون بالآيات و المعارف الإلهية المذكورة فيها مقام ربهم فيزيد بذلك إيمانهم و تُقرّ بها أعينهم، و أما عامة الناس فإنّ هذا الكتاب يؤثر فيهم أثر الإنذار بما يشتمل عليه من ذكر سخط الله و عقابه للظالمين في الدار الآخرة، و في الدنيا بعذاب الاستئصال كما تشرحه قصص الاُمم السالفة.

قوله تعالى: «ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» لما ذكر لنبيه ﷺ أنه كتاب اُنزل إليه لغرض الإنذار شرع في الإنذار و رجع من خطابه ﷺ إلى خطابهم فإنّ الإنذار من شأنه أن يكون بمخاطبة المنذرين ـ اسم مفعول ـ و قد حصل الغرض من خطاب النبي ﷺ .

و خاطبهم بالأمر باتباع ما اُنزل إليهم من ربهم، و هو القرآن الآمر لهم بحق الاعتقاد و حق العمل أعني الإيمان بالله و آياته و العمل الصالح الذين يأمر بهما

الله في كتابه و ينهى عن خلافهما، و الجملة أعني قوله: «ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ» موضوعة وضع الكناية كنى بها عن الدخول تحت ولاية الله و الدليل عليه قوله: «وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ» حيث لم يقل في مقام المقابلة: و لا تتّبعوا غير ما اُنزل إليكم.

و المعنى: و لا تتّبعوا غيره ـ و هم كثيرون ـ فيكونوا لكم أولياء من دون الله قليلا ما تذكرون، و لو تذكرتم لدريتم أنّ الله هو ربكم لا رب لكم سواه فليس لكم من دونه أولياء»، انتهى.

و لقائل أن يقول: إنّ قوله: «لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ» يدلان على الغايتين إحداهما لعموم الناس إذ لا يلزم في الغاية الاُولي الإيمان بل يكفي في تحقق الإنذار احتمال الضرر بخلاف ثانيهما فإنّ ذكرى و التذكر فرع الإيمان و الاعتقاد و هو مختص بالمؤمنين كما لا يخفى.

ثم قوله تعالى: «وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ»، يدلّ على اختصاص الأولياء بالله تعالى و من نصبه، فتدبّر جيداً.

و في خلاصة منهج الصادقين: «وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ» و پيروى مكنيد بجز از خدا «أَوۡلِيَآءَ» دوستان، مراد بتانند كه كفار، ايشان را دوست مى‌گرفتند يا شياطين كه خلق را در گمراهي مى‌افكندند، انتهى.

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾

في جوامع الجامع: ««فَجَآءَهَا» أي: فجاء أهلها «بَأْسُنَا» أي: عذابنا؛ «بَيَٰتًا» مصدر وضع موضع الحال أي: بائتين أو قائلين؛ و يجوز أن لا يقدّر حذف المضاف في القرية و يكون الضمير في «أَهْلَكْنَٰهَا» للقرية، لأنّ القرية تهلك كما يهلك أهلها، فلا حاجة بنا إلى الإضمار؛ و قوله: «أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ» لم يحتج فيه إلى الواو لأنّ الضمير العائد قد أغنى عنه و لأنّها إذا عطفت على حال قبلها يحذف الواو استثقالاً لاجتماع حرفي عطف لأنّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل؛ و المعنى و كم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها عذابنا في هذين الوقتين: وقت البيات و وقت القيلولة لأنّهما وقتا الغفلة و الدعة فيكون نزول العذاب فيهما أشدّ؛ «فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ» ما كانوا يدّعون من دينهم إلّا اعترافهم ببطلانه و قولهم: «إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ» فيما كنّا عليه أو فما كان دعاءهم ربّهم إلّا اعترافهم بظلمهم و تحسّرهم على ما كان منهم؛ و «دَعْوَىٰهُمْ» خبر كان، و «أَن قَالُوٓاْ» رفع لأنّه اسمه؛ و يجوز العكس»، انتهى.

و في كنز الدقائق: ««بَيَٰتًا»: بائتين، كقوم لوط؛ مصدر وقع موقع الحال.

«أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ»: عطف عليه، أي: قائلين نصف النهار، كقوم شعيب.

و إنّما حذفت «واو» الحال استثقالا، لاجتماع حرفي عطف. فإنّها «واو» عطف استعيرت للوصل، لا اكتفاء بالضمير فإنّه غير فصيح.

و في التعبيرين مبالغة في غفلتهم و أمنهم عن العذاب، و لذلك خصّ الوقتين.

و لأنّهما وقت دعة و استراحة، فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع»، انتهى.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

و في جوامع الجامع: ««أي: «فَلَنَسْـَٔلَنَّ» المرسل «إِلَيْهِمْ» و هم الأُمم نسألهم عمّا أجابوا به رسلهم «وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ» عمّا أُجيبوا به و عمّا عملت أُممهم فيما جاءوا به، «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم» على الرسل و المرسل إليهم ما كان منهم «بِعِلْمٍ» أي: عالمين بأحوالهم الظاهرة و الباطنة، «وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ» عنهم و عمّا وجد منهم؛ و أمّا المعنى في سؤالهم مع علمه بأحوالهم فالتوبيخ و التقرير عليهم و ازدياد سرور المثابين بالثناء عليهم و غمّ المعاقبين بإظهار قبائحهم؛ «وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ» يعني وزن الأعمال و التمييز بين خفيفها و راجحها؛ و رفعه على الابتداء و «ٱلْحَقُّ» صفته و «يَوْمَئِذٍ» خبر المبتدأ، أي: و الوزن يوم يسأل الله الأُمم و رسلهم الوزن الحقّ أي: العدل؛ و قيل: «توزن صحف الأعمال بميزان له كفّتان تأكيداً للحجّة و إظهاراً للنصفة»؛ «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ» جمع ميزان أو موزون، فمن رجحت أعماله الموزونة التى لها قدر و وزن و هي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم»، انتهى.

و في كنز الدقائق: ««فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ»: عن قبول الرسالة و إجابتهم الرسل.

«وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ»: عن تأدية ما حمّلوا من الرسالة. و المراد من هذا السؤال، توبيخ الكفرة و تقريعهم.

و المنفي في قوله: «وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ» سؤال الاستعلام. أو الأوّل في موقف الحساب، و هذا عند حصولهم على العقوبة».

في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أميرالمؤمنين عليه السلام في حديث: «فيقام الرسل، فيسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى اُممهم. [فيخبرون أنّهم قد أدّوا ذلك إلى اُممهم]. و تسأل الاُمم، فيجحدون، كما قال الله»، انتهى.

و في الميزان: «فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ» دلّ البيان السابق على أنّهم مكلفون بتوحيد الله موظفون برفض الأولياء من دونه غير مخلّين و ما فعلوا، و لا متروكون و ما شاؤوا، فإذا كان كذلك فهم مسؤولون عما اُمروا به من الإيمان و العمل الصالح، و ما كلّفوا به من القول الحق، و الفعل الحق و هذا الأمر و التكليف قائم بطرفين: الرسول الذي جاءهم به و القوم الذين جاءهم، و لهذا فرّع على ما تقدم من حديث إهلاك القرى و أخذ الاعتراف منهم بالظلم. قوله: «فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ».

و قد ظهر بذلك أنّ المراد بالذين اُرسل إليهم الناس و بالمرسلين الأنبياء و الرسل عليهم السلام، (و هو موافق جوامع الجامع) و ما قيل: إنّ المراد بالذين اُرسل إليهم: الأنبياء، و بالمرسلين: الملائكة، لا يلائم السياق، إذ لا وجه لإخراج المشركين عن شمول السؤال و الكلام فيهم.

على أنّ الآية التالية لا تلائم ذلك أيضاً. على أنّ الملائكة لم يدخلوا في البيان السابق بوجه لا بالذات و لا بالتبع.

قوله تعالى: «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ» دل البيان السابق على أنّهم مربوبون مدبرون فسيسألون عن أعمالهم ليجزوا بما عملوا، و هذا إنّما يتم فيما إذا كان السائل على علم من أمر أعمالهم فإنّ المسؤول لا يؤمن أن يكذب لجلب النفع إلى نفسه و دفع الضرر عن نفسه في مثل هذا الموقف الصعب الهائل الذي يهدده بالهلاك الخالد و الخسران المؤبد.

و لذلك فرّع عليه قوله: «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ» إلخ، و قد نكر العلماء للاعتناء بشأنه و أنّه علم لا يخطئ و لا يغلط، و لذلك أكّده بعطف قوله: «وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ» عليه للدلالة على أنّه كان شاهداً غير غائب، و إن وكّل عليهم من الملائكة من يحفظ أعمالهم بالكتابة فإنّه بكل شيء محيط.

قوله: «وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» إلى آخر الآيتين، الآيتان تخبران عن الوزن و هو توزين الأعمال أو الناس العاملين من حيث عملهم، و بالجملة الوزن إنّما هو للعمل دون عامله فالآية تثبت للعمل وزناً سواء كان خيراً أو شراً.

إلى أن قال: «فما لم يحبط من الأعمال الحسنة و السيئة، له وزن يوزن به لكنّ الآيات في عين أنها تعتبر للحسنات و السيئات ثقلاً إنّما تعتبر فيها الثقل الإضافي و ترتب القضاء الفصل عليه بمعنى إنّ ظاهرها أنّ الحسنات توجب ثقل الميزان و السيئات خفة الميزان لا أنّ توزن الحسنات فيؤخذ ما لها من الثقل ثم السيئات و

يؤخذ ما لها من الثقل ثم يقاس الثقلان فأيّهما كان أكثر كان القضاء له فإن كان الثقل للحسنة كان القضاء بالجنة و إن كان للسيئة كان القضاء بالنار، و لازم ذلك صحة فرض أن يتعادل الثقلان كما في الموازين الدائرة بيننا من ذي الكفتين و غيرهما. لا بل ظاهر الآيات أنّ الحسنة تظهر ثقلاً في الميزان و السيئة خفة فيه كما هو ظاهر قوله: « فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ» و نظيره قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[1].

إلى أن قال: «فالآيات ـ كما ترى ـ تثبت الثقل في جانب الحسنات دائماً و الخفة في جانب السيئات دائماً.

و من هنا يتأيد في النظر أنّ هناك أمراً آخر تقاس به الأعمال و الثقل له فما كان منها حسنة انطبق عليه و وزن به و هو ثقل الميزان، و ما كان منها سيئة لم ينطبق عليه و لم يوزن به و هو خفة الميزان كما نشاهده فيما عندنا من الموازين فإنّ فيها مقياساً و هو الواحد من الثقل كالمثقال يوضع في إحدى الكفتين ثم يوضع المتاع في الكفة الأُخرى فإن عادل المثقال وزنا بوجه على ما يدل عليه الميزان أخذ به و إلا فهو الترك لا محالة، و المثقال في الحقيقة هو الميزان الذي يوزن به، و أما القبان و ذو الكفتين و نظائرهما فهي مقدمة لما يبينه المثقال من حال المتاع الموزون به ثقلاً و خفة».

---

١. المؤمنون: ١٠٣ ـ ١٠٢.

إلى أن قال: «ففي الأعمال واحد مقياس توزن به فللصلاة مثلاً ميزان توزن به و هي الصلاة التامة التي هي حق الصلاة، و للزكاة و الإنفاق نظير ذلك، و للكلام و القول حق القول الذي لا يشتمل على باطل، و هكذا كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[1].

فالأقرب إلى هذا البيان أن يكون المراد بقوله: ««وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ» أنّ الوزن الذي يوزن به الأعمال يومئذ إنّما هو الحق فبقدر اشتمال العمل على الحق يكون اعتباره و قيمته و الحسنات مشتملة على الحق فلها ثقل كما أنّ السيئات ليست إلا باطلة فلا ثقل لها، فالله يزن الأعمال يومئذ بالحق فما اشتمل عليه العمل من الحق فهو وزنه و ثقله».

إلى أن قال: «فقد تبين بما قدمناه أولاً: أن الوزن يوم القيامة هو تطبيق الأعمال على ما هو الحق فيها، و بقدر اشتمالها عليه تستعقب الثواب و إن لم تشتمل فهو الهلاك، و هذا التوزين هو العدل، و الكلام في الآيات جار على ظاهره من غير تأويل.

و قيل: إنّ المراد بالوزن هو العدل، و ثقل الميزان هو رجحان العمل فالكلام موضوع على نحو من الاستعارة.

و قيل: إنّ الله ينصب يوم القيامة ميزاناً له لسان و كفتان فتوزن به أعمال العباد من الحسنات و السيئات، و قد اختلف هؤلاء في كيفية توزين الأعمال، و هي أعمال انعدمت بصدورها، و لا يجوز إعادة المعدوم من الأعراض عندهم، على أنها لا وزن لها.

---

١. آل عمران: ١٠٢.

فقيل: إنّما توزن صحائف الأعمال لا أنفسها.

و قيل: تظهر للأعمال من حسناتها و سيئاتها آثار و علائم خاصة بها فتوزن العلامات بمشهد من الناس.

و قيل: تظهر الحسنات في صور حسنة و السيئات في صور قبيحة منكرة فتوزن الصور.

و قيل توزن نفس المؤمن و الكافر دون أعمالهما من حسنة أو سيئة.

و قيل: الوزن ظهور قدر الانسان، و ثقل الميزان كرامته و عظم قدره، و خفة الميزان هوانه و ذلته.

و هذه الأقوال على تشتتها لا تعتمد على حجة من ألفاظ الآيات، و هي جميعاً لا تخلو عن بناء الوزن الموصوف على الجزاف لأنّ الحجة لا تتم بذلك على العبد، و قد تقدمت الإشارة إلى ذلك» انتهى، انتهى.

و في تفسير خلاصه منهج الصادقين: «وَٱلْوَزْنُ»، و سنجيدن اعمال هر يك «يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ» در روز قيامت عدل است و حق و گويند وزن به معنى قضاست يعني حكم خدا در آن روز حق است و بنابراين تسميه حكم عدل به ميزان به اعتبار تسويه است يعني چنانكه كسى چيزى به ترازو سنجد نگذارد كه كفه اى بر كفهاى چربد. حق تعالى حكم بعدل كند بى زياده و نقصان و قول اوّل اشهر است»، انتهى.

و في كنز الدقائق: ««وَٱلْوَزْنُ»، أي: القضاء. أو وزن الأعمال، و هو مقابلتها بالجزاء. و الجمهور، على أنّ صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان و كفّتان ينظر إليه الخلائق، إظهاراً للمعدلة».

إلى أن قال: «﴿يَوْمَئِذٍ﴾: خبر المبتدأ الّذي هو ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة، أو خبر مبتدأ محذوف. و معناه: العدل السويّ».

إلى أن قال: «و في كتاب الاحتجاج: عن الصادق عليه السلام أنّه سئل: «أو ليس توزن الأعمال؟» قال: «لا. لأنّ الأعمال ليست أجساماً، و إنّما هي صفة ما عملوا. و إنّما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء و لا يعرف ثقلها و خفّتها. و إنّ الله لا يخفى عليه شيء»».

إلى أن قال: «و في الكافي، و في معاني الأخبار، عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن قول الله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال: «هم الأنبياء و الأوصياء».

و في رواية اُخرى: «نحن الموازين القسط»»، انتهى.

يمكن الجمع بين المعاني المختلفة بتعدد مواطن الوزن و تعدد كيفيات الوزن.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾

و في جوامع الجامع: «﴿مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكانا، أو ملّكناكم فيها و أقدرناكم على التصرّف فيها؛ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ جمع

معيشة و هي ما يعاش به من أنواع الرزق و وجوه النعم و المنافع، أو ما يتوصّل به إلى ذلك؛ إلى أن قال: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاٰ» أبا «كُمْ» آدم طينا غير مصوّر، «ثُمَّ صَوَّرْنَاٰ»ه بعد ذلك، «ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ»؛ و «لاَ» في «أَلَّا تَسْجُدَ» صلة بدليل قوله: «مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ»؛ و الفائدة في زيادتها توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه و تحقيقه، كأنّه قيل: ما منعك أن تحقّق السجود و تلزمه نفسك «إِذْ أَمَرْتُكَ»، لأنّ أمري لك بالسجود قد أوجبه عليك لا بدّ لك منه، قال: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ»؛ و عن ابن عبّاس: «قاس إبليس فأخطأ القياس، و هو أوّل من قاس. و إنّما دخلت الشبهة عليه من حيث ظنّ أنّ النار أشرف من الطين و من حقّ الأشرف أن لا يؤمر بالسجود للأدون فكأنّه قال: «من كان على مثل صفتي يستبعد أن يؤمر بما أمرت به»»، انتهى.

و في الميزان: «أنّ السجدة كانت من الملائكة لجميع بني آدم أي: للنشأة الانسانية و إن كان آدم عليه السلام هو القبلة المنصوبة للسجدة فهو عليه السلام في أمر السجدة كان مثالاً يمثل به الانسانية نائباً مناب أفراد الانسان على كثرتهم لا مسجوداً له من جهة شخصه كالكعبة المجعولة قبلة يتوجه إليها في العبادات، و تمثل بها ناحية الربوبية.

و يستفاد هذا المعني أولاً من قصة الخلافة المذكورة في سورة البقرة آية ٣٣ ـ ٣٠ فإنّ المستفاد من الآيات هناك أنّ أمر الملائكة بالسجدة متفرع على الخلافة، و الخلافة المذكورة في الآيات غير مختصة بآدم بل جارية في عامة الآدميين فالسجدة أيضاً للجميع»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «و في اُصول الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ إبليس قاس نفسه بآدم فقال: «خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ». فلو قاس الجوهر الّذي خلق الله منه آدم عليه السلام بالنار، كان ذلك أكثر نوراً و ضياءً من النار»»، انتهى.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««فَٱهْبِطْ مِنْهَا» أي: من الجنّة أو من السماء أو من الدرجة أو المنزلة التي أنت عليها، «فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ» عن أمر الله «فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ» أي: من أهل الصغار و الهوان على الله و على أوليائه لتكبّرك، و ذلك أنّه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار، و في الحديث: «من تكبّر وضعه الله و من تواضع رفعه الله»؛ «إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» أي: أمهلني في الأجل «إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» أي: يبعث الخلق من قبورهم.

«قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي» أي: بسبب إغوائك إيّاى و هو تكليفه إيّاه ما وقع به في الغيّ و لم يثبت كما ثبتت الملائكة، و عن بعضهم: أمرتني بالسّجود فحملتني

الأنفة على معصيتك، فبسبب وقوعي في الغيّ لأجتهدنّ في إغوائهم حتّى يفسدوا بسببي كما فسدت بسببهم؛ و الباء يتعلّق بفعل القسم المحذوف أي: فبسبب إغوائك أقسم «لَأَقْعُدَنَّ» الطريق ليقطعه على المارّة؛ و انتصب «صِرَٰطَكَ» على الظرف؛ «ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم» من الجهات الأربع التي يأتي منها العدوّ في الغالب، و هذا مثل لوسوسته إليهم على كلّ وجه يقدر عليه.

و عن الباقر عليه السلام: «مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» أهوّن عليهم أمر الآخرة، «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» آمرهم بجمع الأموال و منعها عن الحقوق لتبقي لورثتهم «وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ» أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة و تحسين الشبهة، «وَعَن شَمَآئِلِهِمْ» بتحبيب اللّذّات إليهم و تغليب الشهوات على قلوبهم؛ «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ» قاله تظنّياً بدليل قوله: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ»».

إلى أن قال: ««قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا»من ذأمه: «مَّدْحُورًا» مطروداً «لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ» اللام فيه موطّئة للقسم و «لَأَمْلَأَنَّ» جواب القسم و قد سدّ مسدّ جواب الشرط؛ «مِنكُمْ» أي: منك و منهم فغلّب ضمير المخاطب كما في قوله: «إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ»، انتهى.

و في الميزان: «قوله: «أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ» يحكي عما أجاب به لعنه الله، و هو أول معصيته و أول معصية عصي بها الله فإنّ جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل إلى دعوى الإنّية و منازعة الله في كبريائه، و له رداء الكبرياء لا شريك له فيه، فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته و يقول: أنا قبال الإنّية الإلهية التي عنت له الوجود، و خضعت له الرقاب، و خشعت له الأصوات، و ذلّ له كل شيء.

و لو لم تنجذب نفسه إلى نفسه، و لم يحتبس نظره في مشاهدة إنّيته لم يتقيد باستقلال ذاته، و شاهد الإله القيوم فوقه فذلت له إنّيّته ذلة تنفي عنه كل استقلال و كبرياء فخضع للأمر الإلهي، و طاوعته نفسه في الائتمار و الامتثال، و لم تنجذب نفسه إلى ما كان يتراءىٰ من كونه خيراً منه لأنه من النار و هو من الطين بل انجذبت نفسه إلى الأمر الصادر عن مصدر العظمة و الكبرياء و منبع كل جمال و جلال.

و كان من الحري إذا سمع قوله: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» أن يأتي بما يطابقه من الجواب كأن يقول: منعني أنّي خير منه لكنه أتى بقوله: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ» ليظهر به الإنية، و يفيد الثبات و الاستمرار، و يستفاد منه أنّ المانع له من السجدة ما يرى لنفسه من الخيرية فقوله: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ» أظهر و آكد في إفادة التكبر.

و من هنا يظهر أنّ هذا التكبر هو التكبر على الله دون التكبر على آدم».

إلى أن قال: «لكنه لم يصدقه فيما ذكره من خيريته منه فإنّه و إن لم يرد عليه قوله: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ» إلخ، في هذه السورة إلّا أنّه بين فضل آدم عليه و على الملائكة في حديث الخلافة الذي ذكره في سورة البقرة للملائكة».

إلى أن قال: «فبين أولا أنهم لم يدعوا إلى السجود له لمادته الأرضية التي سوي منها، و إنّما دعوا إلى ذلك لما سواه و نفخ فيه من روحه الخاص به الحاملة للشرف كل الشرف».

و المتعلقة لتمام العناية الربانية، و يدور أمر الخيرية في التكوينيات مدار العناية الإلهية لا لحكم من ذواتها فلا حكم إلا لله.

ثم بين ثانياً لما سأله عن سبب عدم سجوده بقوله: «مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» أنّه اهتم بأمر خلقته كل الاهتمام و اعتنى به كل الاعتناء حيث خلقه بكلتا يديه بأي معنى فسّرنا اليدين، و هذا هو الفضل فأجاب لعنه الله بقوله: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ» فتعلق بأمر النار و الطين، و أهمل أمر تكبره على ربه».

إلى أن قال: «فجملة ما تدل عليه آيات القصة أنّ إبليس إنّما عصى و استحق الرجم بالتكبر على الله في عدم امتثال أمره، و أنّ الذي أظهر به تكبره هو قوله: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ» و قد تكبر فيه على ربه كما تقدم بيانه و إن كان ذلك تكبراً منه على آدم حيث إنه فضل نفسه عليه و استصغر أمره و قد خصه الله بنفسه و أخبرهم بأنه أشرف منهم في حديث الخلافة و في قوله: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى» و قوله: «خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» إلّا أنّ العناية في الآيات باستكباره على الله لا استكباره على آدم.

و من الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1] حيث لم يقل: فاستنكف عن الخضوع لآدم بل إنّما ذكر الفسق عن أمر الرب.

فتلخص أنّ آيات القصة إنّما تعتني بمسألة استعلائه على ربه، و أما استكباره على آدم و ما احتج به على ذلك فذلك من المدلول عليه بالتبع، و الظاهر أنه هو السر في عدم التعرض للجواب عن حجته صريحاً»، انتهى.

---

١. كهف: ٥٠.

و لقائل أن يقول: حمل قوله: «أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ» على أنّه أشار بذلک على استقلاله في الوجود خلاف الظاهر و الظاهر منه هو أنّه ايراد بعلمه و حكمته في الأمر بالسجود لآدم و زعم أنّ أمره خال عن العلم و الحكمة.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: «وَ» قلنا: «يَٰٓـَٔادَمُ»؛ «فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ» أي: تكلّم كلاماً خفيّاً يكرّره و منه وسوس الحلي؛ و هو فعل غير متعدّ و رجل موسوس بكسر الواو. إلى أن قال: «و معنى «وسوس له» فعل الوسوسة لأجله، و «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ» ألقاها إليه؛ «لِيُبْدِيَ لَهُمَا» جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأياً ما يؤثران ستره مكشوفاً؛ و فيه دليل على أنّ كشف العورة لم يزل مستقبحاً في العقول».

إلى أن قال: ««إِلَّآ أَن تَكُونَا» إلّا كراهة أن تكونا «مَلَكَيْنِ»، أوهمهما أنّهما إذا أكلا من هذه الشجرة تغيّرت صورتهما إلى صورة الملك «أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ» من الذين لا يموتون و يبقون في الجنّة؛ «وَقَاسَمَهُمَآ» و أقسم لهما: «إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ» أي: المخلصين النصيحة في دعائكما إلى التناول من هذه الشجرة و لذلك تأكّدت شبهتهما إذ ظنّا أنّ أحداً لا يقسم بالله كاذباً؛ «فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ» من تدلية الدلو و هو إرسالها في البئر أي: نزّلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرّهما به من القسم بالله».

إلى أن قال: ««فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ» وجدا طعمها آخذين في الأكل منها «بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا» ظهرت لهما عوراتهما، «وَطَفِقَا» يقال: «طفق يفعل كذا» بمعنى «جعل يفعل»؛ «يَخْصِفَانِ» ورقة فوق ورقة على عوراتهما كما يخصف النعل؛ «مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ»، قيل: كان ورق التين؛ «أَلَمْ أَنْهَكُمَا» عتاب من الله و تنبيه على الخطأ حيث لم يحذرا ما حذّرهما الله من عداوة إبليس و مكره»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «لِيُبْدِىَ لَهُمَا»: ليظهر لهما. و «اللام»للعاقبة. أو للغرض على أنّه أراد ـ أيضاً ـ بوسوسته أن يسوأهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبّر عنهما بالسوءة. و فيه دليل على أنّ كشف العورة في الخلوة و عند الزوج من غير حاجة، قبيح مستهجن في الطباع.

«مَا وُرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا»: ما غطّي عنهما من عوراتهما. و كانا لا يريانها من أنفسهما، و لا أحدهما من الآخر».

إلى أن قال: «وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا»: إلّا كراهة أن تكونا.

«مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ»: الذين لا يموتون، أو يخلدون في الجنّة».

إلى أن قال: «وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ» أي: أقسم لهما على ذلك. و أخرجه على زنة المفاعلة، للمبالغة».

إلى أن قال: «فَدَلَّىٰهُمَا»: فنزّلهما إلى الأكل من الشجرة. نبه به على أنّه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة. فإنّ التدلية و الإدلاء: إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل.

«بِغُرُورٍ»: بما غرّهما به من القسم، فإنّهما ظنّا أنّ أحداً لا يحلف بالله كاذباً. أو ملتبسين بغرور»، انتهى.

و في الميزان: «و القصة و إن سيقت مساق القصص الاجتماعية المألوفة بيننا و تضمنت أمراً و امتثالاً و تمرداً و احتجاجاً و طرداً و رجماً و غير ذلك من الأمور التشريعية و المولوية غير أن البيان السابق على استفادته من الآيات يهدينا إلى كونها تمثيلاً للتكوين بمعنى أنّ إبليس على ما كان عليه من الحال لم يقبل الامتثال أي: الخضوع للحقيقة الانسانية فتفرعت عليه المعصية، و يشعر به قوله تعالى: «فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا» فإنّ ظاهره أنّ هذا المقام لا يقبل لذاته التكبر فكان تكبره فيه خروجه منه و هبوطه إلى ما هو دونه. على أن الأمر بالسجود ـ كما عرفت ـ أمر واحد توجه إلى الملائكة و إبليس جميعا بعينه، و الأمر المتوجه إلى الملائكة ليس من شأنه أن يكون مولوياً تشريعياً بمعنى الأمر

المتعلق بفعل يتساوي نسبة مأمورة إلى الطاعة و المعصية و السعادة و الشقاوة فإن الملائكة مجبولون على الطاعة مستقرون في مقر السعادة كما أنّ إبليس واقع في الجانب المخالف لذلك على ما ظهر من أمره بتوجيه الأمر إليه.

فلو لا أنّ الله خلق آدم و أمر الملائكة و إبليس جميعاً بالسجود له لكان إبليس على ما كان عليه من منزلة القرب غير متميز من الملائكة لكن خلق الانسان شق المقام مقامين: مقام القرب و مقام البعد، و ميز السبيل سبيلين: سبيل السعادة و سبيل الشقاوة»، انتهى.

و لايذهب عليک أنّ حمل الآية الكريمة على التمثيل يوجب الخروج عن ظواهر الكلام و إن كان محتملاً.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: «سمّيا خطأهما ظلما لأنفسهما و قالا: «لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ» و إن كان ذلك تركاً للمندوب عندنا لأنّ الأنبياء معصومون منزّهون عن ارتكاب القبائح على عادة أولياء الله في استعظام الصغير من الزلّات و استصغار العظيم من الحسنات؛ «ٱهْبِطُواْ» الخطاب لآدم و حوّاء و إبليس؛ و «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» في محلّ النصب على الحال أي: متعادين يعاديهما إبليس

و يعاديانه؛ «وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ» أي: موضع استقرار أو استقرار «وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ» و انتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم؛ «قَالَ» الله «فِيهَا» في الأرض «تَحْيَوْنَ» تعيشون «وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ» عند البعث»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ» إلى آخر الآية. خص بالخطاب آدم عليه السلام و ألحق به في الحكم زوجته، و قوله: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ» توسعة في إباحة التصرف إلا ما استثناه بقوله: «وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ» و الظلم هو الظلم على النفس دون معصية الأمر المولوي فإنّ الأمر إرشادي »، انتهى.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «جعل ما في الأرض منزلا من السّماء لأنّه ثمّ قضى و كتب، و منه «وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ»، انتهى. و الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنّه لباسه و زينته، و المعنى «أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ» لباسين: «لِبَاسًا يُوَٰرِي» عوراتكم، و لباسا يزيّنكم؛ «وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ» و هو الورع و الخشية من الله، و هو مبتدأ و خبره الجملة التي هي «ذَٰلِكَ خَيْرٌ»، كأنّه قيل: «هو خير»»

إلى أن قال: ««ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ» الدالة على فضله و رحمته على عباده يعني إنزال اللباس عليهم «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» فيعرفوا عظيم النعمة فيه؛ و هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدوّ السوآت إظهاراً لنعمته فيما خلق من اللباس؛ «لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ» أي: لا يضلّنّكم عن الدين و لا يصرفنّكم عن الحقّ بأن يدعوكم إلى المعاصي التي تميل إليها نفوسكم و لا يمحننّكم بأن لا تدخلوا الجنّة كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها «يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا» في موضع نصب على الحال أي: أخرجهما نازعا لباسهما عنهما بأن كان السبب في نزع لباسهما عنهما؛ «إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ» تعليل للنهي و التحذير من فتنة الشيطان بأنّه بمنزلة العدوّ المداجي الذي يكيدكم من حيث لا تشعرون؛ «وَقَبِيلُهُۥ» و جنوده من الشياطين؛ «مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ»».

إلى أن قال: ««إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» أي: خلّينا بينهم و بينهم لم نكفّهم عنهم حتّى تولّوهم و أطاعوهم فيما سوّلوا لهم من مخالفة الله»، انتهى.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: «وَإِذَا فَعَلُواْ» معصية كبيرة اعتذروا بأنّ آباءهم كانوا يفعلونها و بأنّ الله أمرهم بأن يفعلوها و كلاهما عذر باطل لأنّ أحدهما تقليد و الآخر كذب و افتراء على الله؛ «قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ» لأنّه لا يفعل القبيح فكيف يأمر بفعله! «أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» إنكار لإضافتهم القبيح إليه و شهادة عليهم بالجهل «قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ» أي: بالعدل و بما يشهد العقل أنّه مستقيم حقّ حسن؛ و قيل بالتّوحيد؛ «وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ» أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها «عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» في كلّ وقت سجود أو في كلّ مكان سجود و هو الصلاة؛ «وَٱدْعُوهُ» و اعبدوه «مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً؛ «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» كما أنشأكم ابتداء يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة؛ «فَرِيقًا هَدَىٰ» و هم المؤمنون وفّقهم للإيمان «وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ» أي: الخذلان إذ لم يقبلوا الهدى و لم يكن لهم لطف فهم يضلّون و لا يهتدون؛ و انتصب قوله: «وَفَرِيقًا» بفعل مضمر يفسّره ما بعده و التقدير و خذل فريقاً «حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ» إنّ الفريق الذين حقّ عليهم الضلالة «ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ» أطاعوهم فيما أمروهم به»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ» إلى آخر الآية. انتقل من ذكر لباس الظاهر الذي يواري سوآت الانسان فيتقي به أن يظهر منه ما يسوؤه ظهوره، إلى لباس الباطن الذي يواري السوآت الباطنية التي يسوء الانسان ظهورها و هي رذائل المعاصي من الشرك و غيره، و هذا اللباس هو التقوى الذي أمر الله به.

و ذلك أنّ الذي يصيب الانسان من ألم. إلى أن قال: ظهور السوآت الباطنية أشد و أمر و أبقى فالمحاسب هو الله، و التبعة شقوة لازمة، و نار تطلع على الأفئدة، و لذلك كان لباس التقوى خيراً من لباس الظاهر.

و للإشارة إلى هذا المعني و تتميم الفائدة عقب الكلام بقوله: «ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ»».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا» إلى آخر الآية، رجوع من الخطاب العام لبني آدم إلى خطاب النبي ﷺ خاصة ليتوسل به إلى انتزاع خطابات خاصة يوجهها إلى أمته كما جرى نظيره من الالتفات في الخطاب «يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا» حيث قال: «ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» لنظير الغرض.

و بالجملة فقد استخرج من هذا الأصل الثابت في قصة الجنة و هو أمر ظهور السوآت الذي أفضى إلى خروج آدم و زوجته من الجنة أن الله لا يرضى بالفحشاء الشنيعة من أفعال بني آدم، فذكر إتيان المشركين بالفحشاء و استنادهم في ذلك إلى عمل آبائهم و أمر الله بها فأمر رسوله ﷺ أن يرد عليهم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، و يذكرهم أن ذلك من القول على الله بغير علم و الافتراء عليه، كيف لا؟ و قصة الجنة شاهدة عليه»».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»» «قوله تعالى: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ* فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ» إلى آخر الآية. ظاهر السياق أن

يكون قوله: «فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ» حالاً من فاعل «تَعُودُونَ» و يكون هو الوجه المشترك الذي شبه فيه العود بالبدء، و المعنى: تعودون فريقين كما بدأكم فريقين نظير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1]، و المعنى: لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة فرادى.

فهذا هو الظاهر المستفاد من الكلام، و أمّا كون «فَرِيقًا هَدَىٰ» إلخ، حالاً لا يعدو عامله، و وجه الشبه بين البدء و العود أمراً آخر غير مذكور ككونهم فرادى بدءً و عوداً أو كون الخلق الأول و الثاني جميعاً من تراب أو كون البعث مثل الإنشاء في قدرة الله إلى غير ذلك مما احتملوه فوجوه بعيدة عن دلالة الآية، و أي فائدة في حذف وجه الشبه من الذكر و ذكر ما لا حاجة إليه مع وقوع اللبس، و سيجيء إن شاء الله توضيح ذلك.

و ظاهر البدء في قوله: «بَدَأَكُمْ» أول خلقة الانسان الدنيوية لا مجموع الحياة الدنيوية قبال الحياة الأُخروية فيكون البدء هو الحياة الدنيا و العود هو الحياة الأُخرى فيكون المعنى: كنتم في الدنيا مخلوقين له هدى فريقاً منكم و حقت الضلالة على فريق آخر كذلك تعودون كما يئول إليه قول من قال: «إنّ معنى الآية: تبعثون على ما متم عليه: المؤمن على إيمانه، و الكافر على كفره»».

إلى أن قال: «و بعد ذلك كله فمن الممكن أن يكون قوله: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» إلخ، في مقام التعليل لمضمون الكلام السابق و المعنى: أقسطوا في أعمالكم و أخلصوا لله فإنّ الله إذ بدأ خلقكم قضى فيكم أن تتفرقوا فريقين فريقاً

---

١. الأنعام: ٩٤.

يهديهم و فريقاً يضلون عن الطريق و ستعودون إليه كما بدأكم فريقاً هدى و فريقاً حق عليهم الضلالة بتولي الشياطين فأقسطوا و أخلصوا حتى تكونوا من المهتدين بهداية الله لا الضالين بولاية الشياطين.

فيكون الكلام جارياً مجرى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾[1] فإنّه في عين أنّه بيّن أولاً أنّ لكل وجهة خاصة محتومة هو مولّيها لا يتخلف عنه إنّ سعادة فسعادة و إنّ شقاوة فشقاوة أمرهم ثانياً أن استبقوا الخيرات، و لا يستقيم الأمر مع تحتم إحدي المنزلتين: السعادة و الشقاوة لكن الكلام في معنى قولنا: إنّ كلاً منكم لا محيص له عن وجهة متعينة في حقه لازمة له إمّا الجنة و إمّا النار فاستبقوا الخيرات حتى تكونوا من وجهة السعادة دون غيرها.

و كذلك الأمر فيما نحن فيه فالكلام في معنى قولنا: إنّكم ستعودون فريقين كما بدأكم فريقين بقضائه فأقسطوا في أعمالكم و أخلصوا لله حتى تكونوا من الفريق الذي هدى دون الفريق الذي حقّ عليهم الضلالة.

و من الممكن أن يكون قوله: «كَمَا بَدَأَكُمْ» إلخ، كلاماً مستأنفاً و هو مع ذلك لا يخلو عن تلويح بالدعوة إلى الإقساط و الإخلاص على ما يتبادر من السياق».

إلى أن قال: «هذا كله ما يقتضيه التدبر و إيفاء النظر من معني قوله: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ»، إلخ. و هو يدور مدار

---

١. البقرة: ١٤٨.

كون «فَرِيقًا هَدَىٰ» إلخ، حالاً مبيّناً لوجه الشبه و المعنى المشترك بين البدء و العود سواء أخذنا الكلام مستأنفاً أو واقعا موقع التعليل متصلاً بما قبله.

و أما جمهور المفسرين فكأنهم متسالمون على أنّ قوله: «فَرِيقًا هَدَىٰ» حال مبيّن لكيفية العود فحسب دون العود و البدء جميعاً، و أنّ المعنى المشترك الذي هو وجه تشبيه العود بالبدء أمر آخر وراءه إلّا من فسر البدء بالحياة الدنيا و الخلق الأول كما تقدم، و كان ذلك فراراً منهم عن لزوم الجبر المبطل للاختيار مع احتفاف الكلام بالأوامر و النواهي، و قد عرفت أنّ ذلك غير لازم.

و بالجملة فقد اختلفوا في وجه اتصال الكلام بما قبله بعد التسالم على ذلك فمن قائل: أنّه إنذار بالبعث تأكيداً للأحكام المذكورة سابقاً، و احتجاج عليه بالبدء فالمعنى: ادعوه مخلصين فإنكم مبعوثون مجازون، و إنّ بعد ذلك في عقولكم فاعتبروا بالابتداء و اعلموا أنه كما بدأكم في الخلق الأول فإنه يبعثكم فتعودون في الخلق الثاني.

و فيه: أنّه مبني على أنّ تشبيه العود بالبدء في تساويهما بالنسبة إلى قدرة الله، و أنّ النكتة في التعرض لذلك هو الإنذار بالمجازاة، و السياق المناسب لهذا الغرض أن يقال: كما بدأكم يبعثكم فيجازيكم بوضع بعثه صلى الله عليه وآله وسلم موضع عود الناس و التصريح بالمجازاة التي هي العمدة في الغرض المسوق لأجله الكلام كما صنع ذلك القائل نفسه فيما ذكره من المعنى، و الآية خالية من ذلك»، انتهى.

و التحقيق: أنّ المناسب لظاهر الكلام أنّ قوله: «﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ في حكم التعليل لقوله: «وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» لأنّ الانسان لو خلّي و طبعه يهديه فطرته إلى التوحيد و الإخلاص، و الشرك لا موجب له لا في البدء و لا في العود بل إنّما الموجود هو بعض الموهومات و التوهمات و لذا بعد الأمر بالتوحيد و الإخلاص أشار بأنّ ذلک ممّا يقتضيه الفطرة.

نظير ما في جوامع الجامع حيث قال: «﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: و قل: «وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ» أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها «عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» في كلّ وقت سجود أو في كلّ مكان سجود و هو الصلاة؛ «وَٱدْعُوهُ» و اعبدوه «مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ» أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً؛ «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» كما أنشأكم ابتداء يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة»، انتهى.

فتخلّص أنّ الآية الكريمة تدلّ على الإخلاص معللاً (بأنّ) البدء منه و العود إليه فلا تغفل.

و أمّا قوله: «إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ» فهو تعليل لثبوت الضلالة و لزومها لهم في قوله: «حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ» كان كلمة الضلال و الخسران صدرت في حقهم مشروطاً بولاية الشيطان كما يذكره في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾[1] فلمّا تولّوا الشياطين في الدنيا حقّت عليهم الضلالة و لزمتهم لزوماً لا انفكاک بعده أبداً.

---

١. الحج: ٤.

و هذا نظير ما يستفاد من قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾[1].

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: «خُذُواْ» ثيابكم التي تتزيّنون بها «عِندَ كُلِّ» صلاة؛ و روى أنّ الحسن بن عليّ عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له في ذلك، فقال: إنّ الله جميل يحبّ الجمال فأتجمّل لربّي و قرأ الآية؛ و قيل: هو أمر بلبس الثياب في الصلاة و الطواف، و كانوا يطوفون عراة و قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها؛ و قيل: أخذ الزينة هو التمشّط عند كلّ صلاة؛ «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ» أي: من حرّم الثّياب التي يتزيّن بها الناس و كلّ ما يتجمّل به ممّا

---

١. فصلت: ٢٥.

«أَخْرَجَ» ها الله من الأرض «لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ» المستلذّات من المآكل و المشارب؛ و معنى الاستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء؛ «قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا» غير خالصة لهم لأنّ المشركين يشركونهم فيها «خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ» لهم لا يشركهم فيها أحد؛ و لم يقل: هي للذين آمنوا و لغيرهم في الحياة الدنيا لينبّه على أنّها خلقت للذين آمنوا و أنّ الكافرين تبع لهم؛ و قرئ: «خَالِصَةً» بالنصب على الحال و بالرفع على أنّها خبر بعد خبر؛ «إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ» أي: لم يحرّم ربّي إلّا الفواحش؛ و الفاحشة ما تزايد قبحه؛ «مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» ما علن منها و ما خفي؛ «وَٱلْإِثْمَ» عامّ في كلّ ذنب؛ و قيل: شرب الخمر؛ «وَٱلْبَغْىَ» الظّلم و الكبر؛ «بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ» تأكيد؛ «وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا» فيه تهكّم لأنّه لا يجوز أن ينزّل سلطانا و برهانا بأن يشرك به غيره؛ «وَأَن تَقُولُواْ» أي: تتقوّلوا عَلَى الله و تفتروا الكذب من التحريم و غيره»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» إلى آخر الآية. قال الراغب: السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الانسان، و إن كان ذلك في الإنفاق أشهر، انتهى.

أخذ الزينة عند كل مسجد هو التزين الجميل عند الحضور في المسجد، و هو إنّما يكون بالطبع للصلاة و الطواف و سائر ذكر الله فيرجع المعنى إلى الأمر بالتزين الجميل للصلاة و نحوها، و يشمل بإطلاقه صلوات الأعياد و الجماعات اليومية و سائر وجوه العبادة و الذكر.

و قوله: «وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ» إلخ، أمران إباحيان و نهي تحريمي معلل بقوله: «إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ» و الجميع مأخوذة من قصة الجنة كما مرت الإشارة إليه، و هي كما تقدم خطابات عامة لا تختص بشرع دون شرع و لا بصنف من أصناف الناس دون صنف.

و من هنا يعلم فساد ما ذكره بعضهم: أنّ قوله: «يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» إلخ، يدل على بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى جميع البشر، و أنّ الخطاب يشمل النساء بالتبع للرجال شرعاً لا لغةً (انتهى). نعم تدل الآية على أنّ هناك أحكاماً عامة لجميع البشر برسالة واحدة أو أكثر، و أما شمول الحكم للنساء فبالتغليب في الخطاب و القرينة العقلية قائمة»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «و عن الكافي: «مرّ سفيان الثوريّ في المسجد الحرام، فرأى أبا عبد الله عليه السلام و عليه ثياب كثيرة القيمة حسان».

فقال: «و الله، لآتينّه و لأوبّخنّه».

فدنا منه فقال: «يا ابن [رسول الله، ما لبس] رسول الله عليه السلام مثل هذا اللباس و لا عليّ و لا أحد من آبائك».

فقال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في زمان قتر مقتر، و كان يأخذ لقتره و إقتاره. و أنّ الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها، أي: أنعمها، فأحقّ أهلها بها أبرارها. ثمّ تلا: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ» (الآية) فنحن أحقّ من أخذ منها ما أعطاه الله. غير أنّي، يا ثوريّ، ما ترى عليّ من ثوب إنّما لبسته للناس».

ثمّ اجتذب يد سفيان، فجرّها إليه. ثمّ رفع الثوب الأعلى، و أخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً فقال: «هذا لبسته لنفسي، و ما رأيته للناس».

ثمّ اجتذب ثوباً على سفيان أعلاه غليظ خشن و داخل ذلك ثوب ليّن، فقال: «لبست هذا الأعلى للناس، و لبست هذا لنفسك تسرّها»، انتهى.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» وعيد لكفّار قريش بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأُمم قبلهم؛ «يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ» خطاب لجميع المكلّفين من بني آدم، «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ» إن يأتكم «رُسُلٌ مِّنكُمْ» جنس «كُمْ»، و إنّما ضمّت «مَا» إلى « إِنْ» الشرطيّة توكيداً لمعنى الشرط و لذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة؛ و جزاء الشرط الفاء و ما بعده من الشرط و الجزاء؛ و المعنى «فَمَنِ ٱتَّقَىٰ» منكم، «وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ» منكم؛ «فَمَنْ أَظْلَمُ» أي: فمن أشنع ظلماً «مِمَّنِ» قال

«عَلَى ٱللَّهِ» ما لم يقله، «أَوْ كَذَّبَ» ما قاله؛ «أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ» أي: ممّا كتب لهم من الأعمار و الأرزاق؛ «حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا» حتّى غاية لنيلهم نصيبهم و استيفائهم إيّاه أي: إلى وقت وفاتهم و هي التي يبتدأ بعدها الكلام، و المستأنف هنا الجملة الشرطيّة؛ و «يَتَوَفَّوْنَهُمْ» حال من الرسل، و المراد بالرسل هنا ملك الموت و أعوانه؛ «قَالُوٓاْ» أي: الرسل «أَيْنَ» الآلهة اللاتي كنتم تدعونها؟ «قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا» أي: غابوا عنّا فلا نراهم و لا ننتفع بهم اعترافاً منهم بأنّهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه»، انتهى.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

في جوامع الجامع: «أي: يقول الله للكفّار يوم القيامة: «ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ» أي: كائنين في جملة اُمم و في غمارهم مصاحبين لهم، و المعنى اُدخلوا في النار مع اُمم «قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم» و تقدّم زمانهم زمانكم؛ «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ» من هذه الاُمم النار «لَّعَنَتْ أُخْتَهَا» التي ضلّت بالاقتداء بها «حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ» أي: تداركوا

«فِيهَا» بمعنى تلاحقوا و اجتمعوا في النار «قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ» منزلة و هي الأتباع و السّفلة «لِأُولَىٰهُمْ» منزلة و هي القادة و الرؤساء، و معني «لِأُولَىٰهُمْ» لأجل أولاهم لأنّ خطابهم مع الله لا معهم «رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا» أي: دعونا إلى الضلال و حملونا عليه «فَـاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا» أي: مضاعفاً؛ «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ» أي: لكلّ من رؤساء الضلالة و أتباعهم عذاب مضاعف، لأنّ جميعهم كانوا ضالّين مضلّين «وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ» قرئ بالتّاء و الياء؛ «وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ» أي: و قال الرؤساء للأتباع: «فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ» عطفوا هذا الكلام على قول الله للأتباع: «لِكُلٍّ ضِعْفٌ» أي: فقد ثبت أنّ لا فضل «لَكُمْ عَلَيْنَا» فإنّا قد استوينا في استحقاق الضعف؛ «فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ» من قول الرؤساء أو من قول الله لكلا الفريقين جميعاً «بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ» باختياركم لا باختيارنا لكم»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا»، أي: تداركوا و تلاقوا في النار.

إلى أن قال: «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ»: أمّا القادة، فبكفرهم و تضليلهم. أمّا الأتباع، فبكفرهم و تقليدهم.

إلى أن قال: «وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ»: عطفوا كلامهم على جواب الله لأُخراهم و رتّبوه عليه، أي: فقد ثبت أن لا فضل علينا، إنّا و إياكم متساوون في الضلال و استحقاق العذاب»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ» الخطاب من اللهدون الملائكة و إن كانوا في وسائط في التوفي و غيره،

و المخاطبون بحسب سياق اللفظ هم بعض الكفار. إلى أن قال: و في الآية دلالة على أنّ من الجن اُمما يموتون بآجال خاصة قبل انتهاء أمد الدنيا على خلاف إبليس الباقي إلى يوم الوقت المعلوم.

إلى أن قال: قوله تعالى: «حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا» إلى آخر الآيتين، ادارکوا أي: تدارکوا أي: أدرك بعضهم بعضا اللاحقون السابقين أي: اجتمعوا في النار جميعا.

و المراد بالاُولى و الاُخرى اللتين تتخاصمان ما هو كذلك بحسب الرتبة أو بحسب الزمان فإنّ الاُولى منهم مقاماً و هم رؤساء الضلال، و أئمة الكفر المتبوعون أعانوا تابعيهم بإضلالهم على الضلال، و كذا الاُولى منهم زماناً و هم الأسلاف المتقدمون أعانوا متأخريهم على ضلالتهم.

إلى أن قال: «قَالَ» الله «لِكُلٍّ» من الاُولى و الاُخرى «ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ» أمّا أولاكم فإنّهم ضلوا و أعانوكم على الضلال، و أمّا أنتم فإنّكم ضللتم و أعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم و إجابة دعوة الرؤساء منهم، و تكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم «وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ» فإنّ العذاب إنّما يتحقق أو يتم في مرحلة الإدراك و العلم. و أنتم تشاهدونهم أمثال أنفسكم في شمول العذاب و إحاطة النار فتتوهمون أنّ عذابهم مثل عذابكم و ليس كذلك بل لهم من العذاب ما لا طريق لكم إلى إدراكه و الشعور به كما أنّهم بالنسبة إليكم كذلك فما عندكم و عندهم من العذاب ضعف و لكن إحاطة العذاب شغلكم عن العلم بذلك»، انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ» أي: لا يصعد لهم عمل صالح، و نحوه «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ»».

إلى أن قال: «أي: لا يدخلون الجنّة حتّى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج الجمل الذي لا يلج إلّا في باب واسع في ثقب الإبرة؛ و الخياط و المخيط: ما يخاط به و هو الإبرة؛ «وَكَذَٰلِكَ» أي: و مثل ذلك الجزاء الفظيع «نَجْزِى» سائر «ٱلْمُجْرِمِينَ»؛ و قد كرّره فقال: «وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ»؛ و المهاد: الفراش، و الغواشي: الأغطية؛ «لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ» جملة معترضة بين المبتدأ و الخبر للتّرغيب في اكتساب ما لا يبلغه وصف الوصّاف من النعيم الدائم مع الإجلال و التعظيم بما هو في الوسع و هو الإمكان الواسع غير الضيّق من الإيمان

و العمل الصالح؛ «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم» قلوبهم «مِّنْ غِلٍّ» على إخوانهم في الدنيا فسلمت قلوبهم و طهرت من الحقد و الحسد و الشحناء و لم يكن بينهم إلّا التعاطف و التراحم و التوادّ؛ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا» أي: وفّقنا لموجب هذا الفوز العظيم و الذخر الجسيم؛ «وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ» اللام لتأكيد النفي أي: و ما كان يصحّ لنا أن نهتدى «لَوْلَآ» هداية الله و توفيقه؛ و قرئ: «وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ» بغير واو على أنّها جملة موضحة للاُولى؛ «لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ» من جهة الله و نبّهونا على الاهتداء فاهتدينا باتّباع قولهم، يقولون ذلك سروراً و اغتباطاً بما نالوا و تلذّذاً بالتكلّم به لا تعبّداً؛ «وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ»؛ و الضمير ضمير الشأن، و يجوز أن يكون بمعنى «أىّ» لأنّ المناداة من القول كأنّه قيل: و قيل لهم أي: تلكم الجنّة «أُورِثْتُمُوهَا» بسبب أعمالكم»»، انتهى.

و في الميزان: قوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ» إلى آخر الآية. السم هو الثقب و جمعه السموم، و الخياط و المخيط الإبرة.

و الذي نفاه الله من تفتيح أبواب السماء مطلق في نفسه يشمل الفتح لولوج أدعيتهم و صعود أعمالهم و دخول أرواحهم غير أنّ تعقيبه بقوله: «وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ» إلخ، كالقرينة على أنّ المراد نفي أن يفتح بابها لدخولهم الجنة فإنّ ظاهر كلامه أنّ الجنة في السماء كما هو في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1].

---

١. الذاريات: ٢٢.

و قوله: «حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ» من التعليق بالمحال و إنّما يعلق الأمر بالمحال كناية عن عدم تحققه و إياساً من وجوده كما يقال: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب و يبيض الفأر، و قد قال في موضع آخر في هذا المعني: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

إلى أن قال: «قوله تعالى: «لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» إلخ».

إلى أن قال: «و قد اُفيد بقوله: «لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» أنّهم محاطون بالعذاب من تحتهم و من فوقهم، و الباقي ظاهر».

إلى أن قال: «و قوله: «لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ» مسوق للتخفيف و تقوية الرجاء في قلوب المؤمنين فإنّ تقييد الإيمان بعمل الصالحات ـ و الصالحات جمع مُحلّى باللام و هو يفيد الاستغراق ـ يفيد بظاهره لزوم العمل بجميع الصالحات حتى لا يشذ عنها شاذ، و ما أقل من وفق لذلك من طبقة أهل الإيمان و يسد ذلك باب الرجاء على أكثر المؤمنين فذكر الله أنّ التكليف على قدر الوسع فمن عمل من الصالحات ما وسعه أن يعمله من غير أن يشق على نفسه و يتحمل ما لا طاقة له به بعد الإيمان بالله فهو من أهل هذه الآية، و من أصحاب الجنة هم فيها خالدون».

قوله تعالى: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ» الغل هو الحقد و ضغن القلوب و عداوتها، و في مادتها معنى التوسط باللطف و الحيلة و منه الغلالة و هي الثوب المتوسط بين الدثار و الشعار، و غل الصدور من أعظم ما

---

١. البقرة: ١٦٧.

ينغص عيش الانسان، و ما من انسان يعاشر انساناً و يأتلف به إلّا و ائتلافه مشروط بأن يوافقه فيما يراه و يريده فإذا شاهد من حاله ما لا يرتضيه جأش صدره بالغل و راحت الألفة و تنغصت العيشة فإذا ذهب الله بغل الصدور لم يسؤ الانسان ما يشاهده من أليفه على الإطلاق و هي اللذة الكبرى و في قوله: «تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ» إشارة إلى أنّهم ساكنون في قصورها العالية.

قوله تعالى: «وَ قالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا ـ إلى قوله: ـ بِٱلْحَقِّ» في نسبة التحميد إليهم دلالة على أنّ الله يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد باطل و لا عمل سيء كما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[1]، فيصح منهم تحميد الله و يقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه بحيث يصيب غرضه و يقع موقعه بذلك المبتذل حتى يناله كل نائل»

إلى أن قال: «و في قولهم: «لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ» اعتراف بحقية ما وعدهم الله بلسان أنبيائه، و هو الذي يأخذون الاعتراف به من أصحاب النار»

إلى أن قال: «و اعتراف أهل الجنة بحقية ما وعدهم الله بواسطة رسله هو من الحقائق العالية القرآنية»، انتهى.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

---

١. الواقعة: ٢٦ ـ ٢٥.

و في جوامع الجامع: «أَن» في قوله: «أَن قَدْ وَجَدْنَا» يحتمل أن يكون مخفّفة من الثقيلة و أن تكون مفسّرة كالتي ذكرت قبل، و كذلك «أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ»؛ و إنّما قالوا لهم ذلك ابتهاجاً و اغتباطاً بحالهم و شماتة بأصحاب النار و ليكون هذه الحكاية لطفاً لمن سمعها و كذلك قول المؤذّن بينهم: «أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ»؛ و قيل: هو مالك خازن النار يأمره الله بذلك فينادى نداء يسمع أهل الجنّة و أهل النار؛ و روى عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذّن»؛ إلى أن قال:«وَعَدَنَا» و أطلق ليتناول كلّ ما وعد الله من البعث و الحساب و الثواب و العقاب، لأنّهم كانوا مكذّبين بذلك أجمع؛ «يَصُدُّونَ» أي: يعرضون عن دين الله و شريعته أو يصرفون غيرهم عنها، «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أي: يطلبون لها الاعوجاج بالشبه التي يتوهّمون أنّها قادحة فيها»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «و في اُصول الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام : إذا كان يوم القيامة دعي بالنبيّ صلى الله عليه و آله و بأميرالمؤمنين عليه السلام و بالأئمّة من ولده عليهم السلام فينصبون للناس. فإذا رأتهم شيعتهم «قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا» (الآية)، يعني: هدانا الله في ولاية أمير المؤمنين و الأئمّة من ولده عليهم السلام ».

إلى أن قال: «و في تفسير عليّ بن إبراهيم عن أبي الحسن عليه السلام و في تفسير العياشي عن الرضا عليه السلام : المؤذن أمير المؤمنين يؤذّن أذاناً يسمع الخلائق»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا ـ إلى قوله: ـ بِٱلْحَقِّ» في نسبة التحميد إليهم دلالة على أنّ الله يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد

باطل و لا عمل سيء كما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[١]، فيصح منهم تحميد الله و يقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه بحيث يصيب غرضه و يقع موقعه بذلك المبتذل حتى يناله كل نائل».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» في الإشارة بلفظ البعيد ـ تِلْكُمُ ـ إشارة إلى رفعة قدر الجنة و علو مكانها فإن ظاهر السياق إنّ النداء إنّما هو حين كونهم في الجنة، و قد جعلت الجنة إرثاً لهم في قبال عملهم.

و إنّما يتحقق الإرث فيما إذا كان هناك مال أو نحوه مما ينتفع به و هو في معرض انتفاع شخص ثم زال عنه الشخص فبقي لغيره يقال: ورث فلان أباه أي: مات و ترك مالاً بقي له، و العلماء ورثة الأنبياء أي: مختصون بما تركوا لهم من العلم، و يرث الله الأرض أي: إنّه كان خولهم ما بها من مال و نحوه و سوف يموتون فيبقى له ما خولهم.

و على هذا فكون الجنة إرثاً لهم أورثوها معناه كونها خلقت معروضة لأن يكسبها بالعمل المؤمن و الكافر جميعاً غير أنّ الكافر زال عنها بشركه و معاصيه فتركها فبقيت للمؤمن فهو الوارث لها بعمله، و لو لا عمله لم يرثها، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢]، انتهى.

---

١. الواقعة: ٢٦ ـ ٢٥.

٢. المؤمنون: ١١ ـ ١٠.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَبَيْنَ» الجنّة و النار أو بين أهليهما «حِجَابٌ» أي: ستر و نحوه «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ»؛ «وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ» أي: و على أعراف الحجاب و هو السور المضروب بين الجنّة و النار و هي أعاليه جمع «عرف» مستعار من عرف الفرس و الديك «رِجَالٌ»؛ الصادق عليه السلام الأعراف: كثبان بين الجنّة و النار يوقف عليها كلّ نبيّ و كلّ خليفة نبيّ مع المذنبين من أهل زمانه ـ كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده ـ و قد سيق المحسنون إلى الجنّة، فيقول: ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سيقوا إلى الجنّة، فيسلّم عليهم المذنبون، و ذلك قوله: «سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ» أن يدخلهم الله إيّاها بشفاعة النبيّ و الإمام، و ينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا» إلى آخره؛ و قيل: إنّهم قوم استوت حسناتهم و سيّئاتهم فجعلوا هنالك حتّى يقضي الله فيهم ما شاء و يدخلهم الجنّة؛ «يَعْرِفُونَ كُلًّا» من زمر السعداء و الأشقياء «بِسِيمَـٰهُمْ» بعلامتهم التي أعلمهم الله بها؛ «وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ» و رأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله و قالوا: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا» معهم؛ و في هذا أنّ صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا؛ الصّادق عليه السلام : و إذا قلبت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: عائذاً بك أن تجعلنا مع القوم الظالمين»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ»، أي: حتّى يدخل ما هو مثل في عظم الجرم و هو البعير، فيما هو مثل في ضيق المسلك و هو ثقبة الإبرة. و ذلك ممّا لا يكون، فكذا ما نوقف عليه»، انتهى.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «الصادق عليه السلام: «و ينادي «أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ» و هم الأنبياء و الخلفاء «رِجَالًا» من أهل النار و رؤساء الكفّار يقولون لهم مقرّعين: «مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ» و استكباركم؛ «أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ» إشارة لهم إلى أهل الجنّة الذين كانت الرؤساء يستضعفونهم و يحتقرونهم لفقرهم و يستطيلون عليهم بدنياهم و يقسمون أنّ الله لا يدخلهم الجنّة؛ «ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ» يقول: أصحاب الأعراف لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله لهم بذلك: «ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» أي: لا خائفين و لا محزونين؛ و روى الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: نحن نوقف يوم القيامة بين الجنّة و النار فمن نصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنّة و من أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النار»»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ»، أي: الأئمّة منهم. و الإسناد، كما في قولهم: بنو تميم قتلوا زيداً. و إنّما قتلوه بعضهم.

«رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ»: من رؤساء الكفرة.

«قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ»: كثرتكم، أو جمع المال.

«وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ»: عن الحقّ، أو على الخلق».

إلى أن قال: «و ينادي «أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» و هم الأنبياء و الخلفاء. «رِجَالًا» من أهل النار و رؤساء الكفّار، يقولون لهم مقرّعين: «ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ و استكباركم».

إلى أن قال: «و في الكافي، عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية: نحن على الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم. و نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلّا بسبيل معرفتنا. و نحن الأعراف يوقفنا الله يوم القيامة على الصراط. فلا يدخل الجنّة إلّا من عرفنا و عرفناه، و لا يدخل النار إلّا من أنكرنا و أنكرناه»، انتهى.

ثم الأعراف قد يطلق على نفس المكان و قد يطلق على المكاني من الرسل و الأئمة عليهم السلام من باب اسم الحال على المحل و بالعكس.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««أَفِيضُوا عَلَيْنَا» فيه دليل على أنّ الجنّة فوق النار؛ «أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» من الأطعمة و الفواكه «قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا» حرّم شراب الجنّة

و طعامها «عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ» الذي كان يلزمهم التديّن به «لَهْوًا وَلَعِبًا» فحرّموا ما شاءوا و استحلّوا ما شاؤوا؛ «فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ» أي: نعاملهم معاملة المنسيّ في النار فلا نجيب لهم دعوة و لا نرحم لهم عبرة؛ «كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا» فلم يخطروه ببالهم و لم يهتمّوا به؛ «وَمَا» في الموضعين مصدريّة و التّقدير كنسيانهم و كونهم جاحدين «بِـَٔايَٰتِنَا»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «ٱللَّهُ» صرف الهمّ بما لا يحسن أن يصرف به. و «اللّعب» طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به. «وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ»: نفعل بهم فعل الناسين، فنتركهم في النار»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ» إلى آخر الآية. هذا في نفسه أخذ اعتراف من أصحاب النار بتوسط أصحاب الجنة و واقع موقع التهكم و السخرية يتهكم و يسخر به أصحاب الجنة من أصحاب النار. و الاستهزاء و السخرية إنّما يكون من اللغو الباطل إذا لم يتعلق به غرض حق كالاستهزاء بالحق و أهله أما إذا كان لغرض المقابلة و المجاراة أو لغرض آخر حق من غير محذور فليس من قبيل اللغو»، انتهى.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««بِكِتَٰبٍ» يعني القرآن، «عَلَىٰ عِلْمٍ» أي: عالمين، كيف نفصّل أحكامه و مواعظه و جميع معانيه حتّى جاء قَيِّماً ... غَيْرَ ذِي عِوَجٍ؛ و «هُدًى وَرَحْمَةً» حال من الهاء في «فَصَّلْنَٰهُ» كما أنّ «عَلَىٰ عِلْمٍ» حال من «نَا» في «فَصَّلْنَٰهُ»؛ «إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ» إلّا عاقبة أمره و ما يئول إليه من تبيّن صدقه و ظهور صحّة ما نطق به من الوعد و الوعيد؛ «يَوْمَ يَأْتِى» عاقبة ما وعدوا به «يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ» أي: تركوا العمل به ترك الناسى له «قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ» اعترفوا بأنّهم جاءوا بالحقّ «فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ» في إزالة العقاب «أَوْ نُرَدُّ» أو هل نردّ إلى الدنيا «فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ»؛ و ارتفع «نُرَدُّ» لوقوعه موقعاً يصلح للاسم كما تقول ابتداء: «هل يضرب زيد»».

و في تفسير: «هَلْ يَنظُرُونَ»:هل ينتظرون.

«إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ»: إلّا ما يؤول إليه أمره، من تبيين صدقه بظهور ما نطق به من الوعد و الوعيد.

«يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ»: قبل يوم القيامة»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ» الآية عود على بدء الكلام أعني قوله في أوّل الآيات: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ» أي: من أعظم من هؤلاء ظلماً و لقد أتممنا عليهم الحجة و أقمنا لهم البيان فجئنا بكتاب فصلناه و أنزلناه إليهم على علم منا بنزوله؟

فقوله: «عَلَىٰ عِلْمٍ» متعلق بقوله: «لَقَدْ جِئْنَٰهُم» و الكلمة تتضمن احتجاجا على حقية الكتاب و التقدير: و لقد جئناهم بكتاب حق: و كيف لا يكون حقا؟ و قد نزل على علم منا بما يشتمل عليه من المطالب.

و قوله: « هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أي: هدى و إراءة طريق للجميع و رحمة للمؤمنين به خاصة، أو هدى و إيصالاً بالمطلوب للمؤمنين و رحمة لهم»

إلى أن قال: «الضمير في «تَأْوِيلُهُۥ» راجع إلى الكتاب»

إلى أن قال: «التأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها حكم أو خبر أو أي أمر ظاهر آخر اعتماد الظاهر على الباطن و المثل على المثل».

إلى أن قال: «ثم يخبر عن حالهم في يوم إتيان التأويل بقوله: يوم يأتي تأويله يقول: «ٱلَّذِينَ نَسُوهُ» إلخ، أي: إذا انكشفت حقيقة الأمر يوم القيامة يعترف التاركون له بحقية ما جاءت به الرسل من الشرائع التي أوجبوا العمل بها، و أخبروا أن الله سيبعثهم و يجازيهم عليها.

و إذ شاهدوا عند ذلك أنهم صفر الأيدي من الخير، هالكون بفساد أعمالهم سألوا أحد أمرين يصلح به ما فسد من أمرهم إمّا شفعاء ينجونهم من الهلاك الذي أطل عليهم أو أنفسهم، بأن يردوا إلى الدنيا فيعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملونه من السيئات و ذلك قوله: حكاية عنهم: «فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ»، انتهى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««إِنَّ» سيّدكم و مالككم «ٱللَّهُ ٱلَّذِى» أنشأ «ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ» و أوجدهما «فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ» في مقدار ستّة أيام من أيام الدنيا، لأنّ إنشاء الشيء بعد الشيء على ترتيب أدلّ على كون فاعله عليما حكيما يدبّره على مقتضي حكمة، أو لأنّه أراد تعليم خلقه التثبّت و التأنّى في الأمور؛ «يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ»، و قرئ بالتخفيف أي: يلحق الليل بالنهار و النهار بالليل بأن يأتى أحدهما عقيب الآخر؛ «يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا» بأن يأتي في أثره كما يأتي الشيء في أثر الشيء طالبا له؛ و «حَثِيثًا» حال من الفاعل أو المفعول أو منهما جميعاً».

إلى أن قال: ««وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ» قرئ الجميع بالنصب حملاً على خلق أي: خلقهنّ جاريات على حسب تدبيره؛ إلى أن قال: «بِأَمْرِهِۦٓ» أي: بمشيئته و تصريفه؛ و سمّي ذلك أمراً على التشبيه كأنّهنّ مأمورات بذلك؛ «أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ» أي: هو الذي خلق الأشياء و هو الذي صرّفها على حسب إرادته؛ «تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً»، إلى أن قال: و كذا قوله: «خَوْفًا وَطَمَعًا»؛ و التضرّع من الضراعة و هي الذلّ أي: تذلّلا و تملّقا».

إلى أن قال: ««إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ» أي: المجاوزين الحدّ المرسوم في جميع العبادات و الدعوات».

إلى أن قال: ««وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ» بالعمل بالمعاصي «بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا» بعد أن أصلحها الله بالكتب و الرسل؛ «إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ» إنّما ذكّر «قَرِيبٌ» على معنى الترحّم، أو لأنّه صفة موصوف محذوف أي: شيء قريب، أو لأنّ تأنيث الّحمة غير حقيقيّ، و المحسن: فاعل الإحسان»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «و في عيون الأخبار: عن الرضا عليه السلام : و كان قادراً على أن يخلقهما في طرفة عين. و لكنّه خلقها في ستّة أيام، ليظهر على الملائكة ما يخلقه منها شيئاً بعد شيء، فيستدلّ بحدوث ما يحدث على الله مرّة بعد مرّة».

إلى أن قال: «و في الكافي، عن الصادق عليه السلام : ثمّ استوى على كلّ شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء.

و في رواية اُخرى: استوى في كلّ شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء. لم يبعد منه بعيد و لم يقرب منه قريب، استوى في كلّ شيء».

إلى أن قال: «و في التوحيد: عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الجاثليق قال: إنّ الملائكة تحمل العرش. و ليس العرش كما تظنّ كهيأة السرير، و لكنّه شيء [محدود] مخلوق مدبّر و ربّك مالكه. لا أنّه عليه، ككون الشيء على الشيء»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى:«ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ - إلى قوله: - بِأَمْرِهِۦ» - الاستواء- الاعتدال على الشيء و الاستقرار عليه».

إلى أن قال: «و - العرش - ما يجلس عليه الملك و ربما كني به عن مقام السلطنة».

إلى أن قال: «و قد استقرت العادة منذ القديم أن يختص العظماء من ولاة الناس و حكامهم و مصادر أمورهم من المجلس بما يختص بهم و يتميزون به عن غيرهم كالبساط و المتكأ حتى آل الأمر إلى إيجاد السرر و التخوت فاتخذ للملك ما يسمى عرشاً و هو أعظم و أرفع و أخص بالملك، و الكرسي يعمه و غيره».

إلى أن قال: «فقوله تعالى: «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ» كناية عن استيلائه على ملكه و قيامه بتدبير الأمر قياماً ينبسط على كل ما دق و جل، و يترشح منه تفاصيل النظام الكوني ينال به كل ذي بغية بغيته، و تقضي لكل ذي حاجة حاجته، و لذلك عقب حديث الاستواء في سورة يونس في مثل الآية بقوله: «يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ» إذ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[1].

ثم فصّل بقوله: «يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ» و يستره به «يَطْلُبُهُۥ» أي: يطلب الليل النهار ليغشيه و يستره حثيثاً سريعاً، و فيه إشعار بأنّ الظلمة هي الأصل، و النهار الذي يحصل من إنارة الشمس ما يواجهها مما حولها، عارض لليل الذي هو الظلمة المخروطية اللازمة لأقل من نصف كرة الأرض المقابل للجانب المواجه للشمس كان الليل يعقبه و يهجم عليه.

و قوله: «وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ» أي: خلقهن و الحال أنّها مسخرات بأمره يجرين على ما يشاء و قرئ الجميع بالرفع، و على ذلك فالشمس و القمر و النجوم معطوفة عليها، و مسخرات خبره، و الباء في قوله: «بِأَمْرِهِۦٓ» للسببية.

و مجموع قوله: «يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ» إلخ، يجري مجرى التفسير لقوله: «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ» على ما يعطيه السياق، و هو الذي تعطيه أغلب الآيات القرآنية التي يذكر فيها العرش فإنّها تذكر معه شيئاً من التدبير أو ما يؤول إليه بحسب المعني.

---

١. يونس: ٤.

قوله تعالى: «أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ» ـ الخلق ـ هو التقدير بضم شيء إلى شيء و إن استقر ثانياً في عرف الدين و أهله في معنى الإيجاد أو الإبداع على غير مثال سابق».

إلى أن قال: «و قد فسر أمره الذي يملكه من الأشياء بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، فبين أن أمره الذي يملكه من كل شيء سواء كان ذاتاً أو صفةً أو فعلاً و أثراً هو قول كن و كلمة الإيجاد و هو الوجود الذي يفيضه عليه فيوجد هو به، فإذا قال لشيء: كن فكان، فقد أفاض عليه ما وجد به من الوجود، و هذا الوجود الموهوب له نسبة إلى الله و هو بذاك الاعتبار أمره و كلمة «كُن» الإلهية، و له نسبة إلى الشيء الموجود، و هو بذاك الاعتبار أمره الراجع إلى ربه، و قد عبر عنه في الآية بقوله: «فَيَكُونُ»».

إلى أن قال: «فقد اعتبر في معنى الخلق تقدير جهات وجود الشيء و تنظيمها سواء كانت متمايزة منفصلاً بعضها عن بعض أم لا بخلاف الأمر».

إلى أن قال: «و قوله تعالى: «تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ» أي: كان ذا بركات ينزلها على مربوبيه من جميع من في العالمين فهو ربهم».

إلى أن قال: و هذا العرش الذي يستفاد من مثل قوله: «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ» أنه مقام في الوجود يجتمع فيه أزمة الحوادث و الأمور كما يجتمع أزمة المملكة في عرش الملك على التفصيل الذي تقدم في بيان الآية يدل على تحقق هذه الصفة له»، انتهى.

---

١. يس: ٨٣ ـ ٨٢.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: «قرئ نشراً مصدر نشر لأنّ « أَرْسَلَ» و «نَشَر» متقاربان فكأنّه قال: ينشر الرّياح نشراً؛ و يجوز أن يكون واقعاً موقع الحال بمعنى منتشرات؛ و نشراً جمع نشور، و نشراً بتخفيفه كرسل و رسل؛ و قرئ: بُشُراً جمع بشيرة و بُشْراً بتخفيفه؛ «بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ» أمام نعمته و هي الغيث الذي هو من أحسن النعم أثراً و أجلّها قدراً؛ «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ» أي: حملت و رفعت «سَحَابًا ثِقَالًا» بالماء جمع سحابة «سُقْنَـٰهُ» الضمير للسحاب على اللفظ «لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ» لأجل بلد ليس فيه حياً و لسقيه؛ «فَأَنزَلْنَا بِهِ» بالبلد أو بالسحاب «ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ» بهذا الماء «مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ» أي: مثل ذلك الإخراج و هو إخراج الثمرات نحيي الأموات بعد موتها «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فيؤدّيكم التذكّر إلى أنّه لا فرق بين الإخراجين إذ كلّ واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه؛ «وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ» الأرض العذاة الكريمة التربة «يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ» زرعه خروجاً زاكياً نامياً «بـ» أمر «رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ» و هو السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به «لَا يَخْرُجُ» نباته «إِلَّا نَكِدًا» فحذف المضاف الذي هو النبات و أقيم المضاف إليه مقامه فاستكنّ في الفعل، أو يكون التقدير و نبات الذي خبث، و النكد: العسر الممتنع

من الخروج؛ «كَذَٰلِكَ» أي: مثل ذلك التصريف «نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ» نردّدها و نكرّرها «لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» نعمة الله»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ»: قدّام رحمته، يعني: المطر. فإنّ الصبا تثير السحاب، و الشمال تجمعه، و الجنوب تحلبه، و الدبور تفرّقه»، انتهى.

و لا يخفى عليك تفسير القرآن ببعض المذكورات حسن لو لم يكن احتمال آخر، نعم لو كان بعض الاُمور المذكوره واضح المراد و لو في زماننا هذا لا بأس التفسير به فافهم.

و في كنز الدقائق: «وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ»: الأرض الكريمة التّربة».

إلى أن قال: «وَٱلَّذِى خَبُثَ»، كالحرّة و السّبخة.

«لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا»: قليلا، عديم النفع. و نصبه على الحال»، انتهى.

و في الميزان: «و الآية تحتج بإحياء الأرض على جواز إحياء الموتى لأنهما من نوع واحد، و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد و ليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدمين من أصلهم فإن أنفسهم و أرواحهم باقية محفوظة و إن تغيرت أبدانهم، كما أنّ النبات يتغير ما على وجه الأرض منها و يبقى ما في أصله من الروح الحية على انعزال من النشوء و النماء ثم تعود إليه حياته الفعالة كذلك يخرج الله الموتى فما إحياء الموتى في الحشر الكلي يوم البعث إلا كإحياء الأرض الميتة في بعثه الجزئي العائد كل سنة، قوله تعالى: «وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ» إلى آخر الآية. النكد القليل. و الآية بالنظر إلى نفسها كالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحة و الآثار الحسنة على الذوات الطيبة الكريمة كخلافها على خلافها»، انتهى.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: «﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف؛ هو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ و هو إدريس النبيّ عليه السلام »

إلى أن قال: «و قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ بيان لوجه اختصاصه بالعبادة؛ و قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بيان للدّاعى إلى عبادته بأنّه هو الذي يحذر عقابه دون من كانوا يعبدونه من دونه؛ و اليوم العظيم هو يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم؛ و الملأ: السادة و الأشراف؛ ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهاب عن الحقّ و الصواب؛ و المراد بالرؤية رؤية القلب الذي هو العلم؛ و قيل: رؤية البصر أي: نراك بأبصارنا على هذه الحال؛ ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أي: ليس بي شيء من الضلال؛ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بيان لكونه رسول ربّ العالمين و هي جملة مستأنفة؛ ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة و في المعاني المختلفة من الأوامر و النواهي؛ ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ في زيادة اللام دلالة على إمحاض النصيحة للمنصوح له؛ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من صفاته و أحواله و شدّة بطشه على أعدائه

«مَا لَا تَعْلَمُونَ»؛ «أَوَعَجِبْتُمْ» الهمزة للإنكار و الواو للعطف و المعطوف عليه محذوف كأنّه قال: أكذّبتم و عجبتم من «أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ» أي: موعظة «مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ» على لسان رجل «مِّنكُمْ» مثل قوله: «مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ» و ذلك أنّهم تعجّبوا من نبوّة نوح و قالوا: «هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ»؛ «لِيُنذِرَكُمْ» ليحذّركم عاقبة الكفر، «وَلِتَتَّقُواْ» و لتوجد منكم التّقوى و هي خشية الله بسبب الإنذار؛ «وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» و لترحموا بالتّقوى إن وجدت منكم؛ «فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ» و كانوا أربعين رجلاً و أربعين امرأةً؛ و قيل كانوا عشرة: بنوه: سام و حام و يافث و ستّة ممّن آمن به؛ و تعلّق قوله: «فِى ٱلْفُلْكِ» بـ «مَعَهُۥ» أو صحبوه فيه، أو بـ«أَنجَيْنَٰهُ» أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان؛ «قَوْمًا عَمِينَ» أي: عمى القلوب غير مستبصرين»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ»: عمي القلب، غير مستبصرين. و أصله «عميين»، فخفّف»، انتهى.

و في الميزان: ««وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ» إلى آخر الآية. النكد القليل. و الآية بالنظر إلى نفسها كالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحة و الآثار الحسنة على الذوات الطيبة الكريمة كخلافها على خلافها»، انتهى.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن
جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن
رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا
نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

و في جوامع الجامع: ««أَخَاهُمْ» في النسب يعني واحداً منهم من قولك: «يا أخا العرب» للواحد منهم، و إنّما جعل واحدا منهم ليكونوا به أسكن و بحاله أعرف في صدقه و أمانته؛ و هو هود بن شالخ».

إلى أن قال: «و عطف «أَخَاهُمْ» على «نُوحاً» و «هُوداً» عطف بيان له؛ و حذف العاطف من قوله: «قَالَ يَقَوْمِ» لأنّه على تقدير سؤال سائل سأل فقال: ما قال لهم هود؟ فقيل: «قَالَ يَقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ»؛ و كذلك قوله: «قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ»؛ و السفاهة: خفّة الحلم و سخافة العقل؛ وصفوه بالسفه حيث هجر دينهم إلى دين الله؛ و قالوا: «فِي سَفَاهَةٍ» و جعلوا السفاهة ظرفاً على طريق المجاز يريدون أنّه متمكّن فيها غير خال عنها؛ و في إجابة نوح و هود و غيرهما من الأنبياء عليهم السلام من نسبوهم إلى الضلال و السفاهة بالكلام الصادر عن الإغضاء و المجاملة ـ مع

علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الخلق و أسفههم ـ أدب حسن؛ و حكاية الله ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء و يدارونهم؛ «أَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ» فيما أدعوكم إليه من توحيد الله و طاعته «أَمِينٌ» ثقة مأمون في تأدية الرسالة فلا أكذب و لا أغيّر؛ «إِذْ جَعَلَكُمْ» أي: وقت جعلكم «خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ» أي: خلفتموهم في الأرض من بعد هلاك قوم نوح بالعصيان؛ «وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً» فيما خلق من أجرامكم ذهاباً في الطول و البدانة؛ قال الباقر عليه السلام كانوا كالنخل الطوّال و كان الرجل منهم ينحو الجبل بيده فيهدّ منه قطعة «فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ» في استخلافكم و بسطة أجسامكم و ما سواهما من نعمه، و واحد الآلاء إلى و نحوه إني و آناء»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ»: مرّ تفسيره.

و في إجابة الأنبياء عليهم السلام الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا و الإعراض عن مقابلتهم بمثلها، مع علمهم بأنّهم أضلّ الخلق و أسفههم، أدب حسن.

و حكاية الله ذلك، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء و يدارونهم. و في قوله: «وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ»، تنبيه على أنّهم عرفوه بالأمرين».

إلى أن قال: «فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»: لكي يفضي ذكر النعم إلى الشكر، المؤدّي إلى الفلاح.

و في اُصول الكافي: عن أبي يوسف البزّاز قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في هذه الآية: أو تدري ما «ءَالَآءَ ٱللَّهِ»؟

قلت: لا.

قال: هي أعظم نعم الله على خلقه، و هي ولايتنا»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ» إلى آخر الآية. الأخ و أصله أخو هو المشارك غيره في الولادة تكويناً لمن ولده و غيره أب أو أُم أو هما معاً أو بحسب شرع إلهي كالأخ الرضاعي أو سنة اجتماعية كالأخ بالدعاء على ما كان يراه أقوام فهذا أصله، ثم استعير لكل من ينتسب إلى قوم أو بلدة أو صنعة أو سجية و نحو ذلك يقال: أخو بني تميم و أخو يثرب و أخو الحياكة و أخو الكرم، و من هذا الباب قوله: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا»».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا» الآية. فيه تعلق منهم بتقليد الآباء، و تعجيز هود مشوبا بنوع من الاستهزاء بما أنذرهم به من العذاب.

قوله تعالى: «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ» إلى آخر الآية.

الرجس و الرجز هو الأمر الذي إذا وقع على الشيء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه، و لذا يطلق على القاذورة لأن الانسان يتنفر و يبتعد عنه، و على العذاب لأن المعذب ـ اسم مفعول ـ يبتعد عمن يعذبه أو من الناس الآمنين من العذاب.

أجابهم بأن إصرارهم على عبادة الأوثان بتقليد آبائهم أوجب أن يحق عليهم البعد (إلى أن قال:) بنزوله عليهم لا محالة، و كني عن ذلك بأمرهم بالانتظار و إخبارهم بأنه مثلهم في انتظار نزول العذاب فقال: «فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ».

و أما قوله: «أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ» فهو رد لما استندوا إليه في ألوهية آلهتهم و هو أنّهم وجدوا آباءهم على عبادتها ـ و هم أكمل منهم و ممن في طبقتهم كهود و أعقل ـ فيجب عليهم أن يقلدوهم.

و محصله أنّكم و آباءكم سواء في أنّكم جميعاً أتيتم بأشياء ليس لكم على ما ادعيتم من صفتها و هي الألوهية من سلطان و هو البرهان و الحجة القاطعة فلا يبقى لها من الألوهية إلا الأسماء التي سميتموها بها إذ قلتم: إله الخصب و إله الحرب و إله البحر و إله البر، و ليس لهذه الأسماء مصاديق إلّا في أوهامكم، فهل تجادلونني في الأسماء، و للانسان أن يسمي كل ما شاء بما شاء إذا لم يعتبر تحقق المعني في الخارج.

و قد تكرر في القرآن الاستدلال على بطلان الوثنية بهذا البيان: «أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ» و هو من ألطف البيان و أرقه، و أبلغ الحجة و أقطعها إذ لو لم يأت الانسان لما يدعيه من دعوى بحجة برهانية لم يبق لما يدعيه من النعت إلا التسمية و التعبير، و من أبده الجهل أن يعتمد الانسان على مثل هذا النعت الموهوم»، انتهى.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗا قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ

خُلَفَآءَ مِن بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤

و في جوامع الجامع: ««قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ» أي: دلالة معجزة و آية ظاهرة شاهدة على صحّة نبوّتي؛ «هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ»؛ (إلى أن قال:) أضافها إلى الله لأنّه خلقها بلا واسطة، و خرجت من صخرة ملساء تمخّضت بها تمخّض النتوج بولدها؛ ثمّ انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء و براء لا يعلم ما بين جنبيها إلّا الله عظماً و هم ينظرون، ثمّ نتجت ولداً مثلها في العظم، و كان لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كلّه، و تسقيهم اللّبن بدله، و لهم شرب يوم يخصّهم لا تقرب فيه ماءهم؛ و «ءَايَةٗ» نصب على الحال و العامل فيها ما دلّت عليه اسم الإشارة التي هي «هَٰذِهِۦ» من معنى الفعل، كأنّه قيل أشير إليها آية؛ و «لَكُمۡ» بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصّة و هو ثمود، لأنّهم عاينوها و سمع غيرهم خبرها و ليس الخبر كالمعاينة، فكأنّه قال: «لكم خصوصا»؛ «فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ» أي: الأرض أرض الله و الناقة ناقة الله فذروها تأكل في أرض ربّها فليست الأرض لكم و لا ما فيها من النبات من إنباتكم؛ «وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ» أي: بعقر أو نحر أو شيء من الأذى إكراماً لآية الله؛ « وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ ـ فِي ٱلۡأَرۡضِ» بأن مكّنكم فيها «مِن بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ» و نزّلكم و جعل لكم فيها مساكن تأوون إليها، «تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا» أي: تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من اللّبن و الآجر، «وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا» تسكنونها في الشتاء؛ و «بُيُوتٗا» نصب على الحال كما يقال: «خط هذا الثوب قميصاً»؛ و هي من الحال المقدّرة

لأنّ الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، و لا الثوب في حال الخياطة؛ «فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ» أي: نعمه عليكم بما أعطاكم من القوّة و التمكّن في الأرض، «وَلَا تَعْثَوْاْ» أي: و لا تبالغوا في الفساد»، انتهى.

و في الميزان: «و السهل خلاف الجبل سمي به لسهولة قطعه ـ قصوراً و هي الدور التي لها سور على ما قيل، و ينحتون الجبال بيوتاً يأوون إليها و يسكنونها.

ثم جمع الجميع و لخصها في قوله: «فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ» و أورده في صورة التفريع مع أنّه إجمال للتفصيل الذي قبله بإيهام المغايرة كأنّه لما أمر بذكر النعم و عد من تفاصيل النعم أشياء كأنهم لا يعلمون بها قيل ثانياً: فإذا كان لله فيكم آلاء و نعم عظيمة أمثال التي ذكرت فاذكروا آلاء الله»، انتهى.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «و «لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ» بدل من «لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ»؛ و الضمير في «مِنْهُمْ» يعود إلى «قَوْمِهِۦ» أو إلى «لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ»؛ «أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ» إنّما قالوه على سبيل السخريّة؛ «فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ» اُسند العقر

إلى جميعهم لأنّه كان برضاهم و إن لم يعقرها إلّا بعضهم و هو قدار بن سالف مع أصحابه؛ و قال النبي ﷺ : «يا عليّ من أشقى الأوّلين؟» قال: «الله و رسوله أعلم» قال ﷺ : «عاقر الناقة، أ تدري من أشقى الآخرين؟» قال: «الله و رسوله أعلم» قال: «الذي يخضب هذه من هذا و أشار إلى لحيته و رأسه؛ «وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» تولّوا عنه و استكبروا عن امتثاله عاتين؛ و أمر ربّهم هو ما أمر به على لسان صالح. إلى أن قال: «فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ» أي: الصيحة التي زلزلت لها الأرض و اضطربوا لها، «فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ» أي: في بلادهم و مساكنهم «جَٰثِمِينَ» أي: ميّتين هامدين لا يتحرّكون، يقال: «فَتَوَلَّىٰ عَنْهُ» تولّى متحسّر على ما فاته من إيمانهم متحزّن لهم «وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ» بذلت فيكم و سعى و لم آل جهداً في النصيحة لكم، و الظاهر يدلّ على أنّه كان مشاهداً لما جرى عليهم و أنّه تولّى عنهم بعد ما أبصرهم موتى صرعى»، انتهى.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: «وَ» أرسلنا «لُوطًا»؛ و «إِذْ» ظرف لـ «أَرْسَلْنَا»؛ «أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ» أ تفعلون السيّئة المتمادية في القبح و هي إتيان الرجال في

أدبارهم، «مَا سَبَقَكُم بِهَا» أي: ما عملها قبلكم أحد؛ و الباء للتعدية و منه قوله: سبقك بها عكاشة ، و «مِنْ» في «مِنْ أَحَدٍ» مزيدة لتوكيد النفي و إفادة معنى الاستغراق؛ و «مِنْ» الثانية للتبعيض؛ «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ» من «أتى المرأة»: إذا غشيها؛ «شَهْوَةً» مفعول له أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلّا مجرّد الشهوة من غير داع آخر؛ و يجوز أن يكون حالاً أي: مشتهين تابعين للشهوة؛ «مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ» في موضع الحال ـ أيضاً ـ أي: تاركين إتيان النساء اللاتى أباح الله إتيانهنّ؛ «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» متجاوزون الحدّ في الفساد حتّى تجاوزتم المعتاد إلى غير المعتاد؛ «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ» يعني ما أجابوا لوطا عمّا كلّمهم به بما يكون جواباً و لكنّهم جاؤوا بما لا يتعلّق بكلامه و نصيحته من الأمر بإخراجه و من معه من المؤمنين من قريتهم؛ «إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» من الفواحش و الخبائث؛ «فَأَنجَيْنَٰهُ» أي: فخلّصنا لوطاً «وَأَهْلَهُۥٓ» المختصّين به من الهلاك «إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ» الذين غبروا في ديارهم أي: بقوا فيها فهلكوا أو كانت كافرة موالية لأهل سدوم، «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا» أي: أرسلنا عليهم الحجارة إرسال المطر نحو قوله: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ»، و المعنى و أمطرنا عليهم نوعا من المطر عجيبا و نحوه قوله: «فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ»»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ»: فنحروها. أسند إلى جميعهم فعل بعضهم للملابسة، أو لأنّه كان برضاهم.

«وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ»: و استكبروا عن امتثاله. و هو ما بلّغهم صالح بقوله: «فذروها»».

إلى أن قال: «فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ»: خامدين ميّتين، لا يتحرّكون. يقال: الناس جثم، أي: قعود لا حراك بهم»، انتهى.

و في الميزان: «فالظاهر أنّ عذابهم إنّما كان بصاعقة سماوية اقترنت صيحة هائلة و رجفة في الأرض أو في قلوبهم «فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ» أي: في بلدهم «جَٰثِمِينَ» ساقطين على وجوههم و ركبهم»، انتهى.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««وَ» أرسلنا «إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا»؛ و كان يقال لشعيب: «خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه، و كانوا أهل بخس للمكيال و الميزان؛ «قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» أي: معجزة شاهدة بصحّة نبوّتي أوجبت عليكم الإيمان بي، «فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ» اُريد بالكيل آلة الكيل و هو المكيال، أو سمّي ما يكال به بالكيل كما قيل:«العيش» لما يعاش به، أو اُريد أوفوا الكيل

و وزن الميزان، أو يكون الميزان بمعنى المصدر كالميعاد و الميلاد؛ «وَلَا تَبْخَسُواْ» و لا تنقصوا و إنّما قيل: «أَشْيَآءَهُمْ» لأنّهم كانوا يبخسون الناس كلّ شيء في مبايعاتهم، «بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا» بعد الإصلاح فيها أي: «لَا تُفْسِدُواْ فِيهَا بَعْدَ» ما أصلح فيها الصّالحون من الأنبياء و أتباعهم (روى اين بخش خط كشيده شده است؟!) فيكون هذه الإضافة كما في قوله: «بَلْ مَكْرُ اللیل وَ النهار» أي: مكركم في الليل و النهار؛ أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف؛ «ذَٰلِكُمْ» إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل و الميزان و ترك البخس و الإفساد في الأرض «خَيْرٌ لَّكُمْ» في الانسانيّة و حسن الأحدوثة و ما تطلبونه من الربح، لأنّ الناس إذا عرفوا منكم النصفة و الأمانة رغبوا في متاجرتكم؛ «إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» مصدّقين لي في قولي: «وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ» منهج من مناهج الدين مقتدين بالشيطان في قوله: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ» تتوعّدون من آمن بالله «وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ»؛ و كانوا يجلسون على الطرق فيقولون لمن يمرّ بها: إنّ شعيباً كذّاب فلا يفتنّكم عن دينكم كما كان يفعل قريش بمكّة؛ «وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا» أي: و تطلبون لسبيل الله عوجاً و المعنى تصفونها للناس بأنّها سبيل معوجّة غير مستقيمة لتصدّوهم عن سلوكها و الدخول فيها؛ «وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا» إذ مفعول به غير ظرف أي: و اذكروا على وجه الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم؛ قالوا: إنّ مدين بن إبراهيم الخليل تزوّج بنت لوط فولدت له فرمى الله في نسلها بالبركة و النماء فكثروا؛ و يجوز إذ كنتم فقراء مقلّين فجعلكم أغنياء مكثرين؛ «وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ» من أفسد قبلكم كقوم نوح و هود و صالح و لوط و كانوا قريبي العهد

بهم؛ «وَإِن كَانَ» جماعة «مِّنكُمْ ءَامَنُواْ» و صدّقوا «بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ» و قبلوا قولي و جماعة لم يصدّقوني «فَٱصْبِرُواْ» فتربّصوا و انتظروا «حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ» بين الفريقين بأن ينصر المحقّ على المبطل؛ و هذا وعيد للكافرين»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» الآية معطوف على القصة الأُولى و هي قصة نوح عليه السلام، و قد بنى عليه السلام دعوته على أساس التوحيد كما بناها عليه من قبله من الرسل المذكورين في القصص المتقدمة»، انتهى.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: قال الذين رفعوا أنفسهم فوق مقدارها من قوم شعيب: ليكوننّ أحد الأمرين: إمّا إخراجكم من بلدتنا، أو عودكم في الكفر؛ و قد يكون العود بمعنى الصيرورة».

إلى أن قال: ««قَالَ» شعيب: «أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ» الواو واو الحال و الهمزة للاستفهام أي: أ تعيدوننا في ملّتكم و تردّوننا إليها في حال كوننا كارهين للدّخول فيها؛ يريد أنّا مع كراهتنا لذلك لما عرفناه من بطلانه لا نرجع، أو أنّكم

لا تقدرون على ردّنا إلى دينكم على كره منّا، فيكون «كَٰرِهِينَ» على هذا بمعنى مكرهين؛ «قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم» معناه إن عدنا في ملّتكم «بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا» بأن أقام لنا الدلائل على بطلانها و أوضح الحقّ لنا فقد افترينا على الله كذباً فيما دعوناكم إليه؛ «وَمَا يَكُونُ لَنَآ» أي: و ما ينبغي لنا و ما يصحّ لنا «أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ» خذلاننا و منعنا الألطاف بأن يعلم أنّها لا تنفع فينا فيكون فعلها بنا عبثاً و الله متعال عن فعل العبث، و يدلّ على هذا قوله: «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا» أي: هو عالم لذاته يعلم كلّ شيء ممّا كان و يكون فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوّل و قلوبهم كيف تتقلّب؛ «عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا» في أن يثبّتنا على الإيمان و يوفّقنا لإزدياد الأيقان؛ و يجوز أن يكون قوله: «إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ» تعليقاً لما لا يكون بما علم أنّه لا يكون على وجه التبعيد، لأنّ مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة، «رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا» أي: أحكم بيننا «وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ» و الفتاحة: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتّى ينفتح ما بيننا و بين قومنا و ينكشف بأن تنزّل عليهم عذابا يتبيّن معه أنّا على الحقّ و أنّهم على الباطل؛ «وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ» الحاكمين»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم»الآية».

إلى أن قال: «و قد أجاب عن نفسه و عن المؤمنين به من قومه، و ذكر أنه و المؤمنين به جميعا كارهون للعود إلى ملتهم فإن في ذلك افتراء للكذب على الله

بنسبة الشركاء إليه، و ما يتبعها من الأحكام المفتراة في دين الوثنية فقوله: «قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا» الآية. بمنزلة التعليل لقوله: «أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ»».

إلى أن قال: «و قوله: «وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا» كالإضراب و الترقي بالجواب القاطع كأنه قال: نحن كارهون العود إلى ملتكم لأن فيه افتراء على الله بل إن ذلك مما لا يكون البتة، و ذلك أن كراهة شيء إنّما توجب تعسر التلبس به دون تعذره فأجاب ثانياً بتعذر العود بعد جوابه أولاً بتعسره، و هو ما ذكرناه من الإضراب و الترقي.

و لما كان قوله: «وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ» في معنى أن يقال: «لن نعود إليها أبدا» و القطع في مثل هذه العزمات مما هو بعيد عن أدب النبوة فإنّه في معنى: لن نعود على أيّ تقدير فرض حتى لو شاء الله، و هو من الجهل بمقامه، استثنى مشية الله فقال: «إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا» فإنّ الانسان كيفما كان جائز الخطأ فمن الجائز أن يخطئ بذنب فيعاقبه الله بسلب عنايته به فيطرده من دينه فيهلك على الضلال.

و في الجمع بين الاسمين في قوله: «ٱللَّهُ رَبُّنَا» إشارة إلى أن الله الذي يحكم ما يشاء هو الذي يدبر أمرنا و هو إله و رب، على ما يقتضيه دين التوحيد لا كما يعلمه دين الوثنية فإنّه يسلّم الألُوهية لله ثم يفرز الربوبية بمختلف شئونها بين الأوثان و يسميها رب البحر و رب البر و هكذا.

و قوله: «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا» كالتعليل لتعقيب الكلام بالاستثناء كأنّه قيل لما استثنيت بعد ما أطلقت الكلام و قطعت في العزم؟ فقال: لأنّه وسع ربي كل

شيء علماً و لا أحيط من علمه إلّا بما شاء فمن الجائز أن يتعلق مشيته بشيء غائب عن علمي ساءني أو سرني كان يتعلق علمه بأنّا سنخالفه في بعض أوامره فيشاء عودنا إلى ملتكم، و إن كنا اليوم كارهين له»، انتهى.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: «قَالَ» أشراف «ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ» للذين دونهم يثبّطونهم عن الإيمان: «لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ» لاستبدالكم الضلالة بالهدى؛ و قيل: تخسرون باتّباعه فوائد البخس و التطفيف، لأنّه ينهاكم عنهما و يحملكم على الإيفاء و التسوية؛ و اللام في «لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ» موطّئة للقسم و جواب القسم «إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ» و قد سدّ مسدّ جواب الشرط؛ «ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا» مبتدأ و خبره «كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا»، و كذلك «كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ»؛ و في هذا الابتداء معنى الاختصاص كأنّه قيل: «ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا» هم المخصوصون

بالهلاك و الاستئصال كأن لم يقيموا في دارهم لأنّ الذين اتبعوا شعيباً أنجاهم الله؛ الذين كذّبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه لأنّهم الرّابحون؛ و في هذا الابتداء و التكرير تسفيه لرأى الملأ و ردّ لمقالتهم و مبالغة في ذلك؛ «فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ» شعيب لمّا رأى إقبال العذاب عليهم و قال: «قَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ» أعذرت إليكم في النصيحة و إبلاغ الرسالة و التحذير ممّا حلّ بكم فلم تصدّقوني، «فَكَيْفَ ءَاسَىٰ» أي: فكيف أحزن «عَلَىٰ قَوْمٍ» ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم و استحقاقهم العذاب النازل بهم؛ و البأساء: البؤس و الفقر و الضرّاء: الضرّ و المرض: «لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» أي: ليتضرّعوا و يتوبوا و يتذلّلوا؛ «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ»، انتهى.

و في الميزان: «فقوله: «ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا» فيه تشبيه حال المكذبين من قومه بمن لم يطيلوا الإقامة في أرضهم فإن أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها في عشيرة أو أهل أو دار أو ضياع و عقار، و أمّا من تمكن في أرض و استوطنها و أطال المقام بها و تعلق بها بكل ما يقع به التعلق في الحياة المادية فإن تركها له متعسر كالمتعذر و خاصة ترك الأُمة القاطنة في أرض أرضها و ما اقتنته فيها طول مقامها. و قد ترك هؤلاء و هم أُمة عريقة في الأرض دارهم و ما فيها، في أيسر زمان أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين»، انتهى.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «اللام في «ٱلْقُرَىٰٓ» إشارة إلى القرى التي دلّ عليها قوله: «وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ» فكأنّه قال: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ» تلك «ٱلْقُرَىٰٓ» الذين كذّبوا و أهلكوا «ءَامَنُواْ» بدل كفرهم «وَٱتَّقَوْاْ» الشرك و المعاصي «لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ» أي: خيرات نامية من السّماء و الأرض بإنزال المطر و إخراج النبات، و المعنى لآتيناهم بالخير من كلّ وجه، « وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم» بسوء كسبهم؛ و معنى فتح البركات تيسيرها عليهم كما ييسّر أمر الأبواب المغلقة بفتحها، و منه قولهم: «فتحت على القارئ»: إذا تعذّرت عليه القراءة فيسّرتها عليه بالتلقين؛ «أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ» المكذّبون لنبيّنا «أَن يَأْتِيَهُم» عذابنا «بَيَٰتًا» أي: بائتين أو وقت بيات؛ و يجوز أن يكون البيات بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم فيكون - أيضاً - حالاً أو ظرفاً؛ و «ضُحًى» نصب على الظرف و هو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت و ارتفعت؛ و الفاء و الواو في «أَفَأَمِنَ» و «أَوَ أَمِنَ» حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار و المعطوف عليه قوله: «فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً» و ما بينهما اعتراض أي: «أ» بعد ذلك «أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا» و أمنوا

«أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى»؛ و قرئ: «أَوَ أَمِنَ» بسكون الواو على العطف بـ «أَوَ»؛ و «وَهُمْ يَلْعَبُونَ» أي: يشتغلون بما لا ينفعهم كأنّهم يلعبون؛ و قوله: «أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ» تكرير لقوله: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ»؛ و مكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر و لاستدراجه إيّاه بالصحة و السلامة و ظاهر النعمة؛ و عن الربيع بن خيثم أنّ ابنته قالت له: ما لى أرى الناس ينامون و لا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه إنّ أباك يخاف البيات؛ «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ» فيه تنبيه على ما يجب أن يكون عليه المكلّف من الخوف لعقاب الله، فيكون كالمحارب الذي يخاف من أعدائه البيات و الغيلة، ليسارع إلى الطاعة و اجتناب المعصية و لا يستشعر الأمن من ذلك فيكون قد خسر دنياه و آخرته بالوقوع في المعاصي»، انتهى.

و في الميزان: «و قوله: «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ» ذلك لأنّه بين في الآيتين الأوليين أنّ الأمن من مكر الله نفسه مكر إلهي يتعقبه العذاب الإلهي فالآمنون من مكر الله خاسرون لأنّهم ممكور بهم بهذا الأمن بعينه»، انتهى.

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: «المعنى «أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ» يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم و يرثونهم أرضهم هذا الشأن و هو أنّا «لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ» كما أصبنا من قبلهم و أهلكناهم كما أهلكنا أولئك».

إلى أن قال: «وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ»: معطوف على ما دلّ عليه المعنى «أَوَ لَمْ يَهْدِ» فلأنّه قيل يغفلون عن الهداية و نطبع على قلوبهم؛ «تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ» مبتدأ و خبر و «نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا» حال؛ و يجوز أن يكون القرى صفة لـ «تِلْكَ» و «نَقُصُّ» خبراً أي: تلك القرى المذكورة نقصّ عليك من أنبائها لتخبر قومك بها فيعتبروا و يحذروا عن الإصرار على مثل حالهم؛ فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذّبوا به أوّلاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمرّوا على التكذيب إلى أن ماتوا مصرّين؛ و معنى اللام تأكيد النفي و أنّ الإيمان كان منافياً لحالهم «كَذَٰلِكَ» أي: مثل ذلك الطبع الشديد «يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ» الضمير للناس على الإطلاق أي: و ما وجدنا لأكثر الناس من عهد فإنّ الأكثر ينقض عهد الله في الإيمان و التقوى، «وَإِن وَجَدْنَآ» و إنّ الشأن و الحديث وجدنا «أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ» خارجين عن الطاعة؛ و الآية اعتراض؛ و يجوز أن يرجع الضمير إلى الأُمم المذكورين و أنّهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرّ: «لَئِنْ أَنجَيْتَنَا لَنُؤْمِنَنَّ» ثمّ لمّا نجّاهم نكثوا؛ و الوجود بمعنى العلم من قولك: «وجدت زيدا ذا الحفاظ»»، انتهى.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««فَظَلَمُواْ بِهَا» معناه فكفروا بآياتنا أجرى الظّلم مجرى الكفر كما قال: «إِنَّ الشرّ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»، أو فظلموا الناس بسببها حين صدّوهم عنها و آذوا الذين آمنوا بها؛ «حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ» جائز أن يكون ضمّن «حَقِيقٌ» معنى «حريص» كما ضمّن «هيّجني» معنى «ذكّرني» في بيت النابغة:

إذا تغنّى الحمام‌الورق هيّجنى و لو تعزّيت (لسان العرب) عنها أمّ عمّار

و يجوز أن يكون موسى عليه السلام أغرق في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام فقال: أنا حقيق على قول الحقّ أي: واجب على قول الحقّ أن أكون أنا قائله، و لا يرضى إلّا مثلي ناطقاً به؛ و قرأ نافع: «حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ» و معناه واجب عليّ «فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أي: خلّهم حتّى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدّسة التي هي وطنهم، و ذلك أنّ فرعون و القبط كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل و استخدموهم في الأعمال الشاقّة، فأنقذهم الله بموسى؛ و كان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر و اليوم الذي دخله موسى أربعمائة عام؛ قال: «إِن كُنتَ

جِئْتَ» من عند من أرسلك «بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ» لتصحّ دعواك و يثبت صدقك؛ «فَأَلْقَىٰ» موسى «عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ» ظاهر أمره لا يشكّ في أنّه ثعبان؛ فوثب فرعون من سريره و هرب و أحدث و صاح: (أي تعوظ) يا موسى خذه و أنا أو من بك و أرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصا؛ «وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ» بياضاً نورانيّاً غلب شعاعها شعاع الشمس؛ و كان موسى عليه السلام آدم فيما يروي؛ «لِلنَّـٰظِرِينَ» أي: للنظّارة هناك»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ» الفاء جوابية كما قيل أي: فأجابه بإلقاء عصاه، و هذه هي فاء التفريع و الجواب مستفاد من خصوصية المورد.

و الثعبان الحية العظيمة و لا تنافي بين وصفه هاهنا بالثعبان المبين و بين ما في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[1]، و الجان هي الحية الصغيرة لاختلاف القصتين كما قيل فإن ذكر الجان إنّما جاء في قصة ليلة الطور و قد قال فيها في موضع آخر: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[2]، و أما ذكر الثعبان فقد جاء في قصة إتيانه لفرعون بالآيات حين سأله ذلك»، انتهى.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا

---

١. القصص: ٣١.

٢. طه: ٢٠.

نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

و في جوامع الجامع: ««قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ» أي: أخّره «وَأَخَاهُ» و أصدرهما عنك حتّى ترى رأيك فيهما و تدبّر أمرهما؛ و قرئ: «أرجئه» بالهمزة، و أرجأه و أرجاه لغتان؛ «قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا» أي: جعلا على الغلبة؛ إلى أن قال: التنكير للتعظيم قالت العرب: إنّ له لإبلاً؛ يقصدون الكثرة؛ و قوله: «وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ» معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب أي: نعم إنّ لكم لأجرا «وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ»، يعني لا أقتصر بكم على الأجر وحده و إنّ لكم مع الأجر ما يقلّ عنده الأجر و هو التبجيل و التقريب».

إلى أن قال: ««فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ» بما أروهم من الحيل و الشعوذة فقد روي أنّهم ألقوا حبالاً غلاظاً و خشباً طوالاً فإذا هي أمثال الحيّات قد ملأت الأرض و ركب بعضها بعضاً»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ» إلى آخر الآية، السحر هاهنا نوع تصرف في حاسة الانسان بإدراك أشياء لا حقيقة لها في الخارج».

إلى أن قال: «و الاسترهاب الإخافة، و معنى الآية ظاهر، و قد عد الله فيها سحرهم عظيماً»، انتهى.

و في التفسير لكتاب الله المنير (التفسير الكرمي): «فعند ما شاهد ملأ فرعون ما خلع قلوبهم من عصا موسى و يده البيضاء قال بعضهم لبعض إنّ هذا الرجل صاحب العصا و اليد لَساحِرٌ عَلِيمٌ بفنون السحر و هو الذي جرأه على مغالبة فرعون و الّا فما أكثر السحرة في مناطقنا و لم تكن أنفسهم تحدثهم بهذا الأمر الجسيم لما يرون من عجزها أمام قهاريّة سطوة فرعون و جبروتيته أنّ هذا الانسان الذي تحدّى جمعكم بما يملك من قوّة ليس من هدفه استخلاص بني إسرائيل من أيدينا بل هدفه بعد استخلاصهم أن يتخذهم عدة و قوة ينقلب بها علينا و يخرجنا من أرضنا و يمتلك المكان مكانتا و يخلفنا في كل أشيائنا فماذا ترون إنّنا يجب علينا أن نتخذ خطة الحازم في مقابل هذا الانسان حتى لا نفتضح بين الأُمم فبعد ما تشاوروا فيما بينهم قالوا لفرعون تأخّر عن جوابه تسليماً له أو تنكيلاً به وَ أَرْسِلْ في مدنك و بلادك من يحشر لك السحرة حتى تتحداه بهم و نرى بعد ذلك ماذا يكون من أمرنا و أمره و الأصل ارجئه من الأرجاء و هو التأخير و المدائن جمع مدينة و الحاشر هو الجامع»، انتهى.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ

لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

و في جوامع الجامع: «معناه فألقاها فصارت حيّة عظيمة، «فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ» ما مصدريّة أو موصولة أي: تلقف إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك، أو ما يأفكونه أي: يقلبونه عن الحقّ إلى الباطل و يزوّرونه؛ روى أنّها لمّا تلقّفت ملء الوادي من الخشب و الحبال و رفعها موسى فعادت عصا كما كانت، و أعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرّقها أجزاء لطيفة و كلا الأمرين يعلم كلّ عاقل أنّه لا يدخل تحت مقدور البشر؛ «فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ» فحصل و ثبت «وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ» أي: صاروا أذلّاء مبهوتين؛ «وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ» أي: و خرّوا سجّداً كإنّما ألقاهم ملق لشدّة خرورهم؛ و قيل: إنّهم لم يتمالكوا ممّا رأوا فكأنّهم ألقوا؛ «قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ» على الإخبار أي: فعلتم هذا الفعل؛ و قرئ: «ءَامَنتُم» بحرف الاستفهام و معناه الإنكار؛ «قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ» قبل أن آمركم بالإيمان به و آذن لكم فيه؛ «إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ» إنّ صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم و موسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء؛ و تواطأتم على ذلك لغرض لكم و هو أن تخرجوا منها القبط و تسكنوها بني إسرائيل، و كان ذلك الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلّا يتّبعوا السحرة في الإيمان؛ «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» وعيد مجمل و قد فصّل الإجمال بقوله: «لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ» أي: من كلّ شقّ طرفا؛ و عن الحسن هو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل

اليسرى، و قيل: إنّ أوّل من قطع من خلاف و صلب: فرعون؛ «إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ» أي: لا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربّنا و رحمته، أو إنّا جميعاً ننقلب إلى الله فيحكم بيننا؛ «وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا» أي: و ما تعيب منّا إلّا الإيمان «بِـَٔايَـٰتِ» الله و هو أصل كلّ منقبة و خير.

إلى أن قال: ««رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا» أفض علينا صبراً واسعاً كثيراً حتّى يغمرنا كما يفرغ الماء إفراغاً «وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» ثابتين»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ» إلى آخر الآية التالية. أرجه بسكون الهاء أمر من الإرجاء بمعنى التأخير و الهاء للسكت أي: أخّره و أخاه و لا تعجل لهما بشر كالقتل و نحوه حتى ترمي بظلم أو قسوة و نحوهما».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ» أي: غلب فرعون و أصحابه «هُنَالِكَ» أي: في ذلك المجمع العظيم الذي تهاجم عليهم فيه الناس من كل جانب ففي لفظ «هُنَالِكَ» إشارة إلى ذلك و هو للبعيد».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ» إلى آخر الآيات. جواب السحرة و هم القائلون هذا المقال و قد قابلوه بما يبطل به كيده، و تنقطع به حجته، و هو أنك تهددنا بالعذاب قبال ما تنقم منا من الإيمان بربنا ظناً منك أن ذلك شر لنا من جهة انقطاع حياتنا به و ما نقاسيه من ألم العذاب، و ليس ذلك شراً فإنّا نرجع إلى ربنا، و نحيا عنده بحياة القرب السعيدة، و لم نجترم إلا ما تعده أنت لنا جرماً و هو إيماننا بربنا فما دوننا إلا الخير»، انتهى.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «لمّا أسلم السحرة قال الملأ ذلك تحريصاً لفرعون على موسى؛ «وَيَذَرَكَ» عطف على «لِيُفْسِدُوا» لأنّه إذا تركهم و لم يمنعهم و كان ذلك مؤدّياً إلى تركه و ترك آلهته فكأنّه تركهم لذلك؛ و روى عن عليّ عليه السلام أنّه قرأ: «وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ» أي: عبادتك؛ و عن ابن عبّاس أنّه لمّا آمن السحرة أسلم من بني إسرائيل ستّمائة ألف نفس فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك، و خافوا أن يغلبوا على الملك؛ و قيل: إنّ فرعون صنع لقومه أصناماً، و أمرهم أن يعبدوها تقرّباً إليه، و لذلك قال: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى»؛ «سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ» أي: سنعيد عليهم ما كنّا نفعله بهم من قتل الأبناء ليعلموا أنّا على ما كنّا عليه من الغلبة و القهر، و أنّهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، و أنّ غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا؛ «قَالَ مُوسَىٰ» عند ذلك «لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ» يسكّنهم و يسلّيهم و يعدهم النصر من الله؛ و قوله: «إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ» يجوز أن يكون اللام للعهد و يعني أرض مصر خاصّة، و أن يكون للجنس فيتناول أرض مصر أيضاً؛ «وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» بشارة

بأنّ الخاتمة المحمودة للمتمسّكين بالتقوى و أنّ المشيئة متناولة لهم؛ «قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا» من بعد نبوّته و تأييده بالمعجزات؛ و قوله: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ» تصريح بما أشار إليه من البشارة و رمز به»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» و هذا جواب من موسى عن قولهم: «أُوذِينَا» إلخ»، انتهى.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: عاقبنا قوم «فِرْعَوْنَ» الذين يئول أمرهم إليه «بِٱلسِّنِينَ» بسني القحط؛ و السنة من الأسماء الغالبة كالدابّة و النجم، و قالوا: أسنت القوم: أقحطوا؛ و عن ابن عبّاس: إنّ السنين كانت لباديتهم و أهل مواشيهم و كان نقص الثمرات في أمصارهم؛ «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» فيتنبّهوا أنّ ذلك لإصرارهم على الكفر؛ «فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ» من الخصب و الرخاء «قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ» أي: هذه مختصّة بنا و نحن مستحقّوها؛ و اللام مثلها في قولك: «الجلّ للفرس»؛ «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ» من جدب و ضيقة «يَطَّيَّرُواْ» أي: يتطيّروا «بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ» و يتشأموا بهم و يقولوا: لو لا مكانهم لما أصابتنا كما قال الكفّار

لرسول الله ﷺ : «هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ»؛ «أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ» أي: سبب خيرهم و شرّهم عند الله و هو حكمه و مشيئته، و الله هو الذي يشاء ما يصيبهم، و ليس شؤم أحد و لا يمنه بسبب فيه كقوله: «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ»»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ» السنون جمع سنة و هي القحط و الجدب، و ظاهر السياق أنه أرسل ما أرسل منهما فصلاً فصلاً، و لذا جمع السنين و لا يصدق الجمع إلا مع الفصل بين سنة و سنة».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ» إلى آخر الآية. كانوا إذا جاءهم الخصب و وفور النعمة و سعة الرزق بعد ارتفاع السنة و نقص الثمرات قالوا: «لَنَا هَٰذِهِۦ» يريدون به الاختصاص و إنّما قلنا: إنّهم كانوا يقولون ذلك بعد ارتفاع السنة و نقص الثمرات لأنّ الانسان بحسب الطبع لا ينتقل إلى ذكر النعمة بما هي نعمة، و لا يتنبه لقدرها إلا بعد مشاهدة النقمة التي هي خلافها، و لا داعي يدعو آل فرعون إلى ذكر النعمة الحسنة و تخصيصها بأنفسهم لولا أنّهم رأوا خلافها و عدوه أمراً بدعاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك فاطيروا بموسى و من معه ثم إذا بدلت السيئة حسنة عدوها لأنفسهم فالتطير عند السيئة بحسب الوقوع قبل قولهم في الحسنة: «لَنَا هَٰذِهِۦ» و إن كان الأمر بحسب الطبع على خلاف ذلك بمعنى أنّهم لو لم يزعموا و لم يرتكز في نفوسهم من اعتيادهم بالرفاهية و وفور النعمة و الخصب أنّهم مخصوصون بذلك يملكونه لم يتطيروا بموسى عند نزول المصيبة عليهم فإنّ من لم تروحه الراحة و العافية لا يتحرج عن خلافهما».

إلى أن قال: «و التطير مشتق من الطير باعتبار اشتماله على نسبة من النسب، و هي نسبة التشؤم فإنّهم كانوا يتشأمون ببعض الطيور كالغراب فاشتق منه ما يفيد معنى التشؤم و هو التطيّر و معناه التشؤم بالطير حتى سمّي مطلق النصيب أو النصيب من الشر و الشأمة طائراً.

فقوله تعالى: «أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» معناه أن نصيبهم من الشر و الشؤم الذي يحق به أن يسمى نصيب الشر و هو العذاب، هو عند الله، و لكن أكثرهم لا يعلمون لظنهم أن ما تجنيه أي:ديهم يفوت و يزول و لا يحفظ عليهم»، انتهى.

و في خلاصة منهج الصادقين: «آگاه باشيد كه آنچه به موسى حواله كرده‌اند و گفته‌اند كه از شآمت وى است چنان نيست «إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ» جز اين نيست كه سبب خير و شر ايشان نزد خدايست و آن اعمال بد ايشان است كه كرام الكاتبين نوشته‌اند و به حضرت او عرض كرده و شآمت آن عملها به ايشان رسيده نه بسبب شآمت موسى «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» و ليكن بيشتر مردمان نمي‌دانند كه آنچه به ايشان مي‌رسد از مكاره و اهوال در دنيا و آخرت بواسطه شومى ايشان است»، انتهى.

و التحقيق إنّ تطيّر بالصالحين لا أساس له لأنّ الحاكم هو الله تعالى فمن عمل عملاً صالحاً فلا وجه للتطيّر بهم و من لم يعمل عملاً صالحاً فالتطير ناشٍ من سوء عمله و الحاكم هو الله تعالى.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««مَهْمَا» هي «ما» المضمّنة معنى الجزاء ضمّت إليها «ما» المزيدة المؤكّدة للجزاء في نحو «أَيْنَمَا تَكُونُواْ» و «إِمَّا نُرِيَنَّكَ» إلّا أنّ الألف قلبت هاء استثقالاً لتكرير المتجانسين؛ و محلّ «مَهْمَا» الرفع بمعنى أيما شيء تأتنا به، أو النصب بمعنى أيما شيء تحضرنا تأتنا به؛ و «مِنْ ءَايَةٍ» تبيين لـ «مَهْمَا» و ذكّر الضمير في «بِهِۦ» على اللفظ و في «بها» على المعني و قد رجع كلاهما إلى «مَهْمَا» و هو في معنى الآية».

إلى أن قال: «و المعنى أنّهم «قَالُواْ» لموسى: أيّ شيء «تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ» الآيات «لِّتَسْحَرَنَا» لتموّه علينا «بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ» بمصدّقين أرادوا أنّهم مصرّون على تكذيبه و إن أتى بجميع الآيات؛ «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ» و هو ما طاف بهم و غلبهم من مطر أو سيل. إلى أن قال: «فـ «قَالُواْ» لـ «مُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ» يكشف عنّا و نحن نؤمن بك، فدعا فرفع، فلم يؤمنوا، فبعث الله عليهم «ٱلْجَرَادَ» فأكلت عامّة زروعهم و ثمارهم، ثمّ أكلت كلّ شيء حتّى الأبواب و سقوف البيوت، و

لم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى، فدعا فكشف عنهم، فما آمنوا، فسلّط الله عليهم «ٱلْقُمَّلَ» و هو الحمنان كبار القردان؛ ففزعوا إلى موسى، فرفع عنهم فقالوا قد تحقّقنا الآن أنّك ساحر، فأرسل الله عليهم «وَٱلضَّفَادِعَ» فامتلأت منها آنيتهم و أطعمتهم».

إلى أن قال: ««ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ» مبيّنات ظاهرات، أو فصّل بين بعضها و بعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم و ينظر أ يوفون بما وعدوا من أنفسهم أم ينكثون إلزاماً للحجّة عليهم؛ «بِمَا عَهِدَ عِندَكَ» ما مصدريّة أي: بعهده عندك و هو النبوّة؛ و الباء إمّا أن يتعلّق بقوله: «ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ» على وجهين: أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحقّ ما عندك من عهد الله؛ أو ادع الله متوسّلاً إليه بعهده عندك، و إمّا أن يكون قسماً أي: أقسمنا بعهد الله عندك: «لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ»؛ و قوله: «إِلَىٰٓ أَجَلٍ» إلى حدّ من الزمان «هُم بَـٰلِغُوهُ» لا محالة فيعذّبون فيه؛ «إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ» جواب «لَمَّا»، يعني فلمّا كشفنا عنهم فاجئوا النكث و بادروه و لم يؤخّروه؛ «فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ» فأردنا الانتقام منهم «فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ» أي: البحر الذي لا يدرك قعره؛ و قيل: هو لجّة البحر؛ «بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟» أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم «بِـَٔايَـٰتِنَا» و غفلتهم عنها»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» مهما من أسماء الشرط معناه أيّ شيء، و قولهم هذا إياس منهم لموسى من أن يؤمنوا به و إن أتى بأيّ آية و في قولهم: «مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا» استهزاء به حيث سموها آية و جعلوا غرضه منها أن يسحرهم أي: إنّك تأتينا بالسحر و تسميها آية».

إلى أن قال: «ٱلرِّجْزُ»: هو العذاب».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ» النكث نقض العهد، و قوله: «إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ» متعلق بقوله: «كَشَفْنَا» و هو يدل على أنّه كان يضم إلى معاهدة أجل مضروب كأن يقول موسى عليه السلام: إنّ الله سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا و ترسلوا معي بني إسرائيل إلى أجل كذا، أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى فلما كشف العذاب عنهم و حل الأجل المضروب نكثوا و نقضوا عهدهم الذي عاهدوا الله و عاهدوا موسى عليه. و الباقي ظاهر»، انتهى.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««ٱلْقَوْمَ» هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون و قومه؛ و «ٱلْأَرْضِ» أرض مصر و الشام ملكها بنو إسرائيل بعد العمالقة و الفراعنة فتصرّفوا في نواحيها الشرقيّة و الغربيّة كيف شاؤوا؛ «ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا» بأنواع

الخصب من الزروع و الثمار و العيون و الأنهار «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ» و هو قوله: «وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ» إلى قوله: «مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ»؛ و «ٱلْحُسْنَىٰ» تأنيث الأحسن صفة للكلمة و معنى «تَمَّتْ» ...

«عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» مضت عليهم من قولك: تمّ على الأمر: إذا مضى عليه و استمرّ؛ «بِمَا صَبَرُواْ» بسبب صبرهم؛ «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ» ما كانوا يعملونه من العمارات و بناء القصور، «وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ» من الجنّات؛ و قرئ «يَعْرِشُونَ» بضمّ الراء و كسرها؛ و هذا آخر ما اقتصّ الله من نبأ فرعون و القبط و تكذيبهم بآيات الله، ثمّ اقتصّ نبأ بني إسرائيل و ما أحدثوه بعد إنقاذهم من فرعون و معاينتهم الآيات العظام؛ «وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» يعني النيل نهر مصر، «فَأَتَوْاْ» فمرّوا «عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ»، قرئ بضمّ الكاف و كسرها، يواظبون على عبادتها؛ و قيل: كانت تماثيل بقر، و ذلك أوّل شأن العجل؛ «قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا» صنماً نعكف عليه «كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ» أصنام يعكفون عليها؛ «وَمَا» كافّة للكاف و لذلك وقعت الجملة بعدها؛ «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» فوصفهم بالجهل المطلق لتعجّبه من قولهم عقيب ما رأوا من الآيات الباهرة؛ «إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ» يعني عبدة التماثيل «مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ» أي: مدمّر مكسّر ما هم فيه من عبادة الأصنام، أي: يتبّر الله دينهم و يهدمه على يدى و يحطم أصنامهم هذه و يجعلها رضاضاً، «وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» أي: ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلّا و هو باطل مضمحلّ لا ينتفعون به؛ «قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا» أغير الله المستحقّ للعبادة أطلب لكم معبوداً و هو فعل بكم ما فعل من الاختصاص بالنعمة التي لم

يعطها أحدا غيركم لتخصّوه بالعبادة و لا تشركوا به غيره؛ و معنى الهمزة الإنكار و التعجّب من طلبهم عبادة غير الله مع كونهم مغمورين في نعمة الله»، انتهى.

و في الميزان: «و قوله: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ» الآية يريد به ما قضاه في حقهم أنه سيورثهم الأرض و يهلك عدوهم، و إليه إشارة موسى عليه السلام في قوله: لهم و هو يسليهم و يؤكد رجاءهم: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ» و يشير إليه في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1]، و تمام الكلمة خروجها من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعلية، و علل ذلك بصبرهم.

و قوله: «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ» الآية. أي: أهلكنا ما كانوا يصنعونه و ما كانوا يسقفونه من القصور و الأبنية و ما كانوا يعرشونه من الكرم و غيره»، انتهى.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ» أي: يبغونكم شدّة العذاب، من «سام السلعة»: إذا طلبها، و هي جملة في موضع الحال من المخاطبين أو من

---

١. القصص: ٥.

آل فرعون، أو جملة مستأنفة لا محلّ لها؛ «وَفِي ذَٰلِكُم» إشارة إلى الإنجاء أو العذاب؛ و البلاء: النعمة أو المحنة؛ و قرئ: «يُقَتِّلُونَ» بالتخفيف؛ كان موسى عليه السلام وعد بني اسرائيل بمصر إن أهلك الله عدوّهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون و ما يذرون، فلمّا هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين و هو شهر ذي القعدة، ثمّ أُنزل عليه التوراة في العشر و كلّمه فيها».

إلى أن قال: «و «مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ» ما وقّت له من الوقت و ضربه له؛ و «أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» نصب على الحال أي: تمّ الميقات بالغاً هذا العدد؛ «وَقَالَ مُوسَىٰ» وقت خروجه إلى الميقات؛ و «هَٰرُونَ» جرّ عطف بيان لأخيه؛ «ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» كن خليفتي فيهم؛ «وَأَصْلِحْ» و كن مصلحاً أو أصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل في حال غيبتي، و من دعاك منهم إلى الإفساد فلا تطعه و لا تتّبعه؛ و في هذا دلالة على أنّ منزلة الإمامة غير داخلة في النبوّة إذ لو كانت داخلة فيها لما احتاج هارون إلى استخلاف موسى إياه في القيام بأمر اُمّته مع كونه نبيّاً»، انتهى.

و في خلاصة منهج الصادقين: «و ياد كنيد كه چون رهانيديم شما را از اتباع فرعون «يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ» مى‌چشانيدند شما را سختى عذاب و مى كشتند پسران شما را به جهت قطع نسل شما و زنده مى گذاشتند زنان شما را به جهت خدمتكارى و بندگى خود «وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ» و در اين رهانيدن بلا نعمتى بود از نزد پروردگار شما».

إلى أن قال: «و چون مدار حساب بر ماه عرب به ديدن هلال است و آن در شب ديده مى‌شود از اين جهت تاريخ را به شب مقيد ساخت»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ» إلى آخر الآية. سامه العذاب يسومه أي: حمله ذلك على طريق الإذلال، و التقتيل الإكثار في القتل و الاستحياء الاستبقاء للخدمة و قد تقدم.

إلى أن قال: كما قيل: و الأنسب بالسياق أن يكون خطاباً لأصحاب موسى بعينهم مسوقاً سوق التعجب إذا نسوا عظيم نعمة الله عليهم»

إلى أن قال: «قوله تعالى: «وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» إلى آخر الآية. الميقات قريب المعنى من الوقت، قال في المجمع: الفرق بين الميقات و الوقت أنّ الميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال، و الوقت وقت الشيء و قدره، و لذلك قيل: مواقيت الحج و هي المواضع التي قدرت للإحرام فيها».

إلى أن قال: «و بالجملة: يعود المعنى إلى أنّه وعده ثلاثين ليلة للتقريب و التكليم ثم وعده عشراً آخر لإتمام ذلك «فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»، و لعله ذكر الليالي دون الأيام ـ مع أنّ موسى مكث في الطور الأربعين بأيامها و لياليها، و المتعارف في ذكر المواقيت و الأزمنة ذكر الأيام دون الليالي ـ لأن الميقات كان للتقرب إلى الله و مناجاته و ذكره، و ذلك أخص بالليل و أنسب لما فيه من اجتماع الحواس عن التفرق و زيادة تهيؤ النفس للأنس و قد كان من بركات هذا الميقات نزول التوراة».

إلى أن قال: «و أما قوله: لأخيه ثانياً: «وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ» فهو أمر له بالإصلاح و أن لا يتبع سبيل أهل الفساد، و هارون نبي مرسل معصوم لا تصدر عنه المعصية، و لا يتأتى منه اتباع أهل الفساد في دينهم، و موسى عليه السلام أعلم بحال

أخيه فليس مراده نهيه عن الكفر و المعصية بل أن لا يتبع في إدارة اُمور قومه ما يشير إليه و يستصوبه المفسدون من القوم أيام خلافته ما دام موسى غائباً.

و من الدليل عليه قوله: «وَأَصْلِحْ» فإنه يدل على أنّ المراد بقوله: «وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ» أن يصلح أمرهم و لا يسير فيهم سيرة هي سبيل المفسدين الذي يستحسنونه و يشيرون إليه بذلك»، انتهى.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««لِمِيقَٰتِنَا» أي: لوقتنا الذي وقّتنا له و حدّدناه؛ و معنى اللام الاختصاص فكأنّه قال: و اختصّ مجيئه لميقاتنا، كما تقول: أتيته لخمس خلون من الشهر؛ «وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ» من غير واسطة كما يكلّم الملك؛ و تكليمه أن ينشئ الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح لأنّ الكلام عرض لابدّ له من محلّ يقوم به؛ و روي أنّه: كان يسمع ذلك الكلام من كلّ جهة؛ «قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ» المفعول الثاني محذوف يعني أرني نفسك انظر إليك أي: اجعلني متمكّناً من رؤيتك بأن تتجلّى لي فأنظر إليك و أراك؛ و إنّما طلب الرؤية لقومه حين قالوا له: «لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً» و لذلك

دعاهم سفهاء و ضلّالاً؛ و قال لمّا أخذتهم الرجفة: «أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ»؛ و لم يسأل ذلك إلّا بعد أن أنكر عليهم و نبّههم على الحقّ فلجّوا و تمادوا في لجاجهم فأراد أن يسمعوا النصّ من عند الله باستحالة الرؤية عليه و هو قوله: «لَن تَرَىٰنِي» ليتيقّنوا و تزول شبهتهم؛ و معنى «لَن» تأكيد النفي الذي يعطيه «لَا»، و ذلك أنّ «لَا» لنفي المستقبل تقول: «لا أفعل غدا» فإذا أكّدت النفي قلت: «لن أفعل غدا»، و المعنى أنّ فعله ينافي حالي كقوله: «لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ»؛ فقوله: «لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ» نفي للرؤية فيما يستقبل و قوله: «لَن تَرَىٰنِي» تأكيد و بيان أنّ الرؤية منافية لصفاته؛ «وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ» معناه أنّ النظر إليّ محال فلا تطلبه و لكن عليك بنظر آخر و هو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك و بمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به و كيف أجعله دكّاً بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنّه حقّق عند طلب الرؤية ما مثّله عند نسبة الولد إليه في قوله: «وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا»؛ «فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ» كما كان مستقراً ثابتاً «فَسَوْفَ تَرَىٰنِي» تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكّه دكّاً و يسوّيه بالأرض؛ «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ» أي: ظهر له اقتداره و تصدّى له أمره و إرادته «جَعَلَهُۥ دَكًّا» أي: مدكوكاً، مصدر بمعنى مفعول، و الدكّ و الدقّ مثلان».

إلى أن قال: ««وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا» من هول ما رأى؛ و صعق من باب فعلته ففعل، تقول: صعقته فصعق و أصله من الصاعقة و معناه خرّ مغشيّاً عليه غشية كالموت؛ «فَلَمَّآ أَفَاقَ» من صعقته «قَالَ سُبْحَٰنَكَ» نُزّهك ممّا لا يجوز عليك «تُبْتُ إِلَيْكَ» من طلب الرؤية «وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» بأنّك لا ترى».

إلى أن قال: ««لَن تَرَىٰنِي» لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة و لن تحتمل قوّتك تلك الآية، «وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ» فإنّي أورد عليه آية من تلك الآيات: «فَإِنِ» ثبت لتجلّيها و «ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ» تثبت لها و تطيقها؛ «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ» فلمّا ظهرت للجبل آية من آيات ربّه «جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا» لعظم ما رأى، «فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ» ممّا اقترحت «وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» بعظمتك و جلالك»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي» الآية، التجلي مطاوعة التجلية من الجلاء بمعنى الظهور، و الدك هو أشد الدق، و جعله دكاً أي: مدكوكاً و الخرور هو السقوط، و الصعقة هي الموت أو الغشية بجمود الحواس و بطلان إدراكها، و الإفاقة الرجوع إلى حال سلامة العقل و الحواس يقال: أفاق من غشيته أي: رجع إلى حال استقامة الشعور و الإدراك.

و معنى الآية على ما يستفاد من ظاهر نظمها أنّه «لَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا» الذي وقتناه له «وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ» بكلامه «قَالَ» أي: موسى «رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ» أي: أرني نفسك أنظر إليك أي: مكني من النظر إليك حتى أنظر إليك و أراك فإن الرؤية فرع النظر، و النظر فرع التمكين من الرؤية، «قَالَ» الله لموسى «لَن تَرَىٰنِي» أبداً «وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ» و كان جبلاً بحياله مشهوداً له أشير إليه بلام العهد الحضوري «وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي» أي: لن تطيق رؤيتي فانظر إلى الجبل فإنّي أظهر له فإن استقر مكانه و أطاق رؤيتي فاعلم أنك

تطيق النظر إلي و رؤيتي «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ» و ظهر «رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ» بتجليه «دَكًّا» مدكوكاً متلاشياً في الجو أو سائحاً «وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا» ميتاً أو مغشياً عليه من هول ما رأى «فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ» رجعت إليك مما اقترحته عليك «وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» بأنّك لا ترى. هذا ظاهر ألفاظ الآية.

و الذي يعطيه التدبر فيها أن حديث الرؤية و النظر الذي وقع في الآية إذا عرضناه على الفهم العامي المتعارف حمله على رؤية العين و نظر الأبصار، و لا نشك و لن نشك أن الرؤية و الإبصار يحتاج إلى عمل طبيعي في جهاز الأبصار يهيئ للباصر صورة مماثلة لصورة الجسم المبصر في شكله و لونه.

و بالجملة هذا الذي نسميه الإبصار عمل طبيعي يحتاج إلى مادة جسمية في المبصر و الباصر جميعاً، و هذا لا شك فيه.

و التعليم القرآني يعطي إعطاء ضرورياً أنّ الله لا يماثله شيء بوجه من الوجوه البتة فليس بجسم و لا جسماني، و لا يحيط به مكان و لا زمان، و لا تحويه جهة و لا توجد صورة مماثلة أو مشابهة له بوجه من الوجوه في خارج و لا ذهن البتة».

إلى أن قال: «فما محصل القول: أنّ من الجائز في قدرة الله أن يقوي سبباً مادياً أن يعلق عمله الطبيعي المادي ـ مع حفظ حقيقة السبب و هوية أثره ـ بأمر هو خارج عن المادة و آثارها متعال عن القدر و النهاية؟ فهذا الإبصار الذي عندنا و هو خاصة مادية من المستحيل أن يتعلق بما لا أثر عنده من المادة الجسمية و خواصها فإن كان موسى يسأل الرؤية فإنّما سأل غير هذه الرؤية البصرية، و بالملازمة ما ينفيه الله في جوابه فإنّما ينفي غير هذه الرؤية البصرية فأمّا هي

فبديهية الانتفاء لم يتعلق بها سؤال و لا جواب، و قد أطلق الله الرؤية و ما يقرب منها معنى في موارد من كلامه و أثبتها كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

إلى أن قال: «فهل المراد بالرؤية حصول العلم الضروري سمي بها لمبالغة في الظهور و نحوها كما قيل.

لا ريب أنّ الآيات تثبت علماً ما ضرورياً لكن الشأن في تشخيص حقيقة هذا العلم الضروري فإنّا لا نسمي كل علم ضروري رؤية و ما في معناه من اللقاء و نحوه كما نعلم بوجود إبراهيم الخليل و إسكندر و كسرى فيما مضى و لم نرهم، و نعلم علماً ضرورياً بوجود لندن و شيكاغو و مسكو و لم نرها، و لا نسميه رؤية و إن بالغنا، فأنت تقول: أعلم بوجود إبراهيم عليه السلام و إسكندر».

إلى أن قال: «و أوضح من ذلك علمنا الضروري بالبديهيات الأولية التي هي لكليتها غير مادية و لا محسوسة مثل قولنا: «الواحد نصف الاثنين».

إلى أن قال: «و نظير ذلك جميع التصديقات العقلية الفكرية، و كذا المعاني الوهمية و بالجملة ما نسميها بالعلوم الحصولية لا نسميها رؤية و إن أطلقنا عليها العلم فنقول علمناها و لا نقول: رأيناها إلّا بمعنى القضاء و الحكم لا بمعنى المشاهدة و الوجدان.

لكن بين معلوماتنا ما لا نتوقف في إطلاق الرؤية عليه و استعمالها فيه، نقول: أرى أنّي أنا و أراني أُريد كذا و أكره كذا، و أحب كذا و أبغض كذا و أرجو كذا و

---

١. القيامة: ٢٣ ـ ٢٢.

أتمنى كذا أي: أجد ذاتي و أشاهدها بنفسها من غير أن أحتجب عنها بحاجب، و أجد و أشاهد».

إلى أن قال: «و تسمية هذا القسم من العلم الذي يجد فيه الانسان نفس المعلوم بواقعيته الخارجية رؤية مطردة، و هي علم الانسان بذاته و قواه الباطنة و أوصاف ذاته و أحواله الداخلية و ليس فيها مداخلة جهة أو مكان أو زمان أو حالة جسمانية أُخرى غيرها فافهم ذلك و أجد التدبر فيه.

و الله فيما أثبت من الرؤية يذكر معها خصوصيات و يضم إليها ضمائم يدلنا ذلك على أنّ المراد بالرؤية هذا القسم من العلم الذي نسميه فيما عندنا أيضاً رؤية كما في قوله: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

إلى أن قال: «فبهذه الوجوه يظهر أنّه يثبت في كلامه قسماً من الرؤية و المشاهدة وراء الرؤية البصرية الحسية، و هي نوع شعور في الانسان يشعر بالشيء بنفسه من غير استعمال آلة حسية أو فكرية، و أنّ للانسان شعوراً بربه غير ما يعتقد بوجوده من طريق الفكر و استخدام الدليل بل يجده وجداناً من غير أن يحجبه عنه حاجب، و لا يجره إلى الغفلة عنه إلّا اشتغاله بنفسه و بمعاصيه التي اكتسبها، و هي مع ذلك غفلة عن أمر موجود مشهود لا زوال علم بالكلية و من أصله فليس في كلامه ما يشعر بذلك البتة بل عبر عن هذا الجهل بالغفلة و هي زوال العلم بالعلم لا زوال أصل العلم. فهذا ما بينه كلامه، و يؤيده العقل بساطع براهينه، و كذا ما ورد من الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام».

إلى أن قال: «و الذي ينجلي من كلامه أن هذا العلم المسمى بالرؤية و اللقاء يتم للصالحين من عباد الله يوم القيامة كما يدل عليه ظاهر قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]، فهناك موطن التشرف بهذا التشريف، و أمّا في هذه الدنيا و الانسان مشتغل ببدنه، و منغمر في غمرات حوائجه الطبيعية، و هو سألك لطريق اللقاء و العلم الضروري بآيات ربه، كادح إلى ربه كدحاً ليلاقيه فهو بعد في طريق هذا العلم لن يتم له حق يلاقي ربه، قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[2]، و في معناه آيات كثيرة اُخرى تدل على أنه إليه المرجع و المصير و المنتهي، و إليه يرجعون و إليه يقلبون»، انتهى.

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««قَالَ» الله: «يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى» اتّخذتك صفوتك و فضّلتك «عَلَى» أهل زمانك من «ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى» و هي أسفار التوراة؛ و قرئ: «بِرِسَـٰلَـٰتِى» على التوحيد؛ «وَبِكَلَـٰمِى» و بتكليمي إيّاك؛ «فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ» أي: أعطيتك من

---

١. القيامة: ٢٣ ـ ٢٢.

٢. الإنشقاق: ٦.

شرف النبوّة و الحكمة، «وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» على النعمة في ذلك فهي من أجلّ النعم».

إلى أن قال: «و المعنى كتبنا له فيها كلّ شيء احتاجت إليه بنو إسرائيل في دينهم من المواعظ و تفصيل الأحكام و الحلال و الحرام و ذكر الجنّة و النار و غير ذلك من العبر و الأخبار؛ «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ» أي: بجدّ و اجتهاد و عزيمة فعل أُولي العزم من الرسل؛ و هو عطف على «كَتَبْنَا لَهُۥ» و التقدير فقلنا له: خذها؛ إلى أن قال: و الضمير في «فَخُذْهَا» لـ «ٱلْأَلْوَاحِ» أو لـ «كُلِّ شَىْءٍ» لأنّه في معنى الأشياء أو لـ «ٱلْمُرْسَلَٰتِ». «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا» أي: فيها ما هو حسن و أحسن كالاقتصاص و العفو و الانتصار و الصبر فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن و أكثر للثواب كقوله: «وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم»».

إلى أن قال: ««سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ» أي: منازل القرون الماضية المخالفة لأمر الله»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» المراد بالاصطفاء الاختيار على وجه التصفية، و لذلك عدي إلى الناس بعلىً، و المراد بالرسالات هو ما حمل من الأوامر و النواهي الإلهية من المعارف و الحكم و الشرائع ليبلغه الناس سواء كان التحميل بواسطة ملك أو بتكليم بلا واسطة ملك فهي غير الكلام و إن حملت بكلام فإنّ الكلام أمر، و المعاني التي يتلقاها السامع منه أمر آخر.

و المراد بالكلام هو ما شافه به الله من غير واسطة ملك و بعبارة اُخرى هو ما يكشف به عن مكنون الغيب، و أما أن يكون من نوع الكلام الدائر بيننا معاشر الانسان فلا فإنّ الكلام عندنا هو أنّا نصطلح و نتعهد فيما بيننا على تخصيص صوت مخصوص من الأصوات لمعنى من المعاني لينتقل ذهن السامع إلى ذلك المعنى ثم نتوسل عند إرادة تفهيمه إلى إيجاد تموج خاص في الهواء يبتدي منّا و ينتهي إلى السامع لننقل به ما في ضميرنا إلى ضمير السامع المخاطب و التكلم بهذا الوجه يستلزم التجسم في المتكلم و الله منزه عنه، و مجرد إيجاد الصوت و تمويج الهواء بإيجاد أسباب الصوت في مكان لا يدل على كون المعاني التي ينتقل إليها الذهن مقصودة لله ما لم تكشف الإرادة بأمر آخر وراء نفس الصوت كما أن من أوجد منّا بدق أو ضرب أو نحوهما صوتاً يدل على معنى لم نحكم بإرادته ذلك ما لم يكشف من حاله أو مقاله قبلاً أنّه قاصد لمعنى ما يوجده من الأصوات.

و ما كلم به الله موسى عليه السلام مما حكاه القرآن الشريف خال عن سؤال الدليل على كونه كلامه، و على كونه مريداً لمعناه فلم يسأل موسى ربه حين سمع النداء من جانب الطور الأيمن من الشجرة: هل هذا منك يا رب؟ و هل أنت مريد معناه؟ بل أيقن بذلك أيقاناً، و نظير الكلام جار في سائر أقسام الوحي غير الكلام.

و هذا يكشف كشفاً قطعياً عن ارتباط خاص من السامع بإرادة مصدر الكلام و الوحي يوجب الانتقال إلى المعنى المقصود و إلّا فمجرد صدور صوت له معنى مفهوم في اللغة منه لا يستلزم صحة الانتساب إليه و لا كونه كلامه كيف؟ و

جميع الألفاظ الصادرة من المتكلمين بما أنّها أصوات تنتهي إليه و ليست كلاماً له بل المتكلم بها غيره، و كثيراً ما يحدث من تصادم الأجسام المختلفة أصوات ذوات معان في اللغة و لا نعده كلاماً له.

و بالجملة تكليمه هو إيجاده اتصالاً و ارتباطاً خاصاً بين مخاطبه و بين الغيب ينتقل به بمشاهدة بعض مخلوقاته إلى معنى مراد، و لا نمنع مقارنة ذلك بأصوات يوجدها الله في خارج أو سمع أو غير ذلك»، انتهى.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««سَأَصْرِفُ» المتكبّرين «عَنْ ءَايَـٰتِيَ» بالطبع على قلوبهم و خذلانهم فلا يتفكّرون فيها و لا يعتبرون بها؛

و في الحديث: إذا عظّمت أُمّتي الدنيا نزعت عنها هيبة الإسلام، و إذا تركوا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر حرمة بركة الوحي؛ و قيل: معناه سأصرفهم عن إبطالها و إن اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال آية موسى فأبى الله إلّا علوّ أمره؛ «بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ» فيه وجهان: أحدهما أن يكون حالاً أي: يتكبّرون غير محقّين لأنّ التكبّر بالحقّ لله وحده، و الآخر أن يكون صلة للتكبّر أي: يتكبّرون بما ليس بحقّ؛ «وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ» من الآيات المنزلة عليهم «لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا»»، انتهى.

و في الميزان: «و قوله: «وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا» عطف على قوله: «يَتَكَبَّرُونَ» و بيان لأحد أوصافهم و هو الإصرار على الكفر و التكذيب.

و كذا قوله: «وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» الآية و تكرار الجملتين المثبتة و المنفية بجميع خصوصياتهما للدلالة على اعتنائهم الشديد و مراقبتهم الدقيقة على مخالفة سبيل الرشد و اتباع سبيل الغي بحيث لا يعذرون بخطأ و لا يحتمل في حقهم جهل أو اشتباه».

قال في الميزان أيضاً: «قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا» الآية تقييد التكبر في الأرض بغير الحق مع أنّ التكبر فيها لا يكون إلا بغير الحق كتقييد البغي في الأرض بغير الحق للتوضيح لا للاحتراز و يراد به الدلالة على وجه الذم في العمل و أنّ التكبر كالبغي مذموم لكونه بغير الحق.

و أمّا ما قيل: إن القيد احترازي للدلالة على أن المراد هو التكبر المذموم دون التكبر الممدوح كالتكبر على أعداء الله و التكبر على المتكبر و هو تكبر بالحق ففيه أن المذكور في الآية ليس مطلق التكبر بل التكبر في الأرض، و هو الاستعلاء على عباد الله و استذلالهم و التغلب عليهم، و هذا لا يكون إلا بغير الحق».

إلى أن قال: «أنّ الحبط من الجزاء فإنّ الجزاء بالعمل و إذا كان العمل حابطاً فإحباطه هو الجزاء، و الحبط إنّما يتعلق بالأعمال التي فيها جهة حسن فتكون نتيجة إحباط الحسنات ممّن له حسنات و سيئات أن يجزى بسيئاته جزاء سيئاً و يجزى بحسناته بإحباطها فيتمحض له الجزاء السيئ»، انتهى.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««مِن بَعْدِهِۦ» أي: من بعد خروجه إلى الطور؛ «مِنْ حُلِيِّهِمْ» التي استعاروها من قوم فرعون و بقيت في أيديهم بعد هلاك فرعون و قومه فاتّخذ السامريّ منها «عِجْلًا جَسَدًا» لا روح فيه، و هو بدل من «عِجْلًا»؛ «لَّهُۥ خُوَارٌ» أي: صوت، و الحليّ جمع حلى؛ و قرئ: «حُلِيِّهِمْ» بكسر الحاء على لاتباع، و من حليهم على التوحيد؛ و هو اسم ما يتحسّن به من الذهب و الفضّة؛ و قيل: كان جسداً ذا لحم و دم كسائر الأجساد؛ و عن الحسن: أنّ السامريّ قبض قبضة من تراب أثر حافر فرس جبرئيل يوم قطع البحر فقذفه في العجل فكان عجلاً له خوار؛ «أَلَمْ يَرَوْا» حين اتخذوه إلها «أَنَّهُۥ لَا» يقدّر على كلام و لا على هداية سبيل حتّى لا يتّخذوه معبوداً، ثمّ ابتدأ فقال: «ٱتَّخَذُوهُ» أي: أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر، «وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ» في كلّ شيء؛ فلم تكن عبادة العجل أمراً بديعاً منهم؛ «وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ» و لمّا اشتدّ ندمهم على عبادة العجل، لأنّ من شأن من اشتدّت حسرته أن يعضّ على يديه غمّاً، فتصير يده مسقوطاً فيها، لأنّ فاه قد وقع فيها، «وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟» و تبيّنوا ضلالهم بعبادة العجل حين رجع إليهم موسى»، انتهى.

و في الميزان: «و كيف كان فقوله: «وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا» معناه اتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه قبل أن يرجع - فإنه سيذكر رجوعه إليهم غضبان - عجلاً فعبدوه، و كان هذا العجل الذي اتخذوه «جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ» ثم ذمهم الله بأنهم لم يعبئوا بما هو ظاهر جلي بين عند العقل في أول نظرته أنّه لو كان هو الله لكلمهم و لهداهم السبيل فقال: «أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا».

و إنّما ذكر من صفاته المنافية للألوهية عدم تكليمه إياهم و عدم هدايته لهم و سكت عن سائر ما فيه كالجسمية و كونه مصنوعاً و محدوداً ذا مكان و زمان و شكل إلى غير ذلك مع أن الجميع ينافي الألوهية لأنّ هاتين الصفتين أعني التكليم و الهداية من أوضح ما تستلزمه الألوهية من الصفات عند من يتخذ شيئاً إلهاً إذ من الواجب أن يعبده بما يرتضيه و يسلك إليه من طريق يوصل إليه، و لا يعلم ذلك إلّا من قبل الإله بوجه فهو الذي يجب أن يهديه إلى طريق عبادته بنوع من التكليم و التفهيم، و قد رأوا أنّه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلاً»، انتهى.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

و في جوامع الجامع: «الأَسِف»: الشديد الغضب؛ «قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي» أي: قمتم مقامي و كنتم خلفائي. إلى أن قال: و المخصوص بالذمّ محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم؛ «أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ» تقول: عجلت عن الأمر: إلى أن قال: فالمعنى أ عجلتم عن أمر ربّكم و هو انتظار موسى حافظين لعهده فبنيتم الأمر على أنّ الميعاد قد بلغ آخره و حدّثتم أنفسكم بموتي ففعلتم ما فعلتم؛ روي أنّ السامريّ قال لهم: إنّ موسى لن يرجع و أنّه قد مات؛ «أَلْقَى الْأَلْوَاحَ» أي: طرحها لما لحقه من الضجر غضباً لله و حميّة لدينه، «وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ» أي: بشعر رأسه «يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ» لشدّة ما ورد عليه من الأمر، «قَالَ» هارون «ابْنَ أُمَّ» قرئ بالفتح تشبيهاً بـ «خمسة عشر» و بالكسر على طرح ياء الإضافة؛ و عن الحسن: و الله لقد كان أخاه لأبيه و أُمّه و إنّما نسبه إلى الأُمّ لأنّ ذكر الأُمّ أبلغ في الاستعطاف؛ «إِنَّ الْقَوْمَ» الذين تركتني بين أظهرهم «اسْتَضْعَفُونِي» قهروني و اتّخذوني ضعيفاً و لم آل جهداً في كفّهم بالإنذار و الوعظ، «وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي» أي: همّوا بقتلي لشدّة إنكاري عليهم، «فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ» فلا تفعل بي ما هو أمنيّتهم من الإساءة بي، «وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أي: قرينا لهم في إظهار الموجدة عليّ؛ «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي» بيّن بهذا الدعاء أنّه لم يجرّ رأسه إليه لعصيان وجد منه و إنّما فعله كما يفعل الانسان بنفسه عند شدّة الغضب على غيره»، انتهى.

و في خلاصة منهج الصادقين: « وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ» و بگرفت موسى سر برادر خود را و می کشید آن را به جانب خود موسى اگرچه مي‌دانست که از

هارون تقصیری واقع نشده اما موسی سر او را گرفته پیش خود کشیده تا بر ایشان ظاهر شود که امری عظیم از ایشان ظاهر شده که موسی به این مرتبه در غضب رفته و بی طاقت شده بدانند که با برادر که گناهی ندارد چنین می کند پس با ایشان در چه مقام باشد تا از آن منزجر شده آن اعتقاد فاسد را از خود محو کنند».

إلی أن قال: «و بعد از آن گفت «إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى» به درستی که قوم مرا بیچاره دیدند و تنها یافته زبون گرفتند «وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى» و کید کردند که بکشند مرا از بسیاری مبالغه من در منع ایشان و عدم معاونی و ناصری در این باب تا با ایشان قوت مقاومت داشته منع ایشان نمایند.

«قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى» گفت موسی ای پروردگار من بیامرز مرا و برادر مرا این دعا بر وجه انقطاع است و مزیت تقرب به او و هضم نفس تا به سبب آن تحصیل ثواب و رفع درجات خود و برادر خود کند نه به جهت آنکه از او و برادر او فعل قبیحی صادر شده باشد»، انتهی.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ» الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم، و الذلّة خروجهم من ديارهم، لأنّ الغربة ذلّة؛ و قيل: هي الجزية المضروبة عليهم؛ «وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ» على الله و لا فرية أعظم من قول السامريّ. إلى أن قال: «وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ» هذا مثل كأنّ الغضب كان يغريه على ما فعل و يقول له: ألق الألواح و جرّ برأس أخيك إليك فترك النّطق بذلك؛ و المعنى و لمّا طفئ غضبه «أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ» التي ألقاها «وَفِى نُسْخَتِهَا» و فيما نسخ فيها و كتب، و النسخة فعلة بمعنى مفعول كالخطبة»، انتهى.

ثم إنّ هنا سؤال و هو أنّ هارون عليه السلام نبيّ معصوم و مع العصمة كيف لم يفعل ما أمره موسى عليه السلام و يمكن الجواب عنه بأنّ هارون عليه السلام أراد امتثال أمر أخيه ولكن يمنعه الحوادث من استضعاف الاُمة و تفرّقهم عن حول هارون عليه السلام و موسى عليه السلام لم يعلم تلك الحوادث و أبرز أسفه بما فعل بالنسبة إلى أخيه حتى تعلم الاُمة خطأهم فتدبّر جيّداً.

و ما ذكرناه أرجح ممّا قيل في تفسير الآية و عدم منافاته مع العصمة.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: «تقديره: «وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ» من قومه فحذف الجارّ؛ «سَبْعِينَ رَجُلًا» خرج بهم إلى طور سيناء «لِمِيقَـٰتِ رَبِّه»، فلمّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتّى تغشّى الجبل كلّه، و دنا موسى و دخل فيه و دخلوا و سجدوا فسمعوا كلام الله، ثمّ انكشف الغمام فطلبوا الرؤية فأنكر عليهم، فقالوا: ««لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً»»، فـ «قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ» فأُجيب بـ «لَن تَرَىٰنِي»، و رجف بهم الجبل فصعقوا، «فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ» موسى «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـَٔىَ»؛ و هذا تمنّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية؛ «أَتُهْلِكُنَا» يعني نفسه و إيّاهم «بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ» لأنّه إنّما طلب الرؤية زجراً للسّفهاء و هم طلبوه سفهاً و جهلاً، «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» أي: محنتك و ابتلاؤك حين كلّمتني و سمعوا كلامك فاستدلّوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسدا حتّى افتتنوا و ضلّوا؛ «تُضِلُّ بِهَا» بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك «وَتَهْدِي» العالمين بك؛ و جعل ذلك إضلالاً و هدى من الله لأنّ محنته لمّا كانت سبباً لأن ضلّوا و اهتدوا فكأنّه أضلّهم بها و هداهم؛ «أَنتَ وَلِيُّنَا» مولانا و القائم بأُمورنا»، انتهى.

و في الميزان: «و ظاهر سياق الآية و كذا ما في سورة طه من آيات القصة أنّ موسى غضب على هارون كما غضب على بني إسرائيل غير أنّه غضب عليه حسباناً منه أنّه لم يبذل الجهد في مقاومة بني إسرائيل لما زعم أنّ الصلاح في ذلك مع أنّه وصاه عند المفارقة وصية مطلقة بقوله: «وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

ٱلْمُفْسِدِينَ» و هذا المقدار من الاختلاف في السليقة و المشية بين نبيين معصومين لا دليل على منعه، و إنّما العصمة فيما يرجع إلى حكم الله دون ما يرجع إلى السلائق و طرق الحياة على اختلافها»، انتهى.

و قد تقدم الوجه الراجح و ما ذهب إليه في الميزان محل إشكال إذ الخطأ في غير الأحكام أيضاً يوجب سلب الاعتماد فتدبّر جيّداً.

قال في الميزان: «قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ» الآية، دعاء منه و قد تقدم في الكلام على المغفرة في آخر الجزء السادس من الكتاب أنّ المغفرة أعم مورداً من المعصية»، انتهى.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: «وَ» أثبت «لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً» أي: عافية و حياة طيّبة «وَفِي ٱلْآخِرَةِ» الجنّة «إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ» أي: تبنا إليك من «هاد إليه»: إذا

رجع و تاب؛ و الهود جمع هائد و هو التائب؛ «قَالَ عَذَابِيٓ» من صفته أنّي «أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ» ممّن عصاني و استحقّه بعصياني «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» فما من مسلم و لا كافر و لا مطيع و لا عاص إلّا و هو متقلّب في نعمتي؛ «فَسَأَكْتُبُهَا» هذه الرّحمة كتبة خاصّة منكم يا بني إسرائيل «لِلَّذِينَ» يكونون في آخر الزمان من اُمّة محمّد ﷺ «وَٱلَّذِينَ هُم بِـ» جميع «ايَٰتِنَا» و كتبنا «يُؤْمِنُونَ» لا يكفرون بشيء منها؛ «ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ» الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به و هو القرآن «ٱلنَّبِيَّ» المؤيّد بالمعجزات «ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ» أي: يجدون نعته أولئك الذين يتّبعونه من بني إسرائيل «مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ»؛ «وَيُحِلُّ لَهُمُ» ما حرّم عليهم من الأشياء الطيّبة كالشحوم و غيرها أو ما طاب في الشريعة؛ «وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ» ما يستخبث نحو الميتة و الدم و لحم الخنزير، أو ما خبث في الحكم من المكاسب الخبيثة، «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ» و الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه أي: يحبسه من الحراك لثقله، و هو مثل لثقل تكليفهم نحو قتل الأنفس في التوبة، وَ كذلك «وَٱلْأَغْلَٰلَ» مثل لما كان في شرائعهم من التكاليف الشاقّة نحو قرض موضع النجاسة من الجلد و الثوب و إحراق الغنائم و تحريم السبت، «عَزَّرُوهُ» و منعوه حتّى لا يقوى عليه عدوّ؛ أصل العزر: المنع و منه التعزير للضرب دون الحدّ لأنّه يمنع من معاودة القبيح؛ و «ٱلنُّورَ» القرآن، «أُنزِلَ مَعَهُۥٓ» أي: مع نبوّته، أو تعلّق «مَعَهُۥٓ» بـ «ٱتَّبَعُواْ» أي: و اتّبعوا القرآن الذي أنزل مع اتباع النبيّ و العمل بسنّته، أو و اتّبعوا القرآن كما اتبعه النبيّ يصاحبونه في اتباعه»، انتهى.

ثم إنّ الظاهر من الآية الكريمة أنّها في مقام بيان أدلة رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و هي أُمور: منها البشارات بإتيان النبي مع خصوصياتها بحيث يعرفونه كما يعرفون أبنائهم.

و منها: خصوصيات محتوى رسالته من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و تحليل الطيبات و تحريم الخبائث و ...

و منها: إتيان المعارف مع أنّه أُمّي و لا فرق فيه بين أن يكون الأُمّي باعتبار عدم التدرس أو باعتبار عدم كونه مكيّاً لأنّ أهل مكه ليس لهم تعلم و دراسة.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««جَمِيعًا» نصب على الحال من «إِلَيْكُمْ»؛ «ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» في موضع الجرّ على الوصف لله، أو النصب على المدح

بإضمار أعني؛ و «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» بدل من الصلة التي هي «لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»؛ و كذلك «يُحْيِۦ وَيُمِيتُ»؛ و في «لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» بيان للجملة قبلها، لأنّ من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة؛ و في «يُحْيِۦ وَيُمِيتُ» بيان لاختصاصه بالإلهيّة، لأنّه لا يقدر على الإحياء و الإماتة غيره؛ «وَكَلِمَٰتِهِۦ» يريد بها ما أُنزل عليه و على من تقدّمه من الرسل؛ «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» إرادة أن تهتدوا؛ «وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ» هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل «يَهْدُونَ» الناس «بِـ» كلمة «ٱلْحَقِّ» و يدلّونهم على الاستقامة و يرشدونهم؛ «وَ» بالحقّ «يَعْدِلُونَ» بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممّن أدرك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و آمن به من أعقابهم؛ «وَقَطَّعْنَٰهُمُ» و صيّرناهم قطعاً أي: فرقاً و ميّزنا بعضهم من بعض؛ و الأسباط: أولاد الولد جمع سبط، و الأسباط في ولد يعقوب من إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، و كانوا اثنى عشر سبطاً؛ و قوله: «أَسْبَاطًا» بدل من «ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ» و المميّز محذوف و التقدير اثنتي عشرة فرقة؛ و «أُمَمًا» نصب على الحال يعني أنّ كلّ سبط من الأسباط كانت أمّة عظيمة و جماعة كثيرة؛ «فَٱنۢبَجَسَتْ» فانفجرت و هو الانفتاح بسعة و كثرة».

إلى أن قال: ««قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ» أي: كلّ أمّة من تلك الأُمم «مَّشْرَبَهُمْ»؛ و الأناس اسم جمع غير تكسير»، انتهى.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ

ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

و في جوامع الجامع: ««ٱلْقَرْيَةَ» بيت المقدس؛ و قرئ: «نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ» و خطيئتكم أيضاً؛ و قرئ: «نَّغْفِرْ لَكُمْ» بالنّون «خَطِيٓـَٔتِكُمْ» و خطاياكم؛ «وَسْـَٔلْهُم» و سل اليهود؛ و قرئ: «وَسْـَٔلْهُم»؛ و هو سؤال تقرير و تقريع بقديم كفرهم و تجاوزهم لحدود الله؛ «حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ» قريبة منه؛ «إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ» إذ يتجاوزون حدّ الله فيه و هو اصطيادهم في يوم السبت و قد نهوا عنه؛ و السبت مصدر سبتت اليهود: إذا عظّمت سبتها بترك الصيد و الاشتغال بالتعبّد؛ و كذلك قوله: «يَوْمَ سَبْتِهِمْ» معناه يوم تعظيمهم أمر السبت؛ و «إِذْ يَعْدُونَ» محلّه جرّ بدل من القرية؛ و المراد بالقرية أهلها؛ و التقدير واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت و هو بدل الاشتمال؛ و يجوز أن يكون منصوب المحلّ بـ «كَانَتْ» أو بـ «حَاضِرَةَ»؛ و «إِذْ تَأْتِيهِمْ» منصوب بـ «إِذْ يَعْدُونَ»؛ و يجوز أن يكون بدلاً بعد بدل؛ «شُرَّعًا» ظاهرة على وجه الماء؛ و عن الحسن: تشرع الحيتان على أبوابهم كأنّها الكباش البيض؛ يقال: شرع علينا فلان: إذا دنا منّا و أشرف علينا؛ «كَذَٰلِكَ» أي: مثل ذلك البلاء نبلوهم بسبب فسقهم؛«وَإِذْ قَالَتْ» معطوف على «إِذْ يَعْدُونَ» و إعرابه إعرابه، «أُمَّةٌ مِّنْهُمْ» أي: جماعة من

أهل القرية من صلحائهم يئسوا من قبولهم وعظهم لآخرين كانوا ينهونهم و يعظونهم: «لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ» أي: مخترمهم في الدنيا بسبب معصيتهم «أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا» في الآخرة؛ قال الواعظون: «مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ» أي: موعظتنا معذرة إلى الله و تأدية لفرضه في النهي عن المنكر، «وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» و لطمعنا أن يتّقوا و يرجعوا؛ و قرئ: «مَعْذِرَةً» بالنصب أي: وعظناهم معذرة أو اعتذرنا معذرة»، انتهى.

ثم لقائل أن يقول: «إنّ المستفاد من الآية الكريمة أمور: أحدها أنّ تبديل شيء ممّا نزل من الله ظلم و موجب للعذاب. ثانيتها: الطمع لتقوى الآخرين أمر مطلوب».

و في كنز الدقائق: ««وَسْـَٔلْهُم »: سؤال تقريع بتقديم كفرهم و عصيانهم».

إلى أن قال: التي كانت حاضرة البحر قريبة منه.

إلى أن قال: «إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ»: يتجاوزون حدود الله، بالصيد يوم السبت».

إلى أن قال: «يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا»: يوم تعظيمهم أمر سبتهم. مصدر سبتت اليهود: إذا عظّمت سبتها بالتجرّد للعبادة.

و «الشُرَّع» جمع، شارع. من شرع عليه: إذا دنا منه و أشرف، أي: ظاهره على وجه الماء».

إلى أن قال: «إِذْ قَالَتْ» عطف على قوله: «إِذْ يَعْدُونَ».

إلى أن قال: «أُمَّةٌ مِّنْهُمْ»: جماعة من أهل القرية، يعني: صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم، حتّى أيسوا من أيقاظهم».

إلى أن قال: «قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ»: جواب للسؤال، أي: موعظتنا إنهاء عذر إلى الله حتّى لا تنسب إلى تفريط في النهي عن المنكر»، انتهى.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـٔيِسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««فَلَمَّا نَسُواْ» يعني أهل القرية أي: تركوا ما ذكّرهم به الصّالحون ترك الناسي لما ينساه «أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـٔيِسٍۭ» أي: شديد؛ و لم يذكر الفرقة الثالثة التي قالت: «لِمَ تَعِظُونَ» أ هي من النّاجية أم من الهالكة، و اختلف في ذلك: فقيل: هلكت الفرقتان و نجت الفرقة الناهية: و روي ذلك عن الصادق عليه السلام»، انتهى.

و في الميزان: «و في الآية دلالة على أنّ الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، و قد أخذ الله الباقين، و هم الذين يعدون في السبت و الذين قالوا: «لِمَ تَعِظُونَ» إلخ.

و فيه دلالة على أنّ اللائمين كانوا مشاركين للعادين في ظلمهم و فسقهم حيث تركوا عظتهم و لم يهجروهم».

إلى أن قال: «قوله تعالى: «فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ» العتو المبالغة في المعصية و القردة جمع القرد و هو الحيوان المعروف، و الخاسئ الطريد البعيد من خسأ الكلب إذا بعد»، انتهى.

و في كنز الدقائق: «و في كتاب الخصال: عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: «فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ».

قال: كانوا ثلاثة أصناف: فصنف ائتمروا و أمروا، [فنجوا]، و صنف ائتمروا و لم يأمروا، [فمسخوا ذراً] و صنف لم يأمروا و لم يأتمروا، فهلكوا»، انتهى.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: «هو تفعّل من الإيذان و هو الإعلام، و معناه «وَ» اذكر «إِذْ» عزم «رَبُّ» لأنّ العازم على الأمر يحدّث به نفسه و يؤذنها بفعله، و أجرى مجرى فعل القسم كـ «عَلِمَ الله» و «شَهِدَ الله»، و لذلك أُجيب بما يجاب به القسم و هو قوله: «لَيَبْعَثَنَّ»، فكأنّه قال: «وَإِذْ» كتب «رَبُّك» على نفسه و أوجب «لَيَبْعَثَنَّ» على اليهود «إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ»، فكانوا يؤدّون

الجزية إلى المجوس إلى أن بعث الله محمّداً ﷺ ثمّ ضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر؛ و معنى «لَيَبْعَثَنَّ» ليسلّطنّ عليهم كقوله: «بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا»؛ «وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا» أي: فرّقناهم في البلاد فرقاً و جماعات شتّى، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم، «مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ» و هم الذين آمنوا بالله و رسوله «وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ» أي: و منهم ناس دون ذلك الوصف أي: منحطّون عنه؛ فقوله: «دُونَ ذَٰلِكَ» في محلّ الرفع لأنّه صفة لموصوف محذوف، و نحوه قوله: «وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» أي: و ما منّا أحد إلّا له مقام؛ «وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ» بالنعم و النقم و المنح و المحن «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ينتهون فينيبون»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ» إلى آخر الآية تأذن و أذن بمعنى أعلم، و اللام في قوله: «لَيَبْعَثَنَّ» للقسم، و المعنى: و اذكر إذ أعلم ربك أنه قد أقسم ليبعثن على هؤلاء الظالمين بعثاً يدوم عليهم ما دامت الدنيا من يذيقهم»، انتهى.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ» أي: من بعد المذكورين «خَلْفٌ» و هم الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إلى أن قال: ««وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ» بقيت التّوراة في أيديهم بعد سلفهم يقرءونها و يدرسونها و لا يعملون بها؛ «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ» أي: متاع هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا و ما يتمتّع به منها؛ و في قوله: «هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ» تحقير و تخسيس و هو إمّا من الدنوّ بمعنى القرب، و إمّا من الدناءة و سقوط الحال؛ و المراد ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام و على تحريف الكلم للتسهيل على العامّة، «وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا» أي: لا يؤاخذنا الله بما أخذنا؛ «وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ» الواو للحال أي: يرجون المغفرة و هم مصرّون عائدون إلى مثل فعلهم؛ «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ» ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين الميثاق في التوراة أن لا يكذبوا على الله و لا يضيفوا إليه إلّا ما أنزله كأنّه قيل: أ لم يقل لهم: «أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ» و قرءوا ما فيه فهم ذاكرون لذلك؛ «وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ» من ذلك العرض الحقير «لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ» محارم الله «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» قرئ بالياء و التاء؛ «وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ» مرفوع بالابتداء و خبره «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ»، و المعنى لا نضيع أجرهم، وضع الظاهر موضع المضمر لأنّ المصلحين في معنى الذين يمسّكون بالكتاب؛ و يجوز أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتّقون و يكون قوله: «إِنَّا لَا نُضِيعُ» اعتراضاً»، انتهى.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» قلعناه و رفعناه كقوله: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ»؛ و الظلّة كلّ ما أظلّك من سقيفة أو سحاب؛ «وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ» و علموا أنّه ساقط عليهم، و ذلك أنّهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، و كان فرسخاً في فرسخ، و قيل لهم: إن قبلتموها بما فيها و إلّا ليقعنّ عليكم، فلمّا نظروا إلى الجبل خرّوا سجّداً على أحد شقّي وجوههم ينظرون إلى الجبل فرقاً من سقوطه؛ «خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ» إلى أن قال: «و عزم على احتمال تكاليفه؛ «وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ» من الأوامر و النواهي و لا تنسوه»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ» الآية. النتق قلع الشيء من أصله، و الظلة هي الغمامة، و ما يستظل بها من نحو السقف، و الباقي ظاهر»، انتهى.

ثم لا يخفى عليك أنّ قلع الجبل من الآيات الدالة على إعجاز موسى عليه السلام و قوم موسى عليه السلام بعد ما سجدوا و أخذوا و أعرضوا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««مِن ظُهُورِهِمْ» بدل من «بَنِيٓ ءَادَمَ» بدل البعض من الكلّ؛ و معنى أخذ ذرّيّاتهم من ظهورهم إخراجهم من أصلابهم، و قوله: «وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ» و قوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ» من باب التمثيل، و المعنيّ في ذلك أنّه نصب لهم الأدلّة على ربوبيّته، و شهدت بها عقولهم التي ركّبها فيهم و جعلها مميّزة بين الضلالة و الهداية، فكأنّه أشهدهم على أنفسهم و قرّرهم و قال لهم: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»، و كأنّهم قالُوا: بَلى أنت ربّنا شَهِدْنا على أنفسنا و أقررنا بربوبيّتك؛ «أَن تَقُولُواْ» مفعول له، أي: نصبنا الأدلّة التي تشهد العقول على صحّتها كراهة «أَن تَقُولُواْ» «يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ» لم ننبّه عليه.

«أَوْ» كراهة أن «أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ» فاقتدينا بهم، لأنّ نصب الأدلّة على التوحيد قائم معهم فلا عذر لهم في الإعراض عنه و الإقبال على تقليد الآباء و الاقتداء بهم، كما لا عذر لآبائهم في الشرك و قد نصبت الأدلّة لهم على التوحيد؛ «أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ» أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك لنا و تقدّمهم فيه»، انتهى.

و في الميزان: «فالانسان في أي منزل من منازل الانسانية نزل يشاهد من نفسه أنّ له ربا يملكه و يدبر أمره، و كيف لا يشاهد ربه و هو يشاهد حاجته الذاتية؟ و كيف يتصور وقوع الشعور بالحاجة من غير شعور بالذي يحتاج إليه؟ فقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» بيان ما أشهد عليه، و قوله: «قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ» اعتراف منهم بوقوع الشهادة و ما شهدوه، و لذا قيل: إنّ الآية تشير إلى ما يشاهده الانسان في

حياته الدنيا أنّه محتاج في جميع جهات حياته من وجوده و ما يتعلق به وجوده من اللوازم و الأحكام، و معنى الآية أنّا خلقنا بني آدم في الأرض و فرقناهم و ميّزنا بعضهم من بعض بالتناسل و التوالد، و أوفقناهم على احتياجهم و مربوبيتهم لنا فاعترفوا بذلك قائلين: بلى شهدنا أنّك ربنا.

و على هذا يكون قولهم: «بَلَىٰ شَهِدْنَآ» من قبيل القول بلسان الحال أو إسناد اللازم القول إلى القائل بالملزوم حيث اعترفوا بحاجاتهم و لزمه الاعتراف بمن يحتاجون إليه، و الفرق بين لسان الحال، و القول يلازم القول: أنّ الأول: انكشاف المعنى عن الشيء لدلالة صفة من صفاته و حال من أحواله عليه سواء شعر به أم لا كما تفصح آثار الديار الخربة عن حال ساكنيها، و كيف لعب الدهر بهم؟ و عدت عادية الأيام عليهم؟

فأسكنت أجراسهم و أخمدت أنفاسهم، و كما يتكلم سيماء البائس المسكين عن فقره و مسكنته و سوء حاله. و الثاني: انكشاف المعنى عن القائل لقوله: بما يستلزمه أو تكلمه بما يدل عليه بالالتزام.

فعلى أحد هذين النوعين من القول أعني القول بلسان الحال و القول بالاستلزام يحمل اعترافهم المحكي بقوله تعالى: «قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ» و الأول أقرب و أنسب فإنه لا يكتفي في مقام الشهادة إلّا بالصريح منها المدلول عليه بالمطابقة دون الالتزام».

إلى أن قال: «فالمتحصل من الآيتين أن الله فصل بين بني آدم بأخذ بعضهم من بعض ثم أشهدهم جميعاً على أنفسهم و أخذ منهم الميثاق بربوبيته فهم ليسوا

بغافلين عن هذا المشهد و ما أخذ منهم الميثاق حتى يحتج كلهم بأنّهم كانوا غافلين عن ذلك لعدم معرفتهم بالربوبية أو يحتج بعضهم بأنّه إنّما أشرك و عصى آباؤهم و هم برآء».

إلى أن قال: «و قد طرح القوم عدة من الروايات تدل على أن الآيتين تدلان على عالم الذر، و أنّ الله أخرج ذرية آدم من ظهره فخرجوا كالذر فأشهدهم على أنفسهم و عرفهم نفسه، و أخذ منهم الميثاق على ربوبيته فتمت بذلك الحجة عليهم يوم القيامة.

و قد ذكروا وجوها في إبطال دلالة الآيتين عليه و طرح الروايات بمخالفتها لظاهر الكتاب.

١ ـ أنّه لا يخلو إمّا أن جعل الله هذه الذرية المستخرجة من صلب آدم عقلاء أو لم يجعلهم كذلك فإن لم يجعلهم عقلاء فلا يصح أن يعرفوا التوحيد، و أن يفهموا خطاب الله، و إنّ جعلهم عقلاء و أخذ منهم الميثاق و بني صحة التكليف على ذلك وجب أن يذكروا ذلك و لا ينسوه لأنّ أخذ الميثاق إنّما تتم الحجة به على المأخوذ منه إذا كان على ذكر منه من غير نسيان كما ينص عليه قوله تعالى: «أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ» و نحن لا نذكر وراء ما نحن عليه من الخلقة الدنيوية الحاضرة شيئاً فليس المراد بالآية إلّا موقف الانسان في الدنيا، و ما يشاهده فيه من حاجته إلى رب يملكه و يدبر أمره، و هو رب كل شيء.

٢ ـ أنّه لا يجوز أن ينسى الجمع الكثير و الجم الغفير من العقلاء أمراً قد كانوا عرفوه ... حتى لا يذكره و لا واحد منهم، و ليس العهد به بأطول من عهد أهل الجنة بحوادث مضت عليهم في الدنيا و هم يذكرون ما وقع عليهم في الدنيا كما

يحكيه في مواضع من كلامه كقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾[1] إلى آخر الآيات».

«و لو جاز النسيان على هؤلاء الجماعة مع هذه الكثرة لجاز أن يكون الله قد كلف خلقه فيما مضى من الزمن ثم أعادهم ليثيبهم أو ليعاقبهم جزاء لأعمالهم في الخلق الأول و قد نسوا ذلك، و لازم ذلك صحة قول التناسخية أن المعاد إنّما هو خروج النفس عن بدنها ثم دخولها في بدن آخر لتجد في الثاني جزاء الأعمال التي عملتها في الأول».

إلى أن قال: «٣ ـ ما أورد على الأخبار الناطقة بأن الله أخذ من صلب آدم ذريته و أخذ منهم الميثاق، بأن الله قال: «أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ» و لم يقل من آدم و قال: «مِن ظُهُورِهِمْ» و لم يقل من ظهره، و قال: «ذُرِّيَّتَهُمْ» و لم يقل: ذريته ثم أخبر بأنه إنّما فعل بهم ذلك لئلا يقولوا يوم القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ أو يقولوا «إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ» الآية، و هذا يقتضي أن يكون لهم آباء مشركون فلا يتناول ظاهر الآية أولاد آدم لصلبه».

و من هنا قال بعضهم: إنّ الآية خاصة ببعض بني آدم غير عامة لجميعهم فإنّها لا تشمل آدم و ولده لصلبه، و جميع المؤمنين»

إلى أن قال: «٤ ـ أن تفسير الآية بعالم الذر ينافي قولهم ـ كما في الآية ـ «إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا» لدلالته على وجود آباء لهم مشركين، و هو ينافي وجود الجميع هناك بوجود واحد جمعي».

---

١. الصافات: ٥١.

٥ ـ ما ذكره بعضهم أنّ الروايات مقبولة مسلمة غير أنّها ليست بتأويل للآية، و الذي تقصه من حديث عالم الذر إنّما هو أمر فعله الله ببني آدم قبل وجودهم في هذه النشأة ليجروا بذلك على الأعراق الكريمة في معرفة ربوبيته كما روي: أنّهم ولدوا على الفطرة، و كما قيل: إنّ نعيم الأطفال في الجنة ثواب إيمانهم بالله في عالم الذر».

إلى أن قال: «٦ ـ أنّ الآية لا صراحة لها فيما تدل عليه الروايات».

إلى أن قال: «هذه جمل ما أوردوه على دلالة الآية و حجية الروايات، و قد زيفها المثبتون لنشاة الذر و هم عامة أهل الحديث و جمع من غيرهم من المفسرين بأجوبة».

إلى أن قال: «فالجواب عن الأول: أنّ نسيان الموقف و خصوصياته لا يضر بتمام الحجة و إنّما المضر نسيان أصل الميثاق و زوال معرفة وحدانية الرب: و هو غير منسي و لا زائل عن النفس و ذلك يكفي في تمام الحجة ألا ترى أنّك إذا أردت أن تأخذ ميثاقاً من زيد فدعوته إليك و أدخلته بيتك، و أجلسته مجلس الكرامة ثم بشرته و أنذرته ما استطعت، و لم تزل به حتى أرضيته فأعطاك العهد و أخذت منه الميثاق فهو مأخوذ بميثاقه ما دام ذاكراً لأصله و إن نسي حضوره عندك و دخوله بيتك و جميع ما جرى بينك و بينه وقت أخذ الميثاق غير أصل العهد.

و الجواب عن الثاني: أنّ الامتناع من تجويز نسيان الجمع الكثير لذلك مجرد استبعاد من غير دليل على الامتناع مضافاً إلى أنّ أصل المعرفة بالربوبية مذكور

غير منسي كما ذكرنا و هو يكفي في تمام الحجة، و أمّا حديث التناسخية فليس الدليل على امتناع التناسخ منحصراً في استحالة نسيان الجماعة الكثيرة ما مضى عليهم في الخلق الأول حتى لو لم يستحل ذلك صح القول بالتناسخ بل لإبطال القول به دليل آخر كما يعلم بالرجوع إلى محله، و بالجملة لا دليل على استحالة نسيان بعض العوالم في بعض آخر.

و الجواب عن الثالث: أنّ الآية غير ساكتة عن إخراج ولد آدم لصلبه من صلبه فإنّ قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ» كاف وحده في الدلالة عليه فإن فرض بني آدم فرض إخراجهم من صلب آدم من غير حاجة إلى مؤونة زائدة، ثم إخراج ذريتهم من ظهورهم بإخراج أولاد الأولاد من صلب الأولاد، و هكذا، و يتحصل منه أنّ الله أخرج أولاد آدم لصلبه من صلبه ثم أولادهم من أصلابهم».

إلى أن قال: «هذا ملخص ما جرى بينهم من البحث في ما استفيد من الآية من حديث عالم الذر إثباتا و نفيا، و اعتراضا و جوابا، و استيفاء التدبر في الآية و الروايات، و التأمل فيما يرومه المثبتون بإثباتهم و يدفعه المنكرون بإنكارهم يوجب توجيه البحث إلى جهة اُخرى غير ما تشاجر فيه الفريقان.

فالذي فهمه المثبتون من الرواية ثم حملوه على الآية، و انتهضوا لإثباته محصله: أنّ الله بعد ما خلق آدم انساناً تاماً سوياً أخرج نطفة التي تكونت في صلبه ـ ثم صارت هي بعينها أولاده الصلبيين ـ إلى الخارج من صلبه ثم أخرج من هذه النطف نطفها التي ستتكوّن أولاداً له صلبيين ففصل بين أجزائها و الأجزاء الأصلية التي اشتقت منها ثم من أجزاء هذه النطف أجزاء اُخرى هي نطفها ثم من

أجزاء الأجزاء أجزاءها و لم يزل حتى أتى آخر جزء مشتق من الأجزاء المتعاقبة في التجزي، و بعبارة اُخرى أخرج نطفة آدم التي هي مادة البشر و وزعها بفصل بعض أجزائه من بعض إلى ما لا يحصى من عدد بني آدم بحذاء كل فرد ما هو نصيبه من أجزاء نطفة آدم، و هي ذرأت منبثة غير محصورة.

ثم جعل الله هذه الذرات المنبثة عند ذلك ـ أو كان قد جعلها قبل ذلك كل ذرة منها انساناً تاماً في انسانيته، هو بعينه الانسان الدنيوي الذي هو جزء المقدم له فالجزء الذي لزيد هناك هو زيد هذا بعينه، و الذي لعمرو هو عمرو هذا بعينه فجعلهم ذوي حياة و عقل و جعل لهم ما يسمعون به و ما يتكلمون به، و ما يضمرون به معاني فيظهرونها أو يكتمونها و عند ذلك عرفهم نفسه فخاطبهم فأجابوه، و أعطوه الإقرار بالربوبية إمّا بموافقة ما في ضميرهم لما في لسانهم أو بمخالفته ذلك.

ثم إنّ الله ردهم بعد أخذ الميثاق إلى مواطنهم من الأصلاب حتى اجتمعوا في صلب آدم و هي على حياتها و معرفتها بالربوبية و إن نسوا ما وراء ذلك مما شاهدوه عند الإشهاد و أخذ الميثاق، و هم بأعيانهم موجودون في الأصلاب حتى يؤذن لهم في الخروج إلى الدنيا فيخرجون و عندهم ما حصلوه في الخلق الأول من معرفة الربوبية، و هي حكمهم بوجود رب لهم من مشاهدة أنفسهم محتاجة إلى من يملكهم و يدبر أمرهم».

إلى أن قال: «هذا ما يفهمه القوم من الخبر و الآية و يرومون إثباته، و هو مما يدفعه الضرورة و ينفيه القرآن و الحديث بلا ريب، و كيف الطريق إلى إثبات أنّ

ذرة من ذرات بدن زيد ـ و هو الجزء الذرّي الذي انتقل من صلب آدم من طريق نطفته إلى ابنه ثم إلى ابن ابنه حتى انتهى إلى زيد ـ هو زيد بعينه، و له إدراك زيد و عقله و ضميره و سمعه و بصره، و هو الذي يتوجه إليه التكليف، و تتم له الحجة و يحمل عليه العهود و المواثيق، و يقع عليه الثواب و العقاب؟ و قد صح بالحجة القاطعة من طريق العقل و النقل أنّ انسانية الانسان بنفسه التي هي أمر وراء المادة حادث بحدوث هذا البدن الدنيوي».

إلى أن قال: «على أنه قد ثبت بالبحث القطعي أنّ هذه العلوم التصديقية البديهية و النظرية منها التصديق بأنّ له رباً يملكه و يدبر أمره تحصل للانسان بعد حصول و التطورات و الجميع تنتهي إلى الإحساسات الظاهرة و الباطنة، و هي تتوقف على وجود التركيب الدنيوي المادي فهو حال العلوم الحصولية التي منها التصديق بأنّ له رباً هو القائم برفع حاجته»، انتهى.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: «وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ» على اليهود خبر».

إلى أن قال: «تقديم المفعول به للاختصاص فكأنّه قيل: و خصّوا أنفسهم بالظّلم لم يتعدّها إلى غيرها؛ «فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى» فهو محمول على اللفظ «فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ» محمول على المعنى»، انتهى.

و في الميزان: «و المعنى: «وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ» أي: على بني إسرائيل أو على الناس خبراً عن أمر عظيم و هو «نَبَأَ» الرجل «ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا» و كشفنا لباطنه عن علائم و آثار إلهية عظام يتنوّر له بها حق الأمر «فَٱنسَلَخَ مِنْهَا» و رفضها بعد لزومها «فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ» فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك.

قوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ» الآية الإخلاد اللزوم على الدوام، و الإخلاد إلى الأرض اللصوق بها و هو كناية عن الميل إلى التمتع بالملاذ الدنيوية و التزامها، و اللهث من الكلب أن يدلع لسانه من العطش.

فقوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا» أي: لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات و قربناه إلينا لأنّ في القرب إلى الله ارتفاعاً عن حضيض هذه الدنيا التي هي بما لها من اشتغال الانسان بنفسها عن الله و آياته أسفل سافلين، و رفعه بتلك الآيات بما أنّها أسباب إلهية ظاهرية تفيد اهتداء من تلبس بها لكنها لا تحتم السعادة للانسان لأنّ تمام تأثيرها في ذلك منوط بمشيئة الله، و الله لا يشاء ذلك لمن أعرض عنه و أقبل إلى غيرها. و هي الحياة الأرضية اللاهية عن الله و دار كرامته»

إلى أن قال: «و قوله: «فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث» أي: إنّه ذو هذه السجية لا يتركها سواء زجرته و منعته أو تركته و « تَحْمِلْ» من الحملة لا من الحمل «ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا» فالتكذيب منهم سجية و هيأة نفسانية خبيثة لازمة فلا تزال آياتنا تتكرر على حواسهم و يتكرر التكذيب بها منهم «فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ» و هو مصدر أي: اقصص قصصاً أو اسم مصدر أي: اقصص القصة «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» فينقادوا للحق و ينتزعوا عن الباطل»، انتهى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

و في جوامع الجامع: «أي: خلقنا «كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ» على أنّ مصيرهم إلى جهنّم بسوء اختيارهم، و هم الذين علم الله أنّه لا لطف لهم، جعلهم في أنّهم لا يتدبّرون أدلّة الله و بيّناته بعقولهم و لا ينظرون إلى مخلوقاته نظر اعتبار و لا يسمعون ما يتلى عليهم من المواعظ و الأذكار. و لا يأتي منهم إلّا أفعال أهل النار

مخلوقين للنار؛ «أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ» في عدم التدبّر و التفكّر و النظر للاعتبار «بَلْ هُمْ أَضَلُّ» فإنّ البهائم إذا زجرت انزجرت و إذا أرشدت إلى طريق اهتدت و هؤلاء لا يهتدون إلى شيء من اُمور الديانات مع ما ركّب فيهم من العقول الدالّة على الرشاد الصارفة عن العناد؛ «أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ» الكاملون في الغفلة؛ «وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ» التى هي أحسن الأسماء، لأنّها تتضمّن معاني حسنة بعضها يرجع إلى صفات ذاته كالعالم و القادر و الحيّ و الإله، و بعضها يرجع إلى صفات فعله كالخالق و الرازق و البارئ و المصوّر، و بعضها تفيد التمجيد و التقديس كالقدّوس و الغني و الواحد، «فَٱدْعُوهُ بِهَا» فسمّوه بتلك الأسماء؛ «وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ» أي: و اُتركوا الذين يعدلون بأسمائه عمّا هي عليه فيسمّون بها أصنامهم، أو يصفونه بما لا يليق به و يسمّونه بما لا يجوز تسميته به؛ «وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ». عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه كان يقول إذا قرأها: هذه لكم و قد أعطى القوم بين أيديكم مثلها «وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ» الآية؛ و عن عليّ عليه السلام قال: «و الذى نفسي بيده لتفترقنّ هذه الاُمّة على ثلاث و سبعين فرقة كلّها في النار إلّا فرقة «وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ» الآية فهذه التى تنجوا». و عن الباقر و الصادق عليهما السلام أنّهما قالا: «نحن هم»، انتهى.

ثم لا يخفى عليك أنّ قوله: «وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ» إلهيّة يدل على نفي الشرك في جميع الاُمور الحسنة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: «الاستدراج من الدرجة بمنزلة الاستصعاد و الاستنزال درجة بعد درجة، و المعنى سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى الهلاك حتّى يقعوا فيه بغتة «مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» ما يراد بهم؛ «وَأُمْلِى لَهُمْ» عطف على «سَنَسْتَدْرِجُهُم» و هو داخل في حكم السّين؛ «إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ» سمّاه كيداً لأنّه شبيه بالكيد لأنّه في الظاهر إحسان و في الحقيقة خذلان؛ «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ» هؤلاء الكفّار فيعلموا «مَا بِصَاحِبِهِم» بمحمّد ﷺ «مِّن جِنَّةٍ» أي: جنون، و كانوا يقولون: «شاعر مجنون».

و عن قتادة أنّ النبيّ ﷺ علا الصفا فدعاهم فخذا فخذا يحذّرهم بأس الله، فقال قائلهم: إنّ صاحبكم هذا لمجنون بات يهوّت إلى الصباح، «أَوَلَمْ يَنظُرُواْ» نظر استدلال «فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» فيما يدلّان عليه من عظم الملك، «وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ» و فيما خلق الله ممّا يقع عليه اسم الشيء من أجناس خلقه التي لا يحصرها العدد، و في «وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ» و لعلّهم يموتون عن قريب فيسارعوا إلى النظر فيما ينجيهم قبل مغافصة الأجل؛ و «أَنْ» هذه مخفّفة من الثقيلة و أصله و أنّه عسى على أنّ الضمير ضمير الشأن؛ «فَبِأَىِّ

حَدِيثٍ بَعْدَهُ» أي: بعد القرآن «يُؤْمِنُونَ» و المعنى لعلّ أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت؟! و بأي حديث أحقّ منه يريدون أن يؤمنوا؟! و قرئ: «وَيَذَرُهُمْ» بالياء و النّون و بالرفع و الجزم، و الرفع على الاستئناف، و الجزم عطف على محلّ «فَلَا هَادِيَ لَهُ»، كأنّه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد و يذرهم»، انتهى.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

و في جوامع الجامع: «و سمّيت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو لأنّها على طولها عند الله كساعة من ساعات الخلق؛ و «أَيَّان» بمعنى متى».

إلى أن قال: «و «مُرْسَىٰهَا» إرساؤها أو وقت إرسائها أي: إثباتها؛ و رسوّ كلّ شيء ثباته و استقراره، و المعنى متى يرسيها الله؟ «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا» أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر أحدا من خلقه ليكون العباد على حذر منه، و ذلك أدعى لهم إلى الطاعة و أزجر عن المعصية، كما أخفي وقت الموت لذلك؛ «لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ» أي: لا تزال خفيّة لا يكشف خفاء علمها إلّا هو وحده إذا جاء بها في وقتها؛ «ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» أي: أهمّ شأن الساعة أهل

السماوات و الأرض من الملائكة و الجنّ و الإنس، فكلّ منهم يودّ أن يتجلى له علمها و شقّ عليه خفاؤها و ثقل عليه، أو ثقلت فيهما لأنّ أهليهما يتوقّعونها و يخافون شدائدها و أهوالها؛ «لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً» أي: فجأة على غفلة منكم؛ و في الحديث: إنّ الساعة تهيج بالناس و الرجل يصلح حوضه و الرجل يسقي ماشيته و الرجل يقوّم سلعته في سوقه و الرجل يخفض ميزانه و يرفعه؛ «كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا» أي: كأنّك عالم بها؛ و أصله كأنّك أحفيت في السؤال عنها حتّى علمتها، أي: استقصيت و ألحفت؛ إلى أن قال: «قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى» هو إظهار العبوديّة أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع و لا دفع ضرر، «إِلَّا مَا شَآءَ» ربّي و مالكي من النفع لي و الدفع عنّي؛ «وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ» لكانت حالي على خلاف ما هي عليه فكنت استكثر المنافع و أجتنب المضارّ و لم أكن غالباً مرّة و مغلوباً أُخرى في الحروب و رابحاً و خاسراً في المتاجر؛ «إِنْ أَنَا۠ إِلَّا» عبد أرسلت بشيراً و نذيراً و ما من شأني علم الغيب»، انتهى.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: «﴿خَلَقَكُم﴾ خطاب لبني آدم، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ و هي نفس آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ و هي حوّاء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه او من جنسها كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئنّ إليها و يأنس بها لأنّ الجنس إلى الجنس أميل و به آنس؛ و ذكّر ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ذهاباً إلى معنى النفس ليتبيّن أنّ المراد بها آدم، و لأنّ الذّكر هو الذي يسكن إلى الأنثى و يتغشّاها؛ و التغشّي كناية عن الجماع و كذلك الغشيان و الإتيان؛ ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ و هو الماء الذي حصل في رحمها خفّ عليها و لم تستثقله؛ ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرّت بالحمل على الخفّة و قامت به و قعدت كما كانت قبل ذلك لم يمنعها الحمل عن شيء من التصرّف؛ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: حان وقت ثقل حملها كما يقال: «أقربت» ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ أي: دعا آدم و حوّاء ربَّهُما و مالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يلتجأ إليه فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ لئن وهبت لنا ولداً سويّاً قد صلح بدنه و برئ؛ و قيل: ولداً ذكراً لأنّ الذكورة من الصلاح و الجودة؛ و الضمير في ﴿ءَاتَيْتَنَا﴾ و ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ لهما و لكلّ من يتناسل من ذرّيّتهما؛ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ما طلباه من الولد الصالح السويّ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه، و كذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: آتى أولادهما، و قد دلّ على ذلك قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير، و معنى إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزّى و عبد مناة و عبد يغوث و ما أشبه ذلك مكان عبد الله و عبد الرّحمن؛ و قرئ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: ذوى شرك و هم الشركاء؛ و في الآية

وجه آخر و هو أن يكون الخطاب لقريش و هم آل قصيّ أي: خَلَقَكُمْ مِن نفسٍ قصيّ و جعل من جنسها زَوْجَها عربيّة قرشيّة، فَلَمَّا آتاهُما ما طلبا من الولد الصالح السويّ «جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا» حيث سمّيا أولادهما الأربعة بعبد مناف و عبد العزّى و عبد قصيّ و عبد الدّار؛ «أَيُشْرِكُونَ مَا لَا» يقدر على خلق شيء «وَهُمْ يُخْلَقُونَ» لأنّ عبدتهم يخلقونهم فهم أعجز من عبدتهم؛ «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» لعبدتهم «نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ» فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث؛ «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ» أي: إلى ما هو هدى أو إلى أن يهدوكم «لَا يَتَّبِعُوكُمْ» إلى مرادكم و طلبتكم و لا يجيبوكم كما يجيبكم الله؛ «سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ» صمتّم عن دعائهم في أنّه لا فلاح معهم»، انتهى.

و الحاصل: إنّ في الآيات الكريمة إشارات و تنبيهات: الأول: إشارة إلى أنّ الارتباط بين الذكر و الأنثى قوى وثيق منشأه هو قصدتهما، الثاني: أنّ الشركة في الخلق منفي لأنّ الأشياء كلّها مخلوقة و لا مجال لخلقة المخلوق إلّا بنحو طولية، الثالث: أنّ حياة الوالد و الوالدة لا تتكامل إلّا بوجود الآخر، الرابع: أنّ بعض ترتيب بعض الأُمور إلى الأُمور مجازاً الوالدين.

و في الميزان:«و القصة ـ كما ترى ـ يمكن أن يراد بها بيان حال الأبوين من نوع الانسان في استيلادهما الولد بالاعتبار العام النوعي فإن كل انسان فإنّه مولود أبويه فالكثرة الانسانية نتيجة أبوين يولدان ولدا كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾[1].

---

١. الحجرات: ١٣.

و الغالب على حال الأبوين و هما يحبان ولدهما و يشفقان عليه أن ينقطعا طبعا إلى الله في أمر ولدهما و إن لم يلتفتا إلى تفصيل انقطاعهما كما ينقطع راكب البحر إلى الله إذا تلاطمت و أخذت أمواجها تلعب به ينقطع إلى ربه و إن لم يعبد رباً قط فإنّما هو حال قلبي يضطر الانسان إليه.

فللأبوين انقطاع إلى ربهما في أمر ولدهما لئن آتيتنا صالحا نرضاه لنكونن من الشاكرين فلما استجاب لهما و آتاهما صالحا جعلا له شركاء و تشبثا في حفظه و تربيته بكل سبب، و لاذا إلى كل كهف.

و يؤيد هذا الوجه قوله: في ذيل الآية: فتعالى الله عن شركهما أو عما أشركا.

على أنّه يعقب هذه الآية بآيات آخر يذم فيها الشرك و يوبخ المشركين بما ظاهره أنّه الشرك بمعنى عبادة غير الله، و حاشا أن يكون صفي الله آدم يعبد غير الله».

إلى أن قال: «و أي: ضلال أضل من عبادة غير الله»، انتهى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««إِنَّ ٱلَّذِينَ» تعبدونهم و تسمّونهم آلهة «مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ» استهزاء بهم، أي: نهاية أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت

ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم؛ «فَٱدْعُوهُمْ» في مهمّاتكم و لصرف الأسواء عنكم؛ ثمّ أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم بقوله: «أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ» ثمّ قال: «قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ» و استعينوا بهم في عداوتى، «ثُمَّ كِيدُونِ»ي جميعاً أنتم و شركاؤكم «فَلَا تُنظِرُونِ» ي فإنّي لا اُبالي بكم؛ و هذا لا يقوله إلّا من هو واثق بعصمة الله؛ و كانوا قد خوّفوه بآلهتهم فأمر أن يجيبهم بذلك»، انتهى.

و في التفسير لكتاب الله المنير: «فإن قيل هذا الإشكال الذي أشكل به الله على هؤلاء الشركاء موجود فيه نفسه فإنّه لا يملك رجلاً و لا يداً و لا عيناً و لا إذناً قلنا صحيح ذلك فان الله يفقد هذه الجهازات من وجهة ماديّة لكنه لا يفقدها من وجهة معنوية فيد الله و رجله قدرته النافذة بمجرد ارادته و بصره و سمعه علمه بما يبصر و يسمع و إمّا أولئك الشركاء فهم فاقدون لتلك الأجهزة مادة و معنى و على فرض وجدانها مادة فإنّها مفقودة فيهم معنى فإنّ العضو المسدود في وجهه الدرب كالعضو الأشل لا فائدة في وجوده، انتهى.

ثم لا يخفى عليک أنّ قوله: «نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ» يدلّ على علوّ مرتبة القرآن.

﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

و في جوامع الجامع: «﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: خذ ما عفاك من أفعال الناس و أخلاقهم و ما يأتي منهم من غير كلفة، و لا تداقّهم؛ و اقبل الميسور منهم، و نحوه قوله: ﴿يَسِّرُوا وَ لَا تُعَسِّرُوا﴾؛ أمر بالتسامح و ترك الاستقصاء في القضاء و الاقتضاء؛ ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ بالمعروف و الجميل من الأفعال و الحميد من الخصال، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ و لا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، و أعرض عمّا يسوؤك منهم، و قيل: إنّه لمّا نزلت الآية سأل جبرءيل، فقال: لا أدري حتّى أسأل، ثمّ أتاه فقال: يا محمّد إنّ الله يأمرك أن تصل من قطعك و تعطي من حرمك و تعفو عمّن ظلمك؛ عن الصادق عليه السلام: أمر الله نبيّه بمكارم الأخلاق و ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها»، انتهى.

و في الميزان: «الأخذ بالشيء هو لزومه أو عدم تركه فأخذ العفو ملازمة الستر على إساءة من أساء إليه، و الإغماض عن حق الانتقام الذي يعطيه العقل الاجتماعي لبعضهم على بعض. هذا بالنسبة إلى إساءة الغير بالإساءة إليه فليس مما يسوغ العفو فيه لأنّه إغراء بالإثم و تضييع لحق الغير بنحو أشد، و إبطال للنواميس الحافظة للاجتماع، و يمنع عنه جميع الآيات الناهية عن الظلم و الإفساد و إعانة الظالمين و الركون إليهم بل جميع الآيات المعطية لأُصول الشرائع و القوانين، و هو ظاهر».

إلى أن قال: «هذا على ما ذكره القوم أن المراد بالعفو ما يسارق المغفرة، و في بعض الروايات الآتية عن الصادق عليه السلام أنّ المراد به الوسط و هو أنسب بالآية و

أجمع للمعني من غير شائبة التكرار الذي يلزم من قوله: «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ» على التفسير الأول.

و قوله: «وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ» و العرف هو ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن و السير الجميلة الجارية بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع و ينكره العقل الاجتماعي من الأعمال النادرة الشاذة، و من المعلوم أن لازم الأمر بمتابعة العرف أن يكون نفس الآمر مؤتمرا بما يأمر به من المتابعة، و من ذلك أن يكون نفس أمره بنحو معروف غير منكر.

و قوله: «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ» أمر آخر بالمداراة معهم، و هو أقرب طريق و أجمله لإبطال نتائج جهلهم و تقليل فساد أعمالهم فإن في مقابلة الجاهل بما يعادل جهله إغراء له بالجهل و الإدامة على الغي و الضلال»، انتهى.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

و في جوامع الجامع: ««وَإِمَّا» ينخسنّك «مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ» نخس في القلب يوسوسك على خلاف ما أمرت به «فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ» و لا تطعه؛ و جعل النزغ نازغاً

مثل قولهم: «جدّ جدّه»؛ و النزغ و النسغ و النخس بمعنى، كأنّه ينخس الانسان حين يغريه على المعاصي؛ و قرئ: «طَيْفٌ» و «طَـٰٓئِفٌ»؛ و هو مصدر قولهم طاف به الخيال يطيف طيفا، أو هو تخفيف طيّف فيعل من طاف يطيف كليّن، أو من طاف يطوف كهيّن؛ و هذا تأكيد و تقرير لما تقدّم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، و أنّ المتّقين هذه عادتهم «إِذَا» أصابهم أدنى لمّة «مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ» ما أمر الله به و نهى عنه فأبصروا الرّشد و دفعوا الوسوسة؛ «وَ» أمّا «إِخْوَٰنُهُمْ» الشياطين الذين ليسوا بمتّقين فإنّ الشياطين «يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ» أي: يكونون مدداً لهم و يزيدونهم فيه؛ و قرئ: «يَمُدُّونَهُمْ» من الإمداد؛ و في الشواذّ يمادّونهم و المعنى يعاونونهم؛ «ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ» أي: لا يمسكون عن إغوائهم حتّى يصرّوا و لا يرجعوا».

إلى أن قال: «و يجوز أن يراد بالإخوان الشياطين و يرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جاريا على من هو له، و الأوّل أوجه لأنّ إخوانهم في مقابلة الذين اتّقوا؛ و جاز جمع الضمير في إخوانهم و الشيطان مفرد لأنّ المراد به الجنس، فهو كقوله: «أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ».

إلى أن قال: «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ» مقترحة «قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا» اجتبى الشيء: إذا جباه لنفسه بمعنى جمعه كقوله: «اجتمعته» أو جبى إليه فاجتباه أي: أخذه؛ و المعنى هلّا اجتمعتها افتعالا من عند نفسك لأنّهم كانوا يقولون: «مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى»، أو هلّاً أخذتها منزلة عليك مقترحة «قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى» و لست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها؛ «هَـٰذَا بَصَآئِرُ» أي: هذا القرآن حجج

بيّنة و دلائل واضحة يعود الناس بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب»، انتهى.

و في الميزان: «قوله تعالى: «خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ» الأخذ بالشيء هو لزومه أو عدم تركه فأخذ العفو ملازمة الستر على إساءة من أساء إليه، و الإغماض عن حق الانتقام الذي يعطيه العقل الاجتماعي لبعضهم على بعض. هذا بالنسبة إلى إساءة الغير بالنسبة إلى نفسه و التضييع لحق شخصه، و أما ما أضيع فيه حق الغير بالإساءة إليه فليس مما يسوغ العفو فيه لأنه إغراء بالإثم و تضييع لحق الغير بنحو أشد، و إبطال للنواميس الحافظة للاجتماع، و يمنع عنه جميع الآيات الناهية عن الظلم و الإفساد و إعانة الظالمين و الركون إليهم.

فالمراد بقوله: «خُذِ العَفْوَ» هو الستر بالعفو فيما يرجع إلى شخصه عليه السلام، و على ذلك كان يسير فقد تقدم في بعض الروايات المتقدمة في أدبه عليه السلام: أنّه لم ينتقم من أحد لنفسه قط.

هذا على ما ذكره القوم أن المراد بالعفو ما يسارق المغفرة، و في بعض الروايات الآتية عن الصادق عليه السلام أنّ المراد به الوسط و هو أنسب بالآية و أجمع للمعنى من غير شائبة التكرار الذي يلزم من قوله: «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَـٰهِلِينَ» على التفسير الأول.

و قوله: «وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ» و العرف هو ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن و السير الجميلة الجارية بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع و ينكره العقل

الاجتماعي من الأعمال النادرة الشاذة، و من المعلوم أنّ لازم الأمر بمتابعة العرف أن يكون نفس الآمر مؤتمراً»، انتهى.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴿٢٠٦﴾﴾

و في جوامع الجامع: «هذا الظاهر يوجب استماع القرآن و الإنصات له وقت قراءته في الصلاة و غير الصلاة؛ و قيل: إنّه في الصلاة خاصّة خلف الإمام الذي يؤتمّ به إذا سمعت قراءته؛ و كان المسلمون يتكلّمون في الصلاة فنزلت، ثمّ صار سنّة في غير الصلاة أن ينصت القوم في المجلس الذي يقرأ فيه القرآن؛ و قيل: معناه «إِذَا» تلى عليكم الرسول القرآن.

وجب عليك الإنصات و الاستماع؛ «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» لترحموا بذلك؛ «وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ» هو عامّ في الأذكار من قراءة القرآن و الدعاء و التسبيح و التهليل و التحميد، «تَضَرُّعًا وَخِيفَةً» أي: متضرّعاً و خائفاً، «وَدُونَ ٱلْجَهْرِ» و متكلّماً كلاماً دون الجهر، لأنّ الإخفاء أدخل في الإخلاص و أبعد من الرياء و أقرب إلى القبول، «بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ» بالغدوات و العشيّات لفضل هذين الوقتين؛ و قيل: المراد به دوام الذكر و اتصاله؛ «وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ» عن ذكر الله اللاهين عنه؛

«إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ» و هم الملائكة، و المعنيّ في «عِندَ» دنوّ المنزلة و الزلفة و القرب من فضل الله و رحمته لتوفّرهم على طاعته؛ «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ» مع جلالة قدرهم و علوّ أمرهم، «وَيُسَبِّحُونَهُۥ» ينزّهونه عمّا لا يليق به «وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ» و يختصّونه بالسّجود و العبادة؛ و هذا أوّل سجدات القرآن»، انتهى.

و في الميزان: «و التضرع من الضراعة و هو التملق بنوع من الخشوع و الخضوع، و الخيفة بناء نوع من الخوف، يناسب ساحة قدسه ففي التضرع معنى الميل إلى المتضرع إليه و الرغبة فيه و التقرب منه»، انتهى.